الدكتور جيفري لانغ

الصراع من أجل الإيمان

انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام



آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com

STRUGGLING TO SURRENDER

AL-Ṣirā‘ min Ajl al-Īmān

Jeffery Lang

سألته ابنته: ((لماذا اعتنقت الإسلام؟))، ففاجأه سؤالها أولاً، ثم رجع إلى نفسه ثانياً، فتذكر أنه سأل أباه من قبل شيئاً كهذا: ((لماذا أنت كاثوليكي))؟وأجابها باختصار ولم يحسم معها الأمر .. لأنه يريد أن يبقي الباب مفتوحاً للحوار .. وقرّر أن يكون الردُّ كاملاً في كتاب حاول فيه أن يكون مخلصاً أميناً صادقاً قدر المستطاع .. ليكتب الجواب بحذافيره .. وليضمِّن الكتاب جميع النقاط الهامة بما فيها الاكتشافات والشكوك والأسئلة التي تُطرَح حول الإسلام، و معها أجوبتها.

وهذه النقاط التي يطرحها الكاتب - وهو عالم في الرياضيات معروف بتميُّزه - لا يدّعي فيها أنه باحث، ولا أنَّ كتابه أحد المراجع المعتمدة في موضوعها .. بل يمكن لنا أن نصف عمله بأنه: (تجربة ملحد آمن) أشبه ما يكون بمذكرات شخصية أو رحلة .. رأى أنها ستلقى اهتماماً عند نمط معين من القراء .

و قد ركّز المؤلف على موضوعات ذات أهمية عامة لمعتنقي الإسلام من أمثاله.

إن لكل مسلم جديد قصة جديدة قديمة .. قديمة قدم الإيمان البشري والحق الخالد .. جديدة بمعطيات هذا العصر، إذ لكل عصر ظروفه ومعطياته.

SROUR ALWANI 2007

ISBN 1-57547-422-0





الصراع

من أجل الإيمان

انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام

الدكتور جفري لانغ

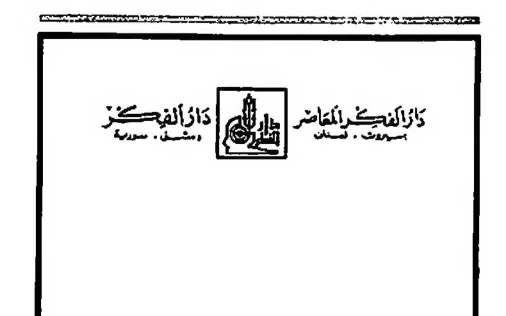
ترجمة

الدكتور منذر العبسي

الصراع

من أجل الإيمان

انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام





ثقافة الاختلاف

2012=1433

دار الفكر - دمشق - برامكة

٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣

٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

الصراع من أجل الإيمان

انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام

د. جفري لانغ

الترجمة: د. منذر العبسي

الرقم الاصطلاحي: ١١٤٠,٠١١

الرقم الدولي: ISBN:1-57547-422-0

الرقم الموضوعي: ٢١٨ (الموضوعات الإسلامية المتنوعة)

٣٦٨ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة السابعة: ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م

ط١ / ١٩٩٨م

الترجمة العربية المرخصة لكتاب:

Struggling to Surrender :

Some Impressions of an American Convert to Islam

Jeffery Lang

Second Revised Edition

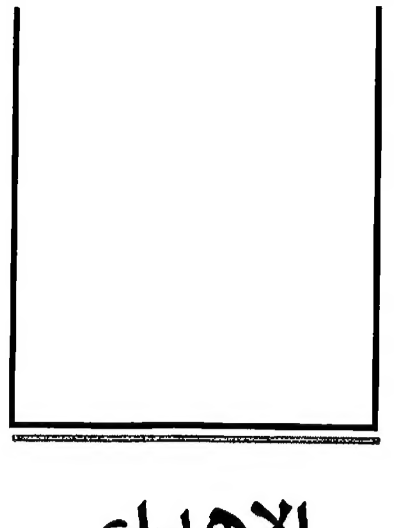
amana publications
Beltsville, Maryland, USA

First Edition
(1415 AH/1994 AC)
Second Revised Edition
(1416 AH/1995 AC)

amana publications
10710 Tucker Street
Beltsvill, Maryland 20705-2223 USA
Tel :(301) 595-5777. Fax :(301) 595-5888

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data

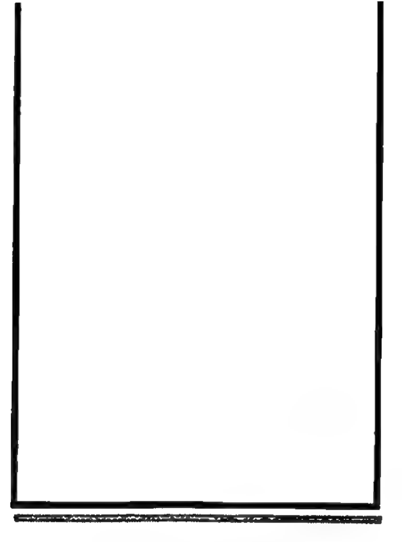
Lang,Jeffrey 1954 (1373)
Struggling to Surrender: Some Impressions of an American Convert to Islam/
by Jeffrey Lang, 2nd Rev. Ed.
P.244 cm 22 1/2*15
Includes bibliographical references
ISBN 0-915957-26-4
1. Lang, Jeffrey.
2. Muslim converts-United States.
I.Title.
Bp170.5.L36 1995
297'.42-dc20
[b] 94-29827
CIP



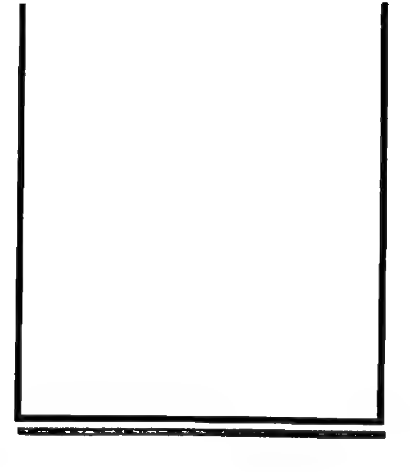
الإهداء

إلى بناتي المؤمنات

جميلة وسارة وفائزة



المحتوى



مقدمة المترجم

سألت الطفلة أباها : لماذا أصبحت مسلماً ياأبي؟ أي شرح لسؤال كهذا يمكن لإدراكها أن يستوعبه! لقد كان هذا الكتاب، وعنوانه بالإنكليزية Struggling to Surrender، ثمرة تلك الإجابة، التي بدأت على شكل ملاحظات يومية. ولكن هذه الملاحظات لم تكن مذكرات عابرة دوّنها الكاتب في مفكرته التي تحتوي سجل ذكرياته، بل كان عصارة فكر نجم عن بحث وتنقيب حثيثين. لقد كان هذا الكتاب استجابة الكاتب لسؤال طفلته، والذي أعاد إلى ذاكرته أيام طفولته عندما سأل والده مرّة لماذا هو كاثوليكي؟

والإنسان مافتئ يبحث عن ضالته المنشودة في الحياة، ولقد صدق رسول الله بقوله: «كل مولود يولد على الفطرة»، ولكن من نعم الله وآلائه على الإنسان أن وهبه الله العقل الذي يقوده غالباً إلى فطرته الأولى التي فطره الله عليها.

والرياضيات إحدى أهمّ العلوم في الماضي والحاضر، فمن نبغ في هذا النوع من العلوم لن يقنع بأقل مما هو منطقي وسليم، وهذا ماحصل للدكتور جيفري لانغ Geffery Lang عندما كان طالباً في المرحلة الثانوية حيث رفض تعليل مدرّس التربية الدينية لإقناع طلابه بمسألة وجود الله. ولكن ثمّة عامل آخر منبعه داخلي سيكولوجي دفع بالمؤلف للبحث عن عقيدة جديدة، وهو عبارة عن (حلم) رآه عدّة مرّات في صباه مفاده أنه يصلي في المسجد مع أنه لم يسبق له أن عرفه ورآه.

إن القرآن والمنطق صنوان لايفترقان، وهذا مايحاول المؤلف تأكيده من خلال هذا الكتاب بعد أن وجد في الإسلام جواباً شافياً لحالة التخبط الشاملة التي مرّ بها خلال فترة إلحاده طيلة أكثر من عشرة أعوام. ولكنَّ حالة الدكتور لانغ تجاوزت حدَّ الإيمان لتطرح قضايا مثيرة جداً في الفكر الإسلامي وعقيدته ومبادئه الاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية؛ ومآآل إليه واقع الأمتين العربية والإسلامية؛ مروراً بالمصاعب التي يواجهها الإنسان الغربي الذي نشأ في وسط ثقافة ثنائية مسيحية-يهودية خلال مرحلة تحوّله إلى حياة ثقافية من طراز لم يألفه من قبل.

ولست في موقع يمكنني من الإجابة عن بعض انطباعات الدكتور لانغ أو التعليق على بعض أقواله أو حتى الاستجابة لبعض دعواته، لكنني أدع ذلك لأهل الاختصاص والبحث من الإخوة العرب أو المسلمين، وأهيب بهم أن يقوموا بذلك لما فيه مصلحة الأمة. وخير ما يمكن لي قوله: إن مهمتي الأساسية تنحصر في نقل هذا الكتاب من الإنكليزية إلى العربية بصدق وأمانة.

والكتاب جريء في آرائه وعميق في طروحاته لتناوله قضايا مصيرية متجددة في الفكر الإسلامي المعاصر، وهو كتاب موضوعي توخّى فيه الكاتب الحق والتمس الصواب معتمداً على ما توفّر لديه من الأدلة والمعلومات، معبراً بذلك على تجربة وانطباعات قد تبدو خاصّة، ولكنها تلخّص مجمل القضايا التي يعاني منها المواطن الغربي من خلال اعتناقه للإسلام وانتقاله إلى المجتمع الإسلامي.

والكتاب هام جداً إذ يقدم طروحات جديدة في الفكر الإسلامي، وينم عن اطلاع واسع على الثقافة الإسلامية التي اكتسبها من خلال قراءاته وزياراته العديدة لبعض الدول الإسلامية.

كما يحمد للمؤلف اعتماده على بعض المصادر الإسلامية وأهمها القرآن الكريم وصحيحا الإمامين البخاري ومسلم.

أما لغة المؤلف فهي معقّدة وصعبة الأسلوب، وربما يعود سبب إخفاقه لطبيعة اختصاصه فهو مدرس لمادة الرياضيات، فتراه يتحّول من الأسلوب الروائي القصصي، بما يحتويه من إثارة، إلى الأسلوبين الفلسفي والعلمي أحياناً أخرى، وغالباً مايكون هذا الانتقال مفاجئاً بلا سابق إنذار بين فقرة وأخرى. وهذا بالتأكيد يدل على ثقافته الرحبة وتوخيه نقل مشاعره وأحاسيسه بصدق تام يصل أحياناً لدرجة العفوية والصراحة التامة.

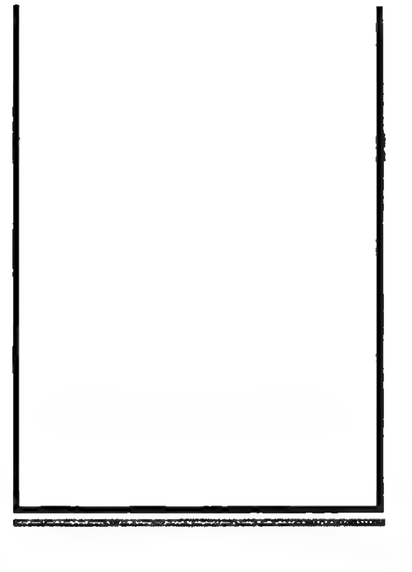
وأخيراً أود أن أتوجه بالشكر الجزيل والحب العميق لكل الزملاء الذين ساهموا في هذه الترجمة ولو بكلمة واحدة، وأخص منهم الأخ والصديق الدكتور أحمد الحوت من قسم اللغة الإنكليزية بجامعة حلب، والدكتور جيرالد ديركس Jerald Dirks من كولورادو بالولايات المتحدة الذي شرح مشكوراً العديد من النقاط التي تتعلق بالفكر الغربي. (والدكتور ديركس اعتنق الإسلام منذ أكثر من خمس سنوات مع زوجته ديبرا Debra). وأتوجه بالشكر العميق للأخ والصديق الدكتور عبد الرحمن دركزللي من قسم اللغة العربية بجامعة حلب الذي تولى المراجعة اللغوية. وكذلك أجد لزاماً علي أن أشكر الأستاذ فاروق بابللي أمين مكتبة كلية الآداب بجامعة حلب الذي يسّر لي المصادر اللازمة لتخريج بعض الأحاديث النبوية الشريفة. وللأستاذ محمد عدنان سالم الشكر والتقدير لاختياره هذا الكتاب وإحاطته بالعناية الفائقة، بدءاً من إخراجه وفق النهج الذي اختطته الدار من ترقيم الآيات وتخريج الأحاديث والتدقيق اللغوي، وانتهاءاً بالإخراج الفني المتميز وينبع ذلك من حرصه الدائم على خدمة الثقافة الإسلامية.

وفي الختام: عليَّ أن أعترف أن الترجمة عمل مضن وشاق ولكنه ممتع جداً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

حلب ١٩٩٧/٥/١٥

المترجم م. ع.



مقدمة المؤلف

إن كل شيء في جمالهن يمكن رده إلى أصول شمال أوروبية؛ من الجوانب الدقيقة لملامحهن، إلى بشرتهن الشقراء، وإلى شعرهن البني الذهبي الغزير. أما أعينهن فهي بنّية داكنة وبراقة وواسعة من النمط الذي قد تجد له مثيلاً في سوق عامة، أو في شوارع إحدى القرى في الجزيرة العربية، ذلك النوع الذي يؤثر فيك ليقيم في ذاكرتك لوقت طويل. سألتني إحداهن وكأنها تستجوبني: لماذا أصبحت مسلماً ياأبي؟ أي جواب تستطيع براءتهن أن تستوعبه؟ حدّقت كل منهن بي بهدوء وكأنه كان لديهن الوقت كله لانتظار الشرح. وربما جئن لا ليفهمن بل ليسألن وليبدأن بعملية فحص الذات. قلت في نفسي: لا، لابد أن سؤالهن كان أكثر خصوصية من ذلك. أتذكر عندما سألت والدي مرّة لماذا أنت كاثوليكي؟ فقد كان سؤالي ليس مجرد فضول، بل نتيجة لبحثي شخصياً عن تعريف لنفسي. وعندما أصبحت مسلماً لم آخذ في حسابي عدد الخيارات التي كنت أضعها، لا لنفسي فقط بل لبناتي الثلاث ومن بعدهن لأولادهن وذريّاتهن طبعاً. لقد أردن أن يعرفن لماذا قمت باتخاذ ذلك القرار؟ لأن هذا القرار قد اتخذته من أجلهن وإخالهن سوف يتوصلن إلى تفهم له في مستقبل حياتهن.

ولقد قال النبي محمد عن ابنته الصغرى مرة: « فاطمة جزء مني وأنا جزء منها. إن سعادتها سعادتي وآلامها آلامي»[1] .

إن الأب يجد طمأنينة خاصة في علاقته مع بناته. فمن خلال طبيعتهن الأنثوية، يستطيع الأب أن يصل إلى ما وراء حدود جنسه، وتفتح أمامه عوالم من المشاعر والعواطف أكبر مما تسمح به حياته العامة، فهن يكمّلنه ويعدن إليه توازنه، ليس إناثاً فقط بل أولاداً، لأنه يرى فيهن إكمالاً لشخصيته، فالسؤال: لماذا أصبحت مسلماً؟ له أهميته الخاصة لدي عندما يصدر عن بناتي، ذلك أنه يعود في الأصل لي. إنه صوتي المكمّل في حقيقته النقية الطاهرة الذي يستنطقني لقول الحق.

شرحت لهن الإجابة باختصار قدر المستطاع، ولكن لم أحسم الأمر معهنّ، ذلك أني أردت أن أبقي الباب مفتوحاً لمزيد من تساؤلاتهن، ولكن سؤالهن هذا هو الذي دفعني لكتابة هذا الكتاب الذي بدأ على شكل ملاحظات ناجمة عن التفكير بسؤالهن كل ليلة.

فإذا لم تكن مخلصاً مع بناتك فإنك - إذن - تكذب على نفسك، ولذلك السبب حاولت جاهداً أن أنقل هذا الكتاب بإخلاص وأمانة قدر المستطاع، أي: لأنقله بحذافيره كما اعتدنا أن نقول، هذا يعني أنه كان عليَّ أن أضمن الكتاب النقاط الشديدة الإشراق والنقاط القليلة الإشراق - في المجتمع الإسلامي-والاكتشافات والشكوك، والأجوبة والأسئلة حول الإسلام. وعلى هذا، فإن هذا الكتاب ليس كتاباً مرجعياً عن الإسلام في الولايات المتحدة. فقد عرفت بناتي جميعاً أن والدهن ليس باحثاً في الإسلام، وهذا مايستطيع أن يدركه علماء المسلمين بسهولة أيضاً، لذلك فإني

---

(١) « فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني » والحديث أخرجه من حديث المسور بن مخرمة البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب فاطمة عليها السلام، رقم(٣٥٥٦).

أقدم هذه الملاحظة تنبيهاً لأولئك الذين لديهم معرفة أقل بالدين الإسلامي. وأما من يريد أن يفهم الإسلام فيمكن لي أن أقترح له (سلسلة جمال بدوي) الرائعة لتعليم الإسلام.

وخير مايمكن أن يوصف به هذا العمل الذي بين أيديكم هو أنه تجربتي في الإسلام واستجابتي وتفكيري بذلك، فهو أشبه بمذكرات أو رحلة شخصية والتي في الأغلب سوف تلقى اهتماماً عند نمط معين من القراء، وبسبب أنني لم أستطع أن أضمنه كل فكرة أو موضوع شخصي أعتقد به، فقد قيدت نفسي بمواضيع ذات أهمية عامة لمعتنقي الإسلام، كما كنت أقرأ في المجلات والجرائد الإسلامية في أمريكا، إضافة إلى ذلك، فقد اعتمدت على اتصالات شخصية مع بعض الإخوة الذين اعتنقوا الإسلام مثلي، وستجدون أسماء بعض هؤلاء خلال صفحات هذا الكتاب.

ولقد أثارت اهتمامي بعض المواضيع (مثل دلائل القرآن والعلم) من خلال تداعي الأفكار، في حين كانت مواضيع أخرى (وخاصة المواضيع التي تتعلق بالرحمة الإلهية والعدالة) داخلة في صلب بحثي عن الروحانية. والفصلان الأول والثاني هما إحساساتي تجاه إسلامي

الفصل الأول: يلقي الضوء على قرار الاعتناق

وأما الثاني: فهو دور القرآن في اتخاذي ذلك القرار.

وعلى الرغم من أني حاولت جهدي أن أفسر هذه المواضيع إلا أنه مايزال هناك الكثير منها مما يمكن اعتباره لغزاً لي. والفصول الثلاثة الأخيرة، والتي تشكل الجزء الأكبر من هذا الكتاب، هي في الحقيقة ملحقات لهذه المواضيع، وهي تعالج الصعوبات التي واجهتها بعد اعتناقي للإسلام وتصور صراعي للانخراط في حياة الجالية الإسلامية.

وغالباً مايكون المعتنق الأمريكي للإسلام مسيحياً أو يهودياً في الأصل، وهذا يعني أنه قد نبذ تراثاً نبوياً ونسخةً من التاريخ معيّنين في سبيل تراث نبوي آخر ونسخة من التاريخ وثيقة الصلة بنسخته. ومادام أن هذا يستدعي التمرد على التراث الديني السابق فليس من المستغرب أن نجد المعتنقين شكاكين على الغالب بالتراث الإسلامي، وخاصة عندما يتعاملون مع الأقوال والروايات المتعلقة بالنبي محمد، إن الحديث والبحث الإسلامي والمشاعر العامة والتاريخ والنقد الغربي جميعها تتصادم، لتخلق مايبدو أنه فوضى متضاربة، وهذا هو موضوع الفصل الثالث.

إن التجمعات الإسلامية في الولايات المتحدة تتألف من أنماط هائلة من الثقافات والعادات، وهي تملك في معظمها قاعدة دينية معيّنة، وغالبية هؤلاء ينتمون إلى مجتمعات تقليدية محافظة جداً، وأول صدمة يلقونها عندما تطأ أقدامهم هذا البلد هي الحيرة والخوف، شأنهم في ذلك شأن جميع المهاجرين من قبلهم. ويمر المعتنق الجديد للإسلام بهذه التجربة الأليمة، ذلك أنه يجد نفسه في وضع لم يألفه من قبل، وهو أن يكون وحيداً ضمن الجالية الدينية الإسلامية. وهذا الجانب من تحولي للإسلام قد تمت مناقشته في الفصل الرابع، مع تركيز خاص على الأدوار المتغيرة لكل من الجنسين (الذكور والإناث). و أما الفصل الخامس، وهو الأخير، فيعالج بعض المصاعب التي يواجهها المرء إذا أصبح مسلماً في أسرة ومجتمع غير مسلمين.

ولقد دخلت في صراع مع نفسي فيما إن كان عليّ أن أنشر هذا الكتاب أم لا، و لم يكن ترددي ناجماً من خشية أن يسبب هذا الكتاب أي جدل، بل لأنه ذو طبيعة شخصية جداً. وهو من دون أدنى شك تفسير إنسان أمريكي للإسلام، إذ كيف يمكن أن يكون غير ذلك؟ إني لا أستطيع (وليس من المتوقع لي أن أستطيع) تخليص وتحرير نفسي من الثمانية والعشرين عاماً الأولى من حياتي قبل أن أعتنق الإسلام. ومازلت

أتبع حتى الآن خطة كنت أتبعها عندما كنت ملحداً؛ وهي أنني أدرس ما يقوله الباحثون عن دين ما سواء أكان هؤلاء الباحثون من داخل هذا الدين أم من خارجه. فالداخلون في دين ما من الباحثين غالباً مايغفلون أو ينحُّون جانباً المواضيع الحساسة في هذا الدين في حين نجد تحاملاً عليه من بعض الباحثين الذين لا ينتمون إليه. ومن خلال الموازنة والمقابلة الحذرة فإني آمل أن أوازن مابين هذين الاتجاهين. وعلى هذا فإن فهمي للإسلام متأثر إلى حد كبير بآراء الباحثين من غير المسلمين.

ومع ذلك فإن الإخوة المسلمين هم الذين شجعوني ودفعوني لطباعة هذا الكتاب. فلقد ذكروني بأهمية رأيي الخاص، وهو أنه يجب تحري المواضيع والمسائل العديدة التي تواجه المسلمين الأمريكيين حيث إن وحدة المجتمع هي في خطر الآن. فهذا الكتاب، إذن، يمثل مساهمتي الصغيرة في سبيل تطور الإسلام في الولايات المتحدة،

وكما دأب الكتاب المسلمون القدامى على القول، فإني أجعل خير ما في هذا الكتاب خالصاً لوجه الله الكريم، وأرجو أن يغفر لي ماقد ورد فيه من زلل.

ملاحظة: من التقاليد العريقة والراسخة بين المسلمين هو أن يتبعوا ذكر اسم النبي ببركة القول: صلى الله عليه وسلم أو عليه السلام. ومع الزمن فقد تبنى الكتاب هذا التقليد في كتاباتهم على الرغم من أن أقدم المخطوطات الموجودة تظهر أن هذا التقليد لم يكن متبعاً على نحو صارم بين كتاب القرنين الأول والثاني الهجريين. ومن أجل تجنب أي انقطاع في تسلسل وانسياب الأفكار، وخاصة للغرباء من غير المسلمين، فإنني لم أتبع هذا العرف التقليدي. وهذه مناسبة لتذكير القراء المسلمين بهذا التقليد.

الفصل الأول

النطق بالشهادة

قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ [طه۲۰/۱۲۰] [1].

لقد كانت غرفة صغيرة ليس فيها أثاث ما عدا سجادة نموذجية، ألوانها الأساسية الأحمر والأبيض كانت تغطي أرض تلك الغرفة، و لم يكن هناك أي شيء من الزينة على جدرانها الرمادية-البيضاء. وكانت هناك نافذة صغيرة مواجهة لنا أشبه بنوافذ القبو، تملأ الغرفة بالنور الساطع. كنا جميعاً في صفوف؛ وكنت أنا في الصف الثالث. وكنا جميعاً رجالاً من دون النساء جالسين على أقدامنا مواجهين للنافذة.

كنت أشعر بالغربة إذ لم أكن أعرف أحداً منهم. ربما كنت في بلد آخر، وكنا ننحني على نحو منتظم ووجوهنا تقابل الأرض. وكان الجو هادئاً وساكناً، وكأن الأصوات جميعاً قد توقفت. وسرعان ما كنا نعود للجلوس على أقدامنا. وعندما نظرت إلى الأمام أدركت أن شخصاً ما يؤمّنا، وكان بعيداً عني من جهة الشمال وفي الوسط تحت النافذة تماماً. كان يقف بمفرده، وكنت ألمح على نحو بسيط ظهره. وكان

(۱) يقول المؤلف إنه اعتمد باستشهاده بالآيات القرآنية على نسخة مترجمة وهي نسخة عبد الله يوسف علي Abdullah Yousuf Ali: *The Holy Qur'an: Text, Translation, and Commentary* *القرآن الكريم: النص والترجمة والتعليق* (Brentwood, Maryland: Amana, 1992)، وهو يضع في نهاية كل آية رقم السورة ورقم الآية أو الآيات المقتبسة. وقد آثرت أن ألتزم بهذا الترتيب [المترجم].

يرتدي عباءة بيضاء طويلة وعلى رأسه لفحة بيضاء عليها رسم أحمر. وفي تلك الأثناء كنت أستيقظ من نومي.

رأيت هذا الحلم القصير نفسه عدة مرات خلال الأعوام العشرة التالية تقريباً. وفي البدء لم يكن ذلك ليعني لي أي شيء على الإطلاق، ولكنني أصبحت أعتقد فيما بعد أن لذلك دلالة دينية. وعلى الرغم من أنّ مقربين لي رأوا هذا الحلم مرة أو مرتين على الأقل، إلا أننا لم نكترث به كثيراً. و لم يكن هذا الحلم ليزعجني، بل في الحقيقة كنت أشعر بارتياح غريب عندما كنت أصحو من نومي إثره.

لقد تصادف الحلم الأول مع إقصائي من دروس التربية الدينية إما قبل ذلك أو بعده بقليل على ما أذكر. وقبل ذلك الفصل الدراسي لم يكن لدي أيّ شكوك حول معتقدي، فلقد عُمّدت وأنشئت، وأرسلت إلى المدرسة، ومنحت تثبيتاً دينياً على أنني كاثوليكي. فقد كانت الكاثوليكية "الديانة الوحيدة الصحيحة" – على الأقل في جنوب ولاية كونّيكتيكت **Connecticut**. وباستثناء عدد قليل من اليهود، فقد كان أصدقائي وجيراني وأقاربي وأصحابي جميعاً من الكاثوليك. ولكنّ أمراً واحداً قادني إلى شيء آخر.

لقد كانت بداية سنتي النهائية في مدرسة نوتردام الثانوية للذكور عندما قرر مدرس التربية الدينية، وهو كاهن متمرسٌ حقاً، أن يقنعنا بأن الله موجود حقاً؛ وهكذا فقد حاول أن يثبت ذلك من خلال مناقشته للأسباب الأولى للوجود. ولقد كنت طالباً مجداً في الرياضيات، وكنت من المولعين بالمنطق الرياضي، وهكذا، لم أستطع كبح الجماح من أن أتحدى نتائجه. وكانت فكرتي ببساطة تتمثل في أنّ الشرح ليس برهاناً كافياً، وأن وجود الكائن الأسمى، إن جازت التسمية، قد يفسّر وجودنا وإدراكاتنا الأعمق للذنب وللخطأ والصواب وما إلى ذلك؛ ولكن لا بد من وجود شروحات

بديلة كتلك التي نتعلمها من العلم، على الرغم من أني يجب أن أعترف أن هذه الشروحات قد لا تكون كافية. فعلى حين ما تزال الديانات تتخبط في تعارضاتها مع العقل، فإن العلم يبدو وكأنه يتقدم بثبات نحو إيجاد حلول غير منقوصة. فمناقشة علم الوجود ليست برهاناً كافياً على وجود الله طالما أننا نستطيع القول بأن للاعتقاد الكبير بوجود الله جذوره في الخوف والجهل الكبيرين. وهذه هي حالة الإنسان العصري خاصة أولئك الذين يعملون في الأكاديميات.

وخلال الأسابيع القليلة التي تلت ذلك كنا نتناقش في حلقات، وكنت أحظى بتأييد العديد من زملاء صفي لوجهة نظري. وعندما وصلنا إلى طريق مسدود محرج نصحنا المدرس(الكاهن) أنا وزملائي الذين شاطروني الرأي، بأن نغادر الصّف، وألا نعود إليه حتى نغير وجهة نظرنا، وإلا فإنه سوف يضع لنا في المقرر علامة الرسوب.

وبعد عدة ليالٍ تلت وعلى العشاء فكّرت أنه من الأفضل لي أن أشرح لوالديَّ لماذا سوف أرسب في مقرر التربية الدينية. صعقت والدتي للخبر، وغضب والدي فصرخ بي قائلاً: «كيف لا يمكنك أن تؤمن با لله؟» ثم إنه جاءني بإحدى نبوءاته التي كان يؤمن أنها سوف تتحقق، و قال لي: «سوف يذلّك ا لله يا جيفري! ولسوف يخزيك لدرجة تتمنى فيها أنك لم تخلق أبداً!» ولكن لماذا؟ هل لمجرّد أني لم أستطع الإجابة عن أسئلتي؟

وهكذا فقد أصبحت ملحداً في نظر العائلة والأصدقاء وزملاء الصف. و الغريب عند هذه المرحلة من الزمن هو أنني لم أتخلّ عن إيماني با لله، وكل ما في الأمر هو أنني كنت فقط أتابع خط نقاش لا لشيء إلا لمجرد النقاش. فلم أصرح قط أنني كفرت با لله، ولكن ما قلته حقاً هو أني وجدت البراهين التي قدمت في درس التربية الدينية

غير ملائمة. ومهما يكن فإني لم أرفض هذا اللقب الجديد لأن المشاحنة تركت أثراً كبيراً فيّ. ثم أدركت أني لست متأكداً مما كنت أؤمن به أو لماذا.

وخلال الأشهر القادمة كنت أتحدى في ذهني مسألة وجود الله، و لقد كان من روح عصرنا أن نشك بمؤسساتنا حتى الدينية منها، فقد كنا جيلاً تربّى على عدم الثقة، ففي مدارسنا الابتدائية كنا ندرّب جسدياً على الغارات الجوية، وخلال ذلك كنا نهرع للقبو خشية الغبار الذري المتساقط. ولقد كانت أقبيتنا مزودة بالمؤن تحسباً لمثل هذه الطوارئ. وأبطالنا، الأخوان كنـدي Kennedy brothers ومارتن لوثر كنغ Martin Luther king,Jr. ، تم اغتيالهم والاستعاضة عنهم بقادة كان من شأنهم في النهاية أن يرغموا على الذهاب إلى المنفى السياسي والإهانة. وكان هناك مشكلات عرقية وحرائق ونهب وسلب خاصة في المدن الصناعية كمدينتي. وكنا نشاهد الضحايا على شاشة التلفاز كل مساء، ولقد كان هناك خوف دائم من أن أحداً ما سوف يؤذيك، وخوف من شيء ما لم تكن لتعلمه. إن فكرة أن الله خلق الدنيا على هذه الحالة، وفوق ذلك سوف يعاقبنا في النهاية جميعاً ما عدا نفراً قليلاً منا، كانت أكثر رعباً وسيطرةً على عقولنا من فكرة ألا نؤمن بالله على الإطلاق. وهكذا فقد أصبحت ملحداً في سن الثامنة عشرة من عمري.

في البدء شعرت بالحرية لأن رؤيتي الجديدة حررتني من الفوبيا (الرهاب، الهلع) ومن أن أحداً ما كان يعبث بأفكاري وأوهامي ويلعنني، فقد كنت حراً لأعيش حياتي الخاصة بي وحدي؛ و لم يكن لديَّ ما يدعو للقلق من أجل إرضاء أهواء قوة فوق بشرية. وكنت فخوراً إلى حد ما بأنني كنت أمتلك الجرأة لتحمّل مسؤولية وجودي وأملك زمام نفسي. شعرت بالأمان فيما يختص بمشاعري وبمداركي، وكانت رغباتي طوع إرادتي بعيدة عن سيطرة أو مشاركة الكائن الأسمى أو أي شخص آخر. لقد

كنت مركز عالمي الخاص بي وخالقه ومغذيه ومنظمه، وأنا الذي كنت أقرر لنفسي ما كان خيراً أو شراً، صواباً أو خطأً. لقد أصبحت إلـه نفسي ومنقذها. ولكن هذا لا يعني أنني أطلقت العنان لنفسي أو أصبحت جشعاً تماماً، بل على العكس أصبحت أؤمن أكثر من أيّ وقت مضى بالمشاركة و الرعاية و الاهتمام. و لم يكن الدافع لإيماني لعملي هذا هو الحصول على أي ثواب مستقبلي، بل كل ما في الأمر أني كنت أشعر بحب إنساني جوهري حقيقي. إننا نؤمن بالحب على أنه أسمى المشاعر الإنسانية. ، وسواء أكان هذا الحب ناجماً عن التطور أو المصادفة أو منفعة بيولوجية بيئية فإن ذلك لا يهم كثيراً، لأن الحب هو شيء حقيقي كأي شيء آخر، وهو الذي يجعلنا سعداء. لأنك عندما تمنح الحب فإنك في المقابل تتلقى الخير في الحال.

إن السفر بعيداً للالتحاق بالجامعة ليس هو الشيء عينه عندما تغادر الوطن، هذا يعني ببساطة أنك لن تعيش مع والديك بعد الآن. إنها مرحلة التحول من التبعية إلى الاستقلال، الأمر الذي يزودك بالزمان والمكان الملائمين بحيث تكون بمأمن لكي تختبر آراءك. و سرعان ما تعلمت أن لا أحد يعرف الوحدة كالملحد. فعندما يشعر الشخص العادي بالعزلة فإنه يستطيع أن يناجي، من خلال أعماق روحه، الواحد الأحد الذي يعرفه ويكون بمقدوره أن يشعر بالاستجابة. ولكن الملحد لا يستطيع أن يسمح لنفسه بتلك النعمة، لأن عليه أن يسحق هذا الدافع، ويذكّر نفسه بسخفها. لأن الملحد يكون إله عالمه الخاص به، ولكنه عالم صغير جداً، لأن حدود هذا العالم قد حددتها إدراكاته، وهذه الحدود تكون دوماً في تناقص مستمر.

إن الرجل المؤمن يمتلك إيماناً بأشياء تفوق إحساسه أو إدراكه، في حين أن الملحد لا يستطيع حتى الثقة بتلك الأشياء. وعنده ليس هناك من شيء حقيقي تقريباً ولا حتى الحقيقة ذاتها. إن مفاهيم الملحد عن المحبة والرحمة والعدالة هي في تحوّل وتبدّل حسب

ميوله ونزواته مع الشعور بنفسه وبمن حوله أنهم جميعاً ضحايا لمسألة عدم الاستقرار. وتراه منهمكاً في نفسه يحاول الحفاظ على وحدتها واتزانها، وبالتالي يسعى لجعلها ذات معنىً. وفي الوقت ذاته عليه أن يقبل بالقوى الخارجية التي تنافس قواه، تلك هي العلاقات الإنسانية التي تتطفل على عالمه، ولكنه لا يستطيع كبح جماحها. فالملحد يحتاج للبساطة والعزلة والانفراد، ولكنه يحتاج أيضاً أن يمدّ نفسه فيما وراء نفسه.

إننا جميعاً نصبو للخلود. وبمقدور المؤمن أن يتخيل السبيل لتحقيق ذلك، أما الملحد فإن عليه أن يفكر بالحل الآن، وذلك ربما عن طريق الزواج وإنشاء أسرة، أو تأليف كتاب أو إنجاز اختراع ما، أو القيام بمأثرة ما أو عمل بطولي أو رومانسي، بحيث يعيش في أذهان الآخرين. إن هدف الملحد الأسمى ليس الذهاب للجنّة، بل أن يذكره الناس، ومع ذلك عليّ أن أسأل: ما الفرق بين هذا وذاك في النهاية؟

إن الإنسان يطمح للكمال، وهذا مطلب ذاتي داخلي يحثنا دوماً على العمل. هل سأصبح رياضياً عظيماً أو عدّاءً عالمياً أو طباخاً أو إنسانياً أو والداً يوماً ما؟ فالملحد لا شيء يشبع حاجاته، لأن عقيدته تخبره أنه ليس هناك شيء كامل أو شيء مطلق. وليس أجمل من الاستقرار، ولذا فقد اتبعت النماذج الاجتماعية المجرّبة، لا لأني أقدرها عالياً بل لأنها فعالة ومفيدة. وهكذا فقد تزوجت بعد أن أنهيت دراستي في جامعة كونيكتيكت. ثم إني رحلت وزوجتي إلى لافاييت الغربية (إنديانا) West Lafayette لكي نتابع دراستنا في جامعة بوردو Purdue University . وعلى الرغم من أنّا كنا حديثي عهد بالزواج إلا أننا اتفقنا على أن هذا الزواج ليس التزاماً دائماً، بل بمقدورنا أن ننهيه بمودّة إذا ما بدت لأحدنا أو كلينا فرص أفضل. أما في ذلك الوقت، فقد كان الزواج ذا منافع عملية. من المؤكد أنّا كنا أصدقاء، لكن دون عواطف، وكما كان متوقعاً فقد افترقنا بعد ثلاثة أعوام على علاقات طيبة.

ولدهشتي حزنت كثيراً، ليس لأنني فقدت حب حياتي، أو أحداً ما لا أستطيع العيش من دونه، إنما كنت أخشى أن أواجه نفسي وحيداً ثانية. ولكن عندما فكّرت بذلك ملياً أدركت أني كنت دوماً وحيداً سواء أكنت متزوجاً أم عَزَباً. فخلال ثلاث سنوات من الزواج، كنت دوماً أترقب مجيء هذه اللحظة. ولقد كانت زوجتي زوجة رائعة، لكن لم يكن هناك متسع لأي شخص آخر في حياتي. ففي اليوم الذي غادرتْ فيه-وهي التي أثارت موضوع الطلاق- أدركت بجدية قاسية أن عالمي قد أصبح سجناً أو مكاناً لأختبئ فيه. ولكنني لم أكن لأعلم مم كنت أحاول الهرب. حقاً إنه ليس من السهل أبداً أن تصبح إلهاً.

في تلك المرحلة شعرت بحاجة ماسّة لأن أثور، أردت أن أكون كل شيء لكل الناس، ونظرة الناس إلي كانت تعني لي الشيء الكثير، على الرغم من أني كنت أصرّ أنها لا تعني شيئاً. إننا جميعاً لدينا الرغبة لكي نعلّل وجودنا، وإذا لم يكن هناك من شخص آخر يقدر حياتي إذن ما قيمة هذه الحياة؟ وإذا لم يكن لهذه الحياة أي قيمة فلم الحياة إذن؟ ولكن على الأقل كنت مولعاً بالرياضيات، ولذا فقد عزمت على إنهاء الدراسة. وخلال العامين التاليين، كان لي بعض العلاقات العاطفية وهذه كانت مدة كافية لأختبر الحب، ولكن ليست كافية كي تؤدي إلى ارتباط رسمي(زواج). ثم إن شيئاً غريباً جداً حصل لي.

كنت قد دافعت لتوّي عن أطروحة الدكتوراه، وكنت أنتظر خارج الغرفة بينما كانت اللجنة الفاحصة مجتمعة لاتخاذ القرار. لقد أمضيت خمس سنوات من العمل الدؤوب في موضوعي، وهاأنذا أنتظر نتيجة هذا العمل على أحر من الجمر. وفجأة فتح أحدهم الباب ليحييني بالكلمات: "مبارك يا دكتور لانغ لقد نجحت". ولكن بينما كنت عائداً إلى شقتي بدأت فرحتي بالتلاشي، وكنت كلما حاولت استرجاعها غمرني

مزيد من الشعور بالسوداوية وخيبة الأمل والمرارة. لقد تذكرت كيف نكبر على العيد (عيد الميلاد)، عندما نحاول جاهدين أن نسترجع إثارات الطفولة، ولكننا لا نستطيع ذلك لأننا لم نعد أطفالاً. اعتقدت أن الحياة قد تكون عبارة عن سلسلة من الإعلانات التلفزيونية، وربما يكون هذا هو السبب الذي يجعلنا توّاقين للأشياء التافهة جداً. إننا نخدع أنفسنا عندما نعتقد أن غاياتنا في الحياة تحتوي على بعض القيم الحقيقية، وفي الحقيقة ما نحن سوى نوع آخر من الحيوانات تحاول أن تعيش. هل هذا هو كل ما في الحياة، نجاح مصطنع يليه الآخر وهكذا.؟ بدأت أفكر بكل شيء ثانية.

عندما تخرجت من الجامعة كان الوقت كانون الأول ١٩٨١، وبقيت في الكلية محاضراً أدِّرس لفصل آخر، بينما كنت أبحث عن عمل. فلقد خلقت مدينة لافاييت الغربية للتأمل، ولم يكن هناك شيء آخر يمكن عمله فيها. لقد كانت مدينة طلابية صغيرة، تصبح خاوية عندما يغادرها الطلاب لقضاء إجازاتهم. وكان فيها العديد من المطاعم تقدم الطعام السريع، وداران للسينما وبعض الكنائس، وثلاثة أماكن لغسيل الملابس، وبعض مخازن البقالة الكبيرة. كانت مدينة أشبه بالقرية تحيط بها المزارع، وكنت أسير عدة أميال على طول طرقاتها عبر الثلج العميق، ولقد كان ذلك الشتاء أبرد شتاء صادفته في حياتي. لقد كان بحر الثلج هادئاً على نحو جذّاب عندما بدأت أمحّص أفكاري. لم أستطع نسيان تلك الفتاة الشابة التي جاءت إلى مكتبي تطلب المساعدة. وعندما فتحت الباب وجدت قبالتي هذه المرأة الغامضة التي بدت وكأنها من الشرق الأوسط. كانت مغطاة بالثياب السود بشكل كامل من رأسها إلى قدمها على الرغم من أن وجهها ويديها كانت مكشوفة. لقد طلبت مساعدتي في الجانب النظري من حقل دراستها، وقالت: إنّ أستاذها أرشدها إلي.

وافقت على مساعدتها، وسرعان ما تحطمت الصورة التي كنت قد كونتها مسبقاً

عن النساء العربيات. لقد كانت طالبة دراسات عليا في الرياضيات، ولقد افترضت أنها مادامت تشاطر مكتباً كمكتبي مع معيدين آخرين فلا بد أنها معيدة بدورها. ولكني لم أستطع تخيلها وهي تقف بتلك الملابس أمام صف من سكان إنديانا الأصليين ذوي الأصول الجرمانية، ولكن في الوقت نفسه كان لها وقار واتزان جعلاني أشعر بالخجل من نفسي بقربها. وجدت نفسي محاولاً عدم التحديق بها على الرغم من أن وجهها كان يشع بالجمال و البراءة. وعلى الرغم من أني أرشدتها في دروسها مرتين فقط إلا أني شعرت بالحاجة للتحدث معها ثانيةً، و لم أكن متأكداً إن كان شعوري فضولاً أم افتتاناً ربما الاثنين معاً. لقد كان في داخلها قوة لطيفة وجمال أردت التعرف عليها بشكل أكبر، أصبح عندي الآن اهتمام كبير في ديانات أخرى. وبدأت أكوّن صداقات حميمة مع أناس غرباء من مصر والهند والباكستان واليابان والصين، و حتى تلك اللحظة كنت دوماً أعتبر المنظر العام للأنظمة الدينية المختلفة دليلاً إضافياً ضد مسألة التوحيد. ولكنني وجدت أن المعتقدات الأساسية متشابهة إلى حد كبير، وأما الاختلاف فإنه يقع فقط في الرموز و الطقوس والمعبود، فكّرت أنه ربما كان هناك روح أو طاقةٌ أو قوة خارقةٌ تتخلل وجودنا. ومن الطبيعي أن رموز التعبير عن ذلك الإدراك تحددها الثقافة التي ينشأ المرء فيها، وهذا بدوره يؤدي إلى تباين الآراء. مادمنا نشكل ونتشكّل حسب ثقافتنا، لذا فكّرت أنه ربما كان من الأفضل لي أن أعود إلى جذوري الدينية.

وخلال الصيف عدت إلى وطني كونيكتيكت لقضاء ستة أسابيع. ولقد سرّت أمي كثيراً، على الرغم من أنها لم تندهش تماماً، عندما طلبتُ أن أرافقها وأبي للصلاة في الكنيسة يوم الأحد. لقد كان هناك إشارات كافية في رسائلي ومكالماتي الهاتفية لهما إلى أنني كنت أبحث عن الحقيقة.

كنت أقف خلف الكنيسة، كما كان يفعل والدي دوماً، وكنت أصغي باهتمام للخطبة. وعلى كلٍ فإن الكلمات لم تكن لتصلني، فقد بدا وكأن الكاهن كان يتكلم لشخص آخر، لقد كان يتكلم لمن كان عنده الإيمان مسبقاً. وحتى أمي وأبي لم يبدُ أنهما كانا مصغيين له، كعادتهما، على ما أذكر. ولكن لابدَّ أنّ هناك شيئاً ما يثيرهما في ذلك التجمع، وإلا لما حضرا. لكن الأمر كان مختلفاً معي تماماً. فعندما كنا نخرج لأكل الفطائر بعد القداس كان والداي يتشاطران خبراتهما الشخصية وعدم رضائهما وشكوكهما بي. فهمت أنهما كانا يحاولان مساعدتي، وكنت أحبهما من أجل ذلك. ثم إني حضرت معهما القداس للآحاد الثلاثة التي تلت. ولكنه شقَّ علي أن أخبر أمي في الأحد التالي من أني لن أذهب معهما للكنيسة. و لم أستطع حتى مواجهتها، وأدرت ظهري لها عندما جاءت لتوقظني قائلاً: "إن الكنيسة ليست لي يا أمي" . كان هناك صمت قصير، ربما كانت تفكر بطريقة لتشجعني، وربما كانت تريد أن تخبرني بأن أعطي الكنيسة المزيد من الوقت في التفكير، وأنه من السذاجة الافتراض بأن ثلاثة قداسات قد تكون كافية لكي يصبح المرء مؤمناً. وأخيراً قالت أمي: "حسناً يا بني". وغاصت كلماتها في يأس و إذعان ينتابها حبُّ الأم الرؤوم وألمها على ولدها الذي يتألم وهي غير قادرة على مساعدته. لقد أردت أن أنهض من فراشي وأعانقها، وأعبر عن أسفي لها، ولكنني لم أستطع حتى أن ألتفت إليها. وقفت صامتة قرب سريري للحظة أخرى، ثم سمعت خفق نعليها وهي تغادر الغرفة.

وفي مدينة سان فرانسيسكو San Francisco الكبيرة كانت فرصتي أكبر كي أبدأ من جديد، لأن الأماكن الجديدة تقدم دوماًفرصاً جديدة، وكونك مجهول الهوية هنا يجعل بمقدورك أن تقوم بأشياء غير متوقعة أو مختلفة. ولقد اخترت جامعة سان فرانسيسكو على الرغم من أن أساتذتي كانوا قد نصحوني بأن أعمل في مكان آخر، و لم أكن

واثقاً لماذا اخترت هذه الجامعة؛ مع أنها ليست مركز بحوث، و لم أكن لأحب المدن الكبيرة. ومع بداية الفصل الدراسي كانت حياتي مثيرة وفوضوية،لأنني قررت أن أعيش ليومي وألاّ أتمسّك كثيراً بالماضي أو المستقبل. لقد كان رائعاً أن أعيش بمرتب جيد بدلاً من حياة الطالب التقشفية التي كنت قد اعتدت عليها في الماضي.

كنت على وشك البدء بمحاضرتي عندما دخل من الباب الخلفي للصف شاب وسيم جداً بدا وكأنه أمير عربي. لقد كان طويلاً ونحيلاً، وكان يرتدي ثياباً تنم على ذوق رفيع جداً. لقد لفت انتباه الصف جميعه، وربما اعتقدت أنهم سوف يقفون من أجله. يبدو أن الجميع كانوا يعرفونه، وفي طريقه إلى مقعده كان يومئ لبعض معارفه بالابتسامة، وللبعض الآخر بإشارات لطيفة مؤدبة، وكان هؤلاء بدورهم يضحكون له لدرجة أن مزاج المجموعة تغيَّر.

كانت محاضرتي تتعلق بالبحث الطبي، وطلبت من الصف إن كان أحد ما يريد المشاركة بالدرس، وما كان لأحد أن يرفع يده سوى ذاك الشاب الجالس في آخر الصف والذي افترضت أنه أمير عربي. لقد قام بإيضاح المسألة برمتها واثقاً من نفسه على نحو كبير ومتحدثاً بلغة إنكليزية تامة، ولكنها متأثرة قليلاً باللهجة البريطانية.

ـ سألته: "ما اسمك؟ "

ـ فأجاب: "محمود قنديل. "

ـ قلت له: "يبدو أنك تعرف الكثير عن الطب، هل هو مجال تخصصك؟ "

ـ أجاب: «لا، ولكنني صادف أن قرأت عن هذا الموضوع في مجلة طبية بالأمس. »

شكرته على مشاركته في الصف، وشجعته على دراسة الطب قائلاً له: "من الآن فصاعداً سوف أناديك يا دكتور قنديل"، فتبسَّم لي بلباقة. كنت أتقدم على محمود

بخمس سنوات من العمر، لكنه كان أكثر ضلاعةً مني في معرفة العالم، فلقد أخذ على نفسه العهد كي يعرّفني على مدينة سان فرانسيسكو. كان الجميع يعرفه، أو بالأحرى مفتوناً به، من المحافظ إلى قائد الشرطة إلى نجوم الروك إلى تجار المخدرات إلى أناس الشارع. لقد كان سخياً لدرجة كبيرة وكان بمقدوره أن يجعل من الإنسان الوضيع شخصاً مهماً. لقد كان انفتاحياً لكنه في الوقت نفسه متواضع.

لم يكن على المرء أن يخفي شيئاً عن محمود، لأنه كان يقبل الناس على سجيتهم، ويتمتع بمهارة عالية في التعامل معهم. وكان بمقدوره أن يكتشف جروحك ويجعلك تنساها ولو آنياً. كان فاتناً وساحراً ومن المستحيل مجاراته. لقد ذهبت معه لكل مكان، وفي كل مكان كانت الفتيات تحيينه بالقبل على وجنتيه. لقد كان عالماً لم أر مثله في حياتي، عالماً مؤلّفاً من أفخم السيارات، وأزهى الثياب، وأجمل المجوهرات، وأرقى المطاعم، وأشهى الوجبات؛ عالماً فيه اليخوت والدبلوماسيون وأصحاب المقامات الرفيعة والصاحبات والشمبانيا والديسكوهات، ذلك العالم الذي يمهّد له السبيل عند الثّريات من الطبقة الوسطى لقضاء ليلة في منازلهن أو "لتناول الإفطار" كما كن يقلن.

لقد كان عالماً فاتناً برّاقاً يلتمع كالجليد من جميع اتجاهاته. كان عالماً التخاطب فيه عقيم بارد لا حياة فيه. عالماً كان كل واحد منافيه ممثلاً هزيلاً يقوم بأدوار قل أن تناسبه، والجميع فيه حريصون على الاستمتاع بحياتهم، وألاّ يفوتهم شيء من اللذة. لم يكن هناك سعادة أو سرور بل كان هناك ضحك فارغ. لم أشعر بأذىً كهذا من قبل في مكان وزمان معيّنين. لم يكن يناسبني ذلك المجتمع و لم أكن لأصلح له.

و على الرغم من أن محموداً قد أدى الدور ببراعة، إلاّ أنه لم يكن ممن ينتمون إلى ذلك المجتمع أيضاً. فمن حيث الجوهر، كان محمود في طبيعته شاباً بسيطاً ومتواضعاً وكريماً، وكان سر جاذبيته يكمن في براءته وإخلاصه وصبيانيته، و لم تؤثر مدينة سان

فرانسيسكو في صفاته إلاّ قليلاً. و لم أكن الشخص الوحيد الذي كان قد فقد شيئاً ما، فمحمود بدوره كانت له آلامه. فلو لم تكن لمحمود آلامه لما أراح الكثيرين من آلامهم. وكم كنت أرجو له أنْ يلقى الشيء الذي كان فقده. قدمني محمود لأفراد عائلته، و لم يكن واضحاً في الحال أنهم اتخذوني صديقاً، ولكنهم من المؤكد أخبروني عن أنفسهم أكثر مما أخبرتهم عن نفسي. كان محمود الابن الأكبر وهو في موقع المسؤولية في هذه الأسرة السعودية، وكان أخوه عمر طالباً لامعاً في الفيزياء في جامعة كاليفورنيا- بيركلي California - Berkeley. كان عمر شاباً طويلاً وقوياً، يحمل الدرجة الثانية من الحزام الأسود في رياضة التايكوندو Tae Kwon Doe وكانت نظرته حادة لدرجة أنه يبدو كأنه غضبان إن لم يكن يتبسَّم لكنه كان عندما يتبسم، كعادته، يبدو إنساناً رقيقاً ومطمئناً. أما أختهم راجية، وهي أيضاً طالبة في جامعة سان فرانسيسكو، فكانت مثال الطيب واللطافة. فعيناها البنّيتان الواسعتان كانتا أجمل ما فيها، كانت نظرتها دافئة ومهتمة وثاقبة وعاطفية. لقد كانت مخلوقاً أثيرياً غريب الجمال، يصعب تعريفه ويستحيل نسيانه.

وأما عروس محمود المستقبلية فكان اسمها هوازن، وكانت جميلة وذكية ونبيهة وفطنة، وتحب الضحك. كان والد محمود قد توفي عندما كانوا أطفالاً، وكان واضحاً من تذكرهم إيّاه أن جروحهم العاطفية لمّا تندمل، أما أمهم فهي تعيش في السعودية وحدها، يحيط بها العديد من الخدم.

إن الأوقات التي قضيناها معاً سواء في النزهات أو الرحلات إلى منطقة الشاطئ، أو تناول الغداء في شقتهم كانت لحظات سعيدة جداً في حياتي، لم أعش مثلها منذ زمن بعيد. لم نتناقش بالدين كثيراً، وعندما كنا نفعل ذلك إنما كان استجابه لتساؤلاتي في معظم الأحيان. لم أحب أن أكون لحوحاً في أسئلتي؛ لأنني لم أرد أن يؤثر ذلك في

صداقتنا. وكنت أدرك أنهم كانوا يبادلونني الشعور نفسه، ولكنني دهشت عندما أهدوني نسخة من القرآن مع بعض الكتب عن الإسلام. فقد عرفت حينئذ أنهم كانوا متمسكين بدينهم، ولكن طريقة عيشهم لم تكن دينية كثيراً على الرغم من أني لم أجدهم يهتمّون بشخص آخر قط.

تساءلت في نفسي من فيهم أراد إهدائي تلك الكتب، فعمركان روحانيّاً، وراجية عاطفية، ومحمود يعرفني جيداً. تساءلت أيضاً هل كان يبدو عليَّ الحزن؟ على أي حال تلقيتها هدية ومشاطرة لشيء ما شخصي، وفي المقابل فإن عليَّ أن أقرأها وأحاول فهمها.

وإذا ما اتّخذتَ القرآن بجدية فإنه لا يمكنك قراءته ببساطة، فإمَّا أن تكون لتوّك قد استسلمت له، أو أنك ستقاومه، فهو يحمل عليك وكأن له حقوقاً عليك بشكل مباشر وشخصي، وهو يجادلك وينتقدك ويخجلك ويتحدّاك، ومن حيث الظاهر، يرسم خطوط المعركة. ولقد كنت على الطرف الآخر في المواجهة، ولم أكن في وضع أحسد عليه، إذ بدا واضحاً أن مبدع هذا القرآن كان يعرفني أكثر مما كنت أعرف نفسي. إن الفنان يستطيع أن يجعل العين، في أي لوحة يرسمها، تبدو وكأنها تنظر إليك حيثما كنت منها. ولكن أي مؤلف يستطيع أن يكتب كتاباً مقدساً يستطيع أن يتوقع حركاتك وسكناتك اليومية؟ لقد كان القرآن يسبقني دوماً في تفكيري ويزيل الحواجز التي كنت قد بنيتها منذ سنوات، وكان يخاطب تساؤلاتي.

وفي كل ليلة كنت أضع أسئلتي واعتراضاتي، ولكنني كنت، إلى حد ما، أكتشف الإجابة في اليوم التالي. ويبدو أن هذا المبدع كان يقرأ أفكاري، ويكتب الأسطر المناسبة لحين موعد قراءتي القادمة. لقد قابلت نفسي وجهاً لوجه في صفحات القرآن، وكنت خائفاً مما رأيت. كنت أشعر بالانقياد بحيث أشق طريقي إلى الزاوية التي لم تحتوِ سوى خيار واحد.

كان عليّ أن أتكلم لأحد ما، ولكنه ليس لأحد من أسرة قنديل، إلى أحـد لم يكـن ليعلم بي، كيلا تكون هناك أي توقّعات. في ذلك السبت وبينما كنت في حديقة البوابة الذهبية غولدن غيت العامة Golden Gate Park [حديقة البوابة الذهبية] عائداً من داياموند هايتسDiamond Heghts [مرتفعات دايامونـد] بعد نزهتي اليومية، توصلت إلى حل وهو أن أذهب إلى مسجد الطلاب المحلي يوم الإثنين.

إن كنيسة القديس إغناطيوس St. Stignatius Church الواقعة على قمة غولدن غيت بولفارد Golden Gate Boulevard [جادة البوابة الذهبية] هي مصدر فخر عظيم لجامعة سان فرانسيسكو، ودليل الجامعة يحتوي على عدة صور لها ومن زوايا مختلفة. لقد رأيت كنائس أكثر مهابة ولكن الغمام عندما ينزل ويجللها فإن برجها يبدو وكأنه سيصل إلى السماء. وبعد ظهر أحد أيام الأربعاء كان الجو صحواً وكثير النسمات، وقفت خارج بمركز هارني للعلوم Harney Science Center، حيث كان يقع مكتبي، وحدّقتُ في الكنيسة. في قبو الجزء الخلفي منها كان يقع المسجد (وفي الحقيقة كان غرفة صغيرة سمح اليسوعيون Jesuits للطلبة المسلمين باستخدامها مسجداً). لم أكن قد زرت المسجد بعد على الرغم من أني كنت قد قررت ذلك مسبقاً، فقد بدأت أفكر أنه ربما كان قراري لزيارته قراراً سريعاً جداً. وأخيراً قررت المضي بتنفيذ خطتي مؤكداً لنفسي أنني ذاهب فقط لأسأل عدداً من الأسئلة.

وفي طريقي إلى المسجد وعبر مكان وقوف سيارات الكنيسة تمثلت في نفسي ما يمكن أن أقوله عند تقديمي لنفسي هناك. إن الدرج المؤدي إلى المسجد في الأسفل كان أمامي نحو الأعلى وإلى يسار تمثال القديس إغناطيوس. وكان أحد الطلاب الأمريكيين قد دلني إليه منذ عدة أسابيع مضت معلقاً بسخرية: بأن الإشاعة تقول إنهم يحفظون جثث الموتى هناك في الأسفل.

وصلت إلى أعلى الدرج ونظرت إلى الباب أسفل وكانت الكتابة عليه لا محالة عربية. شعرت بقلبي يسابقني عندما وقفت هناك بتردد وسامحاً لقلقي أن يزداد. ثم فكرت أن أسأل أحداً ما في الكنيسة إن كان هذا هو المكان الصحيح. فاتجهت إلى المدخل الجانبي. كان الجو مظلماً في الداخل، ولكن الزجاج الملوّن المعشّق سمح ببعض الخيوط من الضوء الملوّن. وإلى يسار المذبح تحت رجلاً تبيّن فيما بعد أنه حاجب. ولدى انطلاقي إليه كالسهم مررت أمام المصلوب [الصليب] دون أن أحني ركبتي (تعبداً واحتراماً)، وتساءلت في نفسي عجباً! كيف تتأصل تلك الدروس في أنفسنا.

قلت للحاجب: هل تستطيع أن تدلني أين المسجد؟ شعرت أنني ربما بدوت غير متزن؛ لأن تعابيره كانت مزيجاً من الدهشة والسخط، ولكنني لم أنتظر جوابه. وعندما خرجت من الكنيسة أخذت نفساً أو نفسين عميقين قائلاً في نفسي: كم هو مريح أن يكون المرء في النور ثانية! استرحت قليلاً، ثم مشيت حول الكنيسة لأرى إن كانت هناك أي مداخل أخرى ممكنة للمسجد. ولقد كان هناك مدخل إضافي، لكن الباب كان مقفلاً. وهكذا انتهيت حيث بدأت أمام الدرج قرب التمثال. كنت قلقاً، وشعرت ببعض الدُّوار عندما بدأت نزول الدرج. وفي منتصف الطريق إلى الباب ضاق صدري وازداد خفقان قلبي، وبسرعة، استدرت إلى الوراء وقفلت راجعاً إلى أعلى الدرج. وبّخت نفسي قائلاً: مهلاً، إنك تدخل وتخرج من أبواب هذه الجامعة كل يوم. يا لنفسي! لن يكون هناك سوى الطلاب. أخذت نفساً طويلاً آخر وبدأت النزول ثانية. لقد كانت نقطة الوسط أكثر سوءاً هذه المرّة؛ وعندما وصلت القاع شعرت بالانقباض والغثيان. إن رجليّ اللتين كانتا تحملاني لسبعة أميال في نزهتي كل يوم كانتا ضعيفتين هنا. مددت يدي إلى قبضة الباب فبدأت ترتجف، وأخذت أرتجف، وأتصبب عرقاً، ثم ركضت إلى أعلى الدرج ثانية. وقفت هناك جامداً وظهري إلى

المسجد. لم أدر مـاذا يجب أن أفعل. وشعرت بـالحَرَج والهزيمة. فكرت بـالعودة إلى مكتبي. مرّت عدّة ثوان. نظرت خلالها إلى السماء محدقاً، لقد كانت هائلة ومليئة بالأسرار ومطمئنة. لقد مضت عشر سنوات كاملة وأنا أقاوم دافع الدعاء، أما الآن فإن المقاومة انتهت وسرعان ما فاضت مشاعري، فأخذت أدعو: اللهم إن كنت تريدني أن أنزل هذا الدرج إلى المسجد فامنحني القوة من فضلك!

انتظرت قليلاً لكني لم أشعر بشيء. كنت آمل أن الأرض قد تهتز أو أن تنزل صاعقة فتحيط بي، أو حتى أن تنتابني القشعريرة، ولكنني لم أشعر بشيء. استدرت مئة وثمانين درجة ونزلت الدرج، ووضعت يدي على قبضة الباب ودفعته فانفتح. كان في الداخل شابان قصيران يتحادثان، و كانا حافيي القدمين: أما الأول فكان يرتدي زيّاً شرقياً تقليدياً مع قلنسوة على رأسه، و أما الآخر فكان يلبس ثياباً غربية. لقد قاطعت بدخولي محادثتهما، فقال أحدهما: هل تبحث عن شيء هنا؟. لقد نسيت الأسطر التي كنت أنوي قولها، فأجبت على عجالة هل عمر أو محمود هنا؟ بدأت أشعر بالعصبية ثانية. فسألني صاحب القبّعة: ما اسمهما؟ بينما بدا الآخر مرتاباً. حاولت أن أقول (قنديل) ولكن دون جدوى، فقال أحدهما: لا أحد هنا سوانا، يبدو أن هذه لن تنفع أيضاً فقلت لهما : أنا أسِف، لابد أنني في المكان الخطأ ثم استدرت وكأنني أستعد للذهاب، فقال الذي يرتدي القبّعة هل تريد أن تعرف شيئاً عن الإسلام؟ فأجبت وأنا أخطو نحوهما: نعم نعم أريد أن أعرف عن الإسلام. فقال لي شارحاً: هلاّ خلعت نعليك من فضلك، إننا نصلي في هذا المكان. لقد كان الشاب ذو الملابس التقليدية هو الذي يتكلم، وأما الآخر فمن الواضح أنه قرر أن يراقب فقط شيئاً بدا له،وظهر من تعابير وجهه، أنه غير عادي.

جلسنا على الأرض في الزاوية اليسرى، فلقد سمحا لي باختيار المكان. فجلست

حيث أواجه الباب وظهري إلى الجدار. كان هناك غرفة صغيرة للغسل على يميني وكان هناك غرفة صغيرة جداً للنساء بعيدة إلى اليسار عن شمالي. كان اسم الشاب ذو القبعة عبد الحنان، وكان طالباً ماليزياً يدرس في الجامعة، أما الثاني فكان من فلسطين و اسمه محمد يوسف. أخبرتهما بكل ما أعرفه عن الإسلام فدهشا بسرور، وتحدثنا لمدة خمس عشرة دقيقة.

سألت بعض الأسئلة السطحية، ولكن لم يحدث كما كنت أتوقع. وبدأ عبد الحنان يخبرني بشيء عن الملائكة التي تعذّب أرواح موتى الكافرين وعن العذاب الذي سيكابدونه في قبورهم. تظاهرت فقط أنني أصغي وقلت لهم: عليّ أن أعود إلى مكتبي، متذرعاً بحيلة (كانت ناجعة دوماً) وهي أن هناك طلاباً يجب عليَّ مقابلتهم، وشكرتهما على الوقت الذي أمضياه معي.

كنت على وشك أن أنهض للمغادرة عندما فتح الباب. كان الوقت بعد العصر وكانت الشمس في الزوال وراء الباب. كانت الإضاءة في الغرفة خافتة وعندما فتح الباب كان الممر أكثر نوراً وبدا لنا رجل، ومن خلفه يتدفق النور، لحيته كثّة يرتدي ثوباً طويلاً إلى كاحله وصَنْدَلاً في رجله ويضع عمامة على رأسه ويحمل عكازاً في يده. لقد بدا وكأنه موسى عائداً من جبل الطور. بدا وكأنه رجل توراتي آسر، لذا كان عليَّ أن أبقى. دخل المسجد بهدوء وبدا وكأنه لم يلاحظنا. كان يتمتم ما يمكن أن يكون ابتهالات إلى الله، ورأسه مرفوع قليلاً نحو الأعلى، وعيناه تكادان تكونان مغلقتين. كانت يداه قريبتين من صدره، وكانت كفاه مفتوحتين للأعلى، وكأنه ينتظر أن يأخذ حصته من شيء ما. وعندما فرغ من ذلك سأل محمداً شيئاً ما بالعربية ثم مشى إلى المغسل(مكان الوضوء).

ابتهجا قائلين هذا هو الأخ غسّان، إنه الإمام الذي يقود الصلاة. من خلال قراءتي،

كنت أعرف أن المسلمين ليس لهم إمام رسمي في مثل هذه الحالة، فبإمكان محمد أن يقيم الصلاة أو عبد الحنان أو أي شخص آخر. وبعد فترة وجيزة دخل غسّان الغرفة وقد حنى رأسه باعتدال عندما جاء لينضم إلينا. لقد كان في شكله أشبه بغاندي Ghandi وكانت بشرته بيضاء، وكانت عيناه ووجهه مسالمين وبائسين في الوقت نفسه، كما لو أنه استسلم لمأساة ما شخصية عظيمة. وعندما فسح الطالبان الآخران المجال له، جلس بقربي ووضع يده على ركبتي قائلاً: ما الاسم الكريم؟ كان سؤاله الأول لي، وكأنه يريد أن يفتتح حديثاً عاماً معي على غير ما فعل بي عبد الحنّان ومحمد كوسيلة ليخفف من توتري. لقد قدّرت له هذه المبادرة ليهدّئ من روعي. كانت نبرة صوته ضعيفة ولكنها واضحة، كان في صوته رنين أضفى عليه هالة من الإلهام، ومن خلال لهجته عرفت أنه من الجزيرة العربية. وكان خجولاً بعض الشيء فقد حاول ألاّ ينظر مباشرة في عينيّ.

- قلت له: جيفري لانغ.

- هل أنت طالب في جامعة سان فرانسيسكو؟ إذ كنت أبدو أصغر من سني، ففي بداية الفصل طُلب مني مغادرة اجتماع المدرسين لأنهم جميعاً اعتقدوا أني كنت أحد الطلاب.

- لا، إنني بروفسور في قسم الرياضيات.

اتسعت عيناه، ونظر إلى الآخرين، تحدثنا لبضع دقائق، ثم إن غسان استأذنني بأدب كي يصلّوا صلاة العصر، وكانت هذه أول مرّة أرى فيها مسلمين يصلّون جماعة. وانتهزت هذه الفرصة كي أمدّ رجلي اللتين كادتا تتيبسان من الجلوس على الأرض. وعندما أنهوا صلاتهم عدنا لجلستنا الأولى، وتابع غسان حديثه قائلاً: إذن، كيف بدأ اهتمامك بالإسلام؟ تساءلت في نفسي إن كانوا يعرفون عائلة القنديل، ولكنني قلت له: "كنت أقرأ عنه"، ويبدو أن ذلك الجواب كان كافياً. تابعنا الحديث لبعض

الوقت، وتركزت معظم مناقشاتنا على بعض المسائل التقنية، ولكننا في الواقع لم نكن نتبادل الآراء. كادت تعوزني أسئلتي وكادت تعليقاته تنفد، وكان كل منّا يشعر بخيبة الأمل، وفكرت بالعودة إلى قسم الرياضيات. سألني غسّان: هل لديك أيّة أسئلة أخرى؟ أجبت بالنفي، ثم إنّه خطر ببالي شيء جديد فقلت: لدي سؤال واحد إضافي". توقفت لبرهة أفكر بالطريقة التي أصوغ فيها سؤالي فقلت: "هل لك أن تخبرني كيف يشعر المرء إن كان مسلماً؟ أعني كيف ترى علاقتك مع الله؟.

كنت لتوّي قد خبرت أن غسان كان يتمتع بشخصية لها جاذبية رائعة وحدس هما ضروريان لشخصية القائد الروحي. كان غسان، مثل محمود قنديل، مرهف الإحساس تجاه آلامك الداخلية، ولكن على خلاف محمود، لم يكن ليدعك تتجاهلها، بل على العكس كان يعظّمها لك ويجبرك على التركيز عليها، وهذه قدرة هائلة قلّ من يملكها، بل إن على كل قائد ديني عظيم أن يتمتع بها إلى جانب تحمّله للمسؤوليات والمخاطر الجسام. قابل نظره نظري لكنه لم يجب في الحال؛ ربما كان يفحص مصدر السؤال والنيّة من ورائه، ثم خفض رأسه وكأنما يدعو الله ويستجمع قوته الروحية. حرّك رأسه يمنة و يسْرة، كما يفعل الناس عندما يجيبون بالنفي، ثم بدأ بالتحدث. كانت أول كلمة نطقها هي مزيج من الدعاء والتسبيح، قال غسّان: (الله) ثم توقف وتنفّس تنفّساً عميقاً ثم أضاف (الله عظيم جداً! ونحن بالنسبة له لا شيء، نحن أقل من ذرّة تراب واحدة قال هذا مشيراً بسبابته وإبهامه وكأنه حمل ذرة تراب ثم أطلقها ليجعل مثله أكثر تأثيراً، وأضاف ومع ذلك فإن محبة الله لنا هي أكثر من حب الأم لطفلها الوليد! كان يقاوم مشاعره وكانت عيناه شبه مغلقتين وكان ما يزال مُطأطئاً رأسه. من هذه النقطة وحتى كلماته، كنت أرى روحاً تتّقد خوفاً ورجاءً ورغبة. وكانت كل كلمة يقولها موجة مشاعر ترتفع تارة وتنخفض أخرى. وأضاف غسّان: وما تشاؤون

إلا أن يشاء الله! فعندما نستنشق (يضع يده على صدره) أو نزفر فإن ذلك بمشيئته، وعندما نرفع قدماً لنخطو فإننا لا نستطيع أن نضعها على الأرض إلا بأمره. وما تسقط من ورقة من الشجر على الأرض إلاّ وهو يعلمها. فعندما نصلي ونضع أنوفنا على الأرض في السجود فإننا نشعر بالقوة والطمأنينة والسرور تفوق حدود هذا العالم، ولا يمكن وصفها في كلمات ولا يعرفها إلاّ من جربها.)

بقي غسان صامتاً لعدة ثوان سامحاً لهذه الكلمات أن تعبر مشاعري، ولكم تمنيت أن أكون في مكانه، ولو لبضع دقائق كي أشعر فقط بهذا الشعور من الرغبة إلى الله، وهذه المعاناة وهذا الشوق إلى المليك! لقد أردت أن أعرف مشاعر السكينة والعذاب، والخوف والرجاء، التي تنبثق من العدم لترتقي إلى التسليم، لقد آن لروحي أن تبعث من موتها. عندما خاطبني غسان قائلاً: إذن، هل تريد أن تصبح مسلماً؟ اخترقت كلماته الصمت لتنفجر في ضميري. تساءلت في نفسي، لماذا كان عليه أن يقول ذلك لي؟ فإنني لم آت من أجل ذلك. تخيَّلت أني أشرح ذلك لأسرتي وزملائي وأصدقائي، لقد كنت أعمل في جامعة يسوعية، فماذا عن عملي؟

تزاحمت الوجوه والأصوات في مخيلتي: زوجتي السابقة، أصحابي القدامى (لقد مات بعضهم) لم أدر كيف أعتذر. شعرت بالخوف ثانية، شعرت بالحرارة أسفل رقبتي وأسفل ظهري وعرقت راحتاي ما دليل ذلك لم أكن لأعرف. لماذا لا يسير كل واحد منا في طريق خصوصاً أن ذلك لن يكلفه أو يفقده شيئاً. حاولت جاهداً أن أخفي القلق والذعر اللذين ألمّا بي، فخنقتُ ما يجيش في صدري من اضطراب وقلت: "لا، ليس اليوم، إنما جئت في الحقيقة لأسأل بعض الأسئلة." ولكم تمنيت أن أنتهي من هذا النقاش، فقد أردت العودة إلى مكتبي. تساءلت في نفسي ما الذي كنت أفعله في هذا المكان! شعرت بتوتر ملأ جسدي واستجمعت قواي استعداداً للهجوم التالي، فقد

عرفت أنه يجب علي أن أكون أكثر حزماً هذه المرّة. ولكن جزءاً مني كان مشدوداً وتوّاقاً ليسمعه يقولها ثانية، كان هذا الجزء يلتمس طريقه! يصلي! يناشد! يرجو! ويدعو: لا تتركني، ليس بعد أن وصلت إلى هذا البعد.

يبدو أن غسّان قد مرَّ بمثل هذه التجربة فقد عرف كيف لايستسلم بسهولة في مثل هذه الحالة، فقال لي ثانية بلطف: ولكنني أعتقد أنك تؤمن بالإسلام، فلماذا لاتجربه؟ اختفت الوجوه والأصوات من مخيلتي، و لم يكن هناك حاجة لكي أنزعج، فليس هناك من أحد له علي أي شيء – لا غسّان ولا أصدقائي، لا أحد. إن القرار هو قراري وحدي. ثم إني تذكرت والديَّ وقصصهما لي ولإخوتي الأربعة عن كوننا جرمانيين (فكل ثقافة لها التعاليم نفسها التي تعرفها على أنها ملكها الخاص)، وتذكرت بشكل خاص أحد هذه الدروس، وهو أنك إذا شعرت بأن شيئاً ما صحيح فاتبعه بغضّ النظر عمّا يعتقد الآخرون به، فقد اعتادت أمي أن تقول: اتبع مشاعرك. وكانت أوّل مرّة أطبق فيها هذه الفلسفة عندما قمت بتغيير دراسة مناهجي الجامعية. وعندما تأملت مسترجعاً تلك الأحداث الماضية تذكرت أن ذلك كان، بالمقارنة، أمراً يسيراً. نظرت إلى الثلاثة وأومأت برأسي قائلاً: نعم، أعتقد أني أريد أن أصبح مسلماً.

ارتسمت تعابير البهجة والسرور على وجوههم، لقد ذكروني بإسلام مهندسي ناسا NASA (مؤسسة الأبحاث الفضائية الأمريكية) بعد هبوطهم النَاجح على سطح القمر. لم أكن لأعلم لماذا هذا الإطراء الزائد، إنك لتعتقد أنهم هم الذين أسلموا. وعلى كلٍ لم أكن أسلمت بشكل رسمي بعد، فقد كان علي أن أعترف بالإيمان، أي أنطق بالشهادة.

دارت قبضة الباب ثانية. وكان هناك حزمة ضوئية أخرى، وفتح الباب وتدفق نور من الخارج وإذا برجل آخر قادم إلى المسجد، لقد كان رجلاً أشبه بغسان من حيث

شكله وملابسه، إلاّ أنه كان أكبر حجماً وأكثر وزناً. فناداه غسّان قائلاً: مصطفى! هذا الأخ يريد أن يصبح مسلماً. تهلل وجه مصطفى الكبير الأبوي الرقيق (لقد كان أشبه بـ بيرل أيفس Burl Ives) وهرع ليعانقني. قاطعه غسّان قائلاً ولكن عليه أن ينطق بالشهادة أولاً، فتراجع بهدوء كما لو أنه اكتشف شيئاً ثميناً. ولكن غسّان لم يشأ أن يحرمه مشاركته وانفعاله فقال له: أخبر الأخ ماذا عليه أن يقول في الشهادة. كرر مصطفى الشهادة لي في الإنكليزية بحيث أعي ما يجب عليَّ قوله. كان صوته أشبه بالهمس، كما لو أنه يتحدث إلى وليد جديد، ثم إنه لفظ لي الشهادة بالعربية وكان يقول في كل مرة كلمة أو كلمتين، وكنت أردد خلفه.

ـ قال مصطفى قل: أشهد

ـ قلت: أشهد (أقر وأعترف) حاولت جهدي أن أنطقها بشكل صحيح. لقد كنت كمن يحاول تعلم الكلام ثانية.

ـ قال مصطفى: أن لا إله

ـ قلت مردداً: أن لا إله (ليس هناك من إله). لقد كنت أؤمن بهذه العبارة بمفردها طوال حياتي حتى هذا اليوم وكأنها حقيقة. وأما الآن فقد أدركت للمرة الأولى الحقيقة المرعبة لهذه العبارة وخلو معناها ونتائج أخرى.

ـ قال مصطفى: إلا

ـ قلت: إلا (باستثناء) إلا أداة استثناء تشير إلى أن هناك شيئاً ما مغفلاً. إنها كلمة صغيرة وقفت بيني وبين ملء ذلك الفراغ الهائل وهو حياتي، مبعدة إيايّ عن الواقع الذي كنت أبحث عنه.

ـ قال مصطفى: الله.

ـ قلت: الله (المعبود) كانت هذه الكلمات كقطرات الماء الصافية تنحـدر في الحلق المحترق لرجل قارب الموت من شدة العطش، وكنـت أستعيد القـوة بكـل كلمـة منهـا كنت أصحو للحياة ثانية.

ـ قال مصطفى: وأشهد أن

ـ قلت مردداً: وأشهد أن (وأقر وأعترف بأن). كنت أنضم إلى أتباع الأنبيـاء جميعـاً الذين يؤمنون بكافة الرسل الذين أرسلوا في مختلف العصور لجميع الأجناس والأعـراق، ماداً يدي كتابع ومصدق لمن بعث للإنسانية منذ أربعة عشر قرناً خلت.

ـ قال مصطفى: محمداً

ـ قلت: محمداً (محمد): لقد كان هذا أكثر من مجرد اعـتراف. إن هـذا يعـني التزامـاً بطريق عالمي متمتع بقداسة القِدَم بشر به حملة أول رسالة سماوية وختمت بظهور محمد.

ـ قال مصطفى: رسول

ـ قلت مردداً: رسول (الرسول حامل الرسالة). شعرت بالحصانة والأمـان والحريـة، شعرت أنه بمقدوري أن أحب الآن ويحبني من لا حدود لعطاءاته ونعمه. لقد هويت في الرحمة النابعة من الحب الأسمى، لقد عدت إلى ملاذي ثانية!

ـ قال مصطفى: الله

ـ قلت مردداً: الله (الخالق المعبود).

وبعد يومين تعلمت أول صلاة جمعة جماعية. كان يوم صيف هنـدي مشمسـاً دافئـاً (في سان فرانسيسكو وكان الصيف الوحيد الذي وجدته). كنا في الركعـة الثانيـة مـن الصلاة، وكان غسّان يتلو القرآن بأسلوبه الرائع المميَّز. إن معظم تلاوات القرآن بطيئـة

ومنسقة الأصوات ومضبوطة، ولكن غسّان أطلقها من حاجتها العميقة، فقد كانت قراءته كمناجاة طفل مهجور ينادي والديه. لقد كان يتضّرع إلى الله بترنيمة إيقاعية محكمة. وقفنا خلفه مصطفين، الكتف على الكتف، والقدم على القدم.

- كبر غسّان للركوع: الله أكبر (الله هو الأعظم)

عندما سمعنا هذا النداء انحنينا ويدا كل واحد منّا على ركبتيه، وأظهرنا متعامدة على أرجلنا (الزاوية قائمة) وهمست بالمديح السماوي: "سبحان ربي العظيم (المجد لربي العظيم) أشكرك يا ربي لأنك جلبتني إلى هنا."

- قال غسان سمع الله لمن حمده وقفنا منتصبين ثانية وأجبنا ربنا ولك الحمد (يا خالقنا لك المديح والسلام).

الآن، ونحن واقفون في صفوف محكمة التنظيم كنّا نتحرّك وكأننا جسد واحد. لقد أديت أربع صلوات في المسجد يوم الخميس ولكن ليس بهذا العدد من الناس. و أما الآن فكان هناك حوالي الثمانين مصلياً حشروا في غرفة صغيرة، شباباً من جميع بلدان العالم يمثلون ربما عشرين بلداً يؤدون شعيرة جماعية.

- الله أكبر يكبّر غسّان للسجود.

وبرشاقة وتناسق وتأنّ هوينا للسجود على الأرض، أولاً على ركبتينا، ثم على أقدامنا جميعاً، ثم لامسنا بوجوهنا السجادة، ثم قلت بصوت منخفض "سبحان ربي الأعلى" (المجد لربي الأكثر علوّاً)، مكرراً إياها عدة مرّات ومضيفاً "اللهم أعوذ بك أن أضل".

- "الله أكبر" يكبر غسّان، فنجلس على أقدامنا مقتدين بغسّان، كنت أنا في الصف الثالث.

- "ا لله أكبر، يكبر غسّان ثانية للسجود نسجد ثانية ووجوهنا ملامسة السجادة الحمراء والبيضاء. كان الجو هادئاً وصامتاً وكأن الأصوات قد أخمدت، ثم جلسنا ثانية على أقدامنا.

عندما نظرت أمامي كان بمقدوري أنْ أرى غسّان بعيداً عن يساري في الوسط تحت النافذة التي كانت تملأ الغرفة بالنور. كان وحده دون صف باعتباره إماماً، وكان يرتدي عباءة بيضاء طويلة وكان معتماً بلفحة بيضاء ذات رسم آخر.

صرخت في داخلي إنه الحلم، إنه الحلم ذاته! كنت قد نسيته تماماً، أما الآن فقد صعقت وذعرت وتساءلت في نفسي أأنا في حلم حقاً، وهل سأستيقظ؟ حاولت التركيز على ما يجري؛ لأرى إن كنت حقاً نائماً. سرت موجة من البرد في جسدي فجعلتني أرتجف. يا إلهي، إنني في الواقع. ثم تلاشى البرد فيَّ وتبعه دفء رقيق يشع من الداخل، ففاضت عيناي بالدموع.

التفتنا نحو اليمين (سلمنا على اليمين) ونحن نقول هذه الكلمات.

- "السلام عليكم ورحمة ا لله" (الأمن والطمأنينة ورحمة ا لله عليكم).

- "السلام عليكم ورحمة ا لله"، كررنا قول هذه الكلمات ونحن نلتفت إلى اليسار [سلّمنا على الشمال].

انتهت الصلاة. جلست على السجادة أتأمل الجدران الرمادية البيضاء محاولاً أن أجعل معنىً من كل ذلك. إن الأحلام شيء غريب، وهناك الكثير مما نجهله عنها. ولكن، مهما تكن الآلية المتحكمة، فإني من خلال حلمي هذا رأيت قطعاً من حياتي (أشياء فعلتها، أناساً قابلتهم، حالات مررت بها، خيارات حققتها دون أن تعني لي شيئاً في حينها) قادتني إلى هذه الصلاة لتصل إلى ذروتها في هذا السجود. أدركت أن

الله كان قريباً دوماً مني يوجه حياتي ويخلق لي الظروف والفرص كي أختار؛ ومع ذلك كان يترك لي مجال الاختيار في المسائل الحاسمة. تملّكني الخوف والرهبة عندما شعرت بالحب والعطف الظاهرين، لا لأننا نستحق ذلك، ولكن لأن هذا الحب والعطف كانا دوماً موجودين، وكل ما علينا عمله للحصول عليهما هو أن نعود إلى الله. لا أستطيع الجزم باليقين على أن هذا كان معنى رؤياي، ولكنني أستطيع القول بأني وجدت في هذه الرؤيا إيحاءً وتشجيعاً وفرصة جديدة في الحياة.

الفصل الثاني

القرآن

يقول جب Gibb: "إنه لمن المؤكد حقاً بأن دراسة القرآن ما ضعفت يوماً كما أن إيقاعاته المسيطرة مافقدت تأثيرها في عقول الناس"[1].

إن ثناء هذا المستشرق عام ١٩٥٠ هو أكثر صحة اليوم من أي وقت مضى. فالقرآن في رأي كثير من المسلمين واجه تحدي الغرب، وارتفع فوقه؛ كما أن القرآن هو القوة الدافعة وراء الصحوة الإسلامية العالمية. وما يزال القرآن لحوالي بليون مؤمن هو "البيان الأمثل لفضل الله على البشر، والحكمة العليا، وجمال التعبير الأسمى، باختصار: إنه كلمة الله"[2].

ولكن ماذا عن المعتنق الغربي للإسلام الذي هو بعيد عن الثقافات والتقاليد واللغات التي ساعد هذا الكتاب المقدس على تشكيلها وحفظها؟ ما واجب هذا المعتنق تجاه القرآن؟ إن هذا ليس سؤالاً سهلاً أو ضرورياً، لأن الكتب المقدسة لكل ديانة ليست مألوفة لكل معتنق جديد لها. فمعتنقو المسيحية أو الهندوسية أو البوذية الجدد، على سبيل المثال، لن يطالبوا بمعرفة كتب هذه الديانات مباشرة. ومع هذا وبشكل عملي فإن كل معتنق غربي للإسلام يتحدث بأولوية القرآن في حياته.

---

(١) هـ. أ. ر. جب،ذبول الإسلام، ص. ٣٥٠ .

H. A. R. Gibb, *Wither Islam* (New York: A. M. S. Press. 1932)p.350.

(٢) محمد أسد، *رسالة القرآن*، ص ٢ .

Muhammad Asad, *The Message of the Qur`an* (Gibraltar: Dar al Andalus, 1980), ii.

وفي الواقع فإن اعتماد المؤمن العادي على القرآن متأصل في الدين؛ لأن تلاوة القرآن باللغة الأصلية (العربية) هو جزء أساسي من الصلوات اليومية الخمس. وبالنتيجة، فإن جميع المسلمين الجدد يتعلمون عدداً من النصوص القرآنية وتفسيراتها بسرعة فائقة. إن هذا الاتصال اليومي بالقرآن يفتح الطريق لدراسة أخرى، ويقول الكثير من الوافدين الجدد إلى الدين: إنهم يقرؤون جزءاً مترجماً من القرآن كل يوم، فضلاً عن تلاوة بعض أجزائه خلال صلواتهم اليومية. ويذهب الكثير إلى حد تعلم اللغة العربية بشكل جيد، وهذا الأمر بالنسبة للأمريكيين غير مطرد تماماً، لأن الذين قدموا تعليقات وتفسيرات جديدة ومبتكرة هم قلة حتى الآن[٣] . على هذا، فإن القرآن يشكّل جزءاً أساسياً من خبرة المسلم الدينية، على الرغم من أننا سوف نحصل على عدة أنماط من الأجوبة لسؤالنا الوارد أعلاه، وفي الوقت نفسه فإننا سوف نتوقّع بعض الاستجابات السائدة.

وعلى الرغم من أن الإسلام ينتشر في الغرب بسرعة كبيرة إلاّ أن وجوده ما يزال شيئاً غريباً تماماً. إن عدد المؤلفين المسلمين الغربيين هو عدد قليل جداً، وهناك بعض الأسماء المعروفة مثل محمد أسد Muhammad Asad، ومرمادوك بيكتال Marmaduke PickthaLL، ومارتن لينغز Martin Lings، ومريم جميلة Maryam Jameelah، وحميد آلغر Hamid Alger.[٤] واليوم هناك العديد من المسلمين الأميركيين والأوروبيين الذين

---

(٣) المرجع السابق، وكذلك انظر توماس ب. أرفنغ، القرآن: *أول نسخة أميركية*، ومارمادوك بيكتال، *معنى القرآن العظيم*.

Thomas B. Irving, *The Qur`an: the First American Version* (Brattleboro, TV: Amana Book, 1985); Marmaduke Pickthal, *The Meaning of the Glorious Qur`an* (New York: The Muslim World League, 1977).

(٤) محمد أسد، *الطريق إلى مكة* (جبل طارق: دار الأندلس، ١٩٨٠)؛ حميد آلغر، *جذور الثورة الإسلامية* (أونتاريو: أوبن برس، ١٩٨٣)؛ مريم جميلة، *الحضارة الغربية تلعن نفسها* (لاهور: بدون تاريخ)؛ مارتن لنغز، *ماهي الصوفية؟* (لندن: جورج آلن وأونين، ١٩٨٣)؛ مارمادوك بيكتال، *معاني القرآن العظيم*.

يقومون بنشر عقيدتهم للآخرين، وإننا نلحظ ازدياداً في عدد الكتّاب الغربيين الذين يبدون تعاطفاً مع الإسلام. (٥) ومن خلال انطباعات هؤلاء يكتشف المرء أنهم يناقشون مواضيع متكررة جداً. والهدف من كتابة هذا الفصل هو التركيز على بعض هذه المواضيع ولأصف أيضاً بناءً على خبرتي الشخصية والمناقشات العديدة التي أجريتها مع الآخرين، كيف أن هذه النماذج يمكن أن تتآلف وتعمل معاً لهداية المرء إلى قبول رسالة القرآن. بمعنى آخر، سوف أحاول أن أقدم أحد نماذج الهداية إلى الإسلام.

إن أوّل من تلقى هذا الوحي (القرآن) هم سكان الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي. فعندما سمعوه يتلى بلسانهم، كان أسلوبه رائعاً ولغته محكمة لدرجة، وكما يشير القرآن، فقد نعته الكافرون بقولهم: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ١٠/٧٦] ولم يكن على عربي ذلك الزمان أن يجهد نفسه في ترجمة الصور التي كان يسمعها إلى أنماط من التفكير المرتبطة بها لأنه كان لتوّه على صلة مباشرة بهذه الصور.(٦) فعندما يعلّمنا القرآن أن نسأل الله ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ١/٦]، فإن القارئ الغربي قد يفهم أن هذا إنما يشير إلى الفرق الدقيق والحسّاس ما بين من يطيع الله بإخلاص وأي شخص أو شيء آخر. أو ربما يسأل الله أن يهديه إلى الموازنة الضعيفة ما بين المادية والروحانية. وربما كان لمسافر الصحراء في القرن السابع فهم مشابه لهذه المسألة،

---

(٥) أمثال مكسيم رودنسون، *الإسلام والرأسمالية*؛ فريتجوف شون، *فهم الإسلام*؛ فريدريك ديني، *مقدمة إلى الإسلام*؛ جون اسبوزيتو، *الإسلام هو الطريق الصحيح*.

Maxim Rodinson, *Islam and Capitalism* (London: Penguin Books, 1974); Frithjof Schuon, *Understanding Islam* (London: George Allen & Unwin Ltd., 1963); Fredrick Denny, *An Introduction to Islam* (New York: Macmillan, 1985); John L. Esposito, *Islam: the Straight Path* (New York: Oxford Press, 1988).

(٦) توشيهيكو إيزوتسو قام بتحليل رائع لتراكيب معاني القرآن في كتابه *الله والإنسان في القرآن*.

Toshihiko Izuts, *God and Man in the Koran* (Salem, MA: Ayres Publishers, 1964).

انظر أيضاً: كينيث كراج، *حدث القرآن*.

Kenneth Cragg, *The Event of the Qur'an* (London: George Allen & Unwin, 1973).

ولكن من المؤكد أنها أثارت عنده شيئاً من انعكاساته النفسية، لأنه في ترحاله كانت عدم معرفة الصراط المستقيم (الطريق السليم) أحياناً مسألة حياة أو موت. إن إشارات القرآن إلى الكتب والموازين والديون والثواب يوم القيامة، وإلى قرض الله بقرض حسن مضاعف الجزاء، وإلى الصفقة الرابحة التي يفوز بها المؤمنون مع الله، كل ذلك كان له علاقاته الواضحة مع أسلوب الحياة التجارية في مكة التي كانت مركز التجارة في الجزيرة العربية خلال حياة محمد. فعندما يقارن القرآن ما بين حالة الكفر بحالة الموت من العطش في الصحراء، وما بين حالة البعث والنشور وحالة عودة الحياة إلى الأرض القاحلة بعد المطر، أو عندما يصف الجنة بتعابير حسّية مفعمة بالحيوية، فإنه يكون بمقدورنا أن نتخيَّل كم كانت هذه الصور قريبة وحيوية لأولئك الذين سمعوها أولاً من شفاه النبي. إن العرب لم يكونوا ملحدين أو غنوصيين (لا أدْريّين) Agnostics ولكنهم لم يكونوا أيضاً شديدي التدين. فمواقفهم تجاه الدين كانت تشبه قليلاً مواقف العديد من البشر اليوم: فالعقيدة الدينية كانت تمثل أحد الأعراف وجزءاً من الثقافة التي كان لها زمانها ومكانها المحددان، والتي كان يمكن اللجوء إليها عند الحاجة. لقد كانوا، بالمعنى الفعلي، عبدة أوثان، ذلك أنهم كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة التي كانت بالنسبة لهم شخصيات فوق بشرية، لها قدرتها المحددة للتأثير في حياة الفرد. ولم تكن مشكلة القرآن مع هؤلاء الأعراب نابعة من عدم إيمان أولئك بالله؛ بل لأن اعتقاداتهم المزيفة بالله ولّدت عندهم الفسق والفجور.

لقد عمد القرآن إلى إصلاح هذا المجتمع، وليس إلى تحطيمه وإعادة بنائه من نقطة البدء، لقد هدف القرآن إلى استبقاء ما كان نافعاً، ثم تعديله والبناء عليه. لقد كان القرآن يهدف لجعل العرب يفكّرون بالدين بطريقة جديدة، وأن يغرس في أذهانهم أساساً جديداً لمفاهيم محددة، وأن يحوّل نظرتهم إلى العالم من طريقة محدودة إلى أخرى

أكثر رفعة وسمواً. إن هذا الإجراء في التحوّل نقلهم من التقليدية إلى الفردية؛ ومن التهور والاندفاع إلى النظام؛ ومن الغيبية إلى العلم؛ ومن الحدس إلى التعليل الواعي؛ وفي النهاية تنظيم الجميع على نحو مثالي.

أما الوضع في المجتمع الغربي الراهن فهو على النقيض التام تقريباً. فمع نظريات الانتقاء الطبيعي والتطور بطريقة المصادفة، فإن الدين لم يعد ضرورياً لشرح عملية الوجود. والاعتقاد السائد هو أن علم النفس الحديث قد نجح في إثبات أن القيم، والميول الروحية، والفضائل والأخلاق هي نتاج القوى المحرّكة الاجتماعية والتطورية؛ وبالتالي فهي ليست (حقيقية) أو (مطلقة) ولكنها (نسبية) وناجمة عن تخيّلاتنا على نحو رئيسي. فا لله عندهم لم يعد ضرورياً كجواب طالما أن العلم والمنطق باعتقادهم يمكن أن يحققا الهدف. وبالنتيجة، يجد المعتنق الغربي للإسلام نفسه يسير في طريق تخالف من جوانب عدة الطريق التي سلكها المسلمون الأوائل منذ أربعة عشر قرناً خلت.

إن العديد من المواقف تجاه الدين متشابهة حقاً، لكنها ذات أصول مختلفة. فالتحوّل إلى الإسلام اليوم هو غالباً رحلة من الفردية إلى التقليدية؛ ومن التعلم إلى الاستنارة؛ ومن المحسوس إلى اللامرئي؛ ومن العقل إلى الحدس، وفي النهاية تنظيم الجميع على نحو مثالي.

ملاحظات أولية

القرآن هو تحد للعقل: دودلي وودبيري Dudley Woodbury من معهد زويمَر Zwemmer Institute هو محاور موهوب من وجهة النظر المسيحية في تبادل الحوارات حول الأديان، وفي إحدى محاضراته لزملائه المبشرين المسيحيين ذكر مؤخراً بأن أولى الأشياء التي يأخذها المرء عن المسلمين هو حبّهم للنقاش. فهم يحبون النقاش فيما إن كان القرآن أم الكتاب المقدس The Bible (العهد القديم والعهد الجديد) هو كلمة الله، أو فيما إن كان المسيح إلهاً أم بشراً، وفيما إن كان الكتاب المقدس قد بشّر

بمجيء محمد أم لا، إضافة إلى مواضيع أخرى. ولكن وودبيري أشار أيضاً أنك إذا ما سألت مسلماً عن تجربته الدينية فإنه غالباً ما يؤخذ على حين غرّة. ويروي كيف أن محاضراً مسلماً معروفاً دعاه يوماً إلى حوار علني. وكان جواب وودبيري أنه لا يحبذ الحوار كثيراً، إلاّ أنه يفضل مشاطرة ومبادلة علنية للخبرات العقائدية الدينية. ولكن المتحدي للحوار لم يهتم بمواجهة كهذه، وهكذا لم يحصل أي نقاش بينهما.

إن التجربة أو الخبرة الدينية هي أمر حيوي بالنسبة للأمريكيين، وهي هدف الدين وسبب استمراريته وفعاليته. وبالنسبة لي، فإن اللحظة الحاسمة في بحثي عن الله كانت على أشدها حينما شرح لي طالب مسلم مرشد، بعد بعض التفكير، ماذا يعني له كونه مسلماً. وهذا الكتاب هو محاولتي أن أفعل الشيء نفسه أي أن أقول ماذا يعني لي كوني أصبحت مسلماً.

إن وجهة النظر هذه يجب ألاّ تؤخذ على أنها تعني عدم العقلانية، بل يجب أن تعني التركيز على المشاعر والروحانية، فالسؤال: ماذا تعني لك عقيدتك وماذا تفعل بك؟ هو سؤال مشروع ولكنه- مهما يكن- ليس السؤال الوحيد، ذلك أن الإيمان يجب أن يكون أكثر من مجرد تفكير عقلاني أو تلاقٍ روحي. والتركيز على واحد فقط من هذين العنصرين هو بمثابة إسقاط لجزء من إنسانيتنا.

وميل المسلم وحبه للجدال في الخطاب حول مسائل العقيدة يمكن أن يفهم بشكل أفضل إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مسألتين اثنتين:

أولاً: إن المسلم ليست لديه الخبرة في تقسيم حياته إلى مظهرين مقدس و دنيوي. فالحياة كلها، بالنسبة له، هي خبرة مقدسة كما يظهر في الحقيقة، من ذكره المستمر لأسماء مقدسة عند قيامه حتى بأكثر الأعمال دنيوية. وإذا كان هذا الأمر يبدو لغير المسلمين شكلياً جداً، فإن المسلمين ينظرون إليه على أنه ملائم وطبيعي. فإذا كانت

سلطة الله على حياتنا مستمرة وشاملة فكيف يكون العكس إذن؟ وهكذا، فإنك إن سألت مسلماً عن تجربته الدينية فقد سألته أن يقوم بأمر غير عادي وأن يفكر بالعقيدة ويحللها بطريقة خارجة عن المنظور الإسلامي.

ثانياً: يعتقد المسلمون بأن الدين يجب أن يكون مفهوماً أو معقولاً، أي يجب أن يكون هناك حكمة وأساس منطقي وراء كل عنصر من عناصره.

وبينما يعترف المسلمون بأن للفكر البشري حدوده، فإنهم على الرغم من ذلك يرون أن للعقل دوره الحاسم. ولا شك أن مصدر هذا الإصرار هو القرآن، وهذا يقودنا لمناقشة إحدى أولى الانطباعات الشهيرة التي يأخذها القرّاء عن كتاب المسلمين المقدس. فأحد المفاهيم القرآنية المركزية للحفاظ على العقيدة هو أهمية العقل والفكر التأملي. وهذا ما كان قد لاحظه ويلاحظه كل مستشرق غربي معاصر بدوره، فعلى سبيل المثال يقول رودينسون Rodinson:

إن القرآن يقدم باستمرار البراهين العقلية الدالة على قدرة الله. فمعجزات الخلق مثل تكاثر الحيوانات، وحركة الأجرام السماوية والظواهر الكونية، واختلاف أنواع الحيوان والنبات بما يتناسب وحياة الإنسان بشكل رائع هي جميعاً ﴿لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٣/١٩٠]

ويضيف رودينسون قائلاً بعد هذا بقليل:

يتكرر في القرآن حوالي خمسين مرّة الفعل (عَقَلَ) والذي يعني بربط الأفكار بعضها ببعض، يعلل، يفهم مناقشة ذهنية. وتطالعنا اللازمة ﴿أفلا تعقلون﴾ في العديد من السور ثلاث عشرة مرّة بعد كل قطعة تعليلية. وأما الذين لا يستجيبون لدعوة محمد فإن القرآن يصفهم بأنهم ﴿قوم لا يعقلون﴾ (كما في الآيات ٥٣-٥٨و١٠٢-١٠٣من سورة المائدة و٤٢-٤٣ من سورة يونس، و٤٥-٤٦ من سورة الأنبياء، و١٤ من سورة الحشر)،

أناس غير قادرين، عقلياً، على نبذ تفكيرهم الروتيني. وعلى هذا فهم كالأنعام (كما في الأيات ١٦٦-١٧١من سورة البقرة و٤٤-٤٦ من سورة الفرقان)[٧] .

وكتب هـ. لامِّنز H. Lammens بأن القرآن يعتبر تقريباً أن حالة الكفر هي حالة ضعف في العقل البشري[٨] .

إن المصطلح القرآني (كافر)، الذي يشرحه معظم المفسِّرين بـ غير مؤمن، يعود بأصله للمصطلح (كَفَرَ) ومعناه غطى أو أخفى. وفي الاستخدام القرآني فإن هذا المصطلح يستخدم بشكل عام ليشير إلى الشخص الذي يخفي أو ينبذ، سواء بقصد أو بغير قصد، منحة ربانية أو معروفاً مقدساً أو حقيقة مطلقة. فعندما يتحدث القرآن عن هؤلاء القوم، فإنه يسأل على نحو شكوكي تقريباً ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها﴾ [الحج: ٤٦/٢٢] و ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء ٧/٢٦] و ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩/٣٠] و﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ﴾ [ق: ٦/٥٠] و﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ؟﴾ [الغاشية: ١٧/٨٨] و ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٥٦/٦٣-٦٤] إن المعنى الضمني لجميع هذه الأسئلة هو أن دليل حقيقة هذه الرسالة يمكن أن يوجد في التاريخ، والثقافات والأرض، والأكوان، والطبيعة وغيرها الكثير. فالقرآن يصرّ على أنه يحتوي على آيات لمن ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٦٩/٢] و ﴿ الْعالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣/٢٩] ولـ ﴿ أُولُو الأَلْبابِ﴾ [الزمر: ٩/٣٩] وللذين ﴿ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣/٤٥].

---

(٧) رودينسون، *الإسلام والرأسمالية*، ص: ٧٩-٨٠.

(٨) هـ. لامِّنز، صفات محمد حسب ماورد في القرآن، *مجلة بحوث علم الدين*، العدد٢٠(١٩٣٠) ، ص ٤١٦-٣٨، ٤٣٠

H. Lammens, "Caracteristique de Mohamet d'apre le Qoran," *Recherches de science religieus* 20 (1930), PP.416-38, 430.

إن أولى الآيات التي نزلت على محمد، وهي الآيات الخمس الأولى من سورة العلق تشدد على اكتساب المعرفة ونشرها في البحث الإنساني من أجل التقدم:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٩٦/١-٥].

وهكذا فإن أوّل أمر أوحى الله به للإنسان، من خلال النبي، كان كلمة محددة ﴿اقرأ!﴾ إن المقدرة على القراءة، كما هو معروف، هي إحدى النعم السماوية العظيمة؛ يقول محمد أسد معلقاً:

والقلم هنا يستخدم رمزاً لفن الكتابة، أو على نحو أكثر دقة، لكل المعارف المسجلة عن طريق الكتابة: وهذا يشرح الأوامر الرمزية (اقرأ) الواردة في بداية الآيتين الأولى والثالثة. فعن طريق سجلاته المكتوبة، ينفرد الإنسان بقدرته على نقل أفكاره وخبراته ونفاذ بصائره من فرد إلى فرد ومن جيل إلى جيل ومن بيئة ثقافية إلى أخرى، مانحاً كل المعرفة البشرية ميزة تراكمية. وبفضل هذه النعمة الإلهية، طالما أنه بمقدور كل كائن بشري أن يشترك بطريقة أو بأخرى بالتراكم المستمر للمعرفة البشرية فإنه يقال عن الإنسان: إنّه مخلوق، علّمه الله أشياء لا يقدر أن يتعلمها بمفرده. (إن هذا التشديد المزدوج على اعتماد الإنسان المطلق على الله الذي يخلق الإنسان من وحدة بيولوجية ويغرس فيه القدرة والإرادة على اكتساب المعرفة يلاقي صداه كما هو متوقع في الآيات الثلاث التالية) التي هي: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ، إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق: ٩٦/٦-٨] [٩].

(٩) محمد أسد، *الرسالة*، ص ٩٦٣-٦٤.

إن هذه الآيات الثلاث الأخيرة تصف موقف الإنسان المعاصر الذي يعتقد بسبب إنجازات العلم أنه غني عن الحاجة إلى الله، ومن وجهة نظر القرآن فإن هذا الإنسان قد جاوز الحدود جميعاً بإساءته إلى نعمة التفكير أو العقل التي وهبها الله له. ولقد كان العديد يقارن مافي فكره مع القرآن حسب مقاييس العقل والإنسجام والحقيقة العامة فيجدون في القرآن تحدياً لأفكارهم يناسب تماماً مواقفهم، الأمر الذي أدى بالعديد من هؤلاء لاعتناق الإسلام في نهاية المطاف، ومع ذلك، وقبل الانتقال لشيء جديد، أجد لزاماً عليّ أن أذكر ملاحظة حول أساليب وترجمات القرآن.

تفسيرات القرآن وملامحه المميّزة: عندما يقرأ المسلم القرآن باللغة العربية فإنه يكتشف فيه جمالاً فائقاً وترابطاً وحكمة. ولكن العديد من القرّاء غير المسلمين عندما يقرؤون القرآن بترجماته فإنهم يصفونه بأنه غير مترابط، وغير مؤثر، وغير بارع. إن أحد أسباب مثل هذه الإدراكات المختلفة والمتطرفة هو أن معظم مترجمي القرآن من السابقين، أو اللاحقين، هم إما مستشرقون غربيون أو باحثون لا يجيدون من اللغة العربية سوى ضبط قواعدها، و أن هذه اللغة لم تصبح يوماً قط بالنسبة للعديد من هؤلاء لغة حيَّة. وهنا يكمن مصدر المشكلة الكبرى، ذلك أن ضبط قواعد اللغة والإلمام بالأدب العربي لا يمكن أن يجعلا المترجم في غنىً عن الصلة الحميمة اللاملموسة مع روح اللغة. التي لا يمكن بلوغها إلاّ عن طريق العيش بها ومعها. (١٠)

إن لغة القرآن العربية باستخداماتها المتكررة لما يدعوه فقهاء اللغة بالإعجاز جعل بدو الجزيرة العربية في عهد النبي وفي العصور التالية يحفظونها و يفهمونها بدقة متناهية(١١).

---

(١٠) المرجع السابق، ص ٣.

(١١) محمد حسين هيكل، *حياة محمد*، ترجمة إسماعيل الفاروقي، ص٥٢.

Muhammad H. Haykal. *The Life of Muhammad*. trans. Isma'il al Faruqi (Indianapolis: North American Trust Publications. 1976). P. 52.

على حين أن العرب المسلمين الذين ولدوا خارج نطاق ذلك التراث يجدون مشقّة لفهم العديد من الآيات من كتابهم المقدس(القرآن)، فإن العقبات التي يواجهونها عند محاولتهم ترجمة القرآن إلى لغة أجنبية هي أكثر مشقة وصعوبة. ولقد حقق محمد أسد انتصاراً هاماً على بعض هذه المشكلات في تفسيره للقرآن، وقد تكون ترجمة وتعليق يوسف علي هي الأكثر شهرة بين المسلمين الناطقين بالإنكليزية، بينما يفضّل الكثير نسخة بيكتال من الترجمة؛ لأنها لا تخرج كثيراً عن اللغة العربية الأدبية. ولكن القرآن يمثل للمسلمين قاطبة كلمة الله المنزلة، وبالتالي فإن أي ترجمة له لأي لغة أخرى هي سلفاً غير كاملة، وفي التحليل النهائي هي **ليست بالقرآن، وليست ترجمة له، إنما هي مجرَّد تفسير.**

إن القارئ الذي ينحدر من خلفية يهودية أو مسيحية، كما هي الحال عند معظم المعتنقين الغربيين للإسلام، تصادفه في البداية ثلاثة ملامح رئيسية في القرآن تتناقض بحدة مع ما اعتاد أن يعتبره كتاباً مقدساً:

أولاً: القرآن هو وحي شخصي بمعنى أنه، فيما سوى الآيات السبع الأولى (التي هي ابتهال إلى الله للهداية)، فإن المنظور القرآني هو دوماً بمثابة خطاب الله للإنسانية جمعاء؛ و مثال ذلك الآيات التالية:

﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣/٣٩].

﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذا سَجَا. ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلَى﴾ [الضحى: ٩٣/١-٣].

وحتى عندما يعلّم القرآن القارئ التضرّع فإنه يبدأ في معظم الحالات بتعليمه لأن يقول ذلك حرفياً، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١١٤/١].

ثانياً: الميزة الثانية هي أن القرآن، على خلاف الكتاب المقدس، لا يعيّن التواريخ

الدقيقة للأحداث أو يرتبها وفق تسلسلها الزمني. ففي حين أن الكتاب المقدس يحوي تاريخاً وتراجمَ، فإنه من المستحيل، عملياً، أن نؤرّخ أو ننسب نصوصاً قرآنية دون الإشارة إلى مصادر أخرى. فالقرآن يمكن أن يُقرأ في أي ترتيب، وإذا ما غطى المرء بالقراءة جميع محتوياته، فإنه سيحصل على فهم كامل لمعظم دروسه الأخلاقية دون الحاجة لأيّ مرجع. على هذا، وبالمعنى الفعلي، فإنه ليس للقرآن بداية حقيقية أو نهاية حقيقية. وبالنسبة للمسلمين، فإن هذا يعدّ ميزة هامة توضح أن الرسالة التي يحملها القرآن تتجاوز حدود المكان والزمان، وأن ذلك وجد بمعرفة وحكمة الخالق فيما وراء حدود الخلق.

ثالثاً: مادام أن الإسلام لا يجزئ الواقع إلى قسمين "مقدس" و "دنيوي"، فإن القرآن يمزج بين أوجه مختلفة من الخبرة الإنسانية خلال خطابه كصعود وهبوط الأمم والأفراد، وملاحظة العالم الطبيعي، وبناء المجتمعات والقوانين، والسيكولوجيا الإنسانية وذلك ليرشد القارئ في هذه الدنيا وينيره بوجود ووحدة الله. وبما أن هذه العناصر تمتزج بعضها مع بعض في الحياة، لذلك فهي موجودة في القرآن. يبدو كما لو أن كل التاريخ والحياة والخلق شواهد له وميل للالتقاء عند حقيقة سامية واحدة وهي: أن الله هو موجد، ومنظم وسيد كل شيء، وهذا شيء ينفرد به القرآن دون سائر كتب الديانات الكبرى الأخرى.

تشابه القرآن مع العهد القديم والجديد (الكتاب المقدس): يؤكد القرآن أن كل أمة عبر التاريخ تلقت رسالة الدين الأساسية نفسها، وذلك عبر أشخاص من البشر أوحى الله إليهم بذلك، وأن على الإنسان أن يستسلم لمشيئة الله (الآيات٦٩-٧٨ من سورة الأعراف و٢٤ من سورة فاطر و١٣ من سورة الشورى)؛ ولئن كان هناك فروق من حيث القوانين وممارسة الشعائر بما يتناسب مع المجتمعات الفردية، فإن الجنس

البشري استمر بالتطور والتقدم حتى أصبح مهيأً ليتلقى ويحفظ، دونما أي تغيير، المرشد العالمي القرآن الذي أنزل على محمد خاتم الأنبياء. وحسب ما يقول القرآن فإن سليل إبراهيم أبي الأنبياء هذا (لقد كانت قبيلة قريش المكّية التي ينتمي إليها محمد تفخر دوماً بأنها تعود بنسبها إلى النبي إسماعيل، وهذا تحقيق لوعد إلهي) هو النبي الذي طال انتظاره، نبياً من إخوتهم، ﴿مثله كمثل موسى﴾ قارن بين آيات القرآن الكريم: (الأيات ١٢٩ من سورة البقرة و٨١ من سورة آل عمران و١٥٧ من سورة الأعراف) مع الكتاب المقدس:(سفر التكوين ٣-٢: ١٢؛ ٢٠: ١٧؛ والتثنية ١٨: ١٨)[١٢].

إن القرآن يقدم بعثة محمد على أنها تجديد وتتويج لبعثات كل نبي من الأنبياء السابقين، وبتقديمه لذلك فإن القرآن يسرد حوادث متعددة من حياتهم. وبينما يذكر القرآن أنبياء كانوا من أهل شبه الجزيرة العربية وآخرين لا يمكن تحديد هويتهم أو أصولهم، فإن الغالبية العظمى من هؤلاء الأنبياء قد ورد ذكرهم في الكتاب المقدس. إن أحد الأسباب الظاهرة لهذا التشابه هو أن معظم الأنبياء، بما فيهم محمد، ينحدرون من أصل مشترك من خلال إبراهيم. والأهم من ذلك هو أنه بسبب أن القرآن يفرض على الأقل معرفة جزئية بالعديد من الأنبياء الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس، فإنه يصبح بمقدورنا أن نخمّن أن بعضاً من تواريخ هؤلاء الأنبياء كان معروفاً للعرب، وبالتالي للعديد من أولئك الذين اعتنقوا الإسلام في الأعوام التي تلت وفاة النبي إذ كان العديد من هؤلاء إما يهوداً أو نصارى. وهكذا فقد كانت هذه الروايات المألوفة إحدى الوسائل المؤثرة التي لفتت واسترعت انتباههم.

وفي السنوات الأخيرة قامت مجموعات طلابية مسلمة في بعض الجامعات الأمريكية

(١٢) *الكتاب المقدس*، نسخة الملك جيمس.
The Holy Bible, King James Version (Thomas Nelson, Inc. 1977).

بتمويل عدد من المناظرات ما بين متناظرين مسيحيين ومسلمين حول مسألة إن كان الكتاب المقدس أم القرآن كلمة الله. إن الموقف العام للمسلم هو أنه مادام أن العهدين القديم والجديد يحتويان على مقولات (معظمها ذو طبيعة عددية) تناقض بعضها بعضاً وتتعارض مع بعض الحقائق المثبتة، فإن الكتاب الذي يشتمل عليهما لا يمكن أن يكون كتاباً مقدساً موحى من عند الله. إن الدليل الذي يلجؤون إليه هو، على نحو تام تقريباً، نتاج قرون من البحث و الدراسة الغربيِّين للكتاب المقدس.

ولقد كان لدى معظم المسيحيين المشتركين في هذه المناظرات الاستعداد لقبول المقدمات، ولكن ليس النتائج، لأن كل فريق يحمل في فكره تصورات مختلفة عن الوحي. فعندما يتحدث المسلم عن الوحي فإنه غالباً ما يشير إلى الوحي المباشر، وهو أن النبي كان الوساطة الإنسانية التي يتحدث الله حرفياً من خلالها، أو يكشف عن مقدرته كما ورد في وصف الكتاب المقدس: "أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوحي به" (التثنية ١٨: ١٨). وكذلك «وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية» (يوحنا ١٦: ١٣). وبالتأكيد، فالمسلم يعترف أن هذا ليس هو النوع الوحيد من التخاطب السماوي مع البشر لأن الله تعالى يقول في القرآن: ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢/٥١].

إن رأي الأغلبية عند علماء المسيحية اليوم هو أن الكتاب المقدس ليس سوى توليف ذو مستويات متعددة للوحي الإلهي، ويعلّق بوكاي **Maurice Bucaille** على هذا قائلاً:

إن فكرة النص الموحى من أجل أن تصبح مقبولة دون الاعتراض ولو على جملة واحدة منه مهّدت الطريق إلى فكرة النص الملهم من عند الله. وإن نص الإلهام قد كتبه

أناس بَشَرٌ في فترات مختلفة من الزمان، وقد أخذ أدلّته من أفكار كل فترة وتضمن التقاليد والأساطير والخرافات التي كانت سائدة في الوقت الذي كتب فيه[١٣].

وفيما يتعلق بالعهد الجديد كتب كينيث كراج قائلاً:

على الرغم من أن الأناجيل Gospels تحتوي دون أدنى شك على تقارير حرفية لما قاله المسيح، إلاّ أن هناك الكثير من الأماكن، بما في ذلك إنجيل القديس يوحنّا، حيث يندمج كاتب الإنجيل بشكل لاشعوري في مادته. فهناك تلخيص وتحرير؛ وهناك اختيار وإعادة انتاج؛ وهناك شاهد عيان. لقد جاءت كتابة الإنجيل من عقول مؤلفيها، إن هذه الأناجيل تاريخٌ قصّته علينا الخبرات التي ساعد التاريخ على خلقها. ولقد غدا هذا الأمر مناسباً على نحو ظاهر وملائماً على نحو مميّز[١٤].

وفيما يتعلق بالعهد القديم وخاصة المزامير Psalms، يؤكد كراج بأن:

المزامير في شهاداتها التراكمية إلى معنى الله في حياة الإنسان تبلّغنا الأهمية الملموسة لحقيقة أن الله أراد لبني البشر الفَهْمَ. وعندما يتصارع هؤلاء مع أوضاعهم في محيط ما يعرفونه عن الله، فإن الله يوسّع ويعمّق تلك المعرفة ويظهرها، ويوحي بها إلى كل من يقرأ. إن عملية الإيحاء، إن صحّ التعبير، تجنّد وتسرّح القدرات الروحية والعقلية لأشخاص معّينين، ومن خلالهم تتم مخاطبة عقول وأرواح جميع الأشخاص[١٥].

فمن المنظور المسيحي، إذن، يمكن لنا أن نتوقع أنماطاً من التناقضات الذاتية في الكتاب المقدس كالتي ذكرت آنفاً، طالما أن هذه المتناقضات هي نتيجة طبيعية لخبرة

(١٣) موريس بوكاي، *ما هو أصل الإنسان*، ص ١٠.

Maurice Bucaille. *What is the Origin of Man?* (Paris: Seghers. 1983). 10.

(١٤) كينيث كراج، *نداء المئذنة*، ص ٢٤٩.

Kenneth Cragg. *The Call of the Minaret* (Nigeria: Daystar. Press. 1985). P. 249

(١٥) المرجع السابق، ص ٢٥٢.

كانت أحياناً تأتي عن طريق وحي غير مباشر. إن هذا وضعٌ يصعب امتحانه، وقد قصد به أن يكون صعباً، ولكن على كل من الفريقين الإقرار بأن أفضل إجراء لإثبات صحة قداسة كتاب مقدس ما هو قوة تأثير هذا الكتاب في توجيه قلوب الناس إلى الله الواحد، وإلى إنقاذهم وإصلاحهم وإرشادهم.

إن النهج المسيحي المعتاد في مثل هذه المناظرات هو اقتراح أن محمداً كان بأغلب الأحوال منتحلاً، قام بتلفيق الإسلام من مجموعة التيارات الإيديولوجية والدينية المختلفة التي كانت موجودة في الجزيرة العربية خلال حياته. وفي حين أن هذا المفهوم قد فقد رواجه عند المستشرقين المعاصرين(١٦) فإن الشيء الممتع هو أنه، عملياً، كل مناقشة استخدمها المسيحيون ضد الإسلام يمكن أن تستخدم بقوة أكبر وتأثير أعظم ضد المسيحية.

إن أحد الانطباعات الإيجابية التي تنبثق بالتأكيد من مواجهات كهذه هو أن القرآن يبدو فعلاً أنه خالٍ من أية تناقضات حقيقية. إن هذا لا يعني أن القرآن يتحاشى القصص الرمزي والأساطير والاستعارات، ولكن هذه ليست هي المطلوبة، كما هو الواضح من الآية السابعة من سورة آل عمران [٣/٧]، إنما المطلوب هو أن أنماط التناقضات التي أدّت بعلماء

---

(١٦) يتفق العديد من الكتاب الغربيين المعاصرين ممن يكتبون عن الإسلام أن النبي محمداً كان صادقاً في إيمانه الراسخ وهو أن الله نفسه هو الذي أوحى إليه القرآن. انظر على سبيل المثال هـ. أ. د. جب، *المحمدية* ، ص ٢٥ Gibb, *Muhammadanism* (London: Oxford University Press, 1962), P 25. حيث يقول: "يتضح من خلال شجب محمد العنيف للظلم الاجتماعي والاحتيال أن هذا الوضع كان أحد الأسباب الداخلية العميقة لعدم ركونه لهذا الوضع. ولكن هذه الحماسة داخله لم تنفجر على شكل ثورة اجتماعية نادى بها؛ ولكن بدلاً من هذه الحماسة شقّ طريقه على شكل قناة دينية ظهرت في إيمان ويقين راسخين من أن الله دعاه ليبلّغ من حوله من الناس الإنذار القديم للأنبياء الساميين: "توبوا، فإن وعد الله قريب." انظر أيضاً مونتغمري واط، *محمد في مكة*. E. Montgomery Watt, *Muhammed at Mecca* (London: Oxford University Press, 1953),80-85. حيث يصف القرآن على أنه (اندفاعٌ خلاّق.)

المسيحية كي يعيدوا صياغة مواقفهم حول كون الكتاب المقدس موحىً أو غير موحىً هي أمور يصعب نجداً، بل يستحيل- كما يقول المسلمون أن توجد في القرآن(١٧) .

فعلى نحين أن موقف أيّ مسلم من عصمة القرآن وتنزّهه عن الخطأ قد يبدو متطرفاً وخطراً، فإن موقف الذين هم أكثر اعتدالاً هو أقل عرضة لأي هجوم، والقرآن نفسه يؤكد أن المسلم يكره أن يغيّر موقفه من القرآن:

(١٧) لقد اكتشف المعارضون المسيحيون [للقرآن] ما اعتبروه تناقضات ولكن ندرة وتفاهة هذا النقد مثيرة للنظر. فكل متكلم (محاور) مسيحي تقريباً يلجأ إلى الدليل نفسه وهو الآية الثامنة والعشرون من سورة مريم حيث يخاطب القرآن الكريم مريم أم المسيح بـ ﴿ يا أخت هارون﴾ [١٩/٢٨] حيث يعد هؤلاء أن هذا مفارقة تاريخية. إن ازدواجية هذا النقد تبدو واضحة لكل من عنده معرفة بالعهد الجديد، حيث تدعو مريم هنا نسيبتها اليصابات بـ "بنت هارون." وفي الثقافات السامية وبين العرب والمسلمين حتى اليوم تستخدم الكلمات "بنت"، "أخ"، "عم/خال"، "عمة/خالة" و "ابن" بمعان أوسع وأشمل مما عليه الحال في الغرب. فمثلاً اللقب "أبناء إسرائيل"، "وابن داوود" و "أخي المسلم" نادراً ما تستخدم لتعني المعنى الحرفي. فإذا ما سلمنا بأن مريم كانت نسيبة إحدى الحفيدات المباشرين لهارون وهي اليصابات على الرغم من أنها هي ليست سليلة مباشرة له، فإن لقب "أخت هارون" مناسب تماماً في هذه الحالة ولا غبار عليه. وهناك وسيلة أخرى في النقد القرآني يستخدمها المعارضون وهو تحديد تفسيرات معينة لآيات من القرآن ليست متضمنة في النسخة العربية الأصلية. أذكر متحدثاً كان يقوم بمحاولة يائسة لإعطاء دليل على عدم التجانس العلمي في القرآن. فقد قال: إنّ القرآن يذكر أن الطوفان السنوي لنهر النيل هو الذي كان يجلب الحياة للمصريين أكثر من المطر، كما لو أن القرآن استبعد منافع الطوفان السنوي أو كما لو أن المطر لم يكن مهماً بالنسبة للمصريين. وبوسعي أن أذكر أيضاً أن هناك بعض النقاد الذين يسعون للحط من قدر القرآن حيث يستغل هؤلاء بعض التعليقات المبكرة حول القرآن مثل تعليقات أبي عبيدة حيث يعتقد هؤلاء أن هناك جملاً وحالات قواعدية غير نظامية تمّ تصنيفها وشرحها. وهذه الحالات غير النظامية تتضمن انتقالاً مفاجئاً من حالة لأخرى دون سابق إنذار وذلك بسبب الحذف؛ وتتضمن أيضاً أفعال جمع تستخدم لمواضيع مفردة واختلاف في معالجة جنس الأسماء. إن المفسرين المسلمين الأوائل قاموا بشرح حقيقة كون هذه الحالات أساليب بلاغية كان يستخدمها الشعراء العرب الأوائل؛ والعديد من هذه الأدوات البلاغية ما تزال قيد الاستخدام اليوم على الرغم من أن العديد من طلاّب العربية الغربيين الذين لم يتعمّقوا بدراسة اللغة ما يزالون يجهلونها.

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [النساء: ٤/٨٢].

واعتبر زميل لي في الجامعة من قسم الدراسات الدينية أن تماسك القرآن هو شهادة على عبقرية محمد الذي جاء- كما يعتقد هذا الزميل- ليكمل الكتاب المقدس. وكان يقصد بهذا أن محمداً، باعتماده على مصادر يهودية ومسيحية، كان ذا بصيرة ثاقبة مكّنته من أن يحذف تفاصيل كيفية وكميّة من هذه المصادر، كالإشارات إلى الزمان والمكان والعدد، بحيث يتحاشى أيّ تناقضات قد تحدث في وقت ما من المستقبل. وجواباً عن هذا أقول:

أولاً: يجب الاعتراف أن القرآن ليس مجرد إعادة سرد المرويّ في الكتاب المقدس بعد حذف بعض التفاصيل. ففي كل رواية موازية تقريباً هناك اختلافات هامة وأحياناً عميقة. فعلى سبيل المثال، نجد أن رواية القرآن لقصة سليمان ترفض بشكل واضح تهمة هذا النبي، الذي اختاره الله نبياً وأرشده خلال حياته، أن يكون يوماً ما عبداً للأوثان (قارن الكتاب المقدس: الملوك الأول ١١: ٤ مع القرآن الكريم [البقرة: ٢/١٠٢]. وفي وصف الكتاب المقدس لتقديم إبراهيم ابنه قرباناً لله (التكوين ٢٢: ١-١٩) نجد أن الله يتحدث مباشرة إلى إبراهيم آمراً إياه أن يذبح ابنه إسحاق الذي لا يعرف شيئاً عن خطة والده. وأما في القرآن فإن القصة هذه تصبح على شكل حلم يفسّره إبراهيم أن عليه أن يقدم ابنه قرباناً لله. والابن هنا، الذي هو غير محدد في القرآن، يقدم نفسه

بطواعية تامة إلاّ أن الله ينقذه بتدخل مباشر، بأن يفتديه بكبش، كما في [الصافات: ٣٧/٩٩-١١١] [18].

وأحد أهم الاختلافات الحسّاسة في التناظر بين السرد في القرآن والكتاب المقدس هو أن القرآن يصرّ على أن المسيح لم يصلب قط.

وكذلك هناك ملاحظة هامة إضافية وهي أن القرآن كان يصحح دوماً بعض الجوانب في بعض الروايات الواردة في الكتاب المقدس ممن كان يعتبره علماء الغرب موضع نقاش بعد عدة قرون من زمن محمد[19]. ففي قصة يوسف من الكتاب المقدس، على سبيل المثال، نجد أن أولاد يعقوب يقطعون المسافات الطويلة في صحراء سيناء على الحمير (التكوين ٤٢: ٢٦). ومهما يكن فإن الحمير ليست مناسبة للسفر المطوّل في الصحراء، ولا تصلح لأسلوب حياة البدو التي كان يعيشها حفدة إبراهيم في ذلك الزمان ولحين استقرارهم في مصر. أما في الوصف القرآني فإن هؤلاء يقومون بهذه الرحلة في قافلة من الجمال [يوسف: ١٢/الآيات ٦٥/٧٠/٧٢/٨٢] وفي السرد نفسه من الكتاب المقدس تتوقع الرواية التوراتية عداوة بين المصريين والعبرانيين، ولكن هذه العداوة لم تحصل إلاّ فيما بعد. فنجد فيها مثلاً أن يوسف لم يأكل مع إخوته "لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين (التكوين٣٢:٤٣). ولا توجد مثل هذه المفارقات التاريخية في الوصف القرآني لهذه

---

(١٨) إن تسلسل القصة القرآنية يشير إلى أن الولد المقصود بالضحية كان إسماعيل [وليس إسحق] ولكن هذا الموضوع كان مثار خلاف بين بعض المفسرين الأوائل في الإسلام. انظر مناقشة فايرستون في كتابه *رحلات في الأرض المقدسة*.

Firestone. *Journeys in the Holy Land* (New York: State University of New York, 1990).

(١٩) انظر لمزيد من التفاصيل مالك بن نبي، *الظاهرة القرآنية*.

Malik Bennabi. *The Qur'anic Phenomena*, trans. A. B. Kirkay (Indiana Polis: American Trust Publication, 1983).

القصة، حيث لا إشارة لأي تحامل مصري تجاه أسرة يعقوب لاحظ (الآيات ٥٨-٩٣ من سورة يوسف).

وفي سفر التكوين نقرأ أنه في الطوفان العظيم:

محا الله كل قائم كان على وجه الأرض. الناس والبهائم والدبّابات وطيور السماء. فانمحت من الأرض. وتبقّى نوح والذين معه في الفلك فقط (تكوين ٧: ٢٣).

وبناء على بيانات الترتيب الزمني المضمّنة في النسخ القديمة من الكتاب المقدس فإن هذا الطوفان العظيم كان من الممكن أن يكون قد وقع ليس قبل القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد.[٢٠] ولكن الدليل العلمي أثبت أنه منذ هذا التاريخ [القرن ٢٢ق]، ونزولاً حتى اليوم، كانت هناك دوماً حضارات مزدهرة في أجزاء متعددة من المعمورة، وهذا ما يناقض قصة الطوفان في الكتاب المقدس. وفيما يتعلق برقعة امتداد الطوفان فإن القرآن يذكر فقط أن قوم نوح هم الذين دُمِّروا بالغرق، وهذا لا يتنافى مع ما نعرفه اليوم عن ذلك الحدث [الفرقان: ٢٥/٣٧] ومن التناقضات المروّعة حقاً بين وصف الكتابين المقدس والقرآن الكلام على أيام الخلق. فسفر التكوين يعطي انطباعاً مفاده أن هذه المراحل المختلفة أو الأزمنة من خلق الأرض كانت تتألف من أربع وعشرين ساعة أزمنة أو "أيام"، كما نفهم عامة، بالإضافة التالية بعد إكمال كل مرحلة متتابعة "ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساءٌ وكان صباح يوماً واحداً (يوماً ثانياً، ثالثاً، الخ) (التكوين ١: ٥، ٨، ١٣، ١٩، ٢٣، ٣١). وطبعاً هذا ما كان يؤمن به الناس لعدة قرون، حتى تم اكتشاف أن فترات تطوّر الأرض استغرقت فترات من الزمن أكبر

(٢٠) بوكاي، *الكتاب المقدس والقرآن والعلم*. ص ٣٢-٣٥.

من تلك التي ذكرها الكتاب المقدس. وفي مناقشة القرآن "للأيام" هذه نفسها نجد الملاحظة التحديدية التالية ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٣٢/٥]. إن هذه الآية تشير إلى حقيقتين:

آ- أنّ هذه (الأيام) يجب ألاّ تفهم بالمعنى الحرفي الدنيوي، بل إنها تشمل على فواصل زمنية أطول بكثير مما يمكن تصوّره.

ب -عندما يستخدم القرآن كلمة (يوم) بالإشارة إلى عمل الله فإن ذلك لا يعني بالضرورة فاصلاً زمنياً محدداً كما هو مذكور في الآية ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٧٠/٤].

أحياناً عندما يورد القرآن قصة نبي من الأنبياء فإنك تجد تفاصيل هنا لا يمكن أن تجد مثلها في الكتاب المقدس، ثم إن القرآن يلفت انتباهك إلى أن الله قد جعل من هذه الشخصية أو هؤلاء القوم أو هذا الحدث (آية) لأزمان قادمة. إن هذا يرد مثلاً في الوصف الموجز للطوفان الذي ذكرته آنفاً. ومن أكثر هذه الحالات متعة ذلك السرد القرآني لقصة الخروج:

﴿وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائِيلَ وَأَنا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ﴾ [يونس: ١٠/٩٠-٩٢].

وهاهنا إشارة غريبة في الآية ٩٢، و التي تدل على حفظ جسد فرعون ليكون (آية) أو عبرة لمن سيأتي بعده في الزمان. إن التحقق من هوية فرعون والخروج كان موضوع تفكير وبحث طويلين. فبعد دراسة مكثّفة يناقش موريس بوكاي هذه المسألة على نحو

مقنع، ويقول: إنه من أنصار وجهة النظر القائلة أن مرنبتاح Merneptah، خليفة رعمسيس الثاني Ramses II كان فرعون موسى. فلقد اكتشفت مومياؤه المحنطة، التي كان بوكاي قد أجرى عليها فحصاً طبيّاً عام ١٩٧٥، في مقبرة وادي الملوك في طيبة مصر عام ١٨٩٨[٢١]. ويعتقد بوكاي أن الآية ٩٢ من سورة يونس من القرآن الكريم قد تكون إشارة إلى هذا الاكتشاف بعد حوالي ثلاثة عشر قرناً من نزول هذه الآية. ومادام أن القرآن لا يحدد هوية فرعون الخروج، فإن لقب (فرعون) قد يعبِّر هنا عن الجنس أو النوع (نوع الحكام الذين كانوا يحكمون مصر في القديم)، وفي هذه الحالة فإن الآية المذكورة قد تكون إشارة إلى ممارسات التحنيط العامة التي كان يقوم بها المصريون "لتنجية" أو حفظ موتى حكامهم. ومهما كانت حال الحقيقة للذين يؤمنون بالقرآن، فإن اكتشاف الأجساد المحفوظة لموتى الفراعنة (المومياءات) يمكن أن ينظر إليه على أنه تأكيد احتمالي آخر أو (آية) من الآيات التي ذكرها القرآن

القرآن والعلم: إن أحد المواضيع التي استرعت اهتمام المحاضرين في الغرب خلال العقدين الماضيين هو مقارنة المكتشفات العلمية الحديثة مع الإشارات الواردة في القرآن حول الظواهر الطبيعية. وغالباً ما يستشهد هؤلاء بما قام به عالمان غير مسلمين هما موريس بوكاي[٢٢]، و (بدرجة أقل) كيث مور[٢٣] Keith Moore؛ ومع ذلك، فقد راج هذا الموضوع بين الكتاب المسلمين منذ بداية القرن العشرين. ولكن يبقى علماء الدين الإسلامي حذرين حيال طروحات كهذه. وقد يكون مردُّ ذلك، جزئياً، إلى أن بعض هؤلاء العلماء ليسوا على اطلاع واسع على الثقافة العلمية الحديثة؛ وقد يكون

(٢١) المرجع السابق، ص ٢١٩-٢٤١.

(٢٢) المرجع السابق.

(٢٣) كيث مور، *الإنسان المتطوّر.*

Keith L. Moore. *The Developing Human*. 3rd edn. (Philadelphia: W. B. Saunders, 1982).

السبب أيضاً أن لهذا القلق الكبير ما يسوّغه، وهو أنه على الرغم من أن القرآن غالباً ما يدعونا إلى عدّ المظاهر المختلفة للطبيعة على أنها دليل على نعم الله وحكمته، إلاّ أن القرآن هو أبعد عن أن يكون كتاباً علمياً مقرراً. أعتقد أن الكثير من العلماء المسلمين يتفقون مع مقولة شون Schuon، وهي أن هدف الله الرئيس أن ينقذ البشر وليس أن يعطيهم الأوامر، وأن همه هو الحكمة والخلود وليس بالمعرفة الظاهرية أو حتى إرضاء الفضول الإنساني(٢٤). ومع قبولنا بهذا الحذر، إلاّ أننا لا نستطيع أن ننكر أن هذه الإشارات إلى أعمال الطبيعة موجودة في القرآن وأنها جديرة بأن تعدّ (آيات) أو دلائل على أن القرآن ذو أصل سماوي.

وهناك سبب آخر يدعو لهذه الحيطة وهو الميل للاعتقاد بأنّ على القرآن أن يتوقّع تقريباً كل اكتشافات ونظريات العلم الحديث مثل انشطار الذرّة، والتطور الداروينى، واكتشافات ما تدعى (بالثقوب السوداء)، وعدم تطابق بصمات الأنامل. وغالباً ما تتضمن هذه المناقشات أن ننسب إلى بعض الكلمات العربية معاني لم توجد قط زمن التنزيل. فمثلاً الكلمة العربية ذرّة الواردة في الآية الثامنة من سورة الزلزلة والتي أصلاً تعني مقداراً ضئيلاً جداً أو حبة ثرى غالباً ما تفسر بـ(ذرّة) atom لأن المعنى في هذه الآية يشير إلى أصغر جزيء من المادة يعرفه الإنسان. لقد أعطاها المفسّرون هذا المعنى لمصلحة القارئ الحديث وهذا أمر حسن. ولكن المشكلات قد تنشأ عندما يستخدم المعنى الوارد مثلاً في الآية الحادية و الستين من سورة يونس أن القرآن يتنبأ باكتشاف جزيئات دون ذرّية [أصغر من الذرة](٢٥). إن هذه الشراك (المطبات) يمكن تحاشيها

---

(٢٤) شون، *فهم الإسلام*، ص٤٥.

(٢٥) إن هذا الميل يوجد عند الأقليات الدينية الأخرى أيضاً. فقد خاطب أحد المتهكمين حضوره قائلاً إن العهد الجديد يحتوي على نظرية بيك بانك Big Bang Theory عن الخلق لأنه في إنجيل يوحنا مكتوب "أن البداية كانت (كلمة)، ومادام أن الكلمة هي وحدة مستقلة في عالم اللغة وعندما تلفظ فإنها تعطي تذبذباً في-

عن طريق الإشارة إلى بعض الدراسات المتعلقة بفقه اللغة كتلك التي قام بها راغب الأصفهاني Raghib al Asfahani[٢٦] ووليم لين William E.Lane[٢٧] وذلك من أجل الوصول إلى المعنى الأصلي للمصطلحات في القرآن وإلى مكتشفات العلم الحديث التي يمكن أن ندعوها حقائق. ومع ذلك فإنه يتوجب علينا ألاّ نصرّ على فهم معيَّن لنص قرآني لأنه في الحقيقة ﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧/٣].

وكما سبق القول فإن أولى الكلمات التي أنزلت على محمد كانت ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٩٦/١-٢]. إن كلمة (علق) تمت ترجمتها على أنها "شيء ما صغير يعلق. وفي العديد من الترجمات تمت صياغتها على أنها جلطة دم والتي لا يمكن أن تكون إنساناً في أية مرحلة من مراحل تطوره رغم أن لها رنيناً خاصاً في الإنكليزية. وفي الأصل العلق هو مخلوق صغير جداً يشبه الطفيليات له قدرة على تعليق نفسه من إحدى نهايتيه إلى سطح ما. وهذا وصف ينطبق على البيضة الملقحة خلال المراحل الأولى من تطوّرها، وهذا هو الوقت الذي تزرع فيه البيضة نفسها في جدار الرحم؛ يقول موريس بوكاي:

إن انغراس البيضة في الرحم هو نتيجة تطوّر زغيبات، وهي استطالات دقيقة في البيضة والتي تستمد غذاءها الضروري لنمو البيضة من ثخانة الرحم،مثلها في ذلك مثل

-الصوت وهذا ينطبق على العالم الطبيعي عن طريق التسائل، وهي نظرية انفجار نقطة أصلية مفردة ذات كتلة كثافة هائلة.

(٢٦) أبو القاسم حسين راغب الأصفهاني، *المفردات في غريب القرآن*.

(٢٧) وليم ي. لين، *القاموس الإنكليزي ـ العربي*
William E. Lane, *Arabic English Lexicon* (London:1863-93)

جذور النبات في التربة، و هذه التشكلات تجعل من البيضة تتعلّق بالضبط بجدار الرحم. و لم يتم اكتشاف هذا إلا في العصور الحديثة[٢٨].

وبعد الانغراس، يبدأ الجنين بالنمو حتى يصبح شكلها للعين المجردة كقطعة لحم ممضوغة. ثم يتطور التركيب العظمي داخل هذه الكتلة ويتلو هذا تطور أنسجة العضلات التي تغطي العظام. إن هذا الأمر معروف تماماً بالنسبة لنا اليوم، ولكن هذا الوصف موجود في القرآن:

﴿. . . فَخَلَقْنا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنا الْعِظامَ لَحْماً. . .﴾ [المؤمنون: ٢٣/١٤].

إن على المرء أن يقرّ بالعرفان للتشابه الرائع ما بين الوصف القرآني لتطور الإنسان والاكتشافات المؤخرة في علم الأجنة، وخاصة عندما نفكر بحجم الأفكار المغلوطة حول تطور الإنسان والتي سادت أكثر من ألف عام بعد نزول القرآن.

ويدعونا القرآن في عدد من الآيات ٥٤ من سورة التوبة، و٣٧ من سورة فاطر و٢٩ من سورة لقمان إلى أن نفكر في تعاقب الليل والنهار على أنها آية أخرى من آيات العليّ القدير. ومن الظواهر الرائعة الآية التالية ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر ٣٩/٥] إن الفعل (كوَّر) قد ترجم إلى الإنكليزية في هذه الآية بمعنى (يلتف حول) ولكن هذا الفعل له معنىً أكثر دقة بالعربية، فأصل الكلمة (كرة) والتي تحمل في طياتها معنى التغليف أو لف شيء ما حول شيء كروي كلفّ خيط من مغزل حول كرته. ومن منظور كوكب الأرض إن هذا هو الذي يحدث تماماً في نصف الكرة المظلم الذي يتبعه نصف الكرة المضيء في حركة لف حول سطحها. وهذا ناجم

---

(٢٨) موريس بوكاي، *الكتاب المقدس و القرآن والعلم*، ص٢٠٤.

عن دوران الأرض وموقع الشمس الثابت نسبياً بالنسبة للأرض. إن أسلوب القرآن في التعبير عن هذا الوصف أسلوب رائع، إلاّ إذا قبل المرء دعوى القرآن أن ذلك وحي من الله.

مثال آخر أكثر دقة، ولكنه ذو دقّة عالية في وصفه لظاهرة طبيعية تتحدث عنها الآية الثامنة والستون من سورة النحل: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾. إن فعل الأمر "اتخذي" هنا هو في صيغة المؤنث (اللغة العربية، على خلاف الإنكليزية، تميِّز بين المؤنث والمذكر). إن صيغة المؤنث تستخدم عندما يكون المخاطبون جميعاً من الإناث، في حين أن صيغة المذكر تستخدم إذا كانت المجموعة تتألف على الأقل من مذكَّر واحد. على هذا فالقرآن كأنما يخاطب النحل هنا قائلاً «اتخذي أيتها النحلات (الإناث)بيوتاً. . .» إن الخشرم (جماعة النحل) تتألف من ثلاثة أنواع: الملكة، والنحلات الشغالات التي تجمع العسل وتبني الخلية، والنحلات الذكور التي عملها الرئيس هو تلقيح الملكة، ثم إن النحلات الشغالات تقوم بقتل هذه الذكور. والنحلات الشغالات هي إناث لها أعضاء تناسلية ناقصة النمو. وهكذا فإن التعبير المستخدم لهذا الأمر (اتخذي) يتوافق وحقيقة أن ذكور النحل لا تشترك في بناء الخلية أو بيوت النحل لأن هذا العمل خاص بالنحلات الشغالات الإناث فقط.

إن بعض آيات القرآن تساير آخر الاكتشافات الحديثة، مثال ذلك، أثبت العلماء مؤخراً، عن طريق دراستهم لطيف المجرّة أن الكون في حالة اتساع، وفي القرآن نقرأ: ﴿وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/٤٧] إن ترجمة آربيري Arberry لهذه الآية من القرآن تقارب هذا التفسير، لأن كلمة (سماء) تعني القبة، هذا يعني عالم ما وراء حدود الدنيا، والفعل (موسعون) اسم فاعل جمع للكلمة المفردة موسع والتي تعني (يوسِّع، يمد، يمتد). وفي مثال آخر نقرأ قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٣٠].

وإذا ما وضعنا هذه الآية نصب أعيننا فإن فكرة أخرى في العلوم الحديثة تصبح مثار اهتمامنا. فقد ساد اعتقاد بين العلماء لبعض الوقت مفاده أن الكون كان أصلاً كتلة أولية أحادية ذات كثافة غير محددة تقريباً، ثم انشطرت فيما بعد ذلك إلى أجزاء متعددة كثيرة بعد انفجار هائل، (انفجار بيك بانك Big Bang) وهو الانفجار الكوني الأول. وكذلك ساد الاعتقاد أيضاً بأن جميع الخلايا الحية تتألف في معظمها من الماء الذي هو العنصر الأساسي لوجود الحياة كما نعلم. إن هذه الآية تتوافق مع هذه المفاهيم. ولكن الملاحظة الأكثر متعة هو أن هذا تحدي القرآن للكافرين كان قد ظهر في القرن السابع الميلادي. وقد نسأل أنفسنا: أيُّ الكافرين هم المخاطبون هنا؟ لقد كان لهذه الآية عناصرها الخطابية بالنسبة لمعاصري محمد ولكن هذا السؤال ربما لم يكن يعني شيئاً بالنسبة إلى عدد كبير منهم إلاّ إذا كانت هناك أساطير عربية في السابق (واختفت الآن) بحيث كان في مقدورهم ربط تلك الأساطير بفحوى هذه الآية، أم أن هذه الآية قصد بها أن يفهمها أناس سيجيئون في عصور تالية على اطلاع على المكتشفات العلمية الحديثة؟

إن هذه الملاحظة تقودنا لنتساءل كيف استطاع مفسّرو القرآن الأوائل والذين عاشوا قبل الفترة الحديثة أن يفهموا هذه النصوص. قبل كل شيء وربما مع بعض الاستثناءات، إن جميع هذه الآيات يمكن أن يفهمها أي إنسان بمستوى ما حسب درجة معرفته، ذلك أن اللغات جميعاً، وخاصة تلك التي نزلت بها الكتب المقدسة، تحتوي على مفردات لها ظلال عدة من المعاني. وحتى ولو لم يعرف أحد ما أن الأرض كروية فإنه لا شك يشعر بتعاقب الليل والنهار، وبالتالي فإنه يعتبر أن اختيار الكلمات

في الآية الخامسة من سورة الزمر أكثر من كونه مسألة خاصة. وكذلك كان المفسّرون يفهمون كلمات كهذه على أن لها معنىً رمزياً أو خفياً، وهذا يعكس الحقيقة القائلة بأن هذه الآيات لها في الوقت نفسه معان ومقاصد على عدة مستويات، وهذا ما سنتطرّق إليه بعد قليل. ففي بعض الأحيان كان المفسّرون يجازفون بشروحات علمية كانت في معظم الأحيان خاطئة تماماً؛ وأحياناً أخرى كان فهم هؤلاء مقارباً جداً لما تم اكتشافه فيما بعد. ولكن الأهم هو أن الآيات تظهر كأجزاء من نصوص أكبر يكون التشديد فيها على هداية وإنقاذ الإنسان، وبالتالي فإن المفسرين كانوا غالباً ما يغفلون دلالات تقنية كهذه، وذلك بسبب جهلهم بالفكر العلمي الحديث.

وكذلك لابد لنا من أن نذكر أن هناك تعابير في القرآن تبدو وكأنها تشير إلى تفاسير علمية مستقبلية. فالأحرف الرمزية الغامضة التي تدعى بالمقطعات، والتي تظهر في بداية العديد من السور قد تكون ذات دلالات علمية يكشف عنها المستقبل[٢٩]. أما بوكاي فإنه يقدم في كتابه *الكتاب المقدس و القرآن و العلم* تخميناً فيما يتعلق بالإشارة المتكررة في القرآن إلى (السموات والأرض وما بينهما)[٣٠].

إن القرآن يحتوي على وصف مثير ليوم القيامة، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنّا كُنّا فاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٤].

ومن خلال هذه الإشارة إلى طي السموات كما تطوى لفائف الورق كما في الخلق الأوّل، و مع علمنا بالانفجار الكبير (بيك بانغ) السالف الذكر، هل يمكن لنا أن نخمّن

---

(٢٩) رشاد خليفة يدعي أنه كشف السر الكامن وراء هذه الأحرف الرمزية. فقد ربط ما بين هذه الأحرف والرقم ١٩ المذكور في الآية الثلاثين من سورة المدّثر، ولكن العلماء المسلمين محقّون بشكّهم حول ما جاء به. راجع: رشاد خليفة، *القرآن: الميثاق الأخير*

Rashad Khalifa. *Qur'an: The Final Testament* (Tucson, AZ: Islamic Prod., 1989).

(٣٠) بوكاي، *الكتاب المقدس و القرآن والعلم*، ص ١٤٨.

أن الكون استمر بالانشطار والتمدد بطريقة حل اللفافة بعد الانفجار الكبير، وبحركة دوران خارجية حول محور خطي مستقيم ما؟ و هل ستكون نهاية الكون حركة عكسية لهذا الإجراء؟ بالطبع هذا مجرَّد تخمين مبني فقط على افتراضات يؤمن بها الكثيرون الآن، والتي يمكن أن يوجد لها قاعدة علمية يوماً ما. وها هنا مثال قرآني آخر:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٦٧/٣-٤].

على الرغم من عجز الإنسان عن الإحاطة بأسرار وتعقيدات الخلق التي يعبّر عنها هذا النص، إلاّ أن هذا النص يشير إلى ظواهر طبيعية متعددة أيضاً.

إننا لا نستغل هذه الفرصة لنؤكد أن هناك آيات قرآنية معيَّنة تشير إلى اكتشافات علمية محددة، بل إن ما نقوم به هو فقط مقارنة جمل قرآنية تتعلق بالكون الطبيعي وببعض الأفكار العلمية المعينة. وغالباً ما نجد أن هناك تشابهات عميقة، ولكن ما يلفت النظر أكثر هنا، كما يقول بوكاي، هو أن القرآن يمتاز من كافة الكتب القديمة التي تصف أو تحاول أن تشرح وظائف الطبيعة، بحيث إنه يتجنَّب المفاهيم الخاطئة، لأن القرآن يشير إلى العديد من الموضوعات التي تحتوي على مضامين من المعرفة المعاصرة دون أن تخالف ولو جملة واحدة من هذه الموضوعات ما قد تم التوصل إليه في العلم الحديث[٣٠] .

(٣٠) بوكاي، الكتاب المقدس و القرآن والعلم، ص ١٦٣. إن المؤلف يذهب إلى حد بعيد لدرجة يختتم فيها دراسته بالملاحظة التالية: "في ضوء مستوى المعرفة في عصر محمد لا يعقل أن تكون العديد من الحالات الواردة في القرآن والتي تتعلق بالعلم من عمل الإنسان على الإطلاق. وإنه لحق تماماً أن نعدالقرآن ليس تعابير وحي -وحسب، بل أن نمنحه مكانة خاصة جداً بناءً على ما يعطينا من أصالة مضمونة؛ ولاحتوائه على معلومات علمية والتي فيما لو درست اليوم لبدت على أنها تحدّ للشرح حسب ما يفهمه الإنسان."

فالآيات تحقق بالضبط ما تقترحه مدلولاتها فهي تعمل كنقاط علاّم، فتلفت انتباه المرء، وتساهم في إرشاده إلى التفكير العميق وأحياناً تقوده إلى الإيمان. إن قوة هذه الآيات لا تكمن في إعطائها توصيفات دقيقة وواضحة لبعض المظاهر الطبيعية، ولكن في قدرتها على إشباع فضول الإنسان وخشيته خلال العصور. وعلى الرغم من قدرتنا على النقاش حول حقيقة معنى أي من هذه النصوص، فإن المواضيع التي تمت مناقشتها في هذا الفصل حتى الآن تقودنا إلى انطباع واحد محدد، وهو أن مبدع القرآن كان يعلم سلفاً أن عقل الإنسان سوف يتطور، وهذا التطور سيبلغ قمته في عصر يعدّ فيه العقل والعلم المعيار النهائي للحقيقة.

اعتبارات مركزية

ومما يثير مخاوف العديد من المسلمين أن هذه الملاحظات آنفة الذكر، قد لا تقنع غير المسلمين أن القرآن هو كلمة الله. إن العبقرية، مهما كانت عظيمة، هي دوماً خفية، ولكن ليس بالضرورة مقدسة. وقد يقومون ببعض التحرّيات الإضافية، ولكن في مرحلة ما لا بد وأن يثير القرآن في القارئ السؤال الأبدي: هل الله موجود، وإن كان هناك إله فما علاقتنا بالنسبة إليه وما هدف ومعنى حياتنا؟

التصوير الفني في القرآن: عندما يترجم كتاب مقدس إلى لغة ما فإنه ينجم عن ذلك ضياع كبير في المعنى. ولكن إذا كان دافع المترجم الالتزام والتقوى فقد يشع في النص المترجم بريق مقدس لا يمكن أن تقيده حدود الإنسانية. وعلى الرغم من أن القرآن بالتأكيد هو أشد تأثيراً على القارئ في اللغة الأصلية (العربية) من الترجمات إلاّ أن شيئاً من الروعة والرهبة والجمال والإشراق من التصوير الفني القرآني قد يحيا في الترجمة، ليثير في النفس انعكاساً عميقاً. فالمشاهد التصويرية والراعبة للنار على سبيل المثال والتي يبدو أنها تفوق في الأهمية وصف جمال وبهاء الجنة، تدفعنا لأن نفكر في إمكانية وقوعها.

وبسبب هذا التوكيد فقد رأى البعض أن الله الذي يتحدث عنه القرآن هو أقرب إلى الانتقام منه إلى المسامحة. ولكن وضمن السياق الكلي للقرآن يظهر الله لنا على أنه أكثر عزماً على إنقاذ البشر وإعادة طمأنتهم. ولاشك أن هذه المسألة تحتاج لمزيد من البحث وهذا ما سنقوم به لاحقاً.

وعلى الرغم من أن جميع معتنقي الإسلام الغربيين مجبرون على الاعتماد على التفسيرات، إلاّ أني واثق من أن جميع هؤلاء قادرون على التمييز و الانتباه إلى أن أكثر ما يثير الإعجاب بالقرآن هو أسلوبه الأدبي؛ لأنه يغرس في قارئه ذلك الشعور اللاملموس من أنه صادر عن وحي سماويّ. وخير ما يستشهد به هنا هو قول دِني Denny:

أثناء قراءة الناس للقرآن كمثل حالة الدراسة الفردية التي تعتمد على فهم المعنى، سواء أكانت هذه القراءة جهرية أم صامتة، تأتي لحظات على بعض هؤلاء القراء عندما يشعرون من خلالها بحضور شيء ما غامض وأحياناً راعب معهم. وبدلاً من قراءة القرآن فإن القارئ يشعر كأن القرآن "يقرؤه"! إن هذه خبرة تثير المشاعر والعقل بشكل رائع وليس من الضروري أن يكون المرء مسلماً حتى يشعر بها؛ إن هذا الوصف للقوة الضمنية للقرآن كانت أحد الأسباب الرئيسة في انتشار الإسلام وفي تمسك المسلمين بالصراط المستقيم أيضاً، طالما أن القرآن نفسه هو الذي يعطي لهذا الدين خصائصه[٣٢].

عودة إلى الآيات؛ قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٤١/٥٣].

إن الآيات لا ترشدنا وحسب ولكنها تؤكد وتثبّت خطانا وقراراتنا. وعلى هذا فرحلاتنا بأفكارنا نحو الآفاق وتأملنا لما في نفوسنا هو من آيات الله. وبالفعل فإن جميع

(٣٢) فريدريك دني، *الإسلام*، ص ٨٨.

Fredrick Denny, *Islam* (New York: Harper & Row. 1987).P. 88.

آيات القرآن عن الطبيعة تظهر من بين الأشياء التي تذكرّ الإنسان بواجبه ومسؤوليته تجاه خالقه وتجاه محاسبة الله له، والتي هي ليست ببعيدة. وكل من الآيات التي تم إيرادها تصلح أن تكون شاهداً يوضح هذه النقطة. وأما الآية التالية فقد اخترتها هنا لجمالها بالدرجة الأولى، يقول تعالى:

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها وَأَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٤/١].

إن هذه الآية هي بداية سورة النور وهي إحدى أشهر سور القرآن عند كلٍ من الكتّاب المسلمين وغير المسلمين. ولقد اكتشف مالك بن نبي ببراعته ما بدت بالنسبة إليه آيات بينات في نصّين رائعين وهما[٣٣] :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثالَ لِلنّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالآصالِ ، رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصارُ ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ ، ﴾ [النور:٢٤/٣٥-٣٨].

في هذه السورة المتألّقة (سورة النور) يرى بن نبي شيئاً مثيراً للدهشة والإعجاب. فالقصة الرمزية (في هذه الآيات)صورة ضوء مشع برّاق ضمن وعاء زجاجي، يوقد من مصدر كان غير معروف وقت نزول هذه الآية، لا في الشرق ولا في الغرب "لا شرقية ولا غربية" وهذا الضوء يشع ضمن هذه الزجاجة دون أن يمسّه لهب. ويقترح بن نبي

(٣٣) مالك بن نبي، *الظاهرة القرآنية*، ص ٨٤-١٦٥ .

أن هذا المثل قد يصلح في الحقيقة أن يكون وصفاً لضوء الكهرباء، وهذا اقتراح مثير للدهشة والعجب. في البدء قد يبدو تخميناً كهذا وكأنه يتنافى وجمال هذا النص ولكن هذا ليس غريباً عن القرآن الذي غالباً ما نصادف، ضمن محكم آياته وتناغمها، معلومات تخبرنا في الوقت نفسه عن أمور زمنية ودنيوية. ولكن إيقاع القرآن غالباً ما يشغلنا عن أي موضوع آخر.

وبعد هذه الآية من سورة النور هناك مثلان يصوران حالة الكفر ونتائجها المدمرة، يقول تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ . أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٢٤/٣٩-٤٠] ويشير مالك بن نبي إلى أن التشبيه الأوّل أمر يتوقعه أي شخص كان يقطن مكة في القرن السابع الميلادي، ولكنه يرى أن في التشبيه الثاني في هذه الآية بصورة الغيوم الداكنة والأمواج المتلاطمة أمراً يناسب سكان المناطق الساحلية الشمالية أكثر مما يناسب سكان مكة. وهو يربط الإشارة إلى وجود طبقات الأمواج بعضها فوق بعض في المحيط أو البحر بما يعرف اليوم في علم المحيطات بتراكيب الأمواج وتزايد الظلمة كلما توغلنا نحو الأعمق في المحيطات، إلى الاكتشاف في حقل البصريات عن امتصاص الضوء في الماء.

ولكننا نستطيع أن نستقي من هذه الآية موضوعاً أكثر احتمالاً ووضوحاً من ذاك الذي استنتجه بن نبي، وهو أن حياةً مخصّصة على نحو رئيسي للسعي وراء متاع الحياة الدنيا ستنتهي لا محالة إلى الوهم المطلق والاختناق الروحي. ولكن التركيب اللفظي هنا جدير بالملاحظة. فإن كان عليَّ أن أقارن حالة الكفر بحالة الغرق في البحر كوني

نشأت في المنطقة الساحلية من مقاطعة نيو إنكلاند New England (انكلترا الجديدة) فإني سوف أستخدم، إن جاز لي، "موجة تلو الموجة" بدلاً من "موجة فوق موجة" لأن المرء غالباً ما يظن أن الموج يوجد على سطح المحيط فقط حيث تتابع الموجة تلو الأخرى في نسق مستمر. إن هذا هو الذي يتبدى لنا ولكن الوصف القرآني هو في الحقيقة أشد دقة. وما لم أكن قد خبرت الغوص في أعماق المحيطات فلن أكون قادراً على التفكير في تدرّج مستويات الظلمة في أعماق المحيط، ذلك أن درجة الضوء في الغالب ثابتة في المياه الضحلة نسبياً كماء البركة أو البحيرة.

وإذا سلمّنا بصحة مكتشفات بن نبي فإن ما يحجبها هو مضامين النصوص الأكثر وضوحاً والتي تقترن مع هذه المكتشفات، في حين نجد أن معظم الآيات قد عرضت مستقلّة هنا على أنها أدلة من الخبرة أو الطبيعة الإنسانية. إن هذه الآيات تساهم في إيضاح إحدى الطرق المتعددة التي يدعو القرآن بها قارئه لاستقصاء الأسباب مع مزجه لاعتبارات روحية بأخرى دنيوية.

دور العقل: قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/٤٤].

إن القرآن يأمرنا أن نفكر بعين ناقدة في سلوكنا ومعتقداتنا. فالخلاص يمكن الحصول عليه من خلال تقصي الحقيقة والتسليم بها. إن أحد أهداف القرآن هو أن يعلّمنا كيف نتناول المواضيع الدينية بأدب، وكيف نعلل بدقة، وكيف نكشف عماً هو متناقض ومتضارب ضمن أنفسنا. وتقترن في العديد من أمثلة القرآن وقصصه ونصائحه دروس تتعلق بالتفكير الصحيح والتفكير الخاطئ. وعلى نحو مميّز نجد أن القرآن يشدّد على أهمية الدليل والبرهان في المناقشة، يقول تعالى: ﴿وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارَى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢/١١١].

وسيقول الوثنيون:

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١٤٨/٦].

أم هل سيقولون:

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤-٣٣/٥٢] ﴿لَوْلا جاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣/٢٤].

وفي العديد من الأماكن يعرض القرآن للعيوب غير المنطقية في بعض الطروحات العامة للمواضيع الدينية:

﴿وَقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارَى عَلَى شَيْءٍ وَقالَتِ النَّصارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ كَذَلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣/٢].

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٤٧/٣٦].

إن أولى هاتين الآيتين توضح لنا مقولة تبادل التُّهم في البيت الزجاجي إذ إن الحجة التي تستخدمها كل ديانة ضد الأخرى تنطبق على كلتيهما. أما في الآية الثانية، فالمعنى المتضمن في رد الكافرين على المؤمنين الذين يأمرون هؤلاء بالصدقات ليس فقط ينكر دوافع الإحسان في الإنسان بل إذا ما طبَّقنا هذا التعليل حسب قول الكافرين فليس هناك حاجة للإنسان في السعي لكسب الرزق بما في ذلك حفظ الجنس البشري.

وأما سورة الأعراف فتقدم لنا مثلاً على كيف أن الناس يضلّون عن الحقيقة المستمدة من الظروف المختلفة، يقول تعالى:

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٧٦][٣٤].

وسورة الكهف تنتقد من يحاول إضاعة نفسه ووقته في مناقشات لا معنى لها من أجل الحصول على تفاصيل غير هامة، يقول تعالى:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاّ مِراءً ظاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ [الكهف: ١٨/٢٢].

إن هناك دروس حكمة رائعة في السرد القرآني، وعندما تتكشف أحداث قصة موسى والرجل الصالح في هذه السورة (الآيات ٦٠-٨٢) فإن القارئ يجد نفسه محاولاً حلّ لغز سرمدي: كيف يمكن لأشياء شريرة، من حيث الظاهر، أن تؤدي خيراً كبيراً؟ فعندما يحاول موسى أن يحلل في عقله هذا اللغز، فإنما يلقّن نفسه درساً حول العدالة الإلهية وحول طبيعة الخير والشر. وعلى نحو مشابه في سورة يوسف، فإننا نكتشف كيف تعمل إرادة الله، ونكتشف أيضاً المعنى والهدف الكامنين وراء مصائب الحياة. وفي قصة داوود وسليمان (الآيتان ٧٨-٧٩ من سورة الأنبياء) يعطينا الله درساً عميقاً في الحكمة والعلم الواسع. ومع هجوم القرآن المستمر على أخطاء العقيدة بشكل مباشر أو غير مباشر، أو في وصفه لمكاشفات المؤمنين والكافرين فإن القارئ، مهما كان

---

(٣٤) إن جاري ميلر Gary Miller هو الذي لفت انتباهي لهذا المثل.

موقعه، سوف يشغل نفسه في نقاش مستمر. وهو بهذا يتلقى الأوامر من خلال معايشة أحداث حرجة في حياة أناس آخرين.

وهناك صورة أخرى هامة تجعلنا نفكر بعمق أكبر في مواضيع جوهرية وهي التناقضات المتعمدة. فحول موضوع الخير والشر يخبرنا عزَّ وجل:

﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَما لِهَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ، ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٤/٧٨-٧٩].

حيث نتعلم هنا التمييز ما بين الأعمال التي تخصّ الله والأعمال التي هي من "عند الله" (٣٥). ففي حين أن القوة الكامنة فينا لفعل الشر أو القدرة على القيام به هي من "عند الله" إلاّ أن الأفعال الصادرة عنّا هي من بنات أفكارنا. على هذا ففعل الشر نفسه يجب أن يعزى لنا وليس لله. لكن مع القليل من التفكير العميق، فإننا سوف نتوصل إلى نسبية الشر، ذلك أن الشر الموجود في هذا العالم ليس شراً مطلقاً ولكنه يؤدي إلى خير كبير. هذا يقودنا لا محالة لمناقشة إحدى العوائق الكبيرة بين الإيمان والكفر، والتي تلوح بشكل كبير اليوم كما كانت دوماً في السابق وهي الصراع القديم بين الإيمان والعقل.

الإيمان والعقل: إذا كان الله كلّه رحمة وحناناً فلماذا يعذبنا إذن؟ وإذا كان الله كلي المعرفة فلماذا يمتحننا؟ وإذا كان الله غنياً حميداً فلماذا يطلب منا عبادته؟ وإذا كان كل شيء مقدّراً علينا فما نفع صلاتنا؟ كيف يمكن للمرء أن يوفّق ما بين عدالة السماء والقضاء والقدر أو ما بين الحب الإلهي والعقاب؟

---

(٣٥) مرتضى مطهّري، *أساسيات الفكر الإسلامي*، ص ١٠٦-١١٢.
Murtaza Mutahhari, *Fundamentals of Islamic Thought*, trans. by R. Campbell (Berkeley, Mizan Press, 1985)h106-12.

إن هذه الأسئلة ليست جديدة طبعاً. ولقد كانت مصدر إزعاج للدين منذ أن أصبح الإنسان مدركاً لما هو مقدس، فقد قادت هذه الأسئلة إلى الانشقاق وإلى العنف وإلى الكفر. وعلى الرغم من أن كل نظام عقيدة يزودّنا بإجابة لكل من هذه الأسئلة إلاّ أن العوام من الناس (غير رجال الدين) كانوا غالباً ما يمنعون من الخوض في مسائل كهذه. وفي السابق كان هناك محاولات مثيرة للإعجاب قام بها بعض الفلاسفة المسلمين ومن أشهرهم ابن سينا[٣٦] . وفي عالمنا اليوم، وخاصة في المعاهد العلمية، تبقى أسئلة كهذه للعديد من الناس العقبة الكبرى أمام الإيمان بالله. وسوف نبدأ فحصنا لهذه الموضوعات بمناقشة عنصرين هامّين في القرآن.

القصص الرمزي في القرآن: يقدم محمد أسد هنا مقولته بأن "العبارة الرئيسية في عبارات القرآن الرئيسية" هي قوله تعالى من الآية السابقة من سورة آل عمران[٣٧] :

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ. . .﴾ [آل عمران: ٣/٧].

لقد كان هناك اختلاف في الرأي بين العلماء حول: أيّ الآيات القرآنية بالضبط يجب أن تؤخذ بشكل حرفيّ وأي الآيات يجب أن تؤخذ بشكل رمزي. ؟ وفي كتابه رسالة القرآن يقدم محمد أسد حول ذلك شرحاً مقبولاً جداً وهو أن الآيات التي يجب علينا فهم معناها بشكل رمزي هي تلك الآيات التي تتوافق مع عناصر الواقع التي لا يمكن للإنسان أن يصل إليها بخبرته وإدراكه، والتي يدعوها القرآن بالغيب (المخفي،

---

(٣٦) آرثر آربيري، رأي *ابن سينا في اللاهوت*.

Arthur J. Arberry, *Avicenna on Theogogy* (London, J. Murray, 1951)

(٣٧) محمد أسد، *الرسالة*، ص ٩٨٩-٩٩١.

اللامرئي، اللامدرك). ويشير أسد إلى أن العقل البشري يمكن له أن يعمل بناءً على الخبرات التي تحققت سابقاً فقط، وإذا ما سلمنا بهذا،

فإنه يواجهنا سؤال بالغ الأهمية وهو: إذا كانت الأفكار الدينية الميتافيزيقية (الغيبيّة) تخصّ، بحكم طبيعتها، عالماً يفوق تصورات وخبرات البشر كيف يمكن لأفكار كهذه أن تصلنا بنجاح إذاً؟ كيف يمكن لأحد أن يتوقع منا فهم أفكار ليس لها نظير، ولا حتى جزء من نظير في الترابط الحسّي الذي وصلنا إليه بشكل تجريبي(٣٨)؟

ويمكن رؤية هذا بمقياس تمثيلي بسيط وذلك في محاولة لوصف غيمة لشخص أعمى أو، كما في كتاب آبوت Abbot الأرض المستويةFlatland، وصف فراغ ثلاثي الأبعاد لمخلوق يعيش كليّة في فراغ ثنائي الأبعاد(٣٩). ويتابع أسد قوله إن من هذا الاعتبار يصبح الجواب بديهياً، ويصبح بمقدورنا أن نصل إلى تخمين حدسي لأحداث واقعية تفوق إدراكنا:

فمن طريق استعارة صور مستقاة من خبراتنا الحقيقية الجسدية أو العقلية أو كما يقول الزمخشري في تعليقه على الآية الثالثة والخمسين من سورة الرعد: من خلال إيضاحات عن طريق الأمثال، عن طريق شيء نعرفه من خلال خبراتنا، ومن شيء ما يفوق مداركنا. . .

وهكذا فالقرآن يخبرنا بوضوح أن العديد من نصوصه وتعابيره يجب أن تفهم بمعنىً رمزي ذلك أن هذه النصوص أعدت للإنسان كي يفهمها وعلى هذا فلا يمكن أن تصل إلينا بأية طريقة أخرى. ينتج من ذلك أنه إذا كان علينا أن نفهم كل نص أو

---

(٣٨) المرجع السابق، ص ٩٨٩-٩٩٠.

(٣٩) إدوين آبوت، *الأرض المستوية*.

Edwin A. Abbot, *Flat Land* (New York: Dover, 1952).

جملة أو تعبير من القرآن حسب معناه الظاهري الحرفي، ونغفل عن احتمالية معاني الرمز أو الاستعارة أو المثل هنا، فإننا بهذا نكون قد أسأنا إلى روح الكتاب السماوي(٤٠).

ولهذا فإننا نجد في القرآن وصفاً لمشاهد مادية جداً في الجنة مما يتناسب وعرب القرن السابع الميلادي بشكل خاص، وفي الوقت ذاته تخبرنا الآية السابعة عشرة من سورة السجدة أنه لا تعلم نفس﴿ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون﴾ وبالمقابل فعلى الرغم من أن الله ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالَى عَمّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ٦/١٠٠] وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ٤٢/١١] و﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الصمد: ١١٢/٤] إلاّ أننا نشعر بالحاجة لأن ننتسب إليه وإلى أفعاله، ويمكن إدراك هذه الحاجة الإنسانية عن طريق استخدام الرمزية والمجاز، بحيث إن الآيات المتشابهات لا تعرّف أو تفسّر بشكل كليّ صفات الله ويوم القيامة والجنة والنار ومواضيع أخرى مشابهة، بل تقترح لنا شيئاً مشابهاً لما هو داخل عالم خبراتنا وذلك بسبب محدودية عقل الإنسان ولغته. إن هذا يشرح لنا:

استخدام تعابير تبدو للوهلة الأولى أنه يمكن تصورها على أنها تشبه الصفات البشرية، مثل "غضب الله" و "لعنة الله" و "فرح الله" للأعمال الطيبة و "حبه" لمخلوقاته وكونه "ينسى" عاصياً كان قد نسيه؛ أو أن "يسأل" مذنباً يوم القيامة عن ذنبه، وهكذا دواليك. إن "ترجمات" حرفية كهذه لعمل الله في عبارات إنسانية أمر لا يمكن تحاشيه طالما أنه ينبغي علينا أن نلتزم بالمبادئ الأخلاقية التي أوحيت لنا عن طريق إحدى اللغات الإنسانية. ولكن ليس هناك خطأ أعظم من الاعتقاد أن هذه "الترجمات"

---

(٤٠) محمد أسد، *الرسالة*، ص.٩٨٩-١٠٤١.

قد تمكننا يوماً ما من أن نعرّف أو نصف الذي لا يمكن تعريفه أو وصفه [وهو الله][٤١] .

الشياطين والجن: إن المصطلحات القرآنية (شيطان) و (جن) تترجم إلى الإنكليزية satan و genie على حد سواء. وأما في الفكر الغربي فإن كلمة شيطان تستحضر في الذهن صورة مخلوق خارق للطبيعة، له شكل نصف إنسان ونصف حيوان له قرون وذيل وبيده مذراة، وأما الجني فهو شيطان مشابه (عفريت) يعيش في زجاجة. إن فهمنا لهاتين الكلمتين متأثر إلى حد كبير بالحكايا الشعبية التي نسجت حول هاتين الكلمتين في الشرق الأوسط والشرق الأقصى، ومع الزمن أصبح لها شخصيات ذات أشكال خيالية غريبة الأطوار[٤٢] .

إن كلمة (جن) مشتقة من الأصل (جنَّ) والتي تعني: يغطي، يخفي، يخبئ، يحمي. ومن هنا فإن كلمة (جن) أصلاً كانت تعني: المخلوق الذي لا يمكن إدراكه بالحواس[٤٣] . ويعتقد يوسف علي أن هذه الكلمة تدل على "روح أو قوة خفية أو غير مرئية[٤٤] . ويشير محمد علي إلى أن العرب يستخدمون المصطلح (جن) للإشارة إلى بعض البشر، مستشهداً ببعض الدارسين العرب المختصين بعلم الألفاظ الذين قاموا بإيضاح أن كلمة (جن) يمكن أن تستخدم لتشير إلى معظم الناس، أي السواد الأعظم من الخلق أو عامة البشر[٤٥] ، ويضيف محمد علي قائلاً:

---

(٤١) المرجع السابق، ص. ٩٨٩-٩٩١.

(٤٢) يوسف علي، *ترجمة معاني القرآن الكريم*، الحاشية رقم ٩٢٩.

(٤٣) محمد علي، *دين الإسلام*، ص. ١٨٨.

Muhammed Ali. *The Religion of Islam*. (New Delhi: S. Chand co., nd.),p.188

(٤٤) يوسف علي، *ترجمة معاني القرآن*، الحاشية رقم ٩٢٩.

(٤٥) محمد علي، *دين الإسلام*، ص. ١٩١.

حسب قول العربي القديم، إن السواد الأعظم من الناس تعني بالنسبة لهم العالم غير العربي. وكانوا يدعون الغرباء بالجان لأنهم لم يكونوا يرونهم[٤٦] .

على هذا فالمدلول اللفظي الأكثر شيوعاً لكلمة (جن) هو مخلوق، أو قوّة غير مدركة بالعقل أو الحواس.

وفيما يتعلق بكلمة (شيطان) فإن الطبري يقول في تفسيره للقرآن عنها:

إن لفظة شيطان في كلام العرب تشمل كل عاص (متمرد) من بين الجن والإنس والبهائم وكل شيء. . . ويدعى المتمرد من بين كل شيء وكل نوع بهذا الاسم، لأنه في سلوكه وأفعاله يختلف عن بقية أنواع جنسه وهو أقرب ما يكون من الفساد[٤٧]

وكلمة(شيطان)في أصلها الاشتقاقي في العربية تعني: كل مطرود منبوذ:

ويقال إنّ أصل الكلمة مأخوذ من الفعل (شَطَنَ) والعبارة: شطنت داري من دارك، أي كان بيتي بعيداً عن بيتك[٤٨] .

ومرّة أخرى نقول إن هذا التعبير شيطان يمكن أن يستخدم ليشير إلى الناس. ففي تفسيره للآية الرابعة عشرة من سورة البقرة يستشهد الطبري بقول ابن عباس:

كان هناك بعض الرجال من اليهود إذا ما لقوا واحداً أو أكثر من صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كانوا يقولون لهم: "إنا معكم ونتبع دينكم" ولكنهم كانوا

---

(٤٦) المرجع السابق، ص. ١٩١.

(٤٧) تفسير الطبري، المجلد الأول، ص. ٤٧.

Al-Tabari: The Commentary on the Qur'an, Vol.I, trans. J. Cooper (London: Oxford University Press, 1987), P47.

(٤٨) المرجع السابق، ص. ٤٧.

إذا ما خلوا إلى بعض أصحابهم، الذين كانوا شياطينهم، كانوا يقولون: إنا معكم، إنما نحن مستهزئون[٤٩]

ويستشهد الطبري أيضاً بقول قتادة ومجاهد اللذين قالا: إن هؤلاء الشياطين كان رؤوس الشر فيهم، وأصحابهم من بين المشركين والمنافقين.

إن القرآن، وكذلك بعض أقوال الرسول، تؤكد وجود مخلوقات وعوالم لا نستطيع إدراكها. ولكن لفظتي (شيطان) و(جن) يجب ألاّ تفسّرا فقط بهذا المعنى وذلك بسبب الصورة التقليدية المرتبطة بهاتين اللفظتين، وكذلك لأنها لا تعبر عن المعنى الأصلي العام في اللغة العربية. ولتجنب الخلط فإنني سوف أستخدم أحياناً عبارات مثل (المخلوقات/القوى الروحانية) أو (المخلوقات اللامرئية) أثناء مناقشتي لذلك فيما يلي.

الزمن والخلود: إن مفهومي الزمن والخلود وعلاقتهما مع الله كانا موضعي جدال فلسفي شديد خلال تاريخ الديانات. وهذا ما يفيض محمد إقبال بالحديث عنه في كتابه *إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام*[٥٠] ، والذي يحاول فيه إيجاد تفسيرات جديدة تتوافق مع الفكر الحديث ومع مصادر العقيدة الإسلامية. ولقد لاقت هذه المحاولة الكثير من الثناء من قبل الكثير من العلماء المسلمين وغير المسلمين على الرغم من اختلاف كلا الطرفين معه حول جدوى أفكاره[٥١] . ويقول إقبال: إنّه يجب علينا ألاّ نستهين بأهمية هذه المحاولات طالما أن العديد من المتناقضات اللاهوتية نابعة من فهمنا لهذه المفاهيم.

---

(٤٩) المرجع السابق، ص. ١٣١.

(٥٠) محمد إقبال، *إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام*.

Muhammad Iqbal. *The Reconstruction of Religious Thought in Islam* (London: S. H. Muhammad Ashraf Publ., 1982).

(٥١) حفيظ مالك، *إقبال: شاعر الباكستان الفيلسوف*.

Hafeez Malik. *Iqbal: Poet Philosopher of Pakistan* (New York: Colombia University Press, 1971).

فمن جهة، لا نستطيع إلاّ وأن ننسب الزمن إلى الله طالما أن الكتب المقدسة تفيد بذلك. ومن جهة أخرى وهذه أكثر أهمية يجب أن ننبه أنفسنا إلى القصور الكامن في فهمنا.

إن أكبر التعقيدات تنشأ عندما ننسب في تعاملنا مع الزمن بعض القيود الإنسانية إلى الله. فطالما أن الله يتجاوز حدود المكان فمن الطبيعي ألاّ نربط بينه وبين حدود الفضاء. فمثلاً علينا ألاّ نقول حرفياً إن الله ينزل إلى الأرض، أو يمشي في الحديقة؛ وبالمقابل علينا ألا نصرّ أن الله كائن له ثلاثة أبعاد، وأنه يسافر من نقطة إلى أخرى في الفضاء. وبالطريقة نفسها علينا ألا نلح بالقول: إن الله له ماض وحاضر ومستقبل، ذلك أن هذا قد يعني أن وجوده، كوجودنا، هو ضمن حدود الزمان؛ وهذا بالتالي يتعارض مع سموّه اللامحدود.

ويصعب قليلاً قبول فكرة أن معرفة الله يمكن أن تضم في الوقت ذاته نقطتين مختلفتين في الفراغ. وهذا ربما عائد لاعتقادنا بأن صفة تجاوز الفراغ تتضمن موقع الأفضلية المميّزة الذي نستطيع أن نرى من خلاله. ونستطيع مقارنة هذه الحالة، حسب تصورنا الناقص، بخبرة كون أحدنا عالياً فوق الأرض، ويعلم في الوقت نفسه بالأحداث في كل مكان. وعلى عكس الفراغ، فإننا لا نستطيع الحركة مع الزمن، أي أننا لا نستطيع أن نسافر مع الزمن إلى الوراء أو إلى الأمام. فعندما نقول بعد ساعة من الآن، فإننا نعني بعد ساعة من الآن، وهذه حقيقة لا يمكن تغييرها. لذلك يكون من الصعب جداً فهم أن مسألة وجود الله هي مستقلة عن الزمان أو خارج حدوده، كما هو الواقع بالفعل؛ لأنه يستحيل علينا أن نصدّق أن وجوده محصور ضمن أبعاد حدود الزمان والمكان اللذين خلقهما هو لنا كي ننمو فيهما. ومرة أخرى أقول: إنه بسبب موقع الأفضلية المميّزة لله فإن علمه يحيط بكل الأحداث بغض النظر عن أبعاد هذه الأحداث سواء في الزمان أو المكان.

وهناك نقطة أخرى رئيسية وهذه مثبتة بشكل جيد في القرآن، وهي أن إدراكنا للزمن ليس صحيحاً من الناحية الموضوعية. فعلى سبيل المثال يوصف يوم القيامة على أنه يخص نظاماً مختلفاً من الزمن، وفجأة نفهم من هذا النظام أن تصوراتنا السابقة عن الزمن لم تعد صحيحة، و لم تكن أصلاً مطلقة، يقول تعالى:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إلاّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها﴾ [النازعات: ٤٦/٧٩].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إلاّ ساعَةً مِنَ النَّهارِ﴾ [يونس: ٤٥/١٠].

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إنْ لَبِثْتُمْ إلاّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٢/١٧].

﴿يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إنْ لَبِثْتُمْ إلاّ عَشْراً﴾ [طه: ١٠٣/٢٠]. -﴿. . . إنْ لَبِثْتُمْ إلاّ يَوْماً﴾ [طه: ١٠٤/٢٠].

﴿قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ، قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعادِّينَ، قالَ إنْ لَبِثْتُمْ إلاّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٢-١١٤].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥/٣٠].

فالمفسرون يرجعون دوماً جميع الإشارات إلى يوم القيامة في صيغة المستقبل، لأنه من منظورنا، أن يوم القيامة سوف يحدث في المستقبل. ولكن في الحقيقة هناك عدة نصوص تستخدم الزمن الماضي للإشارة إلى يوم القيامة. ويفترض المفسّرون، وهم على صواب تام بهذا، أن هذا أسلوب أدبيّ يشدّد على أن هذه الأحداث لا بدّ واقعة. إن استخدام صيغتي الحاضر والماضي في الإشارة إلى يوم القيامة يدعم فكرة أن يوم القيامة سوف يحدث في بيئة مختلفة جداً لن تنفع فيها تصوراتنا الحالية عن الزمان والمكان. إن فكرتنا عن الزمان زائفة، ويظهر هذا أكثر إذا ما قارنّا بين ما يمكن أن نسميه أيّام الله

بأيام الدنيا، حيث يظهر لنا أن يوماً عند الله ﴿كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٣٢/٥]. و﴿كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٧٠/٤].

لم تجر هناك أي محاولات من شأنها أن تقدم نموذجاً أو تفسيراً للعلاقة الدقيقة بين الله والزمن، بل إن عليّ أن أقترح أن أي محاولة من هذا القبيل سوف تكون عقيمة، ولا يمكن تحقيقها لأن تصوراتنا عن الزمن ليست حقيقية بشكل موضوعي، وإذا ما حصلت مثل هذه الافتراضات فسوف تنشب الخلافات.

إن السؤال "ما قيمة الصلاة إذا كان الله قد حدّد سلفاً مستقبل البشر؟ " يفترض بطريقة ما أن الله له مستقبله، وهذا يعني، أن السؤال يفترض أن الله قائم في الزمن، وينعم النظر في مستقبل مقدر مسبقاً طالما الصلاة قائمة. ولكن لكي يكون للمرء مستقبله، فإن وجوده يجب أن يكون محتوىً ضمن الزمن، وبالنتيجة، أن يكون متناهياً أو محدوداً. والسبب في أن هذا السؤال يؤدي إلى التناقضات هو أنه يفترض تناقضاً في المكان الأول، وهو أن الله في الوقت نفسه يسمو فوق الزمان ومحدود فيه. فأي موضوع يفترض في الوقت ذاته مقدمتين غير متوافقتين سيؤدي دوماً إلى نتائج متضاربة. فلو افترضنا أن الدائرة هي مربع، فمع هذا الافتراض لا بد لنا وأن نسأل هل للدائرة زوايا؟ ، فإذا ركزنا النقاش على دائرية الدائرة (كون الدائرة مستديرة)، فإن الجواب سيكون: لا ليس للدائرة زوايا، أما إذا ركّزنا على خصائص المربع فسوف يكون الجواب: نعم، للدائرة زوايا. " فإذا ما كانت اعتبارات أي سؤال ستقود بالنتيجة إلى تناقض، فإنه ينبغي أن نسأل أنفسنا سؤالاً قبله، وهو هل لهذا السؤال من معنى؟

إن مصطلح القضاء والقدر وحده أمر مثير للجدل، فإذا ما استخدم ليعني أن الله قد برمج جميع أحداث المستقبل فإن الافتراض الضمني يعني أن الله موجود في الزمن. وإن كان ذلك يعني أن حكمة الله ومعرفته قد أحاطت بكل شيء وأن لا شيء في هذا

الوجود له اعتراض على ذلك فإن ذلك يعني أن نسلّم بالقضاء والقدر. ولكن هذا ليس هو المعنى الأولي لكلمة يقضي، يقدّر والتي تعني: يحدد مسبقاً. وكذلك هذا لا يتعارض مع فكرة أن الله يستجيب لدعائنا وصلاتنا.

وعند العديد من الباحثين المسلمين والمستشرقين أصبحت الكلمتان القرآنيتان (قدر) و (تقدير) مرسوم الله المطلق من الخير والشر وبمعنىً آخر، إن الله قدّر علينا كل أفعالنا وحتى خياراتنا الأخلاقية. ولكن، وكما تعنيان لمحمد علي، أن هذه العقيدة ليست معروفة لا للقرآن ولا لاشتقاقات اللفظ في اللغة العربية. إن الإيمان بالقضاء والقدر هو نتاج تطور لاحق، ويبدو أنه كان نتيجة لاحتكاك الإسلام بالفكر الديني الفارسي[٥٢].

وبالنسبة للراغب الأصفهاني فإن كلمتي (القدر) و (التقدير) تعنيان: إيضاح قياس الشيء، أو ببساطة القياس. وفي القرآن فإنهما تعنيان القوانين الإلهية المنظّمة للخلق والموازنة له:

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٨٧/١-٣].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٥٤/٤٩]. - ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٦/٣٨-٣٩].

﴿قُتِلَ الإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ. مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: ٨٠/١٧-١٩].

إنني لا أدّعي هنا أن الله أخضع الكون إلى قوانين طبيعية محددة ثم تخلى عنه ليسير في مجراه، فليس هناك من قارئ للقرآن يقبل هذا الشعور. ففي القرآن الله هو الربّ،

(٥٢) علي، دين الإسلام، ص٣١٧-٣١٨.

وهو المعين، وهو العزيز، وهو المنظم والحاكم لكل شيء. وهو مصدر القدرة الكلية الحاضرة لتناغم وتوازن الطبيعة.

غاية الإنسان في الحياة: قد نعترف ونقر بأن هناك مخلوقات لا يمكننا تصورها، أو أن الزمن مجرَّد وهم، ولكن أن نقبل أن فضائلنا وأخلاقنا هي أمور مضللة، أو أنها لا تنبئنا بشيء عن الله، يعني إما أن ننكر وجود الله، أو أن استسلامنا إليه ليس له هدفٌ حقيقي. فإذا ما كان علينا أن نؤمن بالله فإن علينا أن نفترض أن تصوراتنا للعدالة والمحبة والشفقة والمسامحة والصدق والرحمة هي ربما غير كاملة ولكنها -ومهما يكن- تتألف من شيء ما حقيقي ينبثق عن الله. وهذا هو السبب في أن الحياة بكل معاناتها ومحنها وبكل تجاربها وأخطائها منافية للمنطق لدرجة كبيرة. إذن فما هو الهدف المحتمل الذي قد ينجم عن هذه المصاعب؟ لماذا لم تبدأ الحياة في الجنة؟ ومع ذلك فالقرآن يؤكد على أنه، في تخطيط الله للكون، جعل حياتنا الدنيوية مرحلة ضرورية في الوجود الإنساني:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هَذا باطِلاً. . . ﴾ [آل عمران: ٣/١٩١].

﴿وَما خَلَقْنا السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٤٤/٣٨].

﴿وَما خَلَقْنا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ، لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنّا إِنْ كُنّا فاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٦-١٧].

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ ، فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٥-١١٦].

وقد روي أن النبي محمداً قال: «إنما الأعمال بالنيّات»(٥٣).

وتأتينا الإشارة الأولى فيما يتعلق بمعنى حياتنا عندما يمتزج فهمنا لهذا الحديث مع التوكيد القرآني للعلاقة المتبادلة والحتمية للإيمان الصحيح مع الأعمال الصالحة، والسعادة في هذه الحياة وفي الآخرة كما في: [مريم: ١٩/٥٥-٦٣] و[الزلزلة: ٩٩/٧-٨] و[التين: ٩٥/٦] و[الليل: ٩٢/١٧-٢١].

فالأعمال الصالحة والسعادة الدائمة تنجم عن الإيمان؛ والأعمال الحسنة عندما تنجز بنية طاهرة فإنها تغذي إيماناً أعمق، وطمأنينة، وعيشة هنيئة، ولا شك أن الله ليس بحاجة إلى أعمالنا، ولكن علينا أن نؤمن، وإلا فلن تكون لدينا النية الحسنة؛ ذلك أن الخلاص لا يتم الوصول إليه عن طريق الالتزام بالشعائر الدينية، أو التمسك بالأشكال الخارجية. ففي العلاقات الإنسانية يترجم الإيمان الصادق بالفعالية الاجتماعية و القلق العميق تجاه أخيك الإنسان، يقول تعالى:

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن با لله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ [البقرة: ٢/١٧٧].

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ

(٥٣) أخرجه من حديث عمر البخاري في بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ رقم (١)ومسلم في الإمارة، باب: قوله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات، رقم (١٩٠٧).

تَشْكُرُونَ. لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلَكِنْ يَنالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٢٢/٣٦-٣٧].

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/١١٠].

﴿وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ [مريم: ١٩/٩٦-٩٧].

إن القرآن يربط سعادتنا أو شقاءنا في الدنيا وفي الآخرة بعقائدنا ومدى تطبيقنا لهذه العقائد في علاقاتنا الإنسانية. ومن هنا فإننا نواجه امتحان وابتلاء الله لنا في كل عنصر من عناصر حياتنا: في أزواجنا وأولادنا ووالدينا، وأقاربنا، واليتامى، وابن السبيل، وأموالنا وصراعاتنا. ونحن نعلم أنه من الخير لنا أن نعطي من أن نتلقى وأن نسامح من أن نبحث عن الانتقام، وأن نحب من أن نكره، وأن نتعاطف وأن نكون مستقيمين، ذلك أن هذه الأشياء هي التي تجلب لنا السعادة الحقيقية، وتجلب لنا الطمأنينة. ويؤكد القرآن أنه على الرغم من أن تعلقنا بالأشياء المادية ضروري إلاّ أننا يجب ألا نغفل عن الحقيقة القائلة: إنّ أجمل هدف في الحياة هو أن تكون مع الله:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ، قُلْ أَأُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ. . . ﴾ [آل عمران: ٣/١٤-١٥].

ثم يستمر القرآن بعد ذلك بوصف حياة النعيم في الدار الآخرة:

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحارِ﴾ [آل عمران: ٣/١٧].

وعندما كنت طفلاً سألت والدي مرّة إن كنا سندخل الجنة أم لا؟ فأجاب: إنّه لا يستطيع تصور ذلك؛ لأن الناس لم يستطيعوا التخلي عما يكتنف فؤادهم من الحسد

والبغضاء والجشع والغضب. لقد صدّقت ما قاله إلى حد ما؛ لأنه لا يمكن للمرء أن يحيا أو يوجد في الجنة أو الفردوس ما لم يرتق إلى درجة سامية من الصلاح. إن هذا لا يعني أن الإنسان يجب أن يكون كاملاً، ولكنه يجب أن يكون من الكمال لدرجة يكون فيها قادراً على التغلب على العيوب الكامنة في شخصيته إذا ما عرض له أمر من أمور الحياة الدنيا:

﴿وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ. . . ﴾ [الأعراف: ٤٣/٧].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧/٢٩].

وهكذا تتبدّى لنا غاية الحياة: علينا أن نوطّن أنفسنا على الفضيلة والحكمة والعدالة والرحمة والعفو والصلاح، وأن نهتم بالناس وأن نحبهم، و علينا أن ندرّب أنفسنا على الشفقة والصبر والكرم، وذلك من خلال كفاحنا وجهادنا في سبيل العيش.

وفي القرآن نجد أن هذه الخصال هي خصال الإيمان الصحيح. يجب علينا أن نتشرّب من هذه الخصال وننميها في النفس ما استطعنا، ليس فقط لنجعل من الدنيا مكاناً أفضل للعيش، بل لأنها حالات سامية من الواقع الذي ينبثق عن الواحد الأحد الأزلي الأبدي وهو الله. وإذا ما نشأنا على هذه الخصال فإننا نكبر في الوقت نفسه بقدرتنا كي نتلقى ونشعر برحمة الله، وعفوه، وحنانه، وعدله ومحبته. وبهذه الطريقة فإننا نزداد قرباً من الله.

ولنأخذ المحبة كمثال، فكلما تذوقّنا محبة الناس لنا ازدادت خبرتنا بمحبة الله. وإني أدرك أن خبرة ابني بمحبتي له أكبر من خبرة كلبي بمحبتي التي هي بدورها أكبر من خبرة أسماكي؛ لأن طفلي يعرف الحب بمستوى يفوق خبرة كلبي، وخبرة كلبي تفوق خبرة أسماكي بمعرفة الحب. وأعتقد أيضاً أن محبتي لوالديَّ اليوم هي أكبر من محبتي لهما عندما

كنت طفلاً؛ ذلك أني منذ أصبحت أباً بدأت أعرف وأشعر بشكل أفضل بقوة الحب التي أعطاني إياها كل من أمي وأبي. وهكذا فكلما تحلّينا بالمزيد من الخصال التي ذكرناها آنفاً ازدادت خبرتنا بجلالة الله وجماله في الوقت الحاضر وبشكل أكبر ولا محدود في الحياة الآخرة.

والقرآن يصوّر يوم القيامة على أنه وقت عصيب، حين يصبح واقع كدحنا الدنيوي واضحاً لنا. ففي ذلك اليوم سوف نواجه حقيقة صيرورتنا، حيث يتكشف لهونا وأوهامنا الدنيوية أمام أعيننا ولا يبقى لنا من شيء سوى جوهر عقائدنا، وما أنجزناه من أفعال أخلاقية روحية:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٩٩/٧-٨].

فإن ثقلت موازيننا، حسب المصطلح القرآني، فإننا سوف نتمتع بسرور عظيم وعيشة راضية. وأمّا إن كنا من الأشرار أصلاً فذلك هو الخسران المبين والعيشة الضنك. إن هذا الفرح أو الألم ليس أمراً اعتباطياً ولكنه مرتبط بشكل وثيق بنشأتنا الروحية، الأخلاقية. وكما أن هناك مستويات مختلفة من التقى والصلاح، والشرور والآثام، فكذلك هناك مستويات متباينة في النعيم أو في الجحيم كما يذكر القرآن، وكما يؤكده النبي بأحاديثه. وكما أن نمو الجنين في الرحم يؤثر بلا جدل في المرحلة التالية من وجوده، كذلك فإن تطورنا الروحي الأخلاقي في هذه الحياة مرتبط بشكل وثيق بوضعنا في الحياة الآخرة، وعند ذلك، طبعاً، لن تزر ﴿وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥/١٧].

إن في حياتنا الدنيا هذه خبرات تعطينا لمحة بسيطة جداً عن نعيم الجنة. إن حب الإيثار والتضحية بالنفس يتجلى في أسمى معانيه الإنسانية في حب الوالد لأولاده. فعندما ألقي نظرة على بناتي الثلاث في الليل يغمرني شعور رقيق من العواطف لدرجة تفيض فيها عيناي بالدموع، و عندما أقف لأعانق زوجتي هناك تغمرنا مشاعر من الحب والدفء تعادل كما يقول المسلمون الدنيا وما فيها.

ومع هذا الاحتمال الكبير للنماء والسعادة يأتي الخطر الموازي من الفساد الأخلاقي والمعاناة. ولكن لماذا؟ فقد يعترف المرء بأن المحبة والشفقة والصدق وخصالاً أخرى تجلب السرور العظيم. إذن لماذا لم يخلقنا الله بهذه الصفات منذ البداية؟ يبدو أننا وصلنا من حيث بدأنا، أي لماذا لم يجعلنا الله في الجنة منذ البداية؟ ولماذا ببساطة لم تتم برمجتنا على هذه الفضائل؟ يبدو أن الجواب قد بات واضحاً تقريباً: فالفضيلة إذا ما برمجت تصبح فضيلة غير حقيقية؛ بل تصبح شيئاً أدنى من ذلك بكثير. وبمقدورك أن تبرمج كمبيوتراً (حاسوباً) ألاّ يجري الحالات غير الصحيحة، ولكنه لا يصبح بذلك كمبيوتراً **صادقاً**؛ كذلك لا تمتلك أداة التصوير الطبقي المحوري CAT scanner الشفقة حيال المريض على الرغم من أنها صممت لمساعدته. والقرآن يصور الملائكة على أنها مخلوقات غير مميّزة (انظر الآية السادسة من سورة التحريم) في حين أن الإنسان هو مخلوق يمكن أن، يكون أفضل من الملائكة بكثير، ولكن بدلاً من ذلك هو أسوأ بكثير (انظر الآيات ٣٠-٣٤من سورة البقرة).

إن القرآن يشدد على ثلاثة مكوّنات جوهرية من هذه المرحلة من تطور الإنسان الروحي الأخلاقي وهي: **الإرادة الحرة** أو القدرة على الاختيار؛ و**العقل** وهو أداة قياس نتائج اختيارنا والتعلم منها؛ وثالثاً: هناك عالم **الشدائد والامتحان** الذي لا يقل أهمية عن العنصرين السابقين.

وبالعودة إلى المثالين السابقين، فإننا نجد أن تعلّم الصدق يتطلب خيار الكذب وبالتالي القدرة على التمييز والاختيار. وإذا ما أصررنا على قول الصدق في الشدائد عند حالة فقدان شيء مادي أو عيني فإننا نكون قد حافظنا على درجة عالية من الإخلاص لله. ولكي يصبح الشخص أكثر عطفاً فإنه يجب عليه أن يكون في موقع من المعاناة يتطلب مثل ذلك العطف ويجب أن تكون لديه الحرية بالإرادة لكي يتجاهل

تلك المعاناة. وهذا ينطبق على كافة الفضائل كالمحبة والإحسان والعدالة والعفو وما شابه ذلك. ومن أجل أن نكبر في كل من هذه الفضائل فيجب أن يكون لدينا البديل لفعل ما هو مخالف لذلك، ويجب أن يكون هناك إمكانية وجود الكره واللامبالاة والجشع والانتقام وأيضاً المعاناة.

وبالطبع يجب أن يكون لدينا ميل أدنى نحو الصلاح من البداية، على الأقل يجب أن نمتلك بذور الفضيلة والتقوى عندما نأتي إلى هذا العالم. إن هذا بالضبط ما فهمه المفسرون المسلمون من قوله تعالى في القرآن: ﴿. . . وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي. . .﴾ [الحجر: ٢٩/١٥] وقول محمد: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة»[٥٤].

إن فكرة هذه الحاجة من المعاناة والشدة والصراع من أجل حثنا للبحث عن التطور الروحي الأخلاقي وكذلك حاجتنا لكي نتذكر الهدف النهائي من الحياة في الأوقات الصعبة تتكرر مراراً في القرآن:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٥٥-١٥٦]. ـ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢/٢١٤].

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/١٨٦].

﴿يا أَيُّها الإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ [الإنشقاق: ٨٤/٦].

---

(٥٤) أخرجه من حديث أبي هريرة البخاري في الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات... رقم (١٢٩٢و١٢٩٣) ومسلم في القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة... رقم (٢٦٥٨).

﴿يـا أَيُّهـا الَّذِيـنَ آمَنـوا اصْبِرُوا وَصـابِرُوا وَرابِطُـوا وَاتَّقُـوا اللَّـهَ لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُـونَ﴾ [آل عمران: ٣/٢٠٠].

وهكذا فالحياة هي عملية مستمرة من النماء والفساد. وعلى الرغم من أن الله يقدم لنا فرصاً عديدة لدرب الهداية إلاّ أنه يدعنا لنخطئ ونضل (انظر الآية التاسعة من سورة النحل). فبالتجربة والخطأ، وبإدراكنا لأخطائنا وتسامينا فوقها نتعلم ونتقدم نحو مستوىً أعلى من الصلاح. وبهذه الطريقة إذا ما أدرك الإنسان خطأه وتاب عنه توبة صادقة فإن ذلك يقوده في النهاية إلى درجة أسمى، يقول تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [الفرقان: ٢٥/٧٠].

فإنكار وجود الله مثلاً هو من دون شك من الكبائر، ولكن لأن يعصي المرء ثم يدرك مدى الضياع والفراغ، لأن الآثام أعمت بصيرته، ثم يكتشف الإيمان لهي خبرة عظيمة رغم مرارتها، لأن ما كان قد دعاه كي ينبذ إيمانه أصبح الآن أكثر من تحذيرات، بل لقد أصبح دروساً مندمجة مع النفس هادية لها. وما لم نخطئ ثم ندرك أخطاءنا ثم نصلحها فإن روحانيتنا سوف تبقى ساكنة دون حراك. فالخطأ وإدراك الخطأ، ثم إصلاحه، هي أمور حيوية لتطورنا ونمائنا في هذه المرحلة الدنيوية، فقد روي عن النبي قوله: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر الله لهم»[٥٥].

وفي القرآن الكريم نقرأ قوله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ [فاطر: ٣٥/٨] ويعلّق غولدزيهر Goldziher قائلاً: إن آيات كهذه لا تعني أن الله يقود هذا الأخير (الضال) إلى الخطأ. فالفعل الحاسم (أضلّ) يجب ألاّ يفهم في هذا السياق

(٥٥) أخرجه من حديث أبي هريرة مسلم في التوبة، باب: سقوط الذنوب بالاستغفار، رقم (٢٧٤٩).

بمعنى: (يقود للضلال) ولكن يعني أن الله (يسمح للمرء أن يضلّ)، أي ألاّ يهتم بأحد ما، وألاّ يريه طريق الخلاص من محنته ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠/٦]. يجب علينا أن نتخيَّل هنا مسافراً وحيداً في الصحراء، وهذه الصورة هي التي أراد القرآن التعبير عنها فيما يخص الهداية والضلال. فالمسافر يتجول بحثاً عن طريقه الصحيح وضالته المنشودة. إن هذا المسافر هو الإنسان في رحلة حياته(٥٦).

إن فكرة الضلالة والهداية يمكن فهمها بشكل أفضل في ضوء التوكيدات المتعددة الكثيرة من أن الله يهدينا تبعاً لرغباتنا وميولنا. فالله لا يهدي الفاسقين والله لا يهدي الظالمين، بل إن الله يهدي من يستمعون القول ويهدي المخلصين والذين يخشون الله (انظر الآيات: ٢٦، ٢٥٨، من سورة البقرة، و٢٦ من سورة آل عمران، و١٦، ٥١، ٦٧، ١٠٨ من سورة المائدة و٨٨، ١٤٤ من سورة الأنعام، و١٩، ٢١، ٣٧، ٨٠، ١٠٩ من سورة التوبة، و٥٢ من سورة يوسف، و٢٧ من سورة الرعد و٣٧، ١٠٧ من سورة النحل و١٦، ٥٠ من سورة القصص، و٣ من سورة الزمر، و٢٨ من سورة غافر، و١٣من سورة الشورى، و١٠ من سورة الأحقاف، و٨ من سورة محمد، و٥، ٧ من سورة الصف، ٥ من سورة الجمعة). وانظر أيضاً إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زاغُوا أزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥/٦١](٥٧). هذا يظهر أن هداية الله لإنسان ما تتأثر بمدى طاعته واستجابته وإرادته. ولا شك أن الله يستجيب لأولئك الذين يسعون إليه: ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦/٢]. وإنَّ من أحب الأحاديث للمسلمين هو

---

(٥٦) إغناز غولدزيهر، *مقدمة عن الديانة والقانون الإسلاميين*، ص ٧٩-٨٠.

Ignaz Goldziher, *Introduction to Islamic Theology and Law* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1981), 79-80.

(٥٧) إني مدين لملاحظات فضل الرحمن حول هذا الموضوع في كتابه *المواضيع الرئيسية في القرآن*.

Fazlur Rahman, *Major Themes of the Quran* (Bibliotheca Islamica, 1980).

قول محمد فيما يرويه عن ربه: «وَ من تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني مشياً أتيته هرولة»[٥٨].

ويبيِّن القرآن الكريم أن المستفيد الأكبر من خلال سعينا للهداية ولصالح الأعمال، وكذلك من خلال العبر التي نستقيها من أعمالنا السيئة، ما هو إلا أنفسنا:

﴿وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦/٢٩].

﴿قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤/٦].

﴿إِنّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها﴾ [الزمر: ٤١/٣٩].

فمن خلال هذه الآيات نستطيع القول: بأن الإسلام يعتبر المعصية على أنها عملية تحطيم للذات، أو أنها تمرّد المرء على طبيعته الحقيقية. وبالنهاية، فإن الله لا يظلم أحداً فينا ولكننا نحن الذين ندمّر أنفسنا بأيدينا:

﴿ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ. ذَلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ٣/١٨١-١٨٢، ومن الأنفال: ٨/٥٠-٥١].

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٣/٧].

﴿فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠/٩].

(٥٨) من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري في التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه... ﴾ رقم (٦٩٧٠) ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب: الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥).

﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣].

إنّ معنى كلمة (الظلم) التي تتكرر في العبارة القرآنية (ظلموا أنفسهم) هو: (المعصية). والأصل في لفظة ظُلْم هو ظَلَمَ، والتي تفيد في معنى الجور، والطغيان، وحرمان النفس من حقها الطبيعي، وهذا ما يؤكد فكرة المعصية على أنها تحطيم الذات. فكما يقول القرآن، عندما نرتكب الظلم بحق أنفسنا فإننا، في الواقع، نجور ونعنّف أنفسنا، وذلك باضطهاد أنفسنا وسلبها من حقها في التسامي الروحي.

الصراط المستقيم: يميّز سيغموند فرويد Sigmund Freud بين ثلاثة عوامل تؤثر في النفس الإنسانية وهي: الهو The id ذلك الجانب اللاشعوري من النفس الذي يعتبر مصدر الطاقة الغريزية والأنا الذات ego؛ والأنا العليا Superego. وبشكل عام إن الهو هي مصدر القدرة النفسية التي تثير تلك الميول الحيوانية التي تعمل من أجل بقاء الفرد الحيوي كالطمع والسلطة والشهوة والحسد والكبرياء. والأنا العليا هي مصدر شعورنا بالفضيلة والأخلاق والذنب، وهذه تحثنا للقيام بما نعده جهوداً سامية ونبيلة. وأما الذات أو الأنا فهي بشكل جوهري، العقل الذي ينظّم ويضبط ويوازن حاجات الهو بمتطلبات المجتمع ومتطلبات الأنا العليا. ويعتقد فرويد أن الشخصية السليمة هي التي توازن بين القوتين الأخريين بشكل فعّال؛ لأنه إذا ما سيطرت إحدى هاتين القوتين الأولى أو الثالثة على القوى الأخرى الثانية والثالثة / الأولى والثانية فإن الفرد قد يصبح إما مدمراً لنفسه أو مدمراً للمجتمع. ولقد تلا مفهوم فرويد هذا محاولات عدة لتحديد مصدر هذه المؤثرات [الثلاثة].

وفي الفكر الإسلامي نجد أن هذه القوى الثلاث حقيقية تماماً، وتتمثل في مفاهيم ثلاثة وهي: **الشيطان و النفس والملائكة.**

فالشياطين هي تلك المخلوقات الربانية التي تهمس(توسوس) باقتراحات خبيثة في قلوبنا وعقولنا (انظر الآيات من الرابعة حتى السادسة من سورة الناس) في محاولة منها لإثارة رغباتنا الدنيا. والملائكة، من بين أشياء أخرى[٥٩]، تلهمنا الشهامة والتضحية بالنفس.

وأمّا النفس فهي الشخصية الإنسانية التي يجب عليها أن تتدبّر وتوازن هذه المؤثرات. ولكلٍ من هذه المفاهيم غايته الجوهرية التي إذا ما ضبطت بشكل محكم فإنها ستعمل لما فيه مصلحة هذا الفرد. ومن هنا فإن النبي قال: إنّ كل مخلوق يخلق وله شيطان[٦٠] قرين، يحرّك مشاعره الدنيا، وله ملاك قرين يوحي له بصالح الأعمال وأنبلها.

وعندما سأل الصحابة النبي إن كان له شيطان قرينٌ؟ فأجاب: «نعم، لكن الله أعانني عليه حتى أسلم لا يأمرني بشيء إلاّ حسناً»[٦١].

يتألف كل من العالم الروحي والعالم الجسدي من قوىً متعاكسة وهذه حقيقة قد عبّر عنها القرآن: ﴿جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣/١٣][٦٢]. إن هذه القوى مجتمعة تشكل عالماً متكاملاً، وقد شدت بإحكام تبعاً لـ﴿الْمِيزانَ﴾ [الرحمن: ٧/٥٥] و(قانون) إراده الله لنا وقدره علينا. والمسلم يعمل جاهداً ليكون ﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾ [البقرة: ١٤٣/٢] مابين طرفي الخلق الروحي والمادي، السامي والدنيوي من خلال الهداية والعمل والصراع والتجربة والخطأ. فتراه يسعى دوماً نحو ما يدعوه القرآن بالتقوى والتي عادة ما تترجم بـ (الخشية) ولكن معناها الحرفي: (الحذر) أو (وقاية النفس) أو مايدعى

---

(٥٩) محمد علي، *دين الإسلام*، ص ١٦٩-١٩٩.

(٦٠) ليس منكم من أحد إلا وقد وكل به قرين من الشياطين، من حديث ابن عباس أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٧/١).

(٦١) من حديث ابن عباس أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٧/١).

(٦٢) لمزيد من الاطلاع انظر كتاب فضل الرحمن، *المواضيع الرئيسية في القرآن*؛ كذلك انظر الآيات(لقمان ١٠/٣١،ويس ٣٦/٣٦، والشورى ١١/٤٢، والذاريات ٤٩/٥١، والنجم ٤٥/٥٢).

بالمصطلح الإسلامي، بحالة الوعي النقدي الذاتـي، والاستعداد الدائم للخضوع لمتطلبات اليقين[٦٣].

والقرآن يصور في أماكن عدة المنافقين والكاذبين والجبناء والبخلاء محذراً بذلك المؤمن من أن يعرض نفسه للهلاك. إن الهدف الكامل وراء هذا الوعيد هو أن يدخل بصدق هذه الاعتبارات في حسابه، وأن يتقمص حقيقة نيّاته دوماً. وكذلك قد يكون ذلك ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ كما في [الأنبياء: ٢١/٨٤، الحاقة: ٦٩/٤٨ والمدثر: ٧٤/٤٩] تنبه القارئ إلى حقيقة نفسه.

وعندما وصف محمد خبرته الأولى مع الوحي قال: إن ملاكاً ظهر له وضمّه ضمّة شديدة آمراً إياه أن (يقرأ!)[٦٤] فأجاب النبي: إنه ليس بقارئ؛ لأنه كان أميّاً. فضمه ضمّة ثانية حتى بلغ منه الجهد، مكرراً عليه الأمر نفسه فكان جواب محمد في هذه المرة الجواب السابق نفسه. ثم إن جبريل ضمّه الثالثة ثم أرسله قائلاً له أن يقرأ الآيات الأربع الأولى من السورة السادسة والتسعين[٦٥].

إن هذه الحادثة في حياة النبي تشبه إلى حد كبير قراءة القرآن الذي يوحي لنا في بعض النصوص، ويهددنا في بعضها الآخر، ولكنه يطمئننا، ويتحبب إلينا في نصوص أخرى تالية. إن شعائر الصلاة والصوم والزكاة والحج تدعم الفرد خلال رحلة حياته. فهذه الشعائر تذكره بهدفه، وتعينه على بناء قوته الداخلية، على التصميم وعلى بناء الشخصية التي يشق من خلالها طريقه في الحياة، لأنه عندما يعتنق الإسلام شخصٌ ما تربّى في الغرب فإنه يشعر كمن يحبو نحو زاوية ما في مكان ما، ثم فجأة يتوجب عليه

---

(٦٣) *لين، القاموس الإنكليزي ـ العربي.*

(٦٤) فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد...، من حديث عائشة أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ،رقم (٣) ومسلم في الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ،رقم (١٦٠) .

(٦٥) صحيح البخاري، ترجمة محمد محسن خان ، المجلد الأول كتاب بدء الوحي الحديث رقم ٣.

أن يواجه صدمة وشكوكاً وأحياناً تنبذه أسرته وينبذه أصدقاؤه وزملاؤه. وبينما يعود هذا دون شك إلى قرون من عدم الفهم والعداء الغربيين تجاه الإسلام وإلى الصورة السلبية التي تقدمها أجهزة الإعلام بشكل عام عن الإسلام، إلا أني يجب أن أعترف أن هذه الأمور هي من أصعب التحديات التي يواجهها المعتنق الجديد للإسلام في الغرب.

أما أنا فقد وجدت في الصلوات عوناً وراحة كبيرين. فصلاة الفجر كانت هي الأكثر مشقة من بين الصلوات؛ إذ كان من المستحيل عليّ أن أنسلّ من فراشي في الخامسة صباحاً من كل يوم، وأخيراً اكتشفت خطة وجدتها ناجعة[٦٦]. فقد وضعت ثلاث ساعات منبه بيني وبين غرفة الحمّام، وضبطتها بفارق زمني بين الواحدة والأخرى قدر خمس دقائق. فعندما كانت ترن الساعة الأولى قرب فراشي في الخامسة إلاّ عشر دقائق كنت أسكتها في الحال، وكالعادة، أعود للنوم، وعندما كانت ترن تلك التي في منتصف الطريق بين سريري والحمّام كنت، عملياً، أزحف مادّاً جسمي إليها لأسكتها ثم أعاود النوم حيث انتهيت بقربها. وعندما كانت ترن الثالثة التي هي قرب الحمّام بعد خمس دقائق من الثانية كنت أجهد نفسي في الوصول إليها لأسكتها ومادمت أصبحت قريباً من المغسلة أنهض وأتوضأ للصلاة.

ولقد وجدت في تغلبي على رغبتي في النوم صباحاً بعد صباح مصدر قوة كبيرة لي، فقد كان ينتابني شعورٌ أفضل لمواجهة مخاوفي. كنت أخبر أصدقائي أنه بغض النظر عن العقائد إذا كان بمقدورك أن تدرّب نفسك على أن تنهض من فراشك عند الخامسة كل صباح فسوف تشعر أنه ليس هناك من تحد، مهما كبر، إلاّ بوسعك أن تتغلب

(٦٦) صلاة الفجر بالنسبة لي هي إحدى أجمل الشعائر الإسلامية وأكثرها إثارة. هناك شيء ما خفيّ في النهوض ليلاً ــ بينما الجميع نائم ــ لتسمع موسيقا القرآن تملأ سكون الليل. تشعر وكأنك تغادر هذا العالم وتسافر مع الملائكة لتسجد الله بالمذبح عند الفجر.

عليه. وكما تبين بعد عدة أسابيع فقد أصبحت أحتاج لساعتي منبه فقط ثم إنه بعد فترة وجيزة أصبحت أستخدم ساعة منبه واحدة فقط. وبعد ذلك كنت أحياناً أنسى أن أضبط الساعة، ومع ذلك كنت أستيقظ بشكل تلقائي في الوقت المناسب. وفي حين نجد أن جميع الشعائر الإسلامية تشتمل على هذا العنصر من امتحان الشخصية وبنائها، إلا أن هناك الشيء الكثير فيما وراء ذلك.

وبعد الشعور الأول ببهجة التحوّل إلى الإسلام تأتي هناك مرحلة تصبح فيها الشعائر روتينية ومرهقة. وكما قلت مسبقاً فإن المسلمين الجدد يقولون: دوماً إنهم يجدون في الشعائر الإسلامية امتحاناً عظيماً لهم ومقوياً كبيراً لإرادتهم. وبعد ذلك يقولون: إن هذه الشعائر تصبح أمراً أقل منه كتدريب وأكثر منه كخبرة من الطمأنينة؛ وبدورها فإن هذه تصبح الباعث الأوّل لقيامهم بصلاتهم وصيامهم وتطبيقهم لأوامر العقيدة الأخرى.

وفي مرحلة تالية، وهذه المرحلة لها صلة بجهادهم اليومي المستمر من أجل تحسين أنفسهم، تراهم يقولون: إنّ هذه الشعائر، وخاصة الصلاة، قد أصبحت بمثابة مقابلات روحية وعاطفية قوية جداً، وخلال هذه المقابلات يكونون متنبهين بحدة لوجود الله، وهنا تصبح إقامة الشعيرة مسألة أكثر من كونها عملاً من أجل الحب والتعانق المقدس، وهذا الحب هو الذي يسود حياتهم فيما بعد. إن الشعائر بالنسبة للمسلمين هي باب الحياة التي هي أكثر حقيقة وأجلّ معنىً من أي شيء آخر فوق الأرض؛ وفي النهاية فإن هذا التعطش للحياة والحب المقدسين يستحوذ عليهم.

ولكن العبادة في الإسلام تمتد فيما وراء إقامة الشعائر، فكما هي الحال مع كثير من المفاهيم الإسلامية فإن جوهر هذه المفاهيم محتوى في شكل أصل اشتقاقها في اللغة العربية. فالمصطلح الإسلامي لهذه الحالة هو (عَبَدَ) والتي تعود بأصلها لـ (عَبْد) (وهذه

حرفياً تعني خادماً (slave). فالهدف من العبادة هو الالتزام التام بخدمة الله.

إن المدلول الحيوي لهذا المصطلح يصبح أكثر وضوحاً إذا ما أخذنا بالاعتبار نقيض ذلك. فـ (الشرك) هو القبول بعبادة أي شيء إلاّ الله، أي أن تجعل من نفسك خادماً أو معبوداً لأي شيء سوى الخالق ونتيجة ذلك تدمير النفس. فعندما يخاطبنا القرآن قائلاً ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٢٥/٤٣] فذلك إنما يصف الشخص الذي أصبح عبداً لعواطفه. ويقدم القرآن أمثلة مشابهة عديدة لأشخاص أصبحوا عبيداً للسلطة والجشع والتقاليد والكبرياء و الثروة والشهوات بأنماطها المتعددة إضافة إلى بعض السادة من البشر. فلأن تسمح لنفسك أن تكون عبداً لأي من هذه الآلهة المزيفة، ولأن تجعل من رغبتك لهذه الآلهة تنافس العبادة المستحقة لله وحده هما أن تنحرف بعيداً عن النماء والوفاء بالعهد، وتتحرك نحو ظلم النفس وتدميرها. إن طمأنينة الإنسان وسعادته تكمن في توجيه قدراته نحو خدمة الله، وألاّ يزيغ بصره عن هذا الهدف.

إن المسلم لا ينظر إلى مسألة خضوعه لله على أنه قهر أو إهانة، بل إنه يرى ذلك على أنه الطريق الوحيد للحرية الحقيقية كي يصبح إنساناً بالمعنى الكامل للكلمة. وعلى هذا فالإسلام للمسلم هو أكثر من ديانة فالإسلام للمسلم نظام هداية داخلي له (نحو النفس الحقيقية) وخارجي (نحو كافة البشر) مع رجوعه إلى ربّه على أنه الهدف الأسمى له. فالمسلم من خلال صلواته اليومية يسأل ربه أكثر من سبع عشرة مرة أن ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ وهو الطريق المعتدل الذي يقودنا للطمأنينة والسلام. فإذا ما اكتشف الإنسان هذا الطريق فإنه المعبر المكشوف المؤدي إلى سعادة عظيمة آسرة تسودها السكينة في هذه الدنيا، وإلى سعادة قصوى لا حدود لها في الآخرة. إن حياة الإنسان هي صراع وبحث عن استسلام حلو وسام ورائع، وهنيئاً لأولئك الذين ينالون ذلك لأن كل شخصية إنسانية ترنو لهذا الاستسلام، سواء أدركت ذلك أم لا وهذا الاستسلام هو الإسلام.

اعتبارات داخلية

إن الكتب المقدسة لها طريقة مخجلة للتعريض بنا وتعرية أسرارنا ونقاط ضعفنا. فهي قد تسبب الأسى عند القراءة إذ تبادرنا بأسئلة نفضل دوماً أن نتجاهلها، أو نؤجل إجابتها. وبشكل تدريجي وغير مدرك نجد أن القرآن يبدأ بإضعاف مقاومتنا، فسرعان ما تبدأ تلك الآيات التي تكشف إنسانيتنا بالدويّ في نفوسنا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ ، أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٢٤/٣٩-٤٠].

إن الملحد يعرف تماماً حال هذا الباحث اليائس، إن حياته هي بحث سقيم عن السعادة سعياً وراء أوهام فارغة، وما كان كل إحباط إلا ليزيده عطشاً مادام يتعلق بالجهل، ويغرق في كل ما هو آني وزائل. فهو يسوّغ حالته ويجادل فيها عن مبدأ وعقيدة يتحدى من خلالها ربّه الذي خلقه، ويحلف لك إنه يمتلك أنبل الأهداف، ومع ذلك فهو يستمر بإيذاء نفسه وإيذاء من حوله. لقد عميت بصيرته، ولفّه الويل والثبور:

﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى ما فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ ، وَإِذا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها﴾ [البقرة: ٢/٢٠٤-٢٠٥].

هل يتوجب عليه أن يدخل السباق ليكدّس أكثر مما يستطيع استهلاكه؟ إلى أي حد؟ هل هناك علاقة غرامية كاملة أو أسروية تامة أو أي محاولة ستشبع رغباته؟ إنه يبتغي الكمال، كما لو أن في داخله متّسعاً غير متناه لا يمكن لرغبة دنيوية أن تملأه. إن القرآن يؤكد له أنه سوف يجني ثمار جهده عند لحظة الموت، وسوف يدركها بشكل

أكبر يوم قيامته. ولكن إذا كان بمقدوره أن يرى بعين الواقع فإنه- لا شك- سوف يرى النار التي هو فيها لتوّه:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ، كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ، ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١٠٢/١-٨].

فعندما يصف القرآن كلاً من الجبان والمنافق والجاحد للحقيقة المتكبر عنها، والطاغية ومن حوله، والمرائي في عباداته المتجاهل لآلام المحتاجين فإن القارئ للقرآن يعرف- إلى حد ما- أن كلاً من هذه الخصال تعيش في داخله. ونقرأ في القرآن كيف أن المنافقين يقومون إلى الصلاة وهم يتذمرون كما في (الآية ١٤٢ من سورة النساء) وكذلك نقرأ عن أولئك الذين يؤدون الصلاة ولا يؤدون الصدقات ويتجاهلون حال الفقراء (كما في سورة الماعون) ونرى في القرآن أيضاً مرآةً لأنانيتنا ورغبتنا الشديدة لبلوغ المجد والشهرة، وعندما يخبرنا القرآن عن أولئك الذين يحاولون خلق الأعذار عندما يطلب منهم القتال في سبيل قضية عادلة فإن علينا أن نعترف لأنفسنا كم مرّة أدرنا ظهورنا وتجاهلنا مناشدات الآخرين اليائسة لنا:

﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً﴾ [النساء: ٤/٧٥].

ففي هذه الآيات نكتشف أسوأ إمكاناتنا، إنها تضعنا على المحك، وتعرّينا لتكشف زيفنا أمام أنفسنا.

إن القرآن يعطينا أمثلة عن أفضل ما يمكن للإنسان أن يكونه: في أنبياء مثل إبراهيم

وموسى والمسيح ومحمد؛ وفي نساء مثل مريم العذراء والدة المسيح، وامرأة فرعون الطاغية، وبلقيس ملكة سبأ التي تخلّت عن الوثنية لتؤمن با لله؛ وسحرة فرعون الذين أعلنوا جهاراً عن إيمانهم برب موسى على الرغم من مخاطر صلبهم؛ ومؤمن آل فرعون الذي انبرى يدافع عن حقيقة رسالة موسى أمام قومه؛ وأصحاب الأخدود الذين ألقوا في النار بسبب معتقداتهم. فمن بين هؤلاء نجد الشباب كفتية أهل الكهف، ونجد الكهول كيعقوب في سورة يوسف، و نجد رجالاً ونساء، وآباء و أولاداً، وأزواجاً وزوجات مؤمنين وكافرين، وبشكل عملي إننا نرى كل الأنماط في المنظور الاجتماعي في الصراع الذي لا ينتهي وفي الخيار الإجباري: هل يتوجب عليّ أن أستسلم لما هو حق أم أن علي أن أعرض عن ذلك؟

إن هذا السرد يتطور بسرعة كبيرة ثم إننا نجد أنفسنا في مواجهةٍ مع منكر للحقيقة ومدافع عنها. ويزداد التوتر لدرجة تتطلب اتخاذ قرار بالسرعة القصوى؛ لأن الحياة هي في الميزان. فمن خلال مكاشفات القرآن هذه يلوح للمؤمن في الأفق وعيد الاضطهاد والعنف الذي يخشى أن يلقاه. والقرآن يغطي هذه الصراعات من وجهات نظر متعددة: من وجهة نظر النبي وأولئك الذين يؤمنون به، ومن وجهة نظر الطغاة ومن والاهم حيث يعطي كل منهم للأخر الدعم والتبرير كما (في سورة الأعراف الآيات ١٠٩-١١٠، وسورة طه الآية ٦٢) وكذلك ومن وجهة نظر رجل الشارع كما (في سورة غافر في الآيات ٢٨-٤٤). وليس لنا هنا إلاّ أن نسأل أين موقعي من هؤلاء؟ من أي هؤلاء الناس قد أكون أنا؟

فعندما يقرأ أحدنا وصف القرآن كيف يفكر الناس، وكيف يتصرّفون، وحال الضياع الروحي لمعظم الإنسانية، وقصص أنماط كثيرة من الأفراد فإن تحوّلاً ملحوظاً يحدث لنا. فعند قراءتنا للقرآن تنبثق لنا من خلال صوره الذهنية وآياته وسوره صورة

أكثر حيوية وإشراقاً. فهناك تبدأ بالبزوغ صورة مركزة حادة عن نفسك، ثم تأخذ بالظهور لتتضح شيئاً فشيئاً. لقد اطّلع القرآن عليك وأصبح مرآة ترى من خلالها عيوبك ونقاط ضعفك وآلامك وضياعك وإمكاناتك وإخفاقك. وإذا ما أنعمت النظر داخل أعماق نفسك فإنك سوف تدرك أنك كنت دوماً تعرف أن لا إله إلا الله.

ومهما يكن فالاعتراف غير الالتزام؛ فما يزال هناك حاجز من الخوف والشك يفصل الإيمان عن التسليم. ولكنك سرعان ما تجد أن هناك آيات في القرآن تأتي لنجدة من يتصارع مع هذا الخيار. إن هذه الآيات هي بمثابة اليد التي تمتد من السماء لتصل إلى القلب المعتل، لا لتتحدث إلى هذا القلب فحسب، بل لتخاطب روحه أيضاً. فعندما تكون بأمس الحاجة كي تعرف أن الله معك أو أنه يسمعك، تجده يؤكد لك:

﴿وَإذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٨٦].

وإذا ما انتابك شك حول ذلك تراه يؤكد لك أن هناك دوماً أملاً:

﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣].

وفي لحظة الاستسلام تلك، عندما تستغيث بربّك من أعماق كربك، تجده يتقبلك بسرور:

﴿رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَكَفِّرْ عَنّا سَيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الأَبْرارِ ، رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ ، فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي

وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابـاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٣/٣-١٩٥].

وفي القرآن هناك آيات أيضاً تفسح الطريق إلى التطهر الروحي والتوبة مثل قوله تعالى:

﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَـا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَـى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦/٢].

وهناك آيات أخرى أيضاً تريح المرء وتعيد طمأنته بأن الله لا يتخلى عـن أولئـك الذيـن يبحثون عنه. فعندما قرأت السورة الثالثة والتسعين-(سورة الضحى)- تأثرت كثيراً لوعدها بمحبة الله المغذية للروح لدرجة أني بكيت لما يزيد عن نصف ساعة على ما أعتقد. شعرت كطفل ضائع أنقذته أمه بعـد طـول عـذاب؛ ذلـك أن هـذه السـورة تخبرنـا أن الله لـن يتخلى عنّا في أحلك الظروف أو في تلك التي أكثرها إشراقاً إذا ما توجهنا إليه فقط:

﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذا سَجَا. ما وَدَّعَـكَ رَبُّـكَ وَمـا قَلَـى. وَلَلآخِـرَةُ خَيْرٌ لَـكَ مِـنَ الأُولَى. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى. أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضالاًّ فَهَـدَى. وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ١/٩٣-٨].

لقد أشرت سابقاً أنّه فعلياً ليس هناك بداية أو نهاية للقرآن، وأن مفاهيمه الجوهريـة يمكن توكيدها بغض النظر عن الترتيب الذي يمكن أن تقرأ فيه. ولكن بالنسبة لمـن هـو على وشك أن يستجيب إلى ندائـه (نـداء القـرآن) فـإن ترتيـب السـور في القـرآن أمـر حيوي؛ لأنك كلما تقدمت خلاله في الترتيب الصحيـح كـانت التعابير أكـثر عاطفيـة وأكثر مغناطيسية. فالسور القصيرة في نهاية القرآن تلخص مواضيعها الرئيسية وتركـز

على النصيحة والموعظة، فبعد إنذار أخير عن جزاء العجب وعقوبة التكبر والجحود بالإيمان كما في (سورة المسد) يصل المرء إلى آخر ثلاث سور والتي تعلّم القارئ حرفياً ماذا عليه أن يقول، باسطة الكلام أمامه حتى إنه يخاطب ربه بها. وهنا تجد أن القارئ مدعوّ ليعلن إيمانه ثلاث مرات متتالية تفصل بينها أسطر قليلة فقط في كل مرّة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد: ١/١١٢]، و﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ [الفلق: ١/١١٣]، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١/١١٤].

وهكذا فإن القارئ هاهنا يكون قد وصل إلى حافة حياة جديدة والتزام جديد تم التعبير عنهما، كما فعلت منذ سنوات خلت في المسجد الطلابي، في الكلمات: (أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله)

I bear witness that there is no deity except Allah, and I bear witness that Muhammad is the Messenger of Allah

أما أولئك الذين عانقهم الإسلام فإن أعظم شاهد على محبة الله المتواصلة والمتابعة والداعمة والهادية لهم هو القرآن، فالقرآن هو كالمحيط الهائل الرائع يغريك كي تبحر في أمواجه الباهرة نحو الأعمق فالأعمق حتى تنجرف في داخله، ولكن بدلاً من أن تغرق في بحر لجي مظلم، كما سبق وأوضحنا، فإنك تجد نفسك مغموراً في بحر من النور والرحمة الإلهية(٦٥) .

وفي الأيام التي تلت إسلامي حاولت أن أحضر كل صلاة جماعة في المسجد، ولكنني كنت أواظب بشكل خاص على صلاة الفجر والمغرب والعشاء؛ لأنه يُجْهَر بقراءة القرآن خلال هذه الصلوات، بينما لا يُجْهَر بالقراءة في صلاتّي الظهر والعصر. وحضوري في هذه الصلوات الثلاث خاصة لفت انتباه أحد المصلين الذي كان عنده

---

(٦٥) شون يستخدم هذا التشبيه في كتابه *فهم الإسلام*.

درجة من الفضول، فسألني ذات مرة لماذا كنت أجهد نفسي للمجيء لهذه الصلوات؟ إذ عدّ مجيئي إليها عبثاً علي، خصوصاً وأن القراءة في الصلاة كانت تتم في لغة غريبة عني تماماً وهي العربية.

لم أفكر في هذه المسألة قط، ولكنني أجبته على نحو فطري بسؤال آخر: لماذا يسكن الطفل الرضيع ويرتاح لصوت أمه؟ ذلك أنه على الرغم من أن الرضيع لا يفهم كلمات أمه إلا أن صوتها مألوف له ويسكته، إنه ذلك الصوت الذي عرفه هذا الطفل منذ الماضي البعيد، وذلك الصوت الذي كان يعرف طفله دوماً.

لقد كان هناك لحظات كنت أتمنى فيها أن أعيش تحت حماية ذلك الصوت للأبد، ولكن المعتنق الجديد يجب أن يعيش وينمو بالإيمان في العالم الواقعي.

الفصل الثالث

رسول الله

يقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦/٣٣].

انتشر الخبر بسرعة كبيرة في المدينة وبدأت الحشود المزدحمة في الساحة تضجّ وتتململ على نحو متزايد كل دقيقة. فعلى الرغم من الدلائل الكثيرة التي ظهرت مؤخراً والتي كانت تنذر بدنو أجل رسول الله فقد أصيبت الحشود بالصدمة، وكانت على حافة من الهلع. ربما كانت هذه محنتهم الكبرى، والتي كانت أشد مما كابدوه من الآلام ومن الهجرات ومن القتال ومن الموت، ذلك أن النبي كان دوماً بينهم بقيادته الوطيدة الواثقة ورحمته وروحانيته العظيمتين وابتسامته المطمئنة وبروح دعابته الوادعة.

ولقد قال مرّة لابن عمه عليّ وهو يمازحه وينفض التراب عنه: "انهض يا أبا تراب"[1] .

ومما يدل على تواضعه واحترامه الشديدين أنه بسط ملاءته مرّة مفسحاً بذلك المكان لعجوز فقيرة كي تجلس عليها. كيف يمكن لهؤلاء الناس أن ينسوا مشيته الحازمة المصممة كأنما يصعد جبلاً، بل كيف ينسون حفيدته التي كانت تركب على كتفه وهو يصلي بهم؟

---

(١) قم يا أبا تراب...، من حديث سهل بن سعد أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم (٢٤٠٩).

فلقد كان الله دوماً معه: في الغار، وفي ساحة القتال، ويوم أحد وفي المحراب. لقد ظنّ هؤلاء أن موته لا يمكن أن يكون حقيقة، وماذا عساهم أن يفعلوا الآن!

وانطلق عمر من مسكنه واندفع بين الحشد في الساحة، ثم صعد المنبر، وصرخ قائلاً: إن أناساً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد مات. . . ! إنهم يكذبون وهدد أن يضرب بسيفه عنق أي رجل يقول: إنّ محمداً قد مات. لقد كان أكثر عنفاً من أي وقت مضى، وكانت عيناه تؤكدان شدة غضبه وتوعّده. لقد كان الرسول يقول دوماً إنّ الشيطان إذا ما صادف عمر غيّر اتجاهه، وولى هارباً.

وفي البداية ارتاح الناس لهذا الكلام، ذلك أن عمر كان قد رأى النبي لتوّه في بيته، ولكن الناس كانوا ما يزالون يسمعون بكاء زوجاته من داخل حجراتهن، وكان هناك شيء ما غريب وغير حقيقي في احتجاجات عمر. لقد كان أشبه بالولد الذي يرفض أن يصدّق وفاة أبيه، وتنهد الجميع بأسىً: يا الله، إنها الحقيقة! ربنا أعنّا، إن محمداً قد ذهب!

ثم حضر أبو بكر إلى ساحة المسجد وحصانه يلهث ويتصبب عرقاً من الجري ونزل عن حصانه بسرعة، وانطلق حتى دخل حجرة ابنته، فأزاح الستارة مستأذناً للدخول فأجابت ابنته أن لا حاجة للاستئذان اليوم. ثم مشى إلى الحصيرة حيث كان يرقد صهره، وقد غطي وجهه بعباءة. إن صداقتهما تعود إلى سنين عديدة، إلى ما قبل عهد النبوة وإلى ما قبل زواجه من خديجة، بل إلى الوقت الذي كانا فيه شابين مؤملين لامعين في المجتمع المكي. انحنى أبو بكر وقبل وجه حبيبه قائلاً: «طبت حيّاً وميّتاً». ثم رفع رأس النبي برفق بين يديه، وكانت الدموع تنهمر من عينيه فوق وجه النبي، وقال: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن يصيبك بعدها موت أبداً». وبرقة بالغة، أعاد رأس النبي إلى وسادته، وانحنى ثانية لتقبيله، ثم أعاد الغطاء على وجهه، ثم غادر الحجرة.

إن أبا بكر الذي كان قصير القامة ونحيلها والذي اشتهر برقة قلبه ومشاعره لم يظهر على أنه الخليفة الطبيعي للرسول. وفي الحقيقة كانت ابنته عائشة قد خشيت ألا يكون أبوها قادراً على أن يؤم المسلمين في الصلاة بسبب طبيعته العاطفية. ولكن النبي كان يرى فيه ما هو أعمق من ذلك. فبعد خروجه من حجرة ابنته دخل أبو بكر إلى الساحة ثانية، واتجه إلى مقدمة الحشد، وحاول أن يجذب انتباه الناس لكن عمر الذي كان ما يزال يخطب في الناس لم يكن ليسمح لأحد أن يقاطعه. إلاّ أن الناس أرادوا أن يسمعوا ماذا كان أبوبكر يريد أن يخبرهم، لذلك حوّلوا انتباههم نحوه. قال أبو بكر بصوت مرتفع: «من كان يعبد محمداً. . . » عندها التفت إليه عمر وصمت الجميع إصغاءً له «فإن محمداً قد مات، » ثم أضاف «ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت!» ثم إن حدة صوته ارتفعت وهو يتلو قوله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٤٤].

صعق عمر عندما أدرك أن النبي قد مات حقاً، فجثا على ركبتيه يبكي ما كان قد رفض تصديقه لتوّه. ثم إن عمر قال بعدها: كأنما الآية ما نزلت إلاّ يومئذ، وكأنه لم يقرأها من قبل. وعلى الرغم من أن السؤال حول من سيكون الخليفة السياسي لمحمد (وليس هناك خلافة في النبوّة) لم يصبح رسمياً إلاّ في اليوم التالي، إلاّ أن العديد كان يدرك الإجابة عن هذا السؤال منذ اللحظة الأولى.

ولقد كان دور أبي بكر محدداً، فقد توفي بعد عامين من موت النبي، لكن ذلك كان أشد الأوقات حساسية فقد كان عليه أن يقود الأمة الإسلامية الجديدة عبر إحدى أصعب حقب تطورها. فقد كان نزول الوحي قد اكتمل، وقد تم تطبيق ما أنزل على نحو عملي، وقد آن الأوان لهذه الأمة أن تنطلق بمفردها بعد أن فقدت أمن الحياة

بصحبة النبي، ولكي تطبق الرسالة في أقاليم مترامية الأطراف. ومما سهّل أمر هذه المهمة هو أن تطلعات وشخصيات أشد الصحابة قرباً من رسول الله كانت قد قولبتها أحداث العشرين سنة الماضية. إن القرآن والسنّة لم يكونا قد تشكلا كمصدرين مستقلين للمعرفة والبحث والدراسة فقد كان كل ذلك ما يزال جزءاً من حياة الصحابة، ولكن خطرين جسيمين كان من شأنهما أن يتحديا الأمة للأبد برزا لأبي بكر منذ البداية وهما: الروح القبلية العصبية، والنزعة الإنسانية التي ترفع الأولياء والأبطال إلى مرتبة القداسة، حتى أولئك الذين أرسلوا لردع مثل تلك النزعات.

إن المعتنق الغربي للإسلام اليوم عليه أن يواجه هذه المواضيع نفسها على الرغم من أن ذلك قد يكون من منظور مختلف نوعاً ما. فبطريقة ما، يترتب عليه في هذه المرحلة من حياته أن يجد مكانه في مجتمع له تقاليد ومنظورات غريبة جداً عمّا هو عليه؛ وخلال هذه العملية نفسها يجب عليه أن يتوصّل إلى تفاهم مع شخصية النبي محمد.

البدء مع القرآن: في الوقت الحالي هناك قلّة قليلة فقط من الكتب الإنكليزية التي تعالج العقائد والممارسات الإسلامية الأساسية[٢] وبالنتيجة فإن أول اتصال بين معظم المسلمين الأميركيين وشخصية النبي كان عبر الترجمة الإنكليزية للقرآن مع شروحاتها، وهذا مناسب بالتأكيد ذلك أن القرآن كان دوماً معين الإيمان الرئيسي للمجتمع الإسلامي برمته.

---

(٢) فمن كتب المقدمات هناك كتاب: حمّودة عبد اللطيف، *الإسلام تحت المجهر*؛ وكتاب أبي الأعلى المودودي، *نحو فهم الإسلام*؛ وكتاب محمد حميد الله، *مقدمة عن الإسلام*.

Hammudah Abdalatif, *Islam in Focus* (Indianapolis: American Trust Publications, 1975); Sayyid Abdul A'ala Maududi, *Towards Understanding Islam* (Indianapolis, Islamic Teaching Center, 1977); Muhammad Hamidullah, *Introduction to Islam* (Paris: Islamic Cultural Center, 1969).

أما أولئك الذين ينتمون لخلفية ثقافية يهودية مسيحية، فإن أوّل ما يتوقعونه هو أن كتاب المسلمين المقدس يجب أن يكون في مجمله حول محمد والأمة الإسلامية. ولكن الحالة هي غير ذلك، فالاسم «محمد» على سبيل المثال لا يظهر سوى أربع مرات في كل القرآن، في حين أن اسم «المسيح» يظهر خمساً وعشرين مرّة وإن اسم «موسى» يظهر مئة وستاً وعشرين مرة[٣]. وكما ذكرنا في الفصل الماضي، فإن القرآن يتعلق بشكل رئيسي بأولئك الذين يقرؤونه وعلاقة هؤلاء با لله. صحيح أنه يمكن للمرء أن يجد فيه تلميحات إلى أحداث تاريخية تتعلق بزمن النبي، ولكن هذه الإشارات تبدو غامضة بشكل متعمّد، بحيث يمكن أن تنطبق على حياة أي شعب في أي زمان كان. ومهما يكن، فهناك إشارات قرآنية كافية إلى أفكار محمد ومشاعره وآماله وآلامه من شأنها أن تسمح لنا بأن نشكّل صورة ما عن شخصيته.

إن دراستنا لشخصية النبي تختلف عن دراسة العلماء في الإسلام، من غير المسلمين الذين يبحثون عن الدوافع المادية أو السيكولوجية لما وراء نزول الوحي. وسوف نحاول الوصول لمعرفة محمد من وجهة نظر من أصبح مقتنعاً بالقرآن على أنه كلمة ا لله الموحاة بقدسيته، ذلك أن هذا هو الطريق المعتاد الذي يسلكه معتنق الإسلام: فقناعته حول القرآن تتطوَّر بسرعة أكبر من قدراته لفهم النبي محمد. وبالإضافة إلى هذا، سوف نحاول أن نستنبط الطريقة التي يريدها القرآن للمؤمن أن ينظر إليه.

إن النقطة الأكثر بروزاً في القرآن حول محمد هي، على الرغم من أنه الذي كان يتلقّى الوحي، أن ا لله قد اختصه بمؤهلات خاصة، إلاّ إنه لم يكن أكثر من مجرد إنسان. والآيات القرآنية التي تبجّل الرسول أكثر من الرسالة قليلة جداً، فمنذ قليل

---

(٣) حنا قسيس: *فهرس القرآن*.
Hanna E. Kassis, *A Concordance of the Qur`an* (Berkeley: University of California Press, 1983).

قرأنا الآية التي استشهد بها أبو بكر ليعلن وفاة النبي للأمة آنذاك، وهناك العديد من الآيات الأخرى التي تؤدي إلى الغاية ذاتها، يقول تعالى:

﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً إِلاّ ما شاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: ١٠/٤٩].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١٣/٣٨].

﴿وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً. أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاّ بَشَراً رَسُولاً. وَما مَنَعَ النّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدَى إِلاّ أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً. ﴾ [الإسراء: ١٧/٩٠-٩٤].

﴿وَقالُوا ما لِهَذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْواقِ﴾ [الفرقان: ٢٥/٧].

﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً. إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً. ﴾ [الإسراء: ١٧/٧٤-٧٥].

إن القرآن يتواكب مع دعوة محمد ويجادل في دعوات الأنبياء السابقين مؤكداً على أنهم بشرٌ مثله كما (في سورة إبراهيم الآية: ١١)، فهم يتعرضون للإغراءات الجنسية كما (في سورة يوسف الآيات ٢٤، ٣٣) وتستهويهم أمور الدنيا كما (في سورة ص الآيات ٣١-٣٣) وقد يطلبون العلم عند من يفوقهم معرفة كما (في سورة الكهف الآيات ٦٠-٨٢)، وقد تتحكم بهم عواطفهم فيحكمون بغير رويّة كما (في سورة الأعراف الآية ١٥٠، وسورة القصص الآيات ١٥-٢١). وهم أيضاً غير معصومين

عن الخطأ كما (في سورة الصافات الآيات ١٣٩-١٤٤ وسورة ص الآيات ٢٤-٢٥) وعرضة لعدم الثقة بأنفسهم كما (في سورة القصص الآيات ٣٣/٣٥)، ويستغفرون الله ويطلبون منه الهداية كما (في سورة الأعراف الآية ١٥١، وسورة القصص الآية ١٦، وسورة ص الآية ٢٤-٢٥. . . إلخ).

والقرآن يظهر فنائية محمد بشكل مؤثر جداً في الآيات التي تخاطب حاجاته الروحية والسيكولوجية، وكذلك في الآيات التي تخاطب الأحداث العادية لحياته اليومية. وبينما يبحث علماء المسلمين عن دروس خالدة في هذه الآيات، فهم يسعون أيضاً لتقليص المسافة ما بين النبي وأنفسنا. إنه من غير المعقول أن نتوقع لشخص ما أُخضع فجأة لاستنارة روحية بالغة ألاّ يشكك نفسه في صحة وسلامة عقله. ولهذا فإننا نجد في المراحل الأولى من الدعوة تطمينات ربانية مثل: ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلَى﴾ [الضحى:٩٣/٣]؛ و﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ، وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٩٤/١-٤]؛ و﴿ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ، وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/٢-٤]. ونرى أيضاً كيف أن الله يسدّده في عدد من المواضع بنبرة شديدة، ومثال ذلك عندما أراد النبي محاربة التعصّب الجاهلي في مسألة زواج الموالي إذ أصرّ على كلٍ من ابنة عمته زينب ومولاه زيد ألاّ يتطلقا على الرغم من النفور الذي كان يجري بينهما[٤]، وكذلك عندما أعرض عن الرجل الأعمى

---

(٤) حسين هيكل، حياة محمد، ص. ٩٨-٢٨٥. في أثر هذه الحادثة نزلت الآية: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ [الأحزاب:٣٧/٣٣].

في حماسة منه لدعوة بعض أشراف مكة للإسلام[٥]، وكذلك عاتبه الله على إتعاب نفسه والتضييق عليها وعلى أزواجه من أجل مشاجرات حصلت بينهن كما (في سورة التحريم الآية الأولى)[٦]. فعلى الرغم من اختلاف الثقافات، إلاّ أن القرّاء المتزوجين لا بد وأنهم يعرفون ويقدّرون الإشارات العديدة في القرآن للتوترات العائلية في حياة محمد (كما في الآيات ٢٨-٣٤ من سورة الأحزاب، و٥٥، ٥٩ من سورة ق، و١-٦ من سورة التحريم).

إن الصلة ما بين أنفسنا والأنبياء توازنها في القرآن الحقيقة القائلة إنه على الرغم من أنهم بشرٌ مثلنا إلاّ أنهم، مهما يكن، أناسٌ استثنائيون: فهم الأخيار عند الله الآية ٤٧ من سورة ص، ورفعهم الله إلى أقصى درجات الفضيلة الإنسانية الآية ٨٣ من سورة الأنعام، وهم المحسنون الآية ٨٤ من سورة الأنعام وهم في مراتب الصالحين الآية ٨٥ من سورة الأنعام ومطهّرون بأنقى الخصال الآية ٤٦ من سورة ص وهم المكّرسون المُخلصون الآيات: ٢٤ من سورة يوسف و٥٢ من سورة مريم، وهم المفضّلون على العالمين الآية ٨٦ من سورة الأنعام. وقد خُصّ النبي محمد على أنه خير من يحتذى به الآية ٢١ من سورة الأحزاب ويمتلك أخلاقاً عظيمة في الشخصية الآية ٤ من سورة القلم، وهو جدير باحترامنا الآيات: ١٠٤ من سورة البقرة و٤٦ من سورة المائدة، و٦١ من سورة التوبة وأن الله وملائكته يصلون عليه الآية ٥٦ من سورة الأحزاب.

---

(٥) والآيات المتعلقة بهذه الحادثة هي: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، وَهُوَ يَخْشَى ، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ، كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ، ...﴾ [عبس: ٨٠/١-١٢].

(٦) حسين هيكل، *حياة محمد*، ص. ٤٢-٤٣٨. والآيات التي تتحدث عن هذه الحادثة هي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: ٦٦/١].

ولئن عوتب نبيٌّ أو استغفر ربّه فإن خطأه لا يمكن أن يصنّف على أنه عصيان متعمّد أو خروج على أمر ا لله، ولكن ذلك ما هو إلاّ خلط مؤقت ما بين دعوته المقدسة ومشاعره وطموحاته الشخصية. ويبدو أنه لا مفرٌ من الخطأ تقريباً، ولكن حتى للشخص العادي فإن ا لله يمكن أن يتجاوز عن سيئاته، وفي حين أن ا لله يطلب من الأنبياء أرقى مستويات السلوك فإن القرآن يرينا بوضوح كم يتضاءل الفارق ما بين الأنبياء ومكارم الأخلاق. وهكذا نجد كيف يلوم سليمان نفسه لأنه انصرف ولو إلى حين إلى مغريات السلطة والثروة الآيات ٣١-٣٣ من سورة ص؛ ويستغفر داود ربّه لأنه سمح لمشاعره الشخصية أن تضعف من إصدار حكمه، الآيات ٢٢-٣٥ من سورة ص؛ أوعندما يغضب موسى من أخيه ويتهمه بالتراخي مع بني إسرائيل الآية ١٤١ من سورة الأعراف؛ أو عندما يهجر يونس قومه الآية ٨٧ من سورة الأنبياء[٧]، إنما مردّ ذلك إلى انهماكهم العاطفي الشديد في أمور دعواتهم وخيبتهم الكبيرة عندما كانت تتعثر الطرق أمامهم. لذلك لا ينبغي لنا أن نسارع إلى تخطئة محمد لمحاولته القضاء على العصبية، أو لحماسته في تبليغ الرسالة أو لمحاولته أن يحلّ خصاماً عائلياً بطريقة عادلة.

إن التصوير القرآني لرسل ا لله هو في الوسط ما بين الفهم اليهودي والفهم المسيحي، فهم مبرّؤون من المعاصي الجسام المنسوبة إليهم في العهد القديم، ولكنهم لا يرقون إلى درجة الألوهية كما هي حال المسيح في المسيحية على الرغم من صورته الإنسانية المحض في الأناجيل. إن كلتا النزعتين قد تقود إلى السلبية المتطرّفة والتشاؤم، ذلك أنه في الحالة الأولى يصبح الأنبياء مُثُلاً لا يجدر بالمرء أن يقتدي بهم، وفي الحالة

---

(٧) لقد حاول بعض المفسّرين المسلمين باعتمادهم على مصادر يهودية ومسيحية أن يقدموا روايات مفصّلة وواضحة عن هذه الأحداث التي أشار اليها القرآن إشارات سريعة. أما أنا شخصياً فإني أفضل الإبهام المتعمد في القرآن والذي يحتوي على الخطوط العريضة فقط، وبالتالي فهو يسلط الضوء على أهم الدروس التي يجب تعلّمها دون التعرض للتعميم البالغ.

الثانية فإن محاولة رفع الأنبياء إلى درجة الألوهية هي أمر غير واقعي. ولقد انتُقد الإسلام على أنه إيجابي لدرجة غير معقولة، وأنه لا يعترف على نحو كافٍ بمواطن الضعف المتأصّلة عند الإنسان ونزوعه دوماً نحو الشر. ولكن وكما بيّنا في الفصل السابق فإن الإسلام خاصة والقرآن يأخذ بكامل اعتباراته ميل الإنسان نحو تدمير نفسه، رغم أن هدفاً كهذا هو ليس الرسالة كلها. إن المقصد من الوحي ليس محصوراً في جعلنا مدركين لضعفنا أو إخبارنا برحمة ا لله ومغفرته، بل أيضاً لتشجيعنا وتوجيهنا كي نجاهد من أجل التغلب على عيوبنا وإصلاح أنفسنا. مع أن هذا أمر غير يسير على الإطلاق فإن الحكم النهائي في القرآن يقول: إننا يجب ألاّ نتوقف عن المحاولة، وألاّ نفقد الرجاء. فالاستسلام لله ليس خطوة منفردة بل كفاح مستمر، وفي القرآن لا يصّر ا لله علينا بأن نبلغ المعصومية أو الحصانة عن الإغراء، فهذه الخصال لم تطلب أصلاً ممن اصطفاهم، ولكن القرآن يطمئننا بالحقيقة القائلة: إن ا لله يحب عباده، ويريد من البشر أجمع أن يخضعوا أنفسهم طواعية لإرادته.

وهناك ملاحظة غالباً ما يثيرها بعض الغربيين ممن اعتنق الإسلام، وهي أن محمَّد القرآن يختلف تماماً عن محمد الذي يصادفه المرء في مجموعة الأحاديث النبوية والسيرة الذاتية، أو حتى في خطب الجمعة الاعتيادية في الصلاة الجماعية الأسبوعية. هذا لا يعني أن المرء يخرج من هذا بانطباعات متنافرة، ولكن يبدو أن القرآن يركز على عدة خصال من صفات النبي. ففي الخطب والقصص والأحاديث نسج الكثير حول انتصارات النبي في المعارك، وعن معجزاته وقيادته الباهرة وطاعة الصحابة العمياء له، ونشره الأحكام والتشريعات، وعن روحانيته العظيمة، ومن الطبيعي أن تؤثر هذه المظاهر بالناس وخاصة المسلمين الأوائل، ذلك أن هذه الخصال كانت لهم البرهان الأكيد على أنه نبي ا لله ورسوله.

و لكننا عندما نقرأ القرآن يغيب الكثير من هذا النسج في الغموض، كما تغيب شخصية النبي ذاته. وأما الصورة التي تبقى فهي شخصية رجل يحجم كثيراً عن إهانة ضيوفه الذين يمكثون كثيراً عنده كما في [الآية: ٥٣ من سورة الأحزاب] ويتعامل برقّة مع أتباعه بعد إخفاقهم في غزوة أحد كما في [الآية: ١٥٩ من سورة آل عمران] ويسامح الآخرين بسرعة بالغة كما في [الآية٤٣ من سورة التوبة] ويدعو الله ليعفو عن أعدائه كما في [الآية: ٨٠ من سورة التوبة]، لقد وصف الله النبي بأنه رؤوف رحيم كما في [الآية ١٢٩ من سورة التوبة] ورحمة للمؤمنين كما في [الآية: ٦١ من سورة التوبة]؛ ورحمة للعالمين كما في [الآية: ١٠٧ من سورة الأنبياء]. ولقد كان قلق النبي واهتمامه بشأن نجاح دعوته وحول مصير أخيه الإنسان كما في [الآيتين: ٣٧و١٢٧ من سورة النحل والآية: ٦ من سورة الكهف] كبيرين لدرجة أن الله كان يذكره دوماً أن واجبه إنما هو تبليغ الرسالة كما في [الآية: ١٠٧ من سورة الأنعام والآية: ١٢ من سورة هود] وأن الله وحده هو الذي يهدي البشر كما في [الآية: ٢٧٢ من سورة البقرة] وأن النبي ليس بمقدوره أن يهدي من أحب إذا قرر الله خلاف ذلك. كما في [الآية: ٥٦ من سورة القصص] إن هذه لمحة جزئية عن محمد، ولكن من المهم القول: إن هذا الجانب من شخصيته هو الذي يظهر لنا في القرآن.

والرغبة بمعرفة النبي بشكل أفضل وأوثق هي رغبة جامحة عامة تقريباً، وخاصة للذي تربّى عليَ الكتاب المقدس، حيث يشغل الأنبياء مركز الصدارة عنده. والقرآن يمسك عن تمثيل صراعات محمد الداخلية، مستعيضاً بذلك ببعض الإشارات والدلائل المختصرة فقط، ففي القرآن لا نجد أبداً، بشكل مباشر أو حيوي، المخاوف والكرب والشكوك عند محمد كتلك التي نراها عند المسيح في الكتاب المقدس عندما كان يحارب الإغراءات في الصحراء مثلاً (متى: ٤؛ لوقا: ٤)، أو خلال الليلة التي قضاها في

بستان الجثيماني Gethsemane قبل اعتقاله (لوقا: ٢٢؛ مرقص: ١٤) ؛ أو في ألمه المبرح وهو على الصليب (لوقا: ٢٣؛ مرقص: ١٥؛ متى: ٢٧). وحتى في المصادر الإسلامية الأخرى من السيرة والحديث (التي سوف نناقشها فيما بعد) فإننا نعلم الكثير عن أقوال النبي وانعكاساته، ولكن نادراً ما نعلم عن أفكاره الداخلية والخاصة، إنني أعني بهذا أنه نادراً ما نكون منفردين معه، أو أن يكون لدينا امتياز للدخول على مشاعره. وبدلاً من ذلك، فإننا لا نستطيع أن نعلم شيئاً عنه إلا من خلال وسيط، سواء عن طريق الله من خلال ما في القرآن أو عن طريق أحد صحابته. وربما من الأفضل ألا نكون معنيين بمعرفة محمد على مستوى شخصي كهذا، بحيث نكون قادرين على التخلي عن الشعور بالحاجة لعنصر إنساني مبجّل، وأن نوجه شغفنا الروحي برمته خالصاً إلى واسع الرحمة وهو الله. إن هذا قد يشرح، جزئياً، لماذا دوماً نشير للنبي محمد ليس باسمه، بل من خلال وظيفته في تبليغ الخطة الإلهية (رسولاً) Messenger و (نبياً) Prophet[٨] .

في المسجد: مضى عام تقريباً منذ أن نطقت بالشهادة وأصبحت أنا ومحمود قنديل أكثر من أصدقاء، فقد كنا إخوة في الإسلام، ولقد ذهبنا معاً بالسيارة مرة إلى فيرفيلد Fairfield لنستمع إلى محاضرة موّلتها إحدى جماعات الطلبة المسلمين في المسجد المحلي، والذي كان عبارة عن بيت صغير تم تحويله مؤخراً إلى مكان للعبادة. كنا مختلفَين عن باقي الحضور، ليس فقط لأني كنت الأمريكي الوحيد بينهم، بل لأننا كنا عملياً، الشخصين الوحيدين ممن يرتدون ملابس غربيّة. وبعد أن عثرنا على مكان للجلوس

---

(٨) سوف نرى لاحقاً أن القرآن لا يعترف بالحاجة إلى اتخاذ مثل أعلى من البشر، فالإسلام يقر بأن هذه الحاجة إذا ما أطلق لها العنان قد تؤدي إلى الوثنية. والفرق الحاد ما بين الإسلام والوثنية هو أمر مفروغ منه خلال آيات القرآن.

بقليل، بدأ أحد المتكلمين حديثه بسرد القصة التالية كي يذكر في بحثه مستمعيه بعقم إيمانهم إذا ما قورن بإيمان أصحاب النبي:

قابل النبي بدوياً في الصحراء فدعاه للإسلام، ولكن البدوي أبى ذلك، وطلب من النبي أن يثبت صدق نبوءته، ثم إن محمداً أخبر البدوي إن كان يرضى بشاهد على ذلك. فقال الرجل: لا أحد هنا، ولا يقطن أحد من حولنا، فمن عسى أن يكون شاهدك؟ فأشار النبي إلى شجرة مجاورة قائلاً «هذه سوف تكون شاهدي»[٩]. وفي تلك اللحظة انغلق جانب من جذع الشجرة ومشى نحو الرجلين ثم انسلخ الجزء الآخر من الشجرة، وتقدم نحوهما. شاهد الرجل هذا بهلع فصرخ قائلاً: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

لاحظ محمود علامات من عدم الارتياح على وجهي، وبعد المحاضرة حاول أن يصلح الضرر. وبالطبع لقد كان محقاً بقوله: إن الحضور لم يكن ليمثّل جميع المسلمين وإن قيمة مثل هذه القصة لا تكمن في تاريخيّتها، بل في قدرتها على خلق مزيد من الخشية والشعور بالله. وفي الحقيقة أن العديد ممن كان حاضراً كان يصغي مشدوهاً إلى تلك القصة وأخرى أمثالها وردت في المحاضرة، وفي نهاية كل قصة كانوا ينطلقون بالمديح على نحو انفعالي. ولكني شعرت أن اعتذار محمود لي كان اعتذاراً غربياً أكثر من كونه اعتذاراً إسلاميّاً. وفي رأيي أن قصصاً من هذا القبيل تضعف من مخاطبة القرآن للعقل، وتنقص من تشديده على ما هو فوق طبيعي لصالح عجائب الطبيعة والخلق. ولكن محموداً بدبلوماسيته المعهودة أكّد لي فكرة هامة بقوله: ومن نحن حتى ننكر شرعية منظور آخر لأنه ببساطة لا يتوافق من منظورنا؟

---

(٩) أخرجه الترمذي في المناقب، باب رقم (٩) الحديث رقم (٣٦٣٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح، من حديث عبد الله بن عباس.

عندها أدركت أنه من أجل مصلحتي كمسلم، يتوجب عليَّ أن أقوم بدراسة أفضل لمعرفة وفهم مكانة الحديث (التراث النبوي) في حياة مجتمعي الجديد، وهو المجتمع الإسلامي، فقد كنت على وشك الشك بإيماني والدخول في متاهة من الشك والالتباس والتشويه، لذلك قررت أن أسلّم نفسي لدراسة هذا الحقل ولكن ليس بتعمق، ولا أظن أنني سوف أخسر أي شئ من جراء هذه الدراسة.

إن علم الحديث هذا هو الذي كان هدف النقاد من المستشرقين، ولسوء الحظ فإن أدب الحديث الذي كتبه علماء المسلمين، سواء بلغة إنكليزية أصيلة أو مترجمة إلى الإنكليزية من لغات أخرى للرد على هذا الهجوم، لم يكن رداً مكافئاً تماماً[١٠]. وهناك حاجة ماسّة إلى ردّ فعّال من جانب المسلمين الذين يعيشون في الغرب، لأن هذا الموضوع يلعب دوراً هاماً في توجيه وتلاحم الأمة، وكذلك لمواجهة تحدي الدفاع عن النفس في بيئة أجنبيّة راديكالية.

وسرعان ما يكتشف معتنقو الإسلام الجدد الحاجة لتبني موقف حول دور السنّة والحديث في حياتهم، ولكن المشكلة هي أن الخيارات المقدمة لهم متطرفة جداً لدرجة يشعر فيها العديد من هؤلاء بالغربة في مجتمع الأمة الجديد الذي انضمّوا إليه، وفي رأيي أن هذا الوضع يمكن تحاشيه فيما لو كان هناك فرصة حقيقية للنقاش النزيه والمفتوح حول هذا الموضوع. وعلى الرغم من أني لا أملك الخبرة لمعالجة هذه المشكلة إلا أنني

---

(١٠) هناك بعض الاستثناءات القليلة الهامّة مثل مقال نابيا آبوتّ (نصوص تاريخية) من كتابها (أوراق البردي الأدبية العربية) المجلد الأوّل، ومقال (تراث وتفسير القرآن) من المجلد الثاني؛ وكذلك كتاب صهيب عبد الغفّار: نقد الحديث بين المسلمين مع الاشارة إلى سنن ابن ماجه؛ وكتاب محمد عزمي، دراسات في أدب الحديث المبكر ؛ وكتاب محمد صديقي أدب الحديث.

Nabia Abbott, "studies in Arabic Literary Papyri" vol.I : *Historic Texts* (Chicago:1957), and vol.II: "Quranic Commentary and Tradition" (Chicago:1967); Suhaib H. Abdul Ghafar, *Criticiom of Hadith among Muslims with Reference to Sunan Ibn Majah* (IFTA:1984); Muhammad M. Azmi, *Studies in Early Hadith literature* (Beirut:1968); Muhammad Z. Siddiqi, *Hadith literature* (Calcutta:Calcutta Universty,1961).

سوف أحاول من منظوري المحدود أن أطرح بعض المسائل الرئيسية المتعلقة بهذا الموضوع. ولنبدأ بوضع أسس بعض المصطلحات الرئيسية.

الحديث والسنّة والسيرة: عن عبد الله بن سلام، عن الزبيدي عبد الرحمن بن القاسم أنه قال: أخبرني والدي القاسم أن عائشة قالت: إن النبي رفع بصره إلى السماء وقال ثلاثاً: «بالرفيق الأعلى. . .»[١١].

إن هذا مثال عن الحديث (جمعها: أحاديث) والتي بمجموعها تشكّل مجالاً من المعرفة كان موضوع بحث ودراسة مكثفين من قبل علماء مسلمين وغير مسلمين منذ فجر الإسلام. إن المعنى الأوّليّ لكلمة حديث هو (جديد)، وعندما نطبّق ذلك على التخاطب الفعلي، فإن ذلك غالباً ما يصنّف ليعني (خبراً)، أي وصفاً، أو تقريراً عما قاله أحد ما، أو شيء ما نُقل عن طريق شهود عيان، أو ما أخبر به أناس عن شيء سمعوه من مصادر موثوقة. وفي اصطلاح علماء الإسلام فإن علم الحديث ينحصر في دراسة أقوال وأفعال النبي محمد، والذي يعتبره المسلمون المصدر الأبدي الثاني للهداية بعد القرآن. وأما كلمة (السنّة) فهي تعني حرفياً (الطريق) أو (الطريقة المعتادة). وعندما تستخدم للإشارة للنبي فإنها تعني نمط حياته ونموذج تصرفاته، ولهذا فإنها وثيقة الصلة بأدب الحديث إذ إننا لا نعرف أفعال وأقوال محمد بشكل رئيسي إلاّ من خلال أدب الحديث. وأما التراجم العديدة لشخصية محمد فتعرف بالسّيرة (حرفياً: ترجمة حياة شخص).

أما الآن فإننا سوف نركّز على موضوع الحديث: فكما نلاحظ من المثال السابق فإن كل حديث يتألف من جزأين: الإسناد (وهو ذكر أسماء رجال الحديث الذين

---

(١١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم (٤١٧١-٤١٧٤).

رووه)، والمتن (وهو النص الفعلي للحديث). والمختصّون المسلمون في هذا المجال يولون أهمية قصوى إلى هذين العنصرين، فمثلاً إن ورد هناك حديثان لهما المتن نفسه ولكن بإسناد مختلف فإن هذين الحديثين يصنفّان حسب الموثوقية. ويمكن للمرء أن يلاحظ الحرص الشديد المُولى لطريقة الرواية المحكمة في كل مرحلة، وهذه الحالة للمسلمين تبرهن على دقة الأفراد وترابطهم وموثوقيتهم وهم الذين ضمّتهم العملية التي من خلالها وجدت الأحاديث طريقها لما يعرف بكتب الصحاح. إن هذا الانطباع له ما يدعمه في الكثير مما ورد عن شدة ورع وتقوى وصلاح جامعي الحديث، ممن يتمتع بالاحترام والتقدير الكبيرين في الأمة الإسلامية كالبخاري ومسلم الذين كانوا غالباً ما يقطعون المسافات الكبيرة ويتحملون المشاق العظيمة في سبيل التحري عن أحاديث جديدة، وإقامة الدليل على صياغة نص حديث ما، والتأكد من سلسة الروّاة لحديث معين. إن كتب الصحاح التي تم إصدارها في القرن الثالث من الهجرة تمت تسميتها تبعاً لمجموعة العلماء الذين قاموا بجمعها وهذه هي: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وجامع الترمذي، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجه.

في حين أن هناك مجموعات أخرى معتبرة كسنن الدارقطني وسنن الدارمي، إلاّ أن غالبية المختصّين المسلمين ينظرون إلى الكتب الستة الأولى على أنها الأكثر اعتماداً، ويشغل كل من صحيح البخاري وصحيح مسلم حيِّز الصدارة بين هذه الصحاح من حيث الموثوقية.

إن عمل هؤلاء المحدّثين traditionalists العظام قد تحتّم، وذلك بسبب المكانة البارزة التي اكتسبتها الأحاديث النبوية في المناقشات القانونية في فترة نهاية القرن الثاني من الهجرة[١٢]، وكذلك بسبب الحقيقة التي لا مفر منها وهي أن آلافاً من الأحاديث قد تم

---

(١٢) ج. شاخت، *أصول الفقه المحمدي*، ص ٤١-٥٧.

J.Schacht.*The Orgins of Muhammadan Jurisprudence* p41-57.

تلفيقها ونسبتها للنبي لأغراض سياسية وحزبية ودينية وعصبية وشخصية وأحياناً تحريضيّة[١٣] . ويمكن التحقق من الدرجة التي وصل إليها التلفيق في الحديث من خلال البخاري الذي أحصى ستمئة ألف حديث، وقام بفحصها جميعاً، فلم يبق منها سوى ٢٦٠٢ (دون عد التكرار) في مجموعته المعروفة بصحيح البخاري[١٤] . ولكن هذا الرقم مضلل إلى حد ما؛ ذلك أن البخاري لم ينكر وجود أحاديث موثّقة أخرى خارج مجموعته. إضافة إلى ذلك فإن العدد ستمئة ألف حديث لا يتطابق مع عدد التقارير المميّزة، بل يتضمّن جميع الأقنية المختلفة التي جاءت من خلالها الأحاديث المروية بما في ذلك المكرر منها.

وكان البخاري عندما يقبل حديثاً معيناً غالباً ما ينبذ أحاديث أخرى عديدة لها المتن نفسه على أساس أن أسانيد هذه الأحاديث لم تكن لتتوافق مع معايره. وبالنسبة له ولجميع المحدثين فإن موثوقية حديث ما كانت تتحدد على أساس الإسناد بشكل رئيسي في حين كان المتن يأتي في المرتبة الثانية[١٥] . ولقبول حديث ما على أنه موثق وجب أن يحتوي سلسلة متصلة من الرجال المشهود بأمانتهم والخالين من العيوب والنقائص المستورة.

وخلال القرن الإسلامي الثاني أدت الحاجة لتثبيت صحة الإسناد إلى جمع وتصنيف مجلدات من البيانات حول تراجم رواة الحديث وانتقاداتهم ومصداقيتهم وفكرهم[١٦] . إن هذا الأدب المعروف بأسماء الرجال The names of the men تطوّر إلى علم مستقلّ

---

(١٣) عبد الغفار ،*نقد الحديث بين المسلمين*، ص. ٣٣-٤٨.

(١٤) عزمي، دراسات في أدب الحديث المبكر ، ص ٣٠١.

(١٥) المرجع السابق، ص ٣٠٥.

(١٦) صديقي، *أدب الحديث*، ص ١٢٦-١٢٧

تقريباً قائم بذاته له أهميته وغناه لدرجة دفعت سبرنجر Sprenger ليقول عنه: إنّه "فخر الأدب المحمدي الإسلامي"[١٧].

إن علم الحديث يقسّم الأحاديث إلى ثلاث طبقات: الصحيح (genuine) والحسن (fair)والضعيف (weak)، وهذه المجموعة الأخيرة يمكن تقسيمها أيضاً إلى: معلق (suspended)، ومقطوع (interrupted)، ومنقطع (broken)، ومرسل (incomplete)، وموضوع (forged)، ومصحَّف (Having an error in *isnäd* or *matn*). وتقسم الأحاديث أيضاً تبعاً لعدد رواتهاtransmitters خلال ثلاثة أجيال الأولى (الصحابة والتابعين وتابعي التابعين) من المسلمين، فهناك الأحاديث المتواترة التي رواها جمع كثير خلال ثلاثة الأجيال الأولى، بحيث يصبح مجال الشك في مصداقيتها قليلاً جداً[١٨]. والحد الأدنى المطلوب من عدد الرواة يختلف حسب وجهة نظر العلماء فقال بعضهم: إذا بلغوا سبعة كان متواتراً. وقال آخرون: إذا بلغوا سبعين كان متواتراً، وعدد الأحاديث من هذا النوع قليلة جداً. وهناك الأحاديث المشهورة وهذه أكثر عدداً من الأحاديث المتواترة، وقد رواها من اثنين إلى أربعة رواة في الجيل الأول وعدد كبير من الروّاة في الجيل الثاني. إن هاتين المجوعتين من الأحاديث المتواترة والمشهورة قد شغلت مكاناً هاماً في الشريعة الإسلامية منذ أيامنا الأولى. ولقد روى أحاديث الآحاد خلال ثلاثة الأجيال الأولى أربعة رواة أو أقل، ويعود الفضل الكبير لمناقشات الإمام الشافعي[١٩] أن أصبحت هذه الأحاديث أحاديث الآحاد مع الأحاديث المتواترة والمشهورة، المصدر الثاني من التشريع الإسلامي لفقهاء السنة(orthodox).

---

(١٧) المرجع السابق، ص ١٧٠.

(١٨) ج . هـ. جوينبول، *موثوقية أدب الحديث* ، ص ٩٦-١٢٩ حيث يتحدى هذا المفهوم هنا.

G.H.A. Juynboll, The Authenticity of the Tradition Literature: Discussions in Modern Egypt (lieden : E.J. Brill, 1969), 96-129.

(١٩) شاخت، *مصادر الفقه المحمدي*، ص٢٠-١١.

ومن هذه المقدمة القصيرة يستطيع المرء أن يدرك مدى ضخامة وتعقيد هذا العلم الإسلامي الكلاسيكي، ولكن مع الأسف فإن عدد المتخصصين في هذا المجال أصبحوا قلّة اليوم، يقول صدّيقي معلقاً:

في الحقيقة إن نظام التعليم الكلي، وخاصة علم الحديث في الهند وفي العالم الإسلامي برمّته على ماأعتقد قد أصبح علماً شكلياً. فعدد المدرسين الذين يمتلكون المعرفة بأسماء الرجال قليل جداً وهذه المعرفة هي شرط أساسي لدراسة الحديث[٢٠].

ويجد معتنقو الإسلام الجدد أنفسهم مقيدين حيال هذا الجانب من المعرفة ذلك أن وسيلة الوصول إلى الحديث أصعب بقليل من وسيلة الوصول إلى القرآن. ومع عدم توفر خبراء الحديث بسهولة وغيابهم، فإن الكثير من المسلمين يقتبسون عدداً معيناً من الأحاديث بشكل عشوائي؛ ليبرروا تقريباً جميع أفكارهم وتصرفاتهم. وهذه المسألة تزداد تعقيداً عند من اعتنق الإسلام، وذلك بسبب خلفيته الثقافية المختلفة. فإذا ما كانت هذه الخلفية يهودية مسيحية، والتي نبذها الكثيرون فإن هذا المعتنق كان لتوّه قد رفض تراثاً موازياً من الشواهد التي كان ما يزال يؤمن بها لحين اعتناقه الإسلام. ومن الصعب أيضاً أن نتجاهل نقد الدارسين الغربيين الذين فضحوا بنجاح التدخل الإنساني في كتب اليهود والنصارى المقدسة، والذين وصلوا إلى نتائج مماثلة فيما يخصّ أحاديث النبي. ومن الصعب أيضاً ألا نتساءل عن موثوقية الروايات التي تبدو غير متوافقة مع ما يمكن أن يتوقعه المرء من نبي، أو ما يؤيد أشياء تبدو على أنها سلوك متطرّف أو غير معقول. وفوق كل هذا فإن ما هو متوقع من كل مسلم هو أنه يقر ويعترف بأن جميع الأحاديث التي أقرّها المختصون المسلمون المعاصرون عن أقوال وأفعال محمد صحيحة وصادقة. إن هذا يضع العديد من معتنقي الإسلام في موقع غير مريح إذ عليهم أن

---

(٢٠) صدّيقي، *أدب الحديث*، ص ١٣٩.

يفكروا بعقلانية أولاً، ثم يستسلموا لعقيدة يصعب عليهم التسليم بها، لأنه لا يفترض لأحد أن يماري بهذه العقيدة، وبسبب من ذلك يكون من الصعب عليهم التسليم بها. ومن هنا غالباً ما يجد معظم هؤلاء أنفسهم مجبرين على إيجاد تسوية ما لالتزامهم بالحقيقة. وسوف نشرع في معالجة كل من هذه المواضيع كلٍ على حدة مبتدئين بأوجه الخلاف مابين الحديث والكتاب المقدس The Bible.

العهد الجديد والحديث النبوي: يعتبر معظم الكتاب، المسلمون منهم وغير المسلمين، أن القرآن والكتاب المقدس The Bible هما كتابان مقدسان Scriptures غير متشابهين، وخاصة من حيث الأسلوب الأدبي، والموثوقية، والطريقة التي وصل بها كلٌ منهما إلى عصرنا الحالي. وهذا الشيء نفسه ينطبق على مجموعتي الحديث النبوي والعهد القديم The Old Testament، ذلك أنه على الرغم من أن الفروق في هذه الحالة ليست كبيرة كما هو الأمر في الحالة السابقة، إلاّ أن هذه الفروق هي من الضخامة بمكان بحيث يجعل أمر المقارنة غير محبذ.

وبينما نجد هناك كتّاباً يقترحون أن هناك أوجه تشابه ما بين كتب الصحاح والعهد الجديد The New Testament [٢١] فإن الفحص الدقيق يكشف عن العديد من الاختلافات الهامة. وعلي أن أعترف أن كلاً من المصدرين كان يهدف إلى توجيه أمته في المسائل الدينية، ويحتوي تعاليم منسوبة لرسول مقدس مختار. إضافة إلى ذلك فإن كلاً من هاتين الشريعتين قد ترسخت منذ ما ينيف على ثلاثة قرون في حياة أفراد مجتمعها وكلاً منها يعتمد على شواهد مبكرة تم نقلها من جيل لآخر. ولكن نقطتي الخلاف

(٢١) كينيث كراج، *المسيح والمسلمون*، ص٤١.

Kenneth Cragg . Jesus and the Muslims (London George Allen Unwin . 1985 p.al)

الأولين عامتان، مادامت جميع الكتابات المقدسة تقريباً تشترك بهذه المزايا، في حين أن آخر نقطتي خلاف هما سطحيتان لأنه كان هناك دوافع وطرائق مختلفة وراء جمعهما.

لقد كان هناك ثلاثة دوافع رئيسية وراء جمع الحديث، وهي:

أولاً، أحدث محمد ودعوته أثراً عميقاً على كل من عاصره، بل في الحقيقة على تاريخ الإنسانية أجمع بحيث كان من الطبيعي للمسلمين الأوائل أن يجمعوا ما استطاعوا من المعلومات عنه وعن حركته الثورية.

ثانياً: كانت أحاديثه مصدراً هاماً لتفسير القرآن.

ثالثاً: مع مرور الزمن ومع اتساع الإمبراطورية ازدادت وتعقدت المسائل القضائية التي كانت تواجه قضاة المسلمين. فقد بدأ هؤلاء القضاة يشكّون بمقدراتهم الأخلاقية والقضائية في إصدار الأحكام، وهكذا ازدادت الحاجة للبحث عن سابقات نبوية واضحة أو قياسية.

وأما الباعث على كتابات العهد الجديد فقد كانت بعض الظروف الأخرى، فلقد دعا المسيح، شأنه شأن الأنبياء جميعاً، إلى تغيير جذري في مجتمعه، ولكن ما يمكن أن نقوله: - على كل حال-، هو أن اتجاه تلك الدعوة كان أخلاقياً وروحياً، ولم يتضمن القوانين الحقيقية والدساتير كي يحكم بها مجتمعه.

لقد طالب المسيح بالإصلاح ولكن ليس بإعادة صياغة النظام الاجتماعي القائم. وبإمكاننا أن نتصور المنحى الذي كان سيسلكه فيما لو قدّر له العيش لمدة أطول، ولكن هذا مجرد حدس؛ وتكاد لا تكون هناك تقريباً أيّ سجلات محفوظة عن أقواله وأفعاله، وربما يعود السبب لأنه كان يشدد على روحانية الفرد الداخلية أكثر من تشديده على الملاحظات الخارجية، وقد يكون السبب أيضاً هو قصر مدة دعوته.

وحسب ما نعلم لم يترك المسيح كتاباً مقدساً بحيث يمكن الرجوع إليه وتأويله. ونظراً إلى أن الكنائس المسيحية المبكرة كانت منشغلة بتنظيم نفسها والعيش تحت حكومة معادية وتعليم الدين الجديد وإصلاح بعض المفاسد؛ فإن أحداً لم يتبنّ أية جهود لتأسيس نظام قضائي شامل مبني على تعاليم المسيح. فمن خلال جهودهم لتشكيل المجتمع الجديد، امتنع الكتاب المسيحيون الأوائل عن تقديم أيّ إشارة إلى الأحاديث الحقيقية للمسيح. ولكن مع بدء القرن الثالث الهجري أصبح علم الحديث بارزاً ومؤثراً لدرجة، على الأقل في مجال القضاء، أخذت الأحاديث الموثقة فيه مكانها بسرعة لتصبح مرجعاً لإصدار الأحكام لا يعلوه شيء سوى القرآن، وأصبح لها الأسبقية في المناقشة على القياسanalogy والرأي [٢٢] Independent reasoning. ولقد استجاب مؤلفو كتب الصحاح الستة والعديد من المحدثين الآخرين إلى هذا التطور، إذ قاموا بتصنيف موادهم حسب مواضيعها، الأمر الذي سهّل عملية التحري القضائي، وكذلك قاموا بدراسة موثوقية هذه التقارير بدقة بالغة وحيطة كاملة. وبهذا فإننا نمتلك معلومات وافرة مفصلة فيما يخص تطور هذا العلم وعلى الأخص عن أسباب وطرائق عملية الاختيار تتعلق بتكوين هذه المجموعة من الصّحاح. إن هذا الشيء نفسه لا يمكن أن ينطبق على العهد الجديد كما جاء في *قاموس أوكسفورد للكتاب المقدس مع الحواشي والأبوكريفا*:

لماذا وكيف ومتى تم جمع الكتب الحالية من العهد الجديد بشكل نهائي في مجموعة واحدة؟ هي أسئلة تصعب الإجابة عنها بسبب نقص المعلومات الصريحة[٢٣].

---

(٢٢) شاخت، *أصول الفقه المحمدي*، ص٩٨-١٣٧.

(٢٣) هربرت ج. ماي وبروس م. ميتزجر، قاموس الأكسفورد للكتاب المقدس ذي الحواشي والأبوكريف، ص ١١٦٩ [والأبوكريفا هي أربعة عشر سفراً تلحق أحياناً بالعهد القديم من الكتاب المقدس وهي مثار خلاف بين الكاثوليك والبروتستانت (المترجم)].

Herbrt GIMay and Bruce M. Metzger. *The New Oxford Annotated Bible with the Apocrypha* (Oxford University press,1977), p.1169.

إن هذا يبرز فرقاً أساسياً بين الشريعتين: إن تشكيل أدب الحديث الشرعي في القرن الثالث الهجري يمثل قمة التحري العلمي النقدي والمنظم، في حين أن عملية فحص ومقارنة العهد الجديد لم يتعهد أحد القيام بها حتى حوالي ألف وخمسمئة عام بعد جمعه، ومع ذلك، فقد شكك المستشرقون بنتائج العلماء المسلمين، وهذا موضوع سوف نناقشه بعد قليل.

أما شكل هاتين المجموعتين ومضمونهما (العهد الجديد والحديث) فهما مختلفان تماماً، فالعهد الجديد يمكن تقسيمه إلى جزأين اثنين مميزين، وهما الأناجيل Gospels والرسائل Epistles (letters). فرسائل العهد الجديد قام بكتابتها عدة معلمين في الكنيسة المسيحية المبكرة من أجل تأمين التوجيهات والتشجيع اللازم للمجتمعات الناشئة وأحياناً لبعض الأفراد أيضاً. وتنقسم الرسائل إلى مجموعتين رئيسيتين وهما: تلك المنسوبة إلى بولص، وتلك المنسوبة إلى كتّاب آخرين. وعلى الرغم من أن هناك إجماعاً على أن بولص لم يكتب جميع الرسائل المنسوبة إليه من التراث[٢٤]، إلاّ أنه لا شك قام هو نفسه بكتابة غالبية تلك الرسائل، ولكنه سمح، طبعاً، لبعض النسّاخ بتغييرات لاحقة. وربما كانت رسائل بولص هي أولى كتابات العهد الجديد؛ ذلك أن رسائله هذه والعديد من الرسائل الأخرى تسبق الأناجيل من حيث تاريخها، كما أن هذه الرسائل مجتمعة، لا تحتوي سوى حفنة من أقوال المسيح وبعض الإشارات المختصرة جداً إلى حياته. وطبعاً هناك العقائد المسيحية الهامة مثل صلب المسيح crucifixion؛ وقيامه resurrection؛ وتكفيره عن خطايا البشر vicarious atonement؛ والميثاق الجديد New Covenant الذي حلّ محل الميثاق الإبراهيمي Abrahamic Covenant وجميع هذه العقائد كانت موجودة سلفاً.

(٢٤) المرجع السابق.

إن الأناجيل الأربعة من العهد الجديد والتي كتبت في الثلث الأخير من القرن الأول قد صنّفت تحت أسماء زائفة وهي إنجيل متى Mathew ، ومرقص Mark، ولوقا Luke، ويوحنّا John؛ وأما أسماء مؤلفيها الحقيقيين فهي مجهولة. فإنجيل مرقص الذي كتب حوالي سنة ٧٠ ميلادية يعتبر أقدم الأناجيل، ويُعتقد أن إنجيل متى ولوقا مبنيان في أغلبهما على هذا الإنجيل وعلى مصدر آخر، وهو مادة الأقوال التي جاء بها عيسى والمعروفة بـ كويل - Q [Quelle] source والتي لم تعد موجودة الآن[٢٥] . إن أناجيل متّى ومرقص ولوقا متشابهة لدرجة كبيرة ولهذا تدعى الأناجيل العامة Synoptic Gospel. وأما إنجيل يوحنا الصوفي، والذي يشدد بشكل كبير على الرموز والأسرار، فيقف منفصلاً عن هذه الأناجيل الأربعة. والأسلوب الأدبي في هذه الأناجيل هو عبارة عن أسلوب السيرة، ويركز بشكل رئيسي على بضعة الأشهر الأخيرة من حياة المسيح وعلى دعوته العلنية. ولقد كتبت كتب العهد الجديد باللغة الإغريقية العامة من ذلك العصر، والتي كانت تعرفها وتستخدمها شعوب الإمبراطورية الرومانية التي حمل إليها المبشروّن المسيحيون الأوائل رسالتهم.

وأما كتب الصّحاح فهي مرتبة حسب موضوعاتها، وهي تشبه إلى حد كبير إنجيل توماس Thomas Gospel الذي تم اكتشافه مؤخراً، والذي يتألف من قائمة بأقوال المسيح مع مقدمة قصيرة جداً[٢٦] .

إن الأحاديث النبوية ليست مرتبة بشكل تاريخي، وعملياً فإنها لا تحتوي أي تعليق أو توجيهات من قائلها إلى الأمة الإسلامية على الرغم من أنه يمكن التأكد من بعض المواقف الدينية والشرعية من عناوين الفصول واختيار وترتيب المواد. وتشترك كتب

---

(٢٥) المرجع السابق، ص ١١٦٧.

(٢٦) جين دورسّ، الكتب السّرية للعارفين المصريين

Jean Doresse, *The Secret Books of the Egyptian Gnostics* (New York : Viking Press1960).

الحديث الستة في عدة أحاديث طالما أن بعض الأفراد المحدثين كانوا يخضعون الأحاديث التي قبلها سلفهم إلى معاييرهم النقدية الخاصة.

و هناك فرق كبير آخر وهو اللغة التي كتبت بها كل من هذه النصوص. فلغة الحديث كانت دوماً العربية، وهي لغة محمد. وأما في حال العهد الجديد فإن جميع المختصين بهذا المجال يجمعون على أن العهد الجديد كتب بلغة لم يستخدمها المسيح قط وهي الإغريقية، بل إن لغة تعاليمه الأصلية كانت الآرامية التي كانت لغة فلسطين العامة في زمانه[٢٧] . إن هذا التفاوت مابين اللغات المحلية واللغة المكتوبة تعني أن أحد أهم أهداف كتّاب أناجيل ورسائل العهد الجديد كانت ترجمة معاني حياة المسيح إلى لغة وثقافة أخريين.

وهكذا فإن أدب الحديث، وخاصة كتب الصحاح الستة، تختلف بشكل جوهري عن كتابات العهد الجديد في طرائق جمعها وكتابتها ودراستها، وكذلك استخدامها. وعلى هذا فإنه من العقم أن يحاول المرء الشك بإحدى هذه المجموعات على أساس الأخرى. ولكن الشك قد يتأتى من شخص جاء من بيئة دينية في الأصل غير مسلمة، وخاصة البيئة المسيحية، ففي هذه الحالة يكون لمثل هذا الشخص تكوين معدّ من التوقعات حول ما هو سلوك قدسي وغير قدسي، وهذه التوقعات سوف تتضارب أحياناً مع توصيفات محمد في أدب الحديث وأدب السيرة.

توقعات: بالنسبة إلى جيلي فإن أواخر الستينات وأوائل السبعينات كانت فترة سلام ومحبة. فقد كان الشبّان يطيلون شعورهم ويزينونها بالأزهار، ويلبسون الثياب الرثّة، ويطلقون لحاهم حتى تصبح كثّة، وكانوا يمشون حفاة. أعتقد أن ذلك كان أكثر من مجرد

---

(٢٧) ماي وميتزجر ، قاموس اكسفورد للكتاب المقدس ذو الحواشي ، ص ١٤٤٢.

مصادفة إذ كنا نشبه إلى حد بعيد صور المسيح التي كبرنا بها، تلك الصور التي كنا نراها في كتب الصلاة، وفي اللوحات، وفي الإيقونات، وعلى زجاج النوافذ المعشّق وفي السينما. وإذا كنت تتعاطى المخدرات فلا بد وأن ترتسم في عينيك نظرة برّاقة توحي بالعالم الآخر. وبالنسبة لأولئك الذين كانوا يعترفون جهاراً بهذا التماثل فكانوا يعرفون بـ غرباء المسيح/أنصار المسيح/ فتيان المسيح، ولكن معظم هؤلاء الشبّان لم يكونوا مهتمين بالدين.

ومع ذلك فإني أشعر أن شخصية المسيح الخفية كانت هناك دوماً تؤثر حتى بغير المتدينين، ليس فقط بمظاهر هؤلاء الشبان، بل بصرخاتهم من أجل السلام والمحبة، وإنشاء نظام عالمي جديد. لقد كان المسيح شخصية مطلقة الفعاليّة والتسامح، تدافع عن المظلومين والضعفاء، وتستنكر نفاق المؤسسة الرسمية، وتتحمل اضطهادها، وفي النهاية ترفض الانتقام منها. ولقد حصلت بعض التحديات مؤخراً ضد تاريخية هذا المفهوم، ولكن لمدة ما يقارب ألفي العام كان هذا هو المفهوم السائد عند عامة المسيحيين. ففي عيون الغربيين، على الأقل، تبقى صورة المسيح هذه الأكثر إغراءً وتعاطفاً في التاريخ، ليس فقط لأنه كان أعظم قائد أو سياسي أو محارب أو خطيب، بل لأنه لم يكن هناك أحد من الرجال والنساء في مثل محبته وتسامحه. إنها صورة من الصعب أن نجد لها نظيراً، وبالنسبة للمسلمين فليس هناك حاجة لمحاولة إيجاد النظير — على الرغم من أنه جرت بعض المحاولات للقيام بذلك [٢٨] لأن القرآن يأمر المؤمنين أن يقولوا: ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢/٢٨٥]. ولكن يبقى همّ القرآن الأساسي ليس مع الرسل، بل مع حاجة الإنسان كي يسلّم أمره لله وحده.

---

(٢٨) سليمان س. ندوي، محمد: المثل الأعلى في الأنبياء، ترجمة محي الدين أحمد.

Sulaiman S.Nadawi, *Muhammad: The Ideal Prophet trans* Mohiuddin Ahmad (Lucknow . India :Islamic Research And Publications . 1977).

وإذا كانت هذه هي نهاية المسألة فإن معتنقي الإسلام المحتملين سوف ينظرون إلى ذلك على أنها نقطة إيجابية في جانب الإسلام، ولكن ذلك ليس هو نهاية المسألة. أعني بهذا، أن على المرء أن يسوّي ما بين تصوراته السالفة عما يعتبر قداسة حقاً مع خصائص وردت في السير والحديث تصف النبّي بأنه كان يصادق على اغتيالات الشعراء الذين سخروا منه، ويسمح بقتل الرجال من بني قريظة، وبيع من بقي حياً منهم عبيداً، ويتزوج بنت زعيم إحدى القبائل ممن قامت قواته بقتله، أو يضغط على النساء كي يسلّمن حليهن للمجهود الحربي بتذكيرهن بضعف جنسهن، وأنهن سوف يكن أكثر أهل جهنم من البشر[٢٩].

وغني عن القول: أنه في المصادر نفسها يوجد الكثير من الروايات المثيرة، فعلى سبيل المثال، كان تقييم مونتغمري واط لحياة محمد في نهاية كتابه *محمد: النبي ورجل الدولة*، يحتوي على المفاهيم التالية التي تقارب كثيراً مشاعر المسلمين:

(١) من بين العديد من القصص التي توضح رقة مشاعره ولطافتها، هناك بعض على الأقل مما هو جدير بالتصديق. فأرملة ابن عمه جعفر بن أبي طالب نفسها قصّت على حفيدتها كيف أفضى لهم بخبر استشهاد جعفر. فقد كانت منشغلة ذات صباح بأعبائها المنزلية والتي من بينها دباغة أربعين جلداً، وعجن العجين. وعندما زارهم محمد جمعت أولادها، وكان لها ثلاثة أولاد من جعفر، فغسلت وجوههم ودهنتها بالزيت، وعندما دخل محمد طلب رؤية أولاد جعفر، ثم فاضت عيناه بالدموع وانفجر باكياً. سألته المرأة: هل

(٢٩) فإني أريتكن أكثر أهل النار...، من حديث أبي سعيد الخدري أخرجه البخاري في الحيض، باب: ترك للصوم، رقم (٢٩٨) ومسلم في الإيمان، باب: بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، رقم (٧٩و٨٠).

هنالك أخبار عن جعفر؟ فأخبرها بأنه قتل، ثم إنه بعد ذلك أمر بعضاً من قومه أن يحضروا الطعام لآل جعفر -لأنهم كما قال[٣٠] - منشغلون اليوم بأنفسهم.

(٢) يبدو أنه كان مولعاً بالأطفال بشكل خاص، وكان ينسجم معهم بشكل جيد. وربما كان ذلك حنين رجل شهد موت أولاده جميعاً وهم صغار. ولقد خص ولده بالتبني زيداً بالكثير من مشاعره الأبوية. وكذلك كان متعلقاً بابن عمه علي بن أبي طالب الذي كان أصغر سناً منه، والذي كان كفله كأحد أفراد أسرته لبعض الوقت؛ ولكنه أدرك دون شك بأن علياً لم يكن يملك وسائل النجاح ليصبح رجل دولة ناجحاً. ومرّت فترة كانت فيها حفيدته أمامة أحب الناس إليه، فكان يحملها على كتفه خلال الصلوات العامة صلوات الجماعة، ويضعها جانباً حين يركع أو يسجد، ثم يحملها ثانية. وفي إحدى المناسبات أثار غضب زوجاته عندما أراهم عقداً قائلاً لهن إنه سوف يعطيه لأغلاهنّ عنده، وعندما رأى أن مشاعرهن استثيرت لدرجة كافية لم يعطه لأيّ منهنّ بل أعطاه لأمامة.

(٣) وكان قادراً أن يجاري الأطفال بألعابهم وكان له بعض الأصدقاء من بينهم. وكان يلاعب الصبية الذين رجعوا من الحبشة ويتكلمون الحبشية. وفي أحد بيوت المدينة كان هناك غلام صغير، وكان من عادة النبي أن يمازحه. وفي أحد الأيام وجد ذلك الصبي حزيناً جداً فسأله عما جرى له. وعندما أخبره أن عصفوره المدلل [نُغْرَةُ] قد مات، قام بعمَل أرضى فيه الغلام[٣١] . إن عطفه وحنانه امتد حتى إلى الحيوان،

---

(٣٠) اصنعوا لآل جعفر طعاماً...، من حديث عبد الله بن جعفر أخرجه أبو داود في الجنائز، باب: صنعة الطعام لأهل الميت، رقم (٣١٣٢) والترمذي في الجنائز، باب: ما جاء في الطعام يصنع لأهل الميت، رقم (٩٩٨) وإسناده صحيح.

(٣١) يا أبا عمير، ما فعل النغير...، حديث أنس أخرجه البخاري في الأدب، باب: الانبساط إلى الناس، رقم (٥٧٧٨) ومسلم في الأدب باب: استحباب تحنيك المولود عند ولادته...، رقم (٢١٥٠).

وهذا يعتبر شيئاً عظيماً بالنسبة لعصر محمد وجزء كبير من العالم. وعندما سار رجاله نحو مكة قبيل الفتح مرّ هؤلاء بكلبة مع جرائها، ولم يأمر محمد رجاله بعدم ازعاجها فحسب، بل بعث رجلاً ليتحقق من مدى تنفيذ أوامره.

(٤) هذه جوانب ممتعة ومضيئة من شخصية محمد، تملأ الصورة التي تشكلت عنه من خلال سلوكه في القضايا العامة. لقد كسب احترام الرجال وثقتهم، وذلك عن طريق نشاطه في إرساء القواعد الدينية وبخصال حميدة كالشجاعة والتصميم والعدل والحزم، وكان يميل إلى الحزم، ولكنه كان كريم الطباع. وبالإضافة إلى هذه الخصال فقد أوتي جمال السلوك، وهذا ما أكسبه محبة الناس وتثبيت إيمانهم[٣٢].

ولكنه من الصعب القول: إنّ صورة محمد المكتسبة من خلال أدب السير والحديث هي أكثر جاذبية من صورة المسيح في الأناجيل. ومن المؤكد أن البحث الحقيقي عن الله يجب أن يكون مبنياً على أكثر من تنافس بين الشخصيات، طالما أن هذه الشخصيات قد لا يكون لها تمثيل تاريخي. وحتى الآن، فإن مثل تلك الأحداث التي قمت لتوّي بتعدادها هي غير مريحة كما تبيَّن من الحقيقة القائلة: إن المدافعين عن الدين الإسلامي قد كرّسوا جهوداً حثيثة لتسويغ وإعطاء تفسيرات مموّهة[٣٣] لتلك الأحداث كما فعل أولئك الذين حاولوا الرد على كتاب *حياة محمد* للمستشرق وليم موير[٣٤] والذي كان تحامله الثقافي والديني ضد الإسلام واضحاً تماماً.

ولاشك أن دفاع الكتاب المسلمين أدى إلى العديد من الاعتراضات المشروعة، وعبر

---

(٣٢) مونتغمري واط: *محمد: النبي ورجل الدولة*، ص ٢٢٩-٢٣١.

W. Montgomery Watt, *Muhammad : Prophet and Statesman* (London: Oxford University Press, 1978), pp.229-31.

(٣٣) انظر على سبيل المثال كتاب محمد علي: *محمد النبي* (لاهور: ١٩٨٤) وكتاب هيكل: *حياة محمد*.

(٣٤) وليم موير: *حياة محمد*.

Willaim Muir. Life of Mahomet. 2nd ed. (London:1894).

السنين، حدت هذه الاعتراضات ببعض الكتاب الغربيين أن يعيدوا تقييم أعمال المستشرقين الأوائل، وبالتالي أن يعيدوا النظر في سيرة حياة محمد. ولقد أوضح هؤلاء الكتاب أن المستشرقين كانوا اعتمدوا بشكل كبير في أبحاثهم على مصادر وأخبار يعتبرها المسلمون غير موثوقة، وأنهم في الوقت نفسه قد اسقطوا حقائق رئيسية واعتبارات تاريخية من تقديماتهم. وأحد هذه الأمثلة التي ذكرناها سابقاً والتي سوف نناقشها في مكان آخر[٣٥] هو موضوع ما يدعى بالاغتيالات الستة والتي يفترض من خلالها أن محمداً قد أمر بالقضاء على أشخاص نظموا الشعر في هجائه. ويناقش محمد علي أن أربعاً من هذه الروايات مبنية على أحاديث إما ضعيفة أو ملفقة، والروايتان الأخيرتان تشتملان على حالات من الخيانة العظمى ارتكبت خلال حرب بين مواطنيه من المدينة، والتي كانت هي المدينة والدولة في آن واحد[٣٦]. مع أمثلة كهذه كان المدافعون المسلمون قادرين على إثبات أنّ المستشرقين الأوائل قد استغلوا المصادر الإسلامية، مهما كانت هذه المصادر ضعيفة، عندما كان ذلك يناسب أهواءهم وأنهم كانوا يتجاهلون هذه المصادر إذا كانت تخالف أهواءهم، أو إذا كان المسلمون يعتبرونها موثوقة. إن مواقفَ وممارسات كهذه قادت الكثير من المسلمين إلى اعتبار المستشرقين (أعداء الإسلام). إن الكثير من بحاثة الاستشراق المعاصرين قد حاول أن يكون أكثر موضوعية، ولكن المسلمين ما يزالون يتناولون أعمال الإسلاميين الغربيين بكثير من الريبة والشك.

وبغض النظر عن موضوع صدق المصادر، فهناك مشكلة المنظور الثقافي والتاريخي، فما هو غير مقبول في مكان وزمان ما قد يكون مسموحاً به تماماً أو مرغوباً في مكان آخر. أما محمد، فإن إقدامه على الزواج من ابنة أحد الزعماء المقتولين في إحدى

(٣٥) انظر مناقشة بحث الردّة في الفصل الرابع.

(٣٦) محمد علي: *محمد النبي*، ص ٣٢٥-٣٤٤.

المعارك قد يبدو من منظورنا -نحن الغربيين- فاقداً للإحساس على نحو مريع، ولكن، وكما يشير واط[٣٧]، في حقبة كانت فيها المناوشات ما بين القبائل (الرزايا) سمةً عادية لحياة الصحراء أو ضرباً من الرياضة العربية، فلو كان محمد قد فعل غير ذلك فإنه سيكون قليل الشهامة والمروءة وغير جدير بالاحترام. إضافة إلى ذلك، فقد كانت هذه إحدى الطرائق المألوفة في الجزيرة العربية لتحقيق عهود السلام والتحالف مع قبيلة أخرى.

لقد سلّط كتاب غولدزيهر *دراسات إسلامية* كثيراً من الضوء على هذه المسألة[٣٨]، فهو يرينا من خلال دراسة مكثفة للشعر الجاهلي أنّ عرب القرن السابع كانت ترى أن صفح المرء عن عدّوه دين قبلي، ودعوة إلى هجوم مستقبلي، وأن زعيم القبيلة الأكثر احتراماً هو الأكثر قوّة والأشد انتقاماً. ففي مناسبتين سابقتين، كان محمد عازماً على معاقبة خيانة اليهود فقط بالنفي من المدينة، ولكن خلال معركة الخندق، عندما هدد غدر بني قريظة كيان المدينة الدولة، سمح بقتل محاربيهم من الرجال بسبب خيانتهم. وفي الكتاب نفسه يورد غولدزيهر مناقشة مطوّلة عن الشعراء القبليين من العصر الجاهلي، [٣٩] موضحاً بذلك الدور الحيوي الذي كانوا يلعبونه زمن الحروب، إذ كان الشاعر المبرِّز يساوي حشداً من الجنود المتمرسين، وهذا قد يشرح لماذا شكّل الشعراء الذين ورد ذكرهم سابقاً تهديداً خطيراً جداً للمسلمين الأوائل على الرغم من مما ورد في كتاب محمد علي(محمد النبي).

إننا في الولايات المتحدة نعتبر الرق أحد الأعراف الكريهة جداً، في حين بحث القضاة المسلمون باعتمادهم على القرآن وأحاديث النبي في اشتراع قوانين من شأنها أن

---

(٣٧) واط: محمد، ص ١٠٤.

(٣٨) إغناز غولدزيهر ، *دراسات إسلامية* ا، ص ٢٤-٢٧.

Ignaz Goldziher, *Muslim Studies I* (London : George Allen And Unwin Ltd, 1967).pp.24-27.

(٣٩) المرجع السابق ، ص ٤٥-٥٤.

تضمن معاملة كريمة وعادلة للأرقاء، ففي مواضع عدة من القرآن هناك آيات تأمر بتحرير الرقيق، بل إن بعضها تأمر بتخصيص صندوق تكافل اجتماعي من أجل شراء حريات هؤلاء الأرقاء، ولكن القرآن لا يحرّم الاسترقاق كليّة، ذلك أن هذا العرف كان ضرورياً للتعامل مع سجناء الحرب بطريقة إنسانية[٤٠].

مثال آخر على هذا هو ما ورد في القرآن من أنه تحت ظروف معيَّنة يستطيع الرجل أن يجمع بين أربع زوجات في آن واحد، وفي الوقت الحاضر فإن هذا العرف غالباً ما يعتبره الغربيون وسيلة إخضاع للمرأة، ولكن في جزيرة العرب القرن السابع كانت هناك حاجات معينة يجب تحقيقها، فبسبب الحروب المستمرة بين القبائل، وبسبب زيادة نسبة وفيات الذكور على الإناث، وبسبب تعرّض الرجال المستمر للأخطار كانت النساء تفوق الرجال في العدد، ومن هنا كان تعدد الزوجات هو الحل الطبيعي والأمثل لتعديل الخلل، ولضمان حماية وصيانة نساء القبيلة[٤١].

وأخيراً، يجب ألا تنسى أن رسالة القرآن شاملة، وأنها كانت أكثر من مجرَّد تنزيل، ولقد تشكلت هذه الرسالة من خلال حياة وتجارب محمد والصحابة، لقد علّمت تلك الرسالة هؤلاء معنى المعاناة، ومعنى الحاجة إلى العفو، ومعنى الصبر على الظلم والاضطهاد. وفي السنوات التي سبقت الهجرة إلى المدينة[*]. قدَّم مجتمع المسلمين الأوائل أحد أكثر استجابات التاريخ إثارة إلى هذا الدرس. وحتى أولئك الذين لم يتأثروا بالإسلام خلال تلك الفترة كان عليهم أن يصدّقوا محمداً وأصحابه ذلك أننا نملك تعاطفاً فطرياً مع المظلوم والمقهور، وبهذا المعنى، فإنه من السهل أن تكون الضحية

(٤٠) محمد قطب، الإسلام: *الديانة التي أسيء فهمها* (الكويت. ١٩٨٢).

(٤١) انظر المناقشة حول دور الرجال والنساء في الفصل الرابع.

(*) وردت في النص ومكة [المترجم].

أكثر من أن تكون المنتصر. ففي العديد من الحالات علينا أن نقاتل كي نحمي أنفسنا، أو نحمي الآخرين من فراعنة قريش زماننا الذين ينكرون علينا حقوقنا الإنسانية الأساسية. وأحياناً نفوز ونمتلك السلطة، ولكن الإسلام يهتم بشكل معادل بذلك الجزء من حياتنا أيضاً؛ ولذلك فالإسلام يوجهنا دوماً لما هو صحيح أخلاقياً في مسائل كثيرة كالقتال (الجهاد) والقانون والعدالة والعقاب. ومع أن هذه المسائل ليس فيها جاذبية رومانسية مثل الجوانب الأخرى، فإنها على الأقل معادلة لها من حيث الأهمية، ولقد كان على دعوة محمد أن تعيش كلتا الحياتين، ولم يستطع أحد في التاريخ أن يقوم بذلك أفضل من المسلمين. ولقد كان هذا أكثر من مسألة مشاركة وجدانية لجانب معظم المسلمين، لأن ذلك يعني التزامهم بالشق الثاني من الشهادة. فلكي تشهد أن محمداً هو رسول الله، عليك أن تقبل مَثَل حياة النبي كمحكّ، وأن تؤكد أن أفعاله إنما وضعت المعايير لسلوك الإنسانية بغض النظر عن الزمان والمكان. ولذلك، ومن وجهة النظر الغربية، إذا كان على المسلمين أن يقنعوا الحضارة الغربية أن الإسلام هو الطريقة المثلى للحياة، فإن عليهم إما أن يخففوا من حدة التزامهم بقدوة محمد، أو استغلال الوقت وبذل الجهد لمحاولة إقناع الغرب بضرورة الالتزام بهذه القدوة. إن البديل الأوّل انتحاري، وأما البديل الثاني فإنه يتطلب دراسة نقدية مخلصة.

النقد الغربي للحديث: عندما تصل الأمور إلى التأريخ فإن علماء المسلمين والمستشرقين، على حد سواء يجمعون على أن القرآن يمثل الكلام الموثّق الذي رواه محمد فيما افترضه على أنه وحي إلهي. ويكتب جبGibb قائلاً: «يبدو أنه قد ثبت على نحو جيد ومعقول أنه لم تدخل على القرآن أي تغييرات مادية، وأن الشكل الأصلي لخطابات محمد قد حفظت بدقة متناهية»[42]. إضافة إلى ذلك، وعلى مدى

---

(٤٢) جب، المحمدية، ص ٥٠.

سنين عدة، قبل المستشرقون رواية المسلمين عن تطـوّر الحديـث؛ وأن دراسـة الحديـث كانت مجال نشاط مكثف، بينما كان ما يزال الرسول حيّاً؛ وأن التلفيق قد بدأ مبكـراً؛ وأنهم استحدثوا قانون الإسناد وتبنّوه؛ وأن هذا القانون أصبح رسمياً خلال بضعة عقود من موته من أجل معالجة المشكلة. وكان المستشرقون أيضاً مستعدين كي يقبلوا بحقيقـة أنه على الرغم من أن هذا القانون انبثق خلال السنوات التالية مـن مـوت النبي إلاّ أنـه بشكل أساسي بقي دون تغيير[٤٣] . وإذا قبلنا هـذه النظـرة فـإن استنتاج موير مـن أن تلفيقات لم يتم ضبطها لا بُد وقـد تسـربت في القـرن الإسـلامي الأوّل تبـدو كـأن لهـا مسوغاتها[٤٤] .

في كتابـه المشـهور دراسـات محمديّـة Muhammedanische Studien II يتحـدى غولدزيهر الوصف الكلاسيكي لتطور هذا العلم وسلامة مجموعات الحديث بما في ذلك كتب الصحاح[٤٥] . وبغض النظر عن بعض الاستثناءات، فإن جميع الدراسـات الغربيـة التالية لغولدزيهر حول هذا الموضوع تدعم عملياً نتائجه. إن الطرائق النقدية الحديثة عن البحث التاريخي والأدبي قد قادت الباحثين الغربيين إلى القول بالنتائج التالية:

(أ) إن أدب الحديث مبني بشكل كبير على نقل شفهي محض لمدة تزيد على القـرن، وأن مجموعات الحديث التي وصلتنا لا تشير إلى أي سجلات للأحاديث الـتي يمكـن أن تكون دوِّنت في أي وقت سابق.

(٤٣) محمد زبير صدّيقي، *أدب الحديث*، ص ١٣٤(كالكوتا:جامعـة كالكوتـا،١٩٦١) حيـث يذكـر المؤلـف هنـا عدداً من الباحثين الغربيين الذين يؤيدون هذه الفكرة ، أمثال ليون كايتاني Leone Caetani و ج . هورفيتـس J.Horvitz و ج. روبسون J.Robson .

(٤٤) موير : *حياة محمد*، ص iivxxx..

(٤٥) غولدزيهر: *دراسات إسلامية*

II .Ignaz Goldziher. *Muslim Studies II* (London: Geaze Allen and Unwin Ltd., 1971).

(ب) إن عدد الأحاديث في المجموعات التالية هو أكبر بكثير من عدد الأحاديث في المجموعات السابقة، أو في كتب القانون الإسلامية السابقة. وتبعاً لبحّاثة كهؤلاء فإن هذا يبرهن لنا أن معظم الحديث مشكوك فيه.

(جـ) إن الأحاديث التي رواها الشبّان من الصحابة، تفوق في العدد تلك التي رواها المتقدمون في السن من الصحابة وهذا يعني، كما يقول هؤلاء المستشرقون، أن الإسناد لا يمكن الاعتماد عليه بشكل تام.

(د) إن نظام الإسناد قد تم استخدامه بشكل اعتباطي في الحديث بعد نهاية القرن الإسلامي الأول، ولذلك فإن هذا لا يثبت أصالة الحديث الذي يرتبط بهذا الإسناد.

(هـ) إن العديد من الأحاديث يناقض بعضها بعضاً.

(و) هناك دليل قاطع على تلفيق واسع النطاق في الإسناد، وكذلك في نص الأحاديث.

(ز) لقد حصر النقاد المسلمون نقدهم للحديث في الإسناد، ولكنهم لم ينقدوا النص[٤٦].

إن هذه النقاط وانتقادات أخرى قد قام بها باحثون غربيون وباحثون مسلمون. إن أشهر الكتب التي يستشهد بها في اللغة الإنكليزية حول الحديث هي كتب عزمي Azmi؛ وآبوت Abbott؛ وصدّيقي Siddiqi ؛ وعبد الغفار Abdul Ghafar[٤٧]. ويمكن الدفاع عن بعض هذه النقاط بشكل طبيعي، فمثلاً البند (ب) يمكن أن نعزوه إلى عملية نقل الحديث من جيل إلى آخر: فالراوي الأصلي يرويه لمعاصريه الذين بدورهم يروونه

(٤٦) صدّيقي، *أدب الحديث*، ص ٢١-٢٨.

(٤٧) آبوت: *دراسات في أوراق البردي الأدبية العربية*، المجلدين ١ و٢؛ عبد الغفار: *نقد أدب الحديث بين المسلمين*؛ عزمي: *دراسات في أدب الحديث المبكر*؛ وصدّيقي: *أدب الحديث*.

لعديد من مستمعيه الشبان من الجيل التـالي، وهكـذا. إن علينـا أن نتوقـع أن الصحابـة الذين عمّروا طويلاً بعد موت محمد هـم الذيـن سيروون أكبر كمية مـن المعلومـات المتعلقة به مثل أبي بكر وعمر اللذين توفيا بعده بوقت قصير، وهـذا يبرّر البنـد (جـ). وطالما أن الأحاديث تسـجل أفعـال النبي لمدة تربو على ثلاثـة وعشرين عامـاً والـتي شهدت تحولات عديدة، ولأنه كان يتعامل مع شـخصيات وأحـداث شـديدة التنـوّع، فمن الطبيعي أن يوجد تفاوت في تصرفاته، وهذا يبرّر البند (هـ).

ولقد ناقش آبـوت وعزمـي البنديـن (أ) و(د) بإقنـاع، أمـا البنـد (و) فـإن المحدثـين المسلمين قد انتبهوا لذلك منذ أربعة عشر قرناً، وهذا هو السبب الكامن وراء جهدهم[٤٨]. وعلى الرغم من أن علمـاء المسـلمين كـانوا يشـددون كثيراً ودائمـاً على الإسـناد، إلاّ أن صدّيقي وعبد الغفار يؤكدان أن البند (ز) هو ببساطة غير صحيـح[٤٩]، فمثـلاً يوضّـح عبد الغفار أن المحدثين الأوائل كانوا يرفضـون روايـة مـا؛ إذا مـا كـانت لـدى الرّاويـة

---

(٤٨) انظر آبوت؛ وعزمي. إن المؤلفين هنا يزوداننا بتوثيق هـائل عـن أدب الحديـث مـا قبـل الكلاسيكي. ويتهـم النقّاد الغربيون والعلماء الغربيون العلماء المسلمين بأنهم سذّج بقبولهم موثوقيـة النصـوص الإسـلامية المبكـرة (والكثيرة) والتي يستخدمونها لدعم وجهة نظرهم حول تطور علم الحديث. ولكـن هـذا النقـد يـدل علـى الازدواجية في معاييرهم: إن مناقشات الغربيين هـي أيضـاً، بحكـم الضـرورة، مبنيـة علـى نصـوص إسـلامية مبكّرة. وهكذا يبدو أنهم يتوقعون مـن قرّائهـم أن يقبلـوا النصـوص والتفسـيرات المتعلقـة بهـا والـتي تؤيـد نظرياتهم. ومن دون أي شك، إن الدارسين المسلمين، شأنهم شأن غيرهم، لم يكونوا معصومين عن الخطأ. ولكن يجب أن ندرك أن الفهم الإسلامي يتناسب مع كافة البيانات التي وصلتنا بشكل أفضل مما وصلنـا عـن طريق التنظير الغربي. وطبعاً يمكن ألا نسلم بأن جميع النصوص الإسلامية المبكرة على أنها جهود كبيرة ضـد التلفيق الذي كان يتلقى كل الدعم والتعاون والتستر من قبل جميع أنصار وجهات النظـر المتباينـة في القـرون الإسلامية الأربعة الأولى. ومهمـا يكن، فإن هذا لا يبدو على أنه ممكن إنسانياً وكذلك فهـو لا ينسـجم مـع الطبيعة الإنسانية. إضافة إلى ذلك فإن عدم تسليم كهذا يحرم الدارسين الغربيين لهذه المواضيع من أي ادعـاء بشرعية دراستهم.

(٤٩) صدّيقي: *أدب الحديث*، ص ١٩٩-٢٠٤؛ وعبد الغفار: *نقد الحديث بين المسلمين*، ص ٣٠-٥٠.

دوافع شخصية معيَّنة يؤيدها نص الحديث الذي رواه، ففـي حـالات كهـذه فـإن المـتن والإسناد كانا يؤخذان بالاعتبار معاً. ولكن في الواقع، إن فحص الإسناد بالأدوات التي طوّرها المحدثون المسلمون هو حتى هـذا اليـوم الفحـص الأكـثر موضوعيـة عـن أصالـة الحديث، ذلك أن حكم امرىء ما على المتن يعتمد بشكل كبير على ميولـه الشـخصية (فمثلاً إن احتمالية أن يشك إنسان ما بتقارير المعجزات والنبوءات هـي أكـثر احتمـالاً عند طالب العلم في القرن العشرين منه عند نظيره من القرن السـابع)، وعلـى تفسـيراته وكذلك محيطه، ومن الجدير بالملاحظة أن غالبية كتب نقد الحديث الغربي الحالي تركّز اهتمامها على الإسناد.

إن العديد من المواضيع الهامّة الـتي تسـتحق مزيـداً مـن الدراسـة الحريصـة مـن كـلا الطرفين قد حجبت بهذه الخلاصة الموجزة. فالمستشرقون هم في الغالب ملتزمون بفكرة أن أدب الحديث هو أدب عديم الموثوقية على نحو مطلق، بحيث يتظاهرون بالعمى عـن الدليل الذي يناقض زعمهم وعن التفسيرات الأخرى الممكنة للبيانات والتي تبدو علـى أنها أكثر طبيعية أحيانـاً. فهنـاك ميـل علـني مـن جـانب المستشـرقين لتسـمية البيانـات المتضاربة على أنها غير موثقة، أو لا يمكن الاعتماد عليها، أو «غير تاريخية دونما القـدرة على تقديم أي شـروح، وعلـى مـايبدو دون أي سـبب إلاّ لأنهـا لا تناسـب نظرتهـم. والحقيقة هي أنه إذا ما أسقطنا من حسابنا الدارسات الإسلامية بشكل تام، فـإن علينـا أن نسقط معها جميع المسلمين الذين لهم علاقـة بدراسـة الحديـث، وهـذه وجهـة نظـر طرحها غولدتسيهر ووروج لها شاخت بشكل كبير»[٥٠] . إن نظريات كهـذه يسـتحيل على المسلمين أن يقبلوها ذلك أن هذه نظريات تكشف عن موقف تجاه الدين لم يلوّث عقول المسلمين بعد، يقول بورخاردت:

---

(٥٠) غولدزيهر: دراسات إسلامية II ؛ وشاخت: مصادر الفقه المحمدي.

إن بعض المتخصصين الذين يسعون في بحثهم للحكم على موثوقية الحديث يفترضون أنه بمقدورهم أن يرسخوا المعايير التالية -ذكرها مع تجاهل ثلاثة عشر قرناً من الدرس والبحث الإسلاميين-:

أولاً: إذا كنا نستطيع تفسير حديث ما على أنه يفضّل فئة أو مدرسة معيّنة، فإنه من المحتمل جداً أن يكون حديثاً ملفقاً. وإذا كان هذا الحديث يفضّل الحياة الروحية مثلاً فإنه لا بد وأن الصوفيين قد اخترعوه. وإذا كان الحديث يقدم مناقشة للحرفيين (المتمسكين بحرفية النصوص) المعادين للروحانية، فلا بد وأن هؤلاء الحرفيين هم الذين لفقوه.

ثانياً: كلما كان الحديث كاملاً في إسناده كانت الفرصة أكبر كي يكون مزوّراً. وسبب ذلك، حسب زعمهم، هو أن الحاجة للبرهان تنمو بشكل تناسبي مع هفوات الزمان. وإن مناقشات كهذه هي شيطانية حقاً، وإذا ما أخذناها مجتمعة فإنها تؤدي إلى السبب التالي: إذا لم تقدم لي برهاناً فالسبب يعود لأنك مخطىء، ولكن إذا ما قدّمت برهاناً فهذا يعني أنك بحاجة له، وبالتالي فإنك مخطىء أيضاً. [عجباً] كيف لهؤلاء المستشرقين أن يعتقدوا أن أعداداً لا تحصى من الرجال العالمين تخشى الله وتخشى أن تقذف في النار يمكن لها أن تكون قد لفّقت أقوال النبي؟ إن هذا يؤدي بنا للافتراض أن الإيمان السيء هو الشيء الأكثر طبيعية في العالم، لولا أن المختصّين لم يكن لديهم أيّة مشاعر تقريباً لحالات من عدم التوافق السيكولوجي(٥١).

و بالروح نفسها، ولكن بعاطفة أقل يكتب جب Gibb مشدداً على صعوبة انتقال الأحاديث الملفقة، على الأقل بعد الأجيال القليلة الأولى، فيقول:

---

(٥١) تتيوس بيركارت: *مقدمة إلى العقيدة الصوفية*، ترجمة د.م. ماثيسون ، ص ٤١.
Titus Burchardt, *An Introduction to Sufi Doctrine*. trans.D.M. Matheson (Wellingborongh. UK: Thorson Publ., 1976), p.41.

وأما الباحثون فإن أسلوب نقد الحديث عن طريق فحص سلسلة الرواة يبدو لديهم وكأنه يظهر بعض العيوب الجسيمة. ويحتج هؤلاء بالقول: إنه من السهل على الملفقين أن يبتكروا إسناداً أو يعبثوا بنصّ ما أو يلفقوه. ولكن هذا يغفل المصاعب التي سيواجهها الملفق في الحصول على سلسلة طويلة من رواة الحديث ممن يتمتعون بسمعة طيبة وأن يلحق اسمه بها ليزعم أن هذه السلسلة روت حديثاً ما جيلاً بعد جيل. وأنه يحق لنا القول: إن نقّاد الحديث من المسلمين كانوا عموماً رجالاً شرفاء وأتقياء على الرغم من أن بعض المسلمين أنفسهم أكّدوا عكس ذلك. وأما النقد الأكثر جوهرية الذي يركز عليه هؤلاء المستشرقون هو أن أسلوب الإسناد لم يتم شرحه وتوضيحه بشكل مفصّل إلاّ في القرن الثاني فقط.

و يستطرد جب بهذه المناقشة قليلاً ثم يختمها بقوله:

إن أحكام ومعايير المحدثين الأوائل، على الرغم مما قد ينظر إليها على أنها عيوب في طرائقهم، تبدو على الأقل قد استقصت، وبشكل مؤثر فعلاً، معظم أحاديث الذين قاموا بالدعاوات من القرن الأول وجميع الذين قاموا بذلك من القرن الثاني، مثل أولئك الذين أيدوا عقائد الشيعة، أو ادعاءات العباسيين، أو أولئك الذين تنبؤوا بظهور المهدي[٥٢].

إن النظريات غالباً ما تنشأ متطرفة وتستلهمها نزعات محددة. واستناداً إلى أحاسيس داخلية محددة كان الباحث يبدأ بأقوى حدس ممكن تسمح به أجزاء الدليل ثم يقوم بتقديم الحديث إلى نظرائه، ومن ثم إلى الخبراء الذين بدورهم يقومون ببحث إضافي من التمحيص والصقل بغية تقريبه إلى الحقيقة، وهذا ما كانت تجري عليه الأمور على

---

(٥٢) هـ. أ. ر. جب: *المحمدية*، ص ٨٢-٨٥.

H.A.R.Gibb, Mohammedanism (London : Oxford University Press, 1969), p. 82, 85.

الأقل. ومن الطبيعي ألاّ تكون الأمور تامة، إذ قد يكون هناك ملاحظات هامة في النتائج والتشكيلات الأولية والتي يجب أن نكون منتبّهين إليها. وبعد دراسة جادّة لمناقشات إسلامية حديثة حول موثوقية أدب الحديث، اكتشف جوينبول Juynboll في بحثه الأخير حول هذا الموضوع ما كان يعتقد على أنه موقع وسط بين البحاثة المسلمين والبحاثة الغربيين(٥٣). فقد قام ببعض التحريات والاكتشافات الجديدة التي من شأنها أن تدعم بعض تصورات غولدزيهر وشاخت التي ضمنها في كتابه. إن تقديم جوينبول مفصّل، وشامل ومُفحم ويناجي شكوى الاختصاصيين المسلمين من أن النظريات الغربية مبنية على دراسات حديثية كان قد حكم عليها علماء المسلمين في السابق بأنها غير شرعية(٥٤). ويعتمد جوينبول بشكل كبير جداً على الأحاديث "الموثّقة" لمناقشة الدفاع عن وجهة نظره وتلخص النقاط التالية بعض نتائجه:

١) بعد فحص دقيق لدور القضاة الأوائل في المراكز الرئيسية للفكر القضائي خلال القرون الإسلامية الثلاثة الأولى يقر جوينبول بمقولات غولدزيهر وشاخت من أنه

(٥٣) جوينبول، *الحديث عند المسلمين*. يجب علي أن اعترف أنني في النهاية لم آخذ موقف جوينبول على أنه موقف وسط. فقد بدا ذلك لي على أنه محاولة هامة لإنقاذ وحماية غولدزيهر وشاخت في ضوء دراسة أعمال عزمي وآبوت.

(٥٤) جوينبول، *موثوقية أدب الحديث*. وفي حين أن هذا الاعتراض له فعاليته المحددة فإن بعض الافتراضات الضمنية لها صداها، فعلى سبيل المثال، في الوقت الذي تقبل فيه أن طبقة كبيرة من الحديث مشكوك فيها، كتلك التي تعالج قضية المهدي، فقد تكون لدينا الأسباب كي نشك بأحاديث أخرى من النوع نفسه. وعلى الرغم من أن المحدثين العظام كانوا مدركين لإمكانية التلفيق كما هو واضح من ندرة الأحاديث المشتبه بها في المجموعات الشرعية، فإن المرء قد يحاول أن يكتشف بعض الخلل الذي لم يستطيعوا إدراكه أو حكموا على ذلك الخلل أنه خلل طفيف. ومن ناحية أخرى. إذا ما كان هناك عدد كبير من الأحاديث من طبقة معينة لم تتوافق مع معايير المسلمين المختصين فإننا لا نستطيع أن نحكم جازمين على أن الأحاديث من ذلك النوع هي أحاديث ملفقة. وأيضاً، إذا ما وضعنا جانب الموثوقية جانباً فإن كثرة الأحاديث المتعددة قد تنبئنا بشيء ما عن العقلية التي انطلق منها المجتمع الإسلامي المبكر.

خلال القرن الإسلامي الأوّل كان صنع القرار القضائي، سواء أقام بـه أهـل السـلطات الحاكمة أم القضاة المسلمون، مبنياً على ما كان هؤلاء يعتقدون أنهّ روح تعـاليم محمـد أكثر من كونه مبنياً على نسخ دقيق لأفعاله. وفي ذلـك الوقـت عمومـاً لم يشـعر أحـد بالحاجة إلى سابقة نبوية واضحة. وكذلك يدحض بقوة المزاعـم الـتي تقـول: إن قضـاة القرن الثاني كانوا يميلون لتلفيق الحديث عندما كانت تقتضي مصلحتهم ذلك[٥٥].

٢) ويناقش جوينبول في صالح ادعاء شـاخت مـن أن في الإسـناد ميـلاً للاتجـاه نحـو الوراء، بمعنى أن القضاة كانوا يتوصلـون للأحكـام والقواعـد الشـرعية أولاً، ومـن ثـم يقومون بالتخطيط لها كي تنسب إلى النبي باسنادٍ تام. وهو يقدم مثـالاً آراء سعيد بـن المسيب في القضاء (المتوفى سنة ٩٤ للهجرة) مبيناً بذلك أن هناك عدداً من الأحـاديث في بعـض الصحـاح اللاحقـة قـد رويـت بإسـناد يحتـوي علـى اسمـه في حـين أن هـــذه الأحاديث تشير في مجموعات حديث أخرى إلى أن سعيداً قد رواها مشافهة عــن النبي أي دون أن يتصل بأحد يكبره سناً. ولقد فسر علماء المسلمين هذه الظاهرة بقولهـم إن آراء ابن المسيب مبنية على أمثلة سابقة وضعها النبي أو أحد الصحابـة؛ وهـم يدعمـون هذا القول بحقيقة أنه يوجد أسانيد مستقلة تماماً لا تشوبها شائبة تعود للنـبي ولا تخـص ابن المسـيَّب علـى الاطـلاق. وتسـتمر هـذه المناقشـة بـالقول: مـن أنـه إذا كـان قـد تم التخطيط لأفكار ابن المسيَّب أن ترجع بالإسـناد للنـبي، فكيـف تمكّـن الملفقـون إذن أن يحصلوا على أسماء جميع الرواة الآخرين من سلاسل الإسناد الأخرى والتي كانت تنتمي إلى مراكز شرعية منافسة ومزاحمة لتتواطأ في نسب كلام إلى النبي زوراً وبهتاناً؟

و مع أن جوينبول لا يتصدى لمعالجة هذه المعضلة الهامة فإنه يعارض ما سبق بقوله:

والسبب في أن هذه الأحكام الشـرعية يجـب أن تعتـبر، في المقـام الأول، علـى أنهـا

---

(٥٥) المرجع السابق ، ص ٧٧-٩٥.

تبصرة سعيد الفقهيه وليست تعود لأمثلة مسبقة جاهزة، يكمن في الحقيقة المجردة على أن هذه القرارات يستشهد بها على أنها قراراته وحده فقط. إن الحكم الشرعي الذي يعود حقيقة للنبي أو لأحد الصحابة ببساطة لا يحتاج أن يوضع في فم سعيد ولا أن يقال: إنه من نتاج تعليله وتفكيره. إن الأماكن المتعددة، حيث تنسب لسعيد الآراء الفقهية تشير حتماً إلى نتيجة واحدة فقط، وهي أنه هو الذي فكّر في المسألة بهذه الشروط أولاً قبل أن يقولب هذا الحكم إلى حديث ينسب إلى سلطات سابقة له. وفي الحقيقة ليست هناك حاجة مهما كانت لأن نعزو لسعيد الفضل من أنه أعاد حكماً شرعياً كان قد جاء به أحد سابقيه، سواء أكان ذلك النبي أم أحد الصحابة[٥٦].

ويذكر جوينبول أيضاً أن هناك الكثير من الإشارات في كتب الرجال الأوائل إلى ظاهرة رفع تقرير صحابي ما أو تابعي إلى مستوى الحديث النبوي، وأن خبراء المسلمين كانوا يعلمون بذلك. ويصنّف جوينبول العديد من الرواة من بين عشرات من الرواة الآخرين الذين ورد ذكرهم في أعمال الرجال ممن لهم صلة بهذا الإجراء والذين لهم أحاديث ورد ذكرها في الصحاح[٥٧].

٣) يعتقد جوينبول أن الغالبية العظمى من الحديث الذي زُعم أن أنس بن مالك قد رواه حوالي ألفين وثلاثمئة حديث هي أحاديث مشكوك فيها. ويقول: إنه إذا قارن المرء الأحاديث التي نشأت في المدينة مع تلك التي نشأت في بغداد فسوف يجد أنها تنقسم إلى قسمين اثنين، وأقول: إننا نتوقع من شخصية معطاءة محترمة كأنس أن تروي الروايات الحسنة نفسها سواء أكانت في المدينة أم في بغداد، ولكن جوينبول يجد أن هناك حداً

---

(٥٦) المرجع السابق، ص ١٥-١٦ والتشديد في الكلام هنا يعود للمؤلف [أي جوينبول].

(٥٧) المرجع السابق، ص ٣١-٣٢

أدنى من التداخل في الأحاديث المروية باسمه في هذين المركزين. ويستخدم جوينبول تعليلاً مماثلاً في نقده للأحاديث التي قيل: إن أبا هريرة قد رواها(٥٨).

٤) ويعتقد جوينبول أن الأداة التي ساعدت الملفقين على بناء أسانيد صحيحة تماماً هي ما يدعوها بـ (حيلة السن) أو عزو أعمار خيالية للرواة من أجل إعطاء الأسانيد سلطة أكبر. إن هذه الحيلة يمكن استخدامها على سبيل المثال عندما نعلم أن هناك راويين متتالين في إسناد واحد قد عاش كل منهما لمدة تقارب القرن. ويمكن أن نلطّف من هذا التعارض بملاحظة أن الراوي الأكبر سناً، في مثل هذه الحالة، قد عاش حياة طويلة جداً تربو على القرن. وهو يعتقد أن هذا الأسلوب قد استخدم أيضاً لرفع مكانة الروّاة إلى مقام الـ (صحابة)، معطياً بهذا لهم ولحديثهم سلطة أقوى، يقول جوينبول:

إن التابعين التالية أسماؤهم، ولو لم يكونوا من التابعين لما كانوا من الرواة المهمين، يفترض أنهم عاشوا أعماراً لا تصدّق: قيس بن أبي حزم (توفي ما بين ٨٤-٩٨هجرية ٧٠٣-٧١٦ ميلادية بلغ من العمر ما يزيد عن المئة عام)؛ وزيد بن عِلَقَةْ (توفي عام ٧٥٢/١٣٥ بلغ ما يزيد على مئة عام من العمر وقيل: إنه ولد في الجاهلية)، أبو عمر سعد بن إياس (توفي ما بين الأعوام ٩٥-٩٨/٧١٤-٧١٧ وله من العمر ١٢٠ عاماً)؛ والمعرور بن سويد (عندما رآه الأعمش كان يعتقد أن عمره بلغ ١٢٠ عاماً)، وسويد بن غفلة (توفي مابين ٨٠-٨٢ /٦٩٩-٧٠١ وقد بلغ من العمر ١٢٠ أو ١٣٠ عاماً)، وكان يدّعي أنه ولد مع النبي؛ زر بن حبيش (توفي ما بين الأعوام ٨١-٨٣/٧٠٠-٧٠٢ وله من العمر ١٢٧ عاماً)، الخ.

إن هذه التراجم التي تتحدث عن هؤلاء المئويين في أعمال الرجال هي على العموم

---

(٥٨) المرجع السابق، ص ٦٢-٦٤, ١٠٤.

من الأشياء المفضّلة كونها تسلط الضوء على أعمارهم التي يدعون أنهم وصلوا إليها. ولا بد وأن هذا قد سهّل بشكل كبير عملية التلاعب بالأسانيد سواء أقاموا هم أنفسهم بذلك أم قام بهذا أناس مجهولون. إضافة إلى ذلك فإن الأحاديث المدّعمة بالأسانيد التي تتضمن أسماءهم ترد، دون استثناء، في جميع كتب الصحاح[٥٩] .

٥) ويؤكد غولدزيهر[٦٠] في كتابه دراسات إسلامية أن الأحاديث المتواترة التي جاء فيها أن النبي قد قال: إن من ينسب إليه أي شيء زوراً وبهتاناً فليتبوّأ مقعده من النار[٦١] ، وأحاديث أخرى مشابهة، قد تم تلفقيها لكي يوضع حد لتلفيق كهذا. ولقد أورد علماء المسلمون هذا مثالاً عن الادعاءات التي جاء بها المستشرقون في الماضي والتي لا أساس لها، ذلك أن غولدتسيهر لم يقدم برهاناً لادعاءاته. ويورد جوينبول في كتابه نقاشاً مطوّلاً عن هذه الأحاديث، ويقدم دليلاً يدعم فيه موقف غولدزيهر. ويستخدم هذا المثال ليناقش أن مزايا الحديث المتواتر هي ليست ضمانة لموثوقية الحديث[٦٢] .

٦) أخيراً يجب أن نذكر أننا أولينا نظرية شاخت (نظرية الحلقة المشتركة) Common Link Theoryمعاملة دقيقة[٦٣] . وتفترض هذه النظرية أن بوسع المرء أن يكتشف كلاً من التلفيق وزمن التلفيق لحديث معيّن إذا كانت أسانيده تتقاطع عند

---

(٥٩) المرجع السابق ، ص ٦١-٢، ٤٦-٨.

(٦٠) غولدزيهر ، *دراسات اسلامية ٢*، ص١٣١.

(٦١) حديث المغيرة بن شعبة أخرجه البخاري في الجنائز، باب: ما يكره من النياحة على الميت، رقم (١٢٢٩) بلفظ: "من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"

(٦٢) جوينبول: الحديث عند المسلمين، ص٩٦-١٢٩.

(٦٣) المرجع السابق، ص ٢٠٦-١٧.

نقطة متوسطة عامة تدعى (الحلقة المشتركة). ويقدم شاخت مثالاً[٦٤] عن حديث له ثلاث سلاسل من الرواة أنفسهم حتى الحلقة الثالثة تماماً في السلسلة ثم تختلف الرواة بعد ذلك. وبناء على هذه النظرية فإن هذه الحلقة المشتركة هي إما الملفقون أنفسهم، أو النقطة التي جرى فيها التلفيق.

لقد أحببت أن أورد كتاب جوينبول؛ لأنه الأحدث من بين هذه الأعمال، ولأنه أشملها وأكثرها وضوحاً، ثم إني وضعت مخططاً لنتائجه التي بدت لي على أنها هامة جداً، ومع ذلك فهي إما غير معروفة للمؤلفين المسلمين، أو أنهم لم يعالجوها بشكل كاف باللغة الإنكليزية. دعوني بصفتي رجلاً عادياً لا رجل دين أشاطر بعض الانطباعات التي انتابتني حالاً من مناقشاته مبتدئاً بالنقطة (٢) مادام أن النتيجة (١) لا يحتمل أن تثير معارضة كبيرة بين المسلمين.

إن نظرية شاخت (الإسقاط خلفاً Projecting back) قد عالجها بشكل تام عزمي في كتابه دراسات في أدب الحديث المبكر وعلى الرغم من أن عزمي لا يناقش جميع أمثلة شاخت أو يتوقع بوضوح اعتراضات جوينبول إلاّ أنه يستخدم فعلاً بعض الاستراتيجيات العامة ضد النقد الغربي للحديث، والذي يمكن أن يطبّق على هذه النظرية ونظريات أخرى. ويوضح عزمي بشكل متماسك أن نتائج نقد الحديث عند المستشرقين هي في الغالب:

(أ) بعيدة عن كونها ضرورية

(ب) مبنية على بيانات جزئية تتناقض مع معظم الأدلة المتوفرة.

(جـ) مبنيّة على دراسات خاطئة في جوهرها.

---

(٦٤) شاخت: *مصادر الفقه المحمدي*. يبدو أن شاخت قد أدرك هذا من أجل تحرياته الخاصة به (انظر الصفحة ٢٢٨).

وفيما يتعلق بـ (جـ) فإن عزمي يقدم ملاحظات مناسبة لم يأخذها جوينبول في كامل حسابه: وهي أن النظريات الغربية تعتمد على مقارنات أدب الحديث بالأدب الشرعي. إن فرعي الدراسة هذين كانا دوماً علمين مستقلين، ذلك أن موضوع علم الحديث على وجه الحصر هو أقوال وأفعال النبي، في حين أن الاهتمام الأقصى للشريعة الإسلامية، على الرغم من أنها تطبق نتائج العلم السابق، هو تطوير أنظمة شرعية. إن مستويات المحدثين تتطلب، بشكل طبيعي، جهداً أكبر من مستويات علماء الشرع. ويجب علينا أن نكون دقيقين عند الوصول إلى قرار فيما يتعلق بأحد فرعي العلم هذين إذا ما بني أحدهما على الآخر. وفي القرن العشرين مثلاً، من غير المناسب أن ننظر إلى تطور البحث الرياضي ومستوياته من خلال التركيز على التقدم والطرائق المستخدمة في العلم المشترك مع الرياضيات وهو الفيزياء. ويعتقد عزمي أن هذا هو الخطأ الجوهري الكامن في كل التحريات الغربية الأخيرة[٦٥].

وفي مناقشاتهم التي تؤيد (نظرية الإسقاط خلفاً) يبدي الكتّاب الغربيّون غموضاً مثيراً للقلق في مصطلحاتهم. إذ نكتشف خلطاً متكرراً ومساواة في الوقت نفسه بين كلمات رئيسية مثل (متماثل)، و(متطابق) و(يشبه) فيما يتعلق بالنصوص. والانطباعات التي يعطونها هو أن آراء الباحثين التي تم تشكيلها على نحو متطابق تعود بإسقاطها إلى أحاديث الرسول. ولكن عندما نقارن بين الاثنين (آراء الباحثين والحديث). نلاحظ أن كلاً منهما غالباً ما يستخدم صياغات مختلفة تماماً عن الآخر. ففي هذه الأمثلة يمكن أن تؤخذ مقولة الباحث بسهولة على أنها رأي مبني على أمثلة سابقة أو على ممارسات كانت مترسخة بشكل جيد في ذلك الوقت. وفيما يتعلق بهذا (أي الحديث) فإنه ربما كان من المفيد أن نفهم الهدف الكامن وراء حفظ سلاسل

---

(٦٥) عزمي: دراسات في أدب الحديث المبكر، ص ٢٢١.

الرواة التي هي ذات آراء ناجمة عن الدراسة والبحث أصلاً؟ بمعنى آخر لماذا تجشم علماء المسلمين العناء لتقصي آثار الكلام رجوعاً نحو الوراء وصولاً إلى أي مرجعية سوى النبي أو أي من صحابته؟

وفي الوقت الذي كانت تستخدم فيه روايات المراجع في الحلقات الشرعية يبدو أنه كان من الضروري تأسيس سلسلة من الرواة تعود بصلتها إلى المصدر الأصلي، بغض النظر عن شخصية المرجع، لكي يكون الحديث مقبولاً كدليل. إننا اليوم نستطيع أن نقتبس أي شيء منشور a publication ولكن وسيلة الترف هذه، الطباعة لم تكن متوفرة في الماضي. إن ردّ جوينبول السريع الحاسم إذن يمكن اختصاره بما يلي: لماذا كان القضاة يستشهدون بمراجع من غير النبي عندما كانت مقولات آرائهم إما مشابهة أو مطابقة لبعض مقولات محمد؟ يمكن لي هنا إيراد عدد من الإيضاحات:

إنه غالباً ما يكون من المناسب أكثر الاستشهادُ برأي أحد المراجع المحترمة على أن نرجع إلى المناقشة والدليل الأصليين. إن الرجوع إلى مناقشة مرجع ما هو أحد الوسائل العامة في القضاء، وهو أحد الاستراتيجيات المستخدمة في مناقشة قضية ما. إن المرء يستطيع أن يدعم موقفاً ما بإيضاح أن خبيراً ما قد وصل إلى نتائجه نفسها بعد دراسة الأدلة المتوفرة لديه في هذه القضية.

فعلى سبيل المثال إذا ما سألني أحد ما كما يفعل الناس غالباً فيما إن كان ممكناً، بناء على الآية: ٣٤ من سورة البقرة من القرآن الكريم أيحق للزوج أن يضرب زوجته في الوجه لأنها لم تطعه في أمر ما؟

فقد أجيب: كلا لأنه في الإسلام لا يجوز للزوج أن يستخدم القوة الجسدية ضد زوجته، إلاّ في حالات الضرورة القصوى، وحتى في مثل هذه الحالات القصوى لا يجوز له أن يضربها في وجهها، ذلك أنه في داخل عقلي هناك العديد من الأقوال،

وجميعها مصوغة على نحو متشابه، وهي تعليقات النبي على هذه الآية، وقد ألجأ أو لا ألجأ إلى الاستشهاد بها لتدعيم جوابي، وهذا يعتمد على الظروف وعلى السائل. وفي الحقيقة أن بعض المتكلمين من المسلمين المعاصرين يقتبسون رأي أحد علماء القرن الثالث، وهو الطبري الذي بنى حكمه على أقوال منقولة عن النبي حول هذا الموضوع أو ذاك. إن حقيقة أن فهمي يتطابق مع بعض أقوال النبي، على الرغم من أنني وصلت لهذا الفهم باجتهادي، لا يؤثر شيئاً على موثوقية القول قول النبي المروي مادمت أنني أناقش مشكلة عملية آنية. إن هذا قد يشرح قضية تشابه معنى مقولة ما لعالم ما مع معنى أحد أحاديث النبي. ولكن ماذا عن المقولات التي تم إرجاعها إلى أحد العلماء، والتي تتطابق كلماتها مع أحد أقوال النبي في أحد أحاديثه؟ إن ملاحظة جوينبول الثانية أعلاه لا يمكن نبذها هنا بسهولة كبيرة طالما أن مقولات كهذه ترقى في معظم الأحيان لتصبح قواعد شرعية أو شعارات. وحقاً أسأل، لماذا يجهد شخص ما نفسه لتقفي أثر مقولة ما ليصل إلى قاض في الوقت الذي تكون فيه هذه المقولة صادرة عن النبي أصلاً؟ وهكذا يمكننا أن ندرك أن علماء الشرع لم يكونوا ليحددوا دوماً أن القاعدة الشرعية التي كانوا يستخدمونها، كان النبي قد بدأها أولاً، حتى وإن كانوا يدركون أن النبي قد قام بذلك فعلاً. وعندما يصل الأمر إلى تأسيس قواعد السلوك فإن المتكلمين والكتاب المسلمين حتى هذا اليوم لا يشرّعون مصادر الممارسات التي يفترضونها.

إن معتنق الإسلام قد يجد هذا محبطاً تماماً: فما مبطلات الصلاة؟ متى يجب الوضوء؟ ماذا على المرء أن يفعل إذا انضم إلى صلاة الجماعة وقد بدت لتوّها؟ من يرث المسلم؟ إن هذه قلّة قليلة من الأنظمة الكثيرة متعددة الجوانب التي نتعلمها غالباً دونما أن يخبرنا أحد بأي سابقة نبوية واضحة متطابقة معها، وسبب ذلك ببساطة أن هذه الممارسات مترسخة بشكل كبير ومسلم بها لدرجة أن الكاتب أو المتكلم لا يجد أن هناك حاجة

ليعطي أي معلومات حولها. وسرعان ما يجد المعتنق الجديد نفسه يبحث عن مصدر كل حكم جديد يسمع به، ذلك أن كل ما يعرفه عن هذا الإجراء أو ذاك قد لا يكون أكثر من مجرد رأي الكاتب أو المتكلم.

وكما يؤكد عزمي أيضاً فإنه لم يكن كل محاضر مسلم من القرون الإسلامية الثلاثة الأولى كالشافعي، و لم يكن كل طالب كالبخاري، فبعضهم كان صارماً في درسه، والبعض الآخر كان أقل صرامة. وهكذا فقد كان البعض يمزج مقولات نبوية بآراء مدرسية. إن هذا يحصل حتى اليوم، فمثلاً غالباً ما نسمع أو نقرأ أن محمداً قد قال: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»[٦٦]، ومن المعروف أن محمداً لم يقل هذا قط، ولكن بعض الكتّاب أو المتحدثين الرسميين غالباً ماينسبون هذه الكلمات له. لذلك وفي الحالات التي كانت تتصل مقولة ما بأحد ما غير محمد، وتكون هذه المقولة مشابهة لحديث نبوي، فإن هذا لا يستبعد إمكانية كون قائل هذه المقولة الأصلي قد أسيء فهمه، أو أن المحاضر كان يفترض أن هذا القول كان مألوفاً لدى المستمعين، أو أنه قد تأكد أن عليه أن يحدد مصدره في مناسبات أخرى.

وعلاوة على ذلك فإن علينا ألاّ ننسى، مادام المستشرقون كانوا تواقين ليشيروا إلى أنه خلال القرن الأول ونصف القرن من التاريخ الإسلامي، و في معظم مراكز الفكر الشرعي كان يكفي في النقاشات الشرعية أن نشرح أن حكماً معيناً ما كان هو العرف القائم منذ عهد النبي. و لم تصبح السابقات النبوية الواضحة ضرورية إلاّ في نهاية القرن الإسلامي الثاني. وحتى ذلك الوقت كان يكفي لأولئك المتورطين بالمناقشات القضائية من أجل اشتراع قاعدة ما أن يستشهدوا بسند قائم دون أن يقتفوا آثار مصادره. إن

(٦٦) هذا القول ينسب لعلي رضي الله عنه. ومن حديث عائشة قوله ﷺ: اعمل عمل امرئ يظن أن لن يموت أبداً واحذر حذر من يخشى أن يموت غداً...، من حديث عائشة أخرجه البيهقي في سننه (٢٨/٤).

هذه الحقيقة راسخة في الأدب الاستشراقي. وفيما بعد أحدثت تطورات علم الحديث، وعوامل أخرى تغييراً في معايير مناقشة القضايا الشرعية. ومرّة ثانية، يجب أن نطبق تحذير عزمي من أنه لا يجوز أن نقوم بالاستدلال حول علم ما عن طريق دراسة تطور علم آخر.

وكما يلاحظ جوينبول فإن المحدثين المسلمين كانوا على دراية جيدة من أنه حتى الرواة الموثوقين ربما كانوا مخطئين في نسبتهم مقولة ما للنبي في الوقت الذي صدرت هذه المقولة عن شخص آخر في وقت لاحق. ولكنهم لم يكونوا يفترضون دوماً، كما تفترض نظرية (الإسقاط خلفاً) أن أحداً ما، سواء أكان قاضياً أم سلفياً، قد قام عامداً بإكمال سلسلة من الرواة من أجل تزوير معلومات ما. لقد رأى هؤلاء المحدثون أن أنجع الوسائل للتأكد من عدم وجود الأخطاء هو المقارنة والإسناد الترافقي لكل المعطيات المعروفة حول هذا الموضوع، ولقد شعر المحدثون أن طرائق نقد الإسناد هو الحصن الدفاعي الأكثر فعالية ضد أي أخطاء من هذا النوع.

وأما نتيجة جوينبول فيما يتعلق بأنس بن مالك وأبي هريرة كما ورد في الفقرة (٣) سابقاً فإنها غير مقنعة. فمن خلال فحصه لحوالي ستة وثلاثين حديثاً رواها أنس كما ورد في الموطأ، أدرك جوينبول من خلال حكمه أن الأحاديث التي رواها أنس في المدينة لا تظهر تداخلاً كبيراً مع تلك الأحاديث التي رواها طلابه العراقيون[٦٧]. إن هذا يدهش جوينبول، فحسب رأيه، أن المعلومات التي رواها أنس في المدينة يجب أن تكون إلى حد ما، مطابقة لما رواه خلال إقامته في البصرة.

وإذا ما نحّينا جانباً موضوع ما قد يعنيه (تداخلاً كبيراً)، فلماذا يجب علينا أن نتوقع أي تداخل في المقام الأوّل؟ إن الطريقة التي يعلّم بها معلّم ما عبر السنين تعتمد على

(٦٧) جوينبول: *الحديث عند المسلمين*، ص ٦٧-٦٨.

الفرد، وعلى عوامل أخرى عديدة. ولسوء الحظ فإننا لا نملك معلومات دقيقة جداً عن أنس، ولكنني آمل ألاّ يعتبر باحث مستقبلي عملي هذا على أنه تلفيق بسبب أني ألقيت محاضرات عدة حول مسائل مختلفة في مراحل مختلفة من مهنتي. والأهم من ذلك هو أنه في حين ينسب لأنس ألفان وثلاثمئة رواية حديث، نجد أن جوينبول يخلص إلى رأيه بعد دراسة ستة وثلاثين حديثاً فقط وهي الموجودة في الموطأ. إن هذه القلة من أحاديث أنس تطرح سؤالاً هاماً، وهو إن كانت هذه المجموعة القليلة تمثل كل ما رواه أنس. أما مناقشة جوينبول لأبي هريرة فهي أكثر ضبابية ذلك أنه لم يشر إلى نسبة الأحاديث التي قام بدراستها هذا الصحابي، ولا إلى نسبة الأحاديث التي تنسب إليه في كتب الصحاح[٦٨].

بالنسبة إلى حيلة السن التي ورد ذكرها في الفقرة (٤) أعلاه هي حسب معرفتي أصلية. ولسوء الحظ فإن عدد الأمثلة التي قدمها جوينبول هي عشرة فقط ذكرت منها هنا ستة أمثلة فقط. ومادام أن هناك حوالي عشرة آلاف ترجمة في أعمال الرجال الموجود حالياً[٦٩]، فإنه من الصعب أن نثق بنظرية مبنية على أمثلة قليلة كهذه. ولكن بكل صدق أقول إن أي طالب جديد من طلاب الأدب الإسلامي القديم لا يستطيع إلاّ أن يشكك بالأعمار المتقدمة لعدد كبير من هؤلاء الأفراد. ولقد عزا العديد من الكتاب المسلمين هذا إلى عدم الدقة المعروفة التي حفظ بها أولئك الذين يعيشون في الشرق الأوسط، وخاصة العرب، سجلات أعمارهم أو أعمار أقاربهم. إن استخدام التقويم القمري وندرة الاحتفال بأعياد الميلاد، ومناسبات الوفاة في معظم العالم الإسلامي قد أضافا إلى بروز هذه الظاهرة. ولكن، ولشدة الغرابة، فإن كل واحد من أصدقائي الشرق أوسطيين تقريباً يعرف واحداً في عائلته كان قد عُمّرَ أكثر من قرن من الزمان.

---

(٦٨) المرجع السابق،ص ٢٠٤.

(٦٩) صدّيقي، *أدب الحديث*، ص ١٦٥–١٨٨.

وعلى العموم فإن علماء المسلمين يعتبرون أن تواريخ الولادة والوفاة الموجودة في كتب التراجم على أنها تخمينات تقريبية. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الاعتبار إن هو إلاّ أحد العوامل المتعددة التي أخذها المحدّثون باعتبارهم. ويرينا عزمي التباين الكبير في تقديرات الأعمار في مختلف أعمال التراجم، وتبعاً لحقيقة عدم وجود تخمينات على الأغلب فقد كان عليه أن يخمّن الأعمار تبعاً لتواريخ الميلاد والوفاة[٧٠]. إن أدب التراجم لا يدّعي الوصول إلى الكمال، ذلك أن هدفه الأساسي كان محصوراً بتقديم كافة البيانات المتوفرة والمتعلقة بأفراد كرّسوا شطراً من حياتهم لنقل الحديث والتي اعتبرها العلماء المسلمون معلومات قيّمة يمكن الاستفادة منها.

إن اعتراضي الرئيسي على نظرية حيلة السن، وبالتالي، على كثير من البحث الغربي الذي تم إنجازه عن الحديث هو ما أريد أن أدعوه فوبيا التلفيق. وبهذا فإنني أدعو الباحث المتمكن إلى غربلة البيانات الهائلة التي جمعها المختصون المسلمون الذين كانوا يعملون في هذا المجال ودعوة كل خاصية أو عدم تجانس على أنه تلفيق بدلاً من رد ذلك إلى أنه ناجم عن تخمينات أو خطأ إنساني. إنني أتساءل إن كان هذا الدافع القوي لرؤية الخداع أو الحماقة أينما وجدت إن هو إلاّ إنعكاس لنوع من التعصب والتعجرف الغربيين الذي ناقشه إدوارد سعيد في كتابه *الاستشراق*[٧١].

ويعترف جوينبول أن مناقشاته ضد موثوقية حديثين متواترين (كما ورد في الفقرة د أعلاه) غالباً ما يعتبرها المؤرخون على أنها ضعيفة[٧٢]. إن جميع مناقشاته الحاسمة تقريباً، سواء أكانت هنا في هذا الكتاب أم خلال نصّ كتابه، هي مناقشات مبنية على

---

(٧٠) عزمي، دراسات في أدب الحديث المبكر، ص ٣٠٣-٣٢.

(٧١) إدوار سعيد، الاستشراق.

Edward Said, Orientalism New York: (Panthoen Books,1978)

(٧٢) جوينبول، *الحديث عند المسلمين*، ص ٩٨.

صمت الخصم أو غياب الدليل argumenta e silentio ، والمقدمة المنطقية هي أنه إذا حذف عدد من الباحثين ما سيصبح بالنهاية حديثاً واسع الانتشار من مجموعة أحاديثهم الخاصة، فإن هذا قد يعطي مدلولاً سلبياً حول موثوقية هذا الحديث. إن الباحثين الغربيين يثيرون سخط المؤلفين المسلمين باستمرارمن جرّاء إثارتهم لمناقشات من هذا النوع، مادامت أن هذه المناقشات تفترض أن كل عالم من هؤلاء قد جمع ما كان يسمعه من الحديث الذي كان في عصره، وبالنتيجة فإن هذه النظرة لا تخلق عذراً للتحديد الإنساني، ولا يمكن وضع ضابط لها. إن أحد مصادر جوينبول الرئيسية هو موطأ مالك، على الرغم من أنه من المعروف أن مالكاً كان أولاً وآخراً قاضياً وليس محدثاً. وعلى حين أن موطأه يحتوي على عدد لا بأس به من الأحاديث، إلاّ أنه لم يقصد به أن يكون كتاباً في الحديث. وكذلك يجب ألا ننسى أن جوينبول نفسه، وفي أكثر من مناسبة، يشدد على عدم كمال مصادره. وهكذا فإن مناقشة جوينبول لا يمكن أن تؤخذ على أنها مقنعة.

أما نظرية شاخت في الرابطة المشتركة التي ورد ذكرها في الفقرة (٦) أعلاه فإن معظم محققي الحديث من الغربيين والمسلمين يتجاهلونها، وهي، كسابقتها أيضاً، مبنية على أدلة ناقصة. ويفترض شاخت أنه إن كان لدينا عدة أحاديث لها المتن نفسه وبالإسناد نفسه وأنها جميعها تحتوي على رواة مشتركين في مرحلة متوسطة ما، ففي حالة كهذه فإن شاخت يرى أن هناك إشارة قوية في صالح الحديث ترجح أن هذا الحديث قد نشأ في زمن الرواة المشتركين"[٧٣] . وفي الواقع أن هناك حفنة قليلة جداً من الأمثلة عن هذه التي تدعى (الرابطة المشتركة) في أدب الاستشراق الغربي؛ والتي يقدمها شاخت هنا [٧٤] وقلة أخرى

---

(٧٣) شاخت، *أصول الفقه المحمدي*، ص ١٧٢.

(٧٤) المرجع السابق، ص ١٧١-١٧٥.

قدّمها لنا جوينبول[٧٥]، الذي يؤكد بنفسه أن هذه الظاهرة هي ظاهرة نادرة نسبياً. ويثبت لنا عزمي[٧٦] أن مثال شاخت غير مناسب، وأن شرح كل من شاخت وجوينبول لهذه الظاهرة ليس على الإطلاق هو الشرح الأكثر وضوحاً. وفي الحالات التي يعرف أن هناك حديثاً ما قد تم تلفيقه، كما في الحالات التي أوردها جوينبول، فإنه لا شك أن الرابطة المشتركة سوف تدل على أنه كان هناك زمن ممكن للتزوير في التاريخ الإسلامي.

ومع ذلك وبشكل عام فإن وجود الرابطة المشتركة لا يعني بالضرورة وجود تلفيق ما. فعلماء المسلمين الذين كانوا منتبهين لهذه الظاهرة منذ قرون خلت قد جاؤوا بتفسيرات أخرى ممكنة. فعلى سبيل المثال عُرف بعض الباحثين على أنهم قاموا بالتحقق من جميع المصادر المتوفرة حول حديث نبوي ما على الرغم من أن بعض هذه المصادر كان غامضاً جداً أحياناً. وبالنتيجة فمن الطبيعي أن بين الآونة والأخرى نجد باحثاً مرموقاً ما، يحصل على حديث ما من عدة مصادر لينقله بدوره إلى طلابه وتلامذته الكثيرين. وكما يوضح جوينبول، فإنه من المحتمل أن بعض المحدثين المسلمين كانوا مدركين أن الرابطة المشتركة قد تشير إلى التلفيق[٧٧] ولكن خلافاً لما يقوله شاخت، فإن هؤلاء المحدثين كانت تعوزهم الحاجة لدليل إضافي قبل أن يتقدّموا مثل ذلك الادعاء.

وفي الختام يجب علي أن أقول: إنني لا أجد أن آراء جوينبول في موثوقية أدب الحديث على أنها نظرة وسط مابين موقف المستشرقين وموقف المسلمين من الحديث الشريف. لقد بدا، على الأقل لي، أنه ينتمي لمدرسة غولدزيهر شاخت ليس إلا. وعلى

---

(٧٥) جوينبول، *الحديث عند المسلمين*، ص ٢٠٦-٢١٧.

(٧٦) عزمي، *دراسات في أدب الحديث المبكر*، ص ٢٣٢-٢٣٦.

(٧٧) جوينبول، *الحديث عند المسلمين* ، ص ٢١٤-٢١٦ وينظر جوينبول إلى هذا من منظور سلبي قائلاً إنّ هذا قد يحتاج إلى دليل تعزيزي من جانب المحدثين، ولكن في رأيي يجب أن ننظر إلى ذلك على أنه محاولة منه كي يأخذ باعتباره كافة المناقشات والبيانات المتوفرة.

الرغمُ من أنه كان أكثر حرصاً ووضوحاً في عرضه من كل من سابقيه إلاّ أنــي لا أرى الجوانب التي افترق بها على نحو جوهري ببحثه ونهجه عنهما، كما أنــي لا أرى سـبباً في عدم تطبيق النقد المعتاد ضد نظرياتهما بالشدة نفسها على نظريته، وإنــني أعتقـد أن دراسة جوينبول ليس من شأنها إلا أن تزيد الهوة في هذا الجــانب من البحـث مـا بـين وجهة النظر الغربية ووجهات النظر الإسلامية.

ولكونـي مسـلماً جديـداً ولأسباب ذكرتهـا سـابقاً فقـد كنــت شــديد التطـرّف بشكوكي بالأحاديث النبوية. ولم أعثر على كتاب عن نقد الحديث لمؤلف مسلم باللغة الإنكليزية إلاّ بعد أربع سنوات من اعتناقي للإسلام. إن العديد مــن الكتّـاب المسـلمين يعرّجون على هذا الموضوع بشكل مقتضب، ولكــن طريقـة وضعهـا غالبـاً مـا تسـلك مسلكاً عقائدياً جداً؛ بل إن أعمال المستشرقين التي قرأتهــا عـن الحديـث كـانت أكـثر أكاديمية وإقناعاً. ومع ذلك وعلى الرغم من أن قراراتهم قد عززت شكوكي، إلاّ أنـني في الحقيقـة كنـت أقـل ثقـة بشـكوكي بعـد أن قمـت بدراسـة أعمـالهم. لقـد كــانت افتراضات المستشرقين جريئة وممتعة، ولكن الصورة الإجمالية التي قدمهـا هـؤلاء كـانت تفتقر إلى ربط منطقي، ولقد وجدت نتائجهم، كمــا وجدهـا تيتـوس بيركـارت Titus Burkhart الذي استشهدت بأقواله سابقاً، ساخرة على نحو غير واقعي.

وبعد فترة من الوقت، ومن خلال الكثير من التنقيــب وحسـن الحـظ فقـد وجـدت كتاباً أكاديمياً ممن دافع عن دراسة الحديـث الكلاسـيكية والذين بـدت مقولاتهـم عـن تطور الحديث أكثر اتزاناً وتحتوي على عدد أقل من تناقضات وشـطحات المستشـرقين النفسيّة. ثم إني بدأت أقدر جهـود المسـلمين الكبـيرة في مقارنـة بمجلـدات ضخمـة مـن النصوص عن النبي وأصحابه. وعلاوة على ذلك فقد بــدأت أحـترم المقولـة القائلـة: إنّ الأحاديث الموثقة هي، بعد القرآن، مصدر المعلومــات الأكـثر أمانـة مـن أي معلومـات

جمعت على الإطلاق حول حياة أي نبي أو معلّم في أيّ من ديانات العالم العظمى. ولكن الأهم من ذلك هو أنني اكتشفت أن فضل خبراء الحديث المسلمين الأوائل ليس بإنجازهم سجلات منزّهة عن الخطأ عن أقوال وأفعال محمد، بل على الأصح بجمعهم كمية من المعلومات على قدر من الأهمية في **مرجعيتها** تسمح باستنباط الأحكام في حياة المسلمين بعد القرآن مباشرة. ولسوف نعود لمناقشة هذه الفكرة بعد قليل.

ولكنني لا أريد أن أترك انطباعاً مفاده أن الدراسات الغربيّة للحديث عديمة النفع أو غير هامّة. فكل المؤلفين الذين ذكرتهم آنفاً والمدافعين عن سلامة هذا العلم الإسلامي الكلاسيكي يصرّون على عكس ذلك. وعلى الرغم من أني لا أوافق كل نقد غربي إلاّ أنني تعلمت من هذه المصادر الكثير من علم الحديث مما لم أستطع العثور عليه في المصادر الإسلامية. إضافة إلى ذلك فقد قدم الباحثون الغربيون إسهامات جلّى لدراسة علوم الحديث. فهم يعثون الاهتمام في أعمال الرجال وأعمال الأوائل (وهي تقارير تحتوي على معلومات حول أوّل من قام بعمل ما، أو أول من أسس معاهد معيّنة)، ويعثون الاهتمام أيضاً في نصوص شرعية *كموطأ* مالك *ورسالة* الإمام الشافعي *ومسند* الإمام ابن حنبل التي تتم ترجمتها حالياً إلى اللغات الأوربية. إن فهرست الحديث الشريف والذي يمثّل الجهود المشتركة لحوالي أربعين باحثاً من مختلف البلدان والتي استغرقت أكثر من نصف هذا القرن هو ولا شك ذو قيمة بالغة. فهذا الفهرس يتألف من جميع التعابير الهامة التي ترد في كتب الصحاح الستة *وسنن الدارمي وموطأ* الإمام مالك، *ومسند* ابن حنبل جميعها مرتبة بشكل ألفبائي. إضافة إلى ذلك فقد طوّر الغربيون طرائق نقدية جديدة قد تكون ذات فائدة لعلماء المسلمين.

مسألة ضرورة: قال تعالى:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣/٣٢].

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ [النساء: ١٣/٤].

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ. . .﴾ [النساء: ٥٩/٤]، ومواضيع أخرى متعددة.

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠/٤].

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ. . .﴾ [النساء: ٨٣/٤].

﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١/٣٣].

﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧/٥٩].

﴿رَسُولاً مِنْهُمْ. . . وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩/٢].

﴿رَسُولاً مِنْكُم. . . وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١/٢].

﴿رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ. . . وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤/٣].

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣/٤].

﴿وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤/٢٤]، ومواضع أخرى.

من بين جميع المؤمنين نجد أن أكثر الناس تشدّداً وصرامة في تطبيق وممارسة أفكارهم هم المعتنقون الجدد للإسلام. إن القوة الجديدة التي انغمسوا بها والصراعات الداخلية التي يكابدونها ليجعلوا معنىً من ذلك من خلال استجابتهم لها يمكن أن تؤدي بهم إلى الإفراط بسهولة. ويحتمل أن يرى الراسخون في الإيمان في أولئك نماذج تعبِّر عن الإيمان الصحيح، في الوقت الذي يقرون فيه بنقاط ضعفهم ومغرياتهم. إن الحاجتين المزدوجتين وهي أن تكون مقبولاً ومخلصاً مع نفسك ومع الآخرين تشدُّ المعتنقين الجدد في اتجاهين متعاكسين، وسوف تكونان سبب العديد من التنازلات والمتناقضات لديهم.

ويبدو أنه من غير العدل تقريباً أن تأتينا امتحانات العقيدة الأكثر إثارة بسرعة كبيرة. وأكثر ردود الفعل شيوعاً لمثل هذا الامتحان هو أن تصبح مسلماً ترضي جميع الأهواء، كما لو أنك قطعت من ورق مقوى، أي بمعنى أن تتبنى بأعمالك الظاهرية وسلوكك ما تسمعه وتراه من حولك. إن هذا لا يولد من عدم الإخلاص بل من عدم الشعور بالأمان، ومن الشعور بالحاجة لهوية جديدة انتحالية، تكون بشكل كامل مطابقة لمعايير الأمة الجديدة التي انضممت إليها. وهناك الكثير من السلوك الفردي الغريب نصائح صغيرة يشترك بها الناس بشكل كلي تندمج لتصبح جزءاً من ممارسة الفرد لما هو وثيق الصلة بسنة النبي.

وكإنسان عاش هذه التجربة فإن أفضل نصيحة يمكن أن أقدمها للمسلم الجديد هو ألاّ يتبنّى أي سلوك أو موقف ما لم يكن متأكداً من الحاجة إلى ذلك. وإلاّ فقد ينتهي به الأمر موقعاً نفسه في زاوية يصبح فيها غير قادر على أن يرجع إلى طبيعته، وبالتالي غير قادر على التخلص من عبء السلوك الجديد دون أن يجر على نفسه الخيبة والشك ليس فقط من الآخرين بل ومن نفسه أيضاً. وطريق الهروب من هذا أن تغادر هذا المجتمع، لا أن تتخلى عن الإسلام، بل أن تعيش على هدّاب الإسلام على نحو غير مميَّز. إن التبرير والهدف لمشاعر الغضب والإخفاق هو السنّة والحديث، أو بشكل أدق، الأهمية التي يوليها المسلمون للسنة والحديث، وأما النتيجة فهي أن المرء يتحّول من تطرّف لآخر.

إن الكيفية التي يتخذ فيها المؤمن من محمد قدوةً له في حياته هي مسألة شخصية تماماً، مادام عدد قليل من المسلمين فقط يصبحون فقهاء، ويسهمون في تشكيل قواعد السلوك للمجتمع الإسلامي العام. أما عامة المسلمين فإن السنة هي الدليل المرشد في سلوكهم الأخلاقي والمعنوي والروحي: وهي كيف يقيم المرء علاقاته مع أولاده وذويه وأقاربه وأصدقائه وجيرانه؛ ؟ وكيف يؤدي الإنسان الصلاة والفرائض الأخرى؟

وكيف يسير أعماله الخاصة. ؟ إن الكيفية التي تشكّل السنة بها حياة المرء بنجاح، ومقدار الفائدة العظيمة التي ينتفع بها المرء من ذلك هما أمر يعتمد على التفسير والتطبيق الشخصيين. فالسنّة للبعض تتطلب تبني الممارسات المسجلة للنبي بجملتها بدقة متناهية قدر الإمكان دون النظر إلى اعتبارات المحيط محيطه ومحيطهم. وبالنتيجة يمكن أن ترى أحياناً بعض المسلمين الأميركيين وهم يقومون بالأدعية بالعربية على الرغم من أنهم، عملياً، لا يعلمون ما يقولون، أو يمكن أن تراهم وهم يرتدون العمائم، والأثواب والصنادل في شوارع المدن الأميريكية. فإن كل شيء في حياة النبي له دلالة شعائرية أو روحية حتى التفاصيل الدقيقة ويستشهدون لإثبات ذلك بينابيع الإيمان التي لا تنضب والتي يكتشفونها من جرّاء اتباعهم لسنّة محمد (ﷺ). أما الآخرون، فهم يفسّرون السنة بتحرر تام يغفلون اتّباعها، اللهم إلاّ إن كانت تنسجم مع أفكار سبق وتصوروها. فالنبي لهؤلاء لم يكن أكثر من وسيلة وفي سبيل جميع المقاصد العملية يجب أن نتجاهل هذه الوسيلة وخاصة بعد أن اكتمل نزول الوحي.

وبين هذين الفريقين هناك طرق لا تحصى من أنواع الاستجابات للاقتداء بمحمد ولكن أهم طرق تقليد البشر له في كافة أرجاء العالم هي في أمور الشعائر الدينية. والسبب في هذا يعود، جزئياً، لأن الشعائر الدينية يمكن أن ترى على أنها باب المؤمن المؤدية إلى من لا تدركه الأبصار وإلى المناجاة الخفية مع القدير. ومادمنا لسنا محجوبين عن الوقائع والحقائق التي أثبتها محمد، فإننا نعترف بجهلنا واعتمادنا على رؤيته النبوية، وخاصة في المسائل الروحية. وأيضاً، إن الشعائر هي المسوّي الأكبر في المجتمع الإسلامي، وهي تتجاوز الزمان والمكان، والعرق واللغة. فحين يقف المسلم بخضوع أمام الله مع إخوانه فإن شعائر كل تابع من أتباع محمد هي شعائر لأتباع الآخرين عبر التاريخ، وهذا اعتراف بالنوعية الروحية

الجوهرية التي دخل بها كل فرد منا هذا العالم. ولكن عدداً لا بأس به من المسلمين الأميركيين قد شككوا حتى بهذا الدور من قدوة محمد ﷺ.

وعلى مستوى الأمة، فإن سنّة النبي كانت دوماً تحتمل تطبيقات وتفسيرات متباينة في الرأي. ومادامت خطة حياة محمد قد شهدت اختلافاً كبيراً من التجارب والفرص، فإن المجتمعات الإسلامية قد شدّدت على بعض الخصال المختلفة من قدوة النبي، كل وما يتناسب مع ظروفه. وفيما يتعلق بهذا فإن نطاق السنة المحمدية كان واسعاً لدرجة كافية بحيث تتناسب وحاجات الجماعات الإسلامية المختلفة، وكان هذا النطاق من المرونة بمكان ليخدم مناهج دراسة متباينة كتباين الصوفيين والحرفيين. وأما في الولايات المتحدة فإن جو المراكز الإسلامية المتوضّعة في المدن الكبرى مثل نيويورك وشيكاغو، والتي تخدم الجاليات الإسلامية الأهلية يختلف تماماً عن الجو الذي نجده في المراكز التي تديرها مجموعات الطلبة المسلمين في الجامعات الأمريكية. إنه لمن الخطأ أن نستنتج من هذا أن المسلمين لم يتأثروا حقاً بالسنّة، ذلك أنه على الرغم من الخلافات في طرائق الفهم فإن القرآن والسنة (وكلاهما مشمول في هذه) قد مهرا شخصيات ومضامين المسلمين جميعاً، بصرف النظر عن الزمان والمكان، بخصال وطرائق نظر للأمور يمكن التعرف عليها بسهولة على أنها خصال وطرائق نظر إسلامية من غير ريب. ويقدم فريدريك دِني Fredrick Denny هنا مثالاً بسيطاً ومؤثراً:

كانوا جميعاً من اليابانيين، قرابة عشرين رجلاً وامرأة، وكانوا جميعاً يلبسون البياض، ويقفون صفوفاً مستقيمة خلف رجل عجوز قصير وممتلىء الجسم، وله شعر مقصوص قصاً قصيراً جداً. لقد تلا هذا الإمام السورة الأولى من القرآن بلغة عربية ممتازة وبصوت رنان. وكان الموضع في كراتشي، وبالتحديد إحدى ردهات مطار الباكستان الدولي خلال موسم الحج الإسلامي، وذلك حين يمم جميع المؤمنين في

العالم وجوههم شطر القبلة في الجزيرة العربية. كانت هذه المجموعة الصغيرة من المسلمين اليابانيين تنتظر أن تستقل الطائرة للمرحلة الأخيرة من رحلتهم إلى جدة، وهي ميناء البحر الأحمر للدخول لمدينة مكة المكرمة. لقد أدى هؤلاء اليابانيون صلاتهم في مسجد صغير في هذا الجناح من المطار الذي يقع قرب محلات البضائع المعفاة من الضرائب lduty free shops وقرب أكشاك بيع المرطبات.

ولا يوجد في اليابان الكثير من المسلمين سواء أكانوا من اليابانيين أنفسهم أم من أجناس شتى. ولكن اليابانيين المسلمين الذين وجدتهم في مطار كراتشي وهم يصلّون كانوا يابانيين حقاً بلغتهم وسلوكهم ومظاهرهم الخارجية ولكنهم كانوا أيضاً شيئاً آخر. وهذا الشيء الآخر هو نمط أو أسلوب خاص من السلوك والتصرّف الذي يميز المسلمين المتمسكين بدينهم عن غيرهم من البشر بغض النظر عن الهوية العرقية أو اللغوية أو الثقافية أو العنصرية(٧٨).

إن فحوى هذه المناقشة هو أنه ليس هناك حاجة لاعتبار سنّة النبي على أنها عبء ثقيل. فالناس يختلفون في فهمهم للسنّة تبعاً لخبراتهم وظروفهم. وقد يكون هذا الأمر محبطاً بالنسبة للمعتنقين الغربيين طالما أنهم يشكلون أقلية ضئيلة في بوتقة إسلامية ضخمة جداً. وطالما أن المجتمع الإسلامي يضم، وخاصة في الغرب، عدداً كبيراً من الجاليات من مختلف الثقافات والتقاليد، فإننا نحتاج إلى قدر كبير من النضج والحنكة عندما نعالج موضوع احترام وجهات نظر الآخرين. ومن خلال ملاحظاتي وجدت أن المعتنق الغربي للإسلام غالباً ما يكون بين الذين هم أقل تسامحاً.

لقد آن الأوان لي كي أسأل السؤال الرئيسي الذي طالما تحاشيت أن أسأله وهو لماذا

---

(٧٨) فريدريك دني *الإسلام والأمة الإسلامية*، ص ٥-٦.
Fredrick Denny. *Islam and the Muslim Community* (San Francisco: Harber& Row,1987), P. 5-6.

يحتاج القرآن إلى ملحق؟ إن بمقدورنا أن نقدر عمل المحدّثين وقابلية تطبيق السنة، ولكن لماذا نعقّد حياتنا بمصدر هداية إضافي؟ أوليس من أحد جوانب أهداف الوحي هو توفير أساسيات الهداية، وترك الباقي مفتوحاً لتغيّرات الزمان التي لا بد واقعة؟ وبتضميننا السنة، أولسنا نضيق من قابلية تطبيق القرآن؟ أوليس القرآن نفسه يصّر على أنه ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٤/٥٤] ومواضع أخرى.

إن الأجوبة تعتمد على الموقف الخاص لكل إنسان حيال القرآن، فثمَّ هو المكان الذي ينبع فيه السؤال. إن المفسرين يؤيدون أهمية معرفة مناسبة كل نزول وحي أي الحادثة أو الحوادث التاريخية التي نزل فيها الوحي بآيات معينة من القرآن بغية الحصول على فهم أشمل لرسالة هذا الوحي. ولكن هذا لم يمنعهم من قراءة معانٍ إضافية (أي مستويات من المعاني) تفوق حدود المناسبة التي نزلت بها هذه الآيات، وإن ما يدعم هذا هو الخبرة الشخصية للمؤمن الذي، من خلال قراءته اليومية للقرآن، يكتشف اتجاهاتٍ جديدة، وفحوىً في نصوص تمت قراءتها لعدة مرات من قبل. وعلى نحو تقليدي فإن المسلمين كانوا دوماً حذرين جداً من إلحاق معنىً نهائيّ أو مجموعة معانٍ بأيّ آية من آيات القرآن إذ ﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاّ اللّهُ﴾ [آل عمران: ٣/٧] و﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٣١/٢٧]. وبناء على هذا الفهم فإن المسلمين يعارضون الفكرة القائلة: إن القرآن يحتوي على آيات قد عفا عليها الدهر. وحتى أولئك الذين يأخذون بافتراضات نظرية النسخ (وهي أن بعض الآيات تبطل بعضها الآخر) فغالباً ما يقولون إن هذا النسخ يعني أن بعض الآيات تركز أو تضيق من معنى بعض الآيات الأخرى في الموضوع عينه، ثم تسمح بإمكانية استنباط دروس ومعان وتفسيرات إضافية من هذه الآيات.

وفكرة أن بعض آيات القرآن ملغاة بمعنى أنها ليس لها أي تطبيق خارج حدود

الحادثة التاريخية التي خاطبتها هذه الآيات هي فكرة منطوية على المخاطرة. فلو افترضنا أن هناك بعض النصوص القرآنية التي ليس لها علاقة بالحاضر أو بالمستقبل، فإن حكمة الله ومفهوم القرآن على أنه مرشد عالمي سوف يتلاشيان. وأنه لو كان الله قد ضمّن معلومات ملغاة ضمن هذا الوحي وهو القرآن فإن ذلك من شأنه أن يفرض قيوداً على قدرته ومعرفته. ولكان أمر تقرير أي أجزاء الوحي يمكن تطبيقه وأيها يمكن تجاهله مسألة يقررها كل فرد أو كل مجتمع. وبهذه الطريقة فإن الإنسانية تكون هي من يقود القرآن، وليس القرآن من يقود الناس. وطالما أنه لا يوجد في الإسلام تسلسل هرمي للكهنوت فسوف يكون من المسلَّم به أنه بتطبيق منهج كهذا فإن وحدة الأمة الإسلامية سوف تكون في خطر، وأما البديل فهو أن نفترض أن القرآن بجملته هو رسالة عالمية، وأنه يقع على كل جيل من المؤمنين واجب اللجوء إلى القرآن وتفسيره وتطبيق دروسه وتوجيهاته. إن هذا النهج صعب على الرغم من أنه مغر. ولكن يجب أن نسأل هل يصمد القرآن أمام التدقيق؟

إن هناك بعض النصوص القرآنية التي تبدو من النظرة الأولى وكأنها ثابتة من النواحي التاريخية والثقافية والجغرافية. ولكن التحليل العميق يكشف أن القرآن يعلّمنا بطريقة طبيعية دروساً تفصح عن أهمية عامة لنا جميعاً عندما يتناول أمثلة ملموسة، كتلك التي تتعلق بالآيات التالية:

١- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٨/٦٠].

٢- ﴿يا أَيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاةَ أَزْواجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ، وَإِذْ أَسَرَّ النَّبيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ

بَعْضٍ فَلَمّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ. . . . يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُها النّاسُ وَالْحِجارَةُ. . .﴾ [التحريم: ٦٦/١-٦].

٣- ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ﴾ [النور: ٢٤/٥٨].

٤- ﴿. . . فَكَفّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٥/٨٩].

٥- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١٠٥/١-٥].

٦- ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ، إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١٠٦/١-٤] [٧٩].

ففي النص الأول: يفهم بعض المسلمين أنه على الرغم من أن الله يساعد أولئك الذين يجاهدون في سبيل الحق إلاّ أنه يتوجب عليهم ألاّ ينازلوا أحداً في معركة ما لم يكونوا قد أعدّوا لها. وبدلاً من ذلك فإن عليهم اللجوء إلى استخدام الأسلحة والتكتيك الحربي الذي يعطيهم التفوّق العسكري مثل الفرسان البواسل في المجتمع الإسلامي المبكر. والهدف هو أكثر من تحقيق النصر: فالهدف هو خلق رادع، ﴿ترهبون به﴾ قلوب أي عدو محتمل سواء أكان هذا العدو معلوماً أم مجهولاً من أجل الحيلولة دون أي عدوان أو إراقة دماء.

---

(٧٩) انظر محمد أسد، *الرسالة*، ص ٢٢-٢٣، من أجل المناقشة ضد نظرية النسخ. انظر أيضاً محمد علي، *دين الإسلام*، ص ٣١-٤٥؛ وكذلك جون بيرتون، *جمع القرآن*، ص ٤٠-٢٣٤.
John Burton, *The Collection of the Qur'an* (London: Cambridge University Press, 1977),. 234-40.

وأما المثال الثاني: فهو يتعلّق بحياة أسرة النبي، ويوضح لنا بشكل حيوي أن أسرنا تقدم لنا إحدى أعظم الفرص وأكثرها تحدياً من أجل النماء أوالانحدار، وتقدم لنا كذلك أحد أصعب اختبارات النيّة لخدمة الله وحده. فقبل كل شيء انتقد النبي لأنه حرم على نفسه الاتصال ببعض أزواجه إرضاء لبعضهن الآخر، وكان ذلك على ما يبدو استجابة قاسية لما كان قد حصل بينهن، ثم إن هناك تعنيفاً شديداً لزوجات النبي بسبب ما حدث بينهن من التنافس، وذلك بسبب أمور يسيرة من شأنها أن تدمر التماسك العائلي. وخلال هذه الآيات يذكّر الله بغفرانه لأن هذه المحن من شأنها أن تحصل في أي مجتمع. ثم يتلو ذلك التحذير من العودة لمثل هذه الأمور.

ومن النص الثالث: نتعلم أنه ينبغي علينا أن نقيد أنفسنا ببعض مبادئ الحشمة والعزلة ضمن أسرنا على الرغم من أن عادة قيلولة بعد الظهيرة غير موجودة إلا عند القليل من الأمم.

وأما النص الرابع: فإن العديد من النصوص القرآنية يشير بوضوح إلى إلغاء الرقيق، وأنه على المجتمع الإسلامي أن يشعر دوماً بالحرج لأنه كان آخر من ألغى هذا النظام بشكل رسمي. في حين أنه تم القضاء نهائياً على الرق إلاّ أن العديد من الكتّاب المسلمين المعاصرين يرى في الآيات التي تأمر بتحرير العبيد مطلباً مماثلاً لتحرير أخيك الإنسان من قيود الدين الشديد كأداة للتكفير عن الحنث باليمين.

وأخيراً وفيما يختص بالمثالين الخامس والسادس: فإن سورتي الفيل وقريش قد لا تبدوان على أهمية كبيرة اليوم، ولكنهما تبقيان من بين السور التي يتذكرها الحجيج كثيراً عندما يتابعون سيرهم على طول طرقات مكة المغبَّرة في طريقك نحو الكعبة. وفي بيئة طبيعية كانت مقفرة ومخيفة تقع الكعبة البسيطة، ولكنها الفاتنة مثل الجوهرة الجميلة المنقوشة في الصخر، والتي هيأها وحفظها وحماها الله القدير في أحد أقل

الأماكن توقّعاً كي يزورها، ويظفر بها جميع الحجاج. ويأتي المسلم إلى هذا المكان ليختبر بنفسه وعلى نحو مؤثر شعور كونه بحق جزءاً من خطة الله الأبدية.

لقد كان المسلمون دوماً قادرين على قراءة آيات القرآن في حياتهم ليس فقط رغبة بذلك بل أيضاً استجابة لضرورة ملحّة عميقة، ذلك أن رسالة هذه الآيات تنفذ بإخلاص وعمق إلى حاجاتهم ومحنهم الآنية. وهكذا نرى أنه كلما ازداد البعد الزمني للمفسرين المسلمين عن جزيرة العرب في القرن السابع، ازداد تشديد هؤلاء على سمو وتماسك القرآن بجملته.

وإذا ما قبلنا هذا النهج، فكيف يستجيب المرء إذن إلى الآيات التي بدأت بها هذه الفقرة؟ إنه من الصعب أن نتخيل طريقة أخرى يمكن أن يستجيب بها المتحمّسون المؤمنون الذين كانوا يشكلون النّواه الصلبة الهامة للجيل الإسلامي الأوّل على الرغم من صغرها نسبياً بطريقة تختلف كثيراً عن تلك التي سجّلها لنا التاريخ، وهي المجموعة الحماسية لآلاف التفاصيل الكبيرة والصغيرة التي تتعلّق بحياة وسلوك النبي. لقد كانت هذه هي الاستجابة الأكثر طبيعية ووضوحاً لأولئك الذين كان عندهم ميل نحو التحرّي الأكاديمي في ذلك الزمان.

ويبدو أن القرآن نفسه قد تنبّأ بهذا التطور المبكر، ليس فقط في الآيات التي ذكرتها آنفاً، بل خذ على سبيل المثال لا الحصر الآيات التالية:

﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً، وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٢-٣٣].

﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمّا

أفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٠].

إن كلتا الآيتين تبدوان وكأنهما تتوقعان منا أن نجعل من قدوة محمد شيئاً مثالياً، ولكنهما في الوقت نفسه تحذراننا من أن نقوم بذلك بحذر وعلى نحو عقلاني، وأن نعطي المقامات الخاصة لمحمد وآله وصحابته المقربين وعصره ما يستحقونه جميعاً من الأهمية والاعتبار. وأما الآيات التي تؤكد أنه: ﴿ما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ فإنها تعقب مواعظ توصي بطاعة الله والرسول وتحذيرات شديدة لمن يخالفهما...: ﴿فإن تولّوا فما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾، وهذا يشير إلى أن مسؤولية مستقبل كل امرئ تقع على عاتقه الشخصي، بعد أن يكون قد أبلغ الرسالة بشكل واضح.

إن هذه الآيات يجب أن تفهم ضمن سياق المراجع الكثيرة التي تشدد على طاعة الرسول، وضمن سياق الآيات التي تسمي محمداً على أنه المسؤول عن تعليم وتلقي وحي (الكتاب والحكمة). والتعليم يشتمل على أكثر من مسألة نقل النص: فهو يتطلب الشرح والإيضاح أيضاً. وعلى العموم يعتبر المسلمون قدوة وتعاليم محمد على أنها جزء من تراثه الهادي، وهم يشعرون بالحاجة لدراسة وفهم ذلك التراث على أن أهمية هذا التراث اليوم لنا نحن تساوي تماماً أهميته للأجيال الأولى. إني أشعر أن هذا النهج هو الأكثر تناغماً مع القرآن، في حين نجد أن القرآن يحذرنا من تأليه البشر إلاّ أنه يعترف بالحاجة دوماً إلى قدوة إنسانية يهتدي البشر بهديها. ومع ذلك يبقى هناك سؤال يتعلق بهذه المسألة: وهو هل كل حديث اعتبره العلماء بالإجماع موثوقاً هو حقاً حديث صحيح؟

مسألة حقيقة:

- لا أكاد أصدق أن النبي قال ذلك.

- ولكن يا أخي إن ذلك الحديث هو حديث صحيح!.

- نعم، أعلم، ولكن هل تعتقد أنه حديث صحيح حقاً؟

- إنه صحيح! وإذا كنت لا تقبل بحديث صنّف على أنه صحيح فإنك لست مسلماً.

- ولماذا لم يخبرني أحد عن ذلك قبل أن أعتنق الإسلام؟

و سرعان ما يتعلم المسلمون الجدد أنه إذا أضمر أحدهم أدنى شك حول صحة حديث تم تصنيفه كذلك حسب رأي علماء الإجماع فإن ذلك يعني أنه نقض إيمانه. وبهذه الطريقة فإنهم يجدون أنفسهم مرغمين على أن يعقلنوا عقيدة صارمة. والقول بأن أعمال المحدثين لم يتخللها خطأ من أي نوع على الإطلاق خلال قرون بحثهم هو معتقد متطرف، إن ذلك يقترب من معادلة أمانة جهودهم الإنسانية بأمانة تنزيل القرآن. ومن الغريب أن فكرة معصومية الأحاديث الصحيحة عن الخطأ تناقض عقائد وأعمال الفقهاء والعلماء المسلمين الرسمية عبر التاريخ الإسلامي.

إن الحقيقة التي تقول: إن أولئك الذين يختصّون بالفقه الإسلامي يعتبرون مرجعية الأحاديث الموثقة على أنها تلي القرآن مباشرة هي الحقيقة نفسها التي تعترف بإمكانية وجود نقص في الأحاديث. وعلى قدر مساوٍ من الأهمية هناك الحقيقة القائلة: إنه على الرغم من أن الأحاديث الصحيحة تتمتع بمكانة مرموقة في الإسلام إلاّ أن هناك بعض الخبراء المتمرّسين الذين شعروا أنه من الحق الاعتراض على تلك الأحاديث التي يعتقد أنها أصيلة دونما تعريض إسلامهم لأي نوع من الخطر. وهذا الأمر يستمر حتى يومنا هذا.

فعلى سبيل المثال يتحدى أبو الحسن علي الدارقطني (ت. ٣٨٥ هـ) في كتابه النقد

والتحرير مصداقية متي حديث من أحاديث الكتب الصحاح. فحادثة (الآيات الشيطانية) التي افترض فيها أن محمداً قد قبل بتسوية مع كفار مكة قد حكم عليها أصحاب السلف على أنه محض خيال على الرغم من وجودها في *صحيح البخاري*. وهناك علماء بارزون كالباقلاني والجويني والغزالي يرفضون أحد الأحاديث الواردة في صحيح البخاري ويدعون أنه غير صحيح[٨٠] . ويقول ابن الملقّن (ت-٨٠٤ هـ) عن أحد الأحاديث الواردة في صحيح البخاري: "إن هذا حديث غريب، لو أن البخاري كان جنّب كتابه هذا الحديث لكان خيراً له"[٨١] . ومؤخراً اعترض محمد علي على الحديث الذي يعالج قضية رمي الزاني بالحجارة والوارد في صحيح البخاري[٨٢] ويهاجم فضل الرحمن الحديث الوارد في المصدر نفسه والذي يقول بأن النساء هن غالبية سكان جهنم[٨٣] . وعلى الرغم من كل ذلك فإنه لم ينظر الى أي واحد من هؤلاء العلماء على أنه تخلّى عن إسلامه بسبب نقدهم للحديث.

إن كون الحديث منزهاً عن الخطأ هو اعتقاد شائع بين عامة المسلمين. وقد يكون ذلك تراث حقبة التقليد Imitation عندما كانت أبواب الاجتهاد الشخصي مغلقة لمصلحة التبني التام للقرارات الشرعية التي توصَّلت إليها المذاهب الأربعة في الشريعة الإسلامية[٨٤] ، وكيفما حصل ذلك تبقى هناك حقيقة مفادها أنه بينما تعترف بعض

---

(٨٠) القسطلاني، ٧:١٧٣.

(٨١) المرجع السابق ، ٨:٤٠.

(٨٢) محمد علي ،*دين الإسلام*، ص ٧٥٦-٧٥٨.

حديث أبي هريرة أخرجه البخاري في المحاربين، باب: سؤال الإمام المقر هل أحصنت؟...، رقم (٦٤٣٩) ومسلم في الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنا، رقم (١٦٩١).

(٨٣) فضل الرحمن،*الصحة والطب في الحديث الإسلامي*، ص ١٠٥-١٠٦.راجع تخريج الحديث ص ١٤٣.

Fazlur - Rahman, *Health and Medicine in the Islamic Tradition* (New York: Crossroad, 1987), p. 105-106.

(٨٤) المرجع السابق ، ص ١١٥-١١٦.

الدراسات الإسلامية بالأمانة العالية الكلية للأحاديث التي تم تصنيفها على أنها صحيحة نجد أن هذه الدارسات تعترض على صحة الأحاديث الفردية الموثّقة.

في ضوء ما سبق يمكن لنا أن نسأل ببعض الشرعية السؤال التالي: إذا اعترفنا أن هناك عيوباً ممكنة في أحاديث الشرع، ألا ينقص هذا من مصداقيتها على أنها مصدر هداية؟ ألا نعرض هذه الإمكانية إلى وجود أخطاء مبنية على معلومات غير دقيقة؟

قبل كل شيء يجب علينا أن نقبل أن أي استجابة إنسانية للوحي الإلهي يمكن أن تتعرض لخطر الخلل، والسبب في ذلك ببساطة يعود لقدراتنا الداخلية المحدودة. ويقترن مع هذا أنه يجب علينا أن ندرك أن الأعمال الهائلة والجسيمة لعلماء المسلمين، والتي بدأها هؤلاء منذ الأيام الأولى للدولة الإسلامية من جمع وتعرية وفحص المعلومات الصادرة عن النبي كانت في الحقيقة **استجابة** للقرآن، وخاصة الأمر ﴿وأطيعوا الله والرسول﴾. ولم يكن ذلك ردود فعل فردية ومبعثرة، بل كان استجابة جماعية تجسدت في استجوابات ومقارنات ونقد. بالتأكيد لو كان أحد منا حيّاً خلال القرون القليلة الأولى من الإسلام لما شكك في أن هذا السعي كان فعالاً ومتفقاً مع الوحي على نحو تام.

ومن المؤكد أن الاستجابة المبكّرة للأمر الإلهي ﴿أطيعوا الله والرسول﴾ ما تزال تؤثر فينا اليوم؛ ذلك أننا ورثنا طرائق وأدوات ونتائج العلماء الأوائل من جهة؛ ولأنه لا يمكننا أن نأخذ على محمل الجد أي تفسير يتحاشى دراسة واعية لتلك الاستجابة الأولى. لقد كان القانون الإسلامي التقليدي مدركاً للاعتراض السابق، ومن هنا فقد تم إحداث تسلسل هرمي من المناهج اللازمة لعملية صنع القرار. فقد أعطت الأولوية للقرآن، ثم لسنّة محمد، ثم للقياسات التي استنبطت منهما، وأخيراً للرأي (الاجتهاد). ومن الناحية العملية فإن الخطوط الفاصلة بين هذه الأولويات تختفي أحياناً مادام أن

هناك بعض التداخل. وعلاوة على ذلك فإن مسلمي كل جيل سوف ينتقدون ويراجعون أعمال ونتائج العلماء من الأجيال السابقة لهم تبعاً لتطبيقهم لهذا النموذج الهرمي. ولكنهم بهذا التسلسل الهرمي لا بد وأنهم فهموا أنه كان هناك تسلسل في وسائل الوصول إلى روح الوحي ومتابعته، وأن متابعة هذه السوابق كان أفضل ضمان يمكن اللجوء إليه لتحاشي الوقوع في أي خطأ. لقد أصبحت هذه الصيغة هي التطبيق الإسلامي النموذجي في بداية القرن الإسلامي الثالث، وما تزال سارية المفعول حتى اليوم وذلك بفضل قوة الحجة، ذلك أنها كانت إحدى الطرق التي توافقت بشكل تام مع نهج متماسك للقرآن ولتاريخ استجابة المجتمع الإسلامي له.

من محمد؟

إن هذا الفصل يشترك في بعض الأفكار حول بعض تضمينات هذا السؤال لكل المسلمين، وكيف يمكن أن يتناوله المعتنقون الجدد. ولكي نحاكي خصال شخص آخر وسلوكه فإن علينا أن نكون قادرين أن نماثله إلى حد ما. إن مماثلة كهذه وثيقة الصلة بشخصيتنا وشخصيته لدرجة أن الأجوبة على هذا السؤال ستعتمد على المؤمن وعلى المرحلة التي وصل إليها في حياته. إن الأجوبة جميعاً قد تتشابك في فهم مشترك ولكن بعض الإدراكات الفردية سوف تستمر في الوجود. ولا شك أن قدرتي الخاصة على فهم محمد هي أعمق وأكثر صحة اليوم مما كانت عليه منذ ثمانية أعوام على الرغم من أني متأكد أنه ما يزال هناك الكثير مما يجب فهمه.

وأما الآن فسأقول إذا ما طلب مني أن أصف النبي: إنّ وصفي له يماثل وصف واط Wattالذي سبق ذكره. وفي رأيي أن سبب كسب محمد الاحترام الكبير لأتباعه هو أنهم لا بد قد رأوا فيه الشخصية التي تمثلت فيها الصفات النموذجية للقائد العربي التقليدي: القائد الذي يبقى على علاقات طيبة مع الأصدقاء والجيران والأنسباء،

ويساعد الفقير والمعترّ، ويقري الضيف بسخاء ويعين المحتاجين الذين تنزل بهم النوائب[٨٥] لا بد أنه كان، وكما تقول الروايات، رجلاً ذا أمانة عظيمة وصبر وشجاعة، ولم تكن لترضى العرب بأقل من هذه الخصال لقائدها. ولا بد أن كلماته صلبة كالفولاذ وبهذا انتزع ثقة أصحابه التامة. وكان إذا ما صمم على إنجاز شيء ما شقّ طريقه دون كلالة للوصول إليه.

ولكن اختيار الله له [نبياً]، وكسبه محبة أتباعه له دون جهد منه للحصول على ذلك، وبقدرته على تغيير المجتمع والتاريخ للدرجة التي قام بها دليل على أنه كان أكثر من مجرد نموذج للقائد العربي. لا بد أنه كان يمتلك الاهتمام والرحمة والروحانية التي لا نقاربها إلاّ على نحو ضئيل في أنفسنا. وللتأكيد، لم يكن طريق النبي بين الأزاهير، فقد كان يقيم حدود الله بلا توانٍ أو تحيز. فعندما تشفّع عنده بعض الصحابة كي يعفو عن إحدى النساء السيدات (المرأة المخزومية) لأنها سرقت كان جوابه أنه لو ابنته المدللة فاطمة فعلت الشيء نفسه لقطع يدها بنفسه[٨٦]. ومن ناحية أخرى عندما يكون هناك أدنى مجال للشك أو استباحة العذر أو طريق مفتوحة للمغفرة كان النبي يتبعها مثلما فعل عندما أعطى أحد الزُّناة ثلاث فرص كي يسحب اعترافه وبالتالي يعفيه من الرجم، أو عندما أعلن الصفح العام عن أعدائه أثناء فتح مكة[٨٧].

(٨٥) قول خديجة رضي الله عنها في حديث الوحي: فوالله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف...، حديث عائشة أخرجه مسلم في الإيمان، باب: بدء الوحي...، رقم (١٦٠).

(٨٦) حديث عائشة أخرجه البخاري في الحدود. باب: حدود الله، كراهية الشفاعة في الحد...، رقم (٦٤٠٦) ومسلم في الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، رقم (١٦٨٨).

(٨٧) محمد علي، دين الإسلام، ص ٢١٤-٢٢١.

لقد كان عند محمد الحساسية لمعرفة متى وكيف يخفض ويرفع الذين كانوا حوله أو حتى نفسه بنزاهة تامة. فبعد النصر في معركة حنين تناهى إلى سمعه أن الأنصار الذين آووه ونصروه في الوقت الذي خذله الجميع، وخاطروا بأنفسهم في سبيل الدفاع عن رسالته خلال أكثر السنين حرجاً، كانوا يشعرون بأنهم استهين بهم عندما أعطي المهاجرون من الغنائم الكثيرة و لم يعط الأنصار شيئاً. لقد كان المهاجرون من المكيين وأهل مكة كانوا هم أوّل من عاداه وعارض دعوته. وانتشر بين الأنصار شعور أنه بعد النصر النهائي (في معركة حنين) انصرف اهتمام النبي كليَّة إلى أقاربه من المكيين على حساب الأنصار (أهل المدينة). عند ذلك وفي الحال دعا النبي الأنصار إلى اجتماع عاجل وخطب فيهم قائلاً:

«ما حديث بلغني عنكم؟» فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم؟ فقال النبي: «يا معشر الأنصار! ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي، وكنتم عالة فأغناكم الله بي». كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ. قال: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله؟ لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا. يا معشر الأنصار أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبي إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به. لو سلكت الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار". قالوا يا رسول الله قد رضينا. . . . .»[88].

---

(٨٨) حديث عبد الله بن زيد بن عاصم أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الطائف، رقم (٤٠٧٥) ومسلم في الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام...، رقم (١٠٦١).

بعد ثماني سنوات من إسلامي أصبحت بعض هذه الانطباعات عن شخصية محمد جزءاً مني. وإذا كانت زوجاته أمهات المؤمنين، فإنه أبوهم. أما أنا فإن هذا هو اللقب المختصر المناسب له والذي يعبر عن المشاعر المشتركة من الاحترام والوقار والحب الذي أكنّه لمحمد، رسول الله.

الفصل الرابع

الأمة

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ٣/١٠٣].

كان الوقت يقترب من نهاية الصيف وكنت سأنضم للجامعة بعد وقت قصير. جلست في ساحة المدرسة قرب السياج أنتظر فريقي الرياضي كي نلعب إحدى المباريات الرياضية بكرة السلّة. وفي معدل الليلة الواحدة كان هناك حوالي خمسين غلاماً من حيِّنا الذي كانت تقطنه غالبية من الإيطاليين، وكان هؤلاء الأولاد يتجمّعون حول هذة المدرسة التي كانت تدعى مدرسة شيريدان Sheridan. وأما اليوم فلم يكن هناك سوى عشرة أولاد تقريباً. جاءني ولد أسود وهو يركب على دراجته فقال لي: من الأفضل لك أن تذهب إلى البيت يا جف فسوف يكون هناك بعض المشكلات الليلة.

لم أحتج لأي شرح إضافي، فقبل ثلاثة أيام هاجم عدة أولاد مراهقين من حيِّنا شخصاً أسود من منطقة بيردزلي تيريس Beardsley Terrace انتقاماً منهم لأحد أولادنا، وكان هؤلاء قد وثبوا عليه فهشّموا أنفه. أما الآن فقد كان دورنا لنواجه الانتقام، ثم يأتي دورهم، ثم دورنا، ثم دورهم، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية، على أنني لم أتردد مطلقاً في الهرب من كل هذا.

إنّ مناطقنا المتحضرة ربما كانت دوماً المكان الذي تُلقى فيه نتاج نفايات إهمال وجشع مجتمعنا اللذين لا يرحمان، ومكان تجمع الحثالة التي يتمثّل زمادها في خوف وعنف وغضب أولاد مدينتنا، والذي تعزله أمتنا وتحتويه بدلاً من أن تقوم بإصلاحه، وذلك بسبب بعض الاعتبارات الاقتصادية. لقد كنت دوماً أسمع أن هؤلاء الأولاد السود ليسوا أولاد بشر بل هم مجرمون. لكن ماذا عسانا أن نتوقع؟ ألم يسلب هؤلاء الأولاد من طفولتهم؟ ألم يغتصب هؤلاء الأولاد من براءتهم؟ إذن، يتوجب على أحد ما أن يدفع الثمن. فكم مرّة ومرّة يحذّرنا القرآن من حاجات الأولاد اليتامى والتائهين والمُهْملين؟

وفي الحال حاولت إقناع أحد رفاق فريقنا بالمغادرة، ولكن فاتنا الوقت، فقد تسلق بخفة ورشاقة أكثر من مئة من الأولاد السود النحيلين الجدران والأسوار المحيطة بباحة المدرسة. إن الفكرة في أوضاع كهذه هي أن تتغلب بعنف على الطرف الآخر، وأن تكون متيقظاً من مباغتاته. لقد أخطأنا الليلة، فقد زعقت عدة سيارات وهي تقف أمام سياج الملعب، وفي الحال فتحت أبواب وصناديق هذه السيارات، ورنّت صرخة عالية في الظلام تقول: معنا بنادق ونعرف كيف نستخدمها.

كانت بعض الأيدي تعبث بالبنادق بعصبية، وكانت مواسير هذه البنادق تلمع تحت أنوار الشارع. إن كلمة خوف لا تكفي لوصف حالتنا في مثل هذا الموقف، بل عليّ أن أقول فقد الإحساس أو الصدمة. إنك لا تفكر هنا بأنك سوف تصاب بأذى، لأنك تعتمد الآن على غرائزك. ولم يكن الوقت مناسباً للهرب بعد مادام الهرب مبكراً قد يرسل شرراً في استجابة عصبية ربما كانت قاتلة. أمرنا أن نتمركز جميعاً حول شبكة كرة السلة، سوف ينتهي الأمر كلّه في الحال.

ومشى فورمان جاكسون Furman Jackson، الذي كان ضحية اعتداء الأسبوع

الماضي، إلى ساحة المدرسة بتحد وكان يشير إلى مهاجميه قائلاً: لقد كان هـذا، وهـذا! لقد كان حكمه دقيقاً ومحكماً. وعادة ما يكـون العنـف في المدينـة فعّـالاً جـداً، فليـس هناك نفع في خلق أعداء ومنتقمين جدد. ولكن كم كـان غريبـاً كـل ذلـك! تذكّـرت كيف باغت هـؤلاء الأولاد أنفسـهم في الشـهر المـاضي ولـداً يهوديـاً في حيّنـا بضربـه وركله وطرحه أرضاً، وهو يتوسل إليهم، ويبكي وهم يهزؤون ويسخرون، وتذكّـرت كيف أن على هؤلاء أن يواجهوا المحاكمة من أجل ذلك عمّا قريب. وهم يقولـون: إن من يغمى عليه سوف يفيق من غيبوبته.

اتجه فورمان نحوي. لقد كنت أعرفه منذ الصف الرابع، وحتى في تلك الأثنـاء كـان دوماً يسبب المتاعب. إن لدى الأولاد علاقة فطرية وانجذاباً نحـو بعضهـم بعضـاً ولكـن كان لتوّه، وفي الصف الرابع، قد أشعرنا بالحواجز التي كانت تمنعنا مـن بعضنـا بعضـاً. وبطريقة ما رأيت في وجهه الولد ابن الحادية عشرة من العمر الذي لم أستطع أبـداً أن أتعرّف إليه؛ سألته ما الذي كان يراه هو في وجهي، فأشار قائلاً لي: لا تثريب عليك!.

انسللت نحو الخلف شاقاً طريقي نحو المخرج الوحيد. ثم لحق بـي في الحـال دينيـس Dennis وكان من المبرَّئين أيضاً. تفرّق الحشد مفسحاً الطريق لنا. لم يرد أحد أن يكون هناك. إن علينا أن نتغلّب على كل أنواع المقاومة والتعاطف في أوضاع كهذه، لنحفـر ثانية لننقّب في أعماق احتياطي وحشيتنا. قد يبدو الأمر سهلاً. ولكنه في الحقيقة يحتاج للكثير من التدريب.

عندما خرجت من البوّابة التفت نحو الخلف. كان هناك حركة داخل الحشد، شيء يشبه حركة الرقص. كانت حركتهم، وهم يناورون ليأخذوا أماكنهم، أشـبه بالتفـاف النسيم بين الحشائش الطويلة محدثاً حفيفـاً بينهـا. ثـم كـان هنـاك صـوت صفـع عـالٍ، وخلال ثوان اندفع إعصار غاضب مخلفاً وراءه عدة أجساد ملقـاة علـى قطـران سـاحة

المدرسة الحار. ركضت وركضت كما ركض الجميع. ركضنا، وتبعثرنا. أمن الشرطة؟ أم من الهلع؟ من يدري؟ هربنا جميعاً.

تلك الليلة، وأيام أخرى وليالٍ مماثلة كانت تخطر ببالي بينما كنت أستمع إلى عبد العليم موسى وهو يحاضر ببعض الطلبة المسلمين في جامعة سان فرانسيسكو. عواطف مضطربة انعكاسات لا إرادية مكتسبة كانت تصطدم بانطباعاتي عن المتكلم. كان أمريكياً أسود طويلاً وقوياً وجليلاً وذكياً وشديد حضور البديهة. ربما كان خصماً خطيراً منذ عشر سنوات خلت قبل إسلامي. فقد نقل إلي أنه كان في أحد الأوقات عضواً في مجموعة النمور السود Black Panthers وأنه اقتيد إلى السجن بسبب ذلك؛ كان من الصعب أن ترى ذلك في هذا الرجل الآن، فقد كان في حالة طمأنينة مع نفسه ومع الآخرين.

وفي فترة أسئلة وأجوبة من المحاضرة سئل عبد العليم عدداً من الأسئلة وكان منها السؤال التالي: هل تعتقد أن الإسلام أثّر في حياتك؟ تغيّر أسلوب تعبيره كما لو أنه اندهش أو تضايق من السؤال، مثلما يحصل لي عندما أجد عليَّ أن أشرح لأحد طلاّبي للمرّة العاشرة. أجاب وهو يهزّ رأسه: إن الناس لا يدركون تماماً، في الحقيقة أنهم لا يستطيعون أن يصدّقوا قدرة الإسلام. ثم أشار بإصبعه إلى غرانت Grant (أمريكي مسلم آخر) وإليَّ في الجانب الآخر من الغرفة وصرّح معرباً عن رأيه: إن حقيقة وجود رجال بيض كهؤلاء يجلسون معاً مع رجال سود مثلنا (يشير إلى المسلمين الأفرو أمريكيين The Muslimsh Afro - American الذين صحبوه من أوكلاند Oakland) كإخوة في حين ومنذ عشر سنوات فقط، كنا نقتل بعضنا بعضاً في الشوارع تخبركم عن مدى التأثير الذي يمكن أن يفعله الإسلام في حياة الفرد!

لقد بدا وكأنه يقرأ أفكاري .

وبعد المحاضرة مشى عبد العليم إليَّ ومدَّ يده مصافحاً. لم أستطع تذكّر آخر مرّة صافحت فيها يد رجل أسود أقصد، صافحت يداً بحق، بحرارة ومودّة. هل صافحت حقاً؟ لقد تألّمت حتى الأعماق، لأنه من المؤلم أن تطلق آلامك، ذلك أنه علينا أن ننتزعها خارجاً ونواجهها ثانية. وإن آلاماً اعتدنا عليها لدرجة أننا أصبحنا نعتمد عليها ليصعب علينا أن نتخلى عنها وننساها.

في ذلك الوقت كان قد مضى على إسلامي شهر واحد فقط. وكان عليّ أن أتعلم الشيء الكثير من عبد العليم خلال السنوات الخمس التالية التي قضيتها في سان فرانسيسكو. ولكن الدرس الأعمق الذي تعلمته منه كان عن أخوّة الإنسان.

تحدث فرحة عظيمة في المجتمع الإسلامي لدى سماعهم أخبار مؤمن جديد (اعتنق الإسلام)، شيء أشبه باستقبال أسرة ما لمولود جديد. وغالباً ما تعقد مثل هذه المقارنة؛ ذلك أن المسلم الجديد يذكّره الناس دوماً أن ذنوبه الماضية يغفرها الله، وأن روحه أصبحت بيضاء كالثلج مثل روح الطفل عند ولادته. وكان من دأب أحد أصدقائي المسلمين أن يخبرني كم كنت محظوظاً، وأنه كان يغبطني فيما يختص بذلك. ويغمرك تدفق حب هؤلاء أحياناً، ويدوم دعم المجتمع لك مادمت بحاجة إلى من يعينك على إتمام نجاح تحولك إلى الإسلام.

ويُمطَرُ الوافد الجديد للإسلام، شأن الطفل، بوابل من النصائح والأفكار المفيدة والتعليمات. فلقد تبنت هذا المولود الجديد أسرة جديدة، وتبنّاها هو بدوره وأصبح له إخوة وأخوات من كل أصقاع العالم من ثقافات مختلفة جداً مثل العربية السعودية والباكستان وماليزيا؛ ومن بلدان يدعونها (عدوّة) مثل إيران، والعراق، وليبيا، وفلسطين؛ ومن أماكن ليست معروفة مثل مالي، وتانزانيا واليمن ونيبال. وكلما ازداد قربه منهم إزداد تعاطفه مع انتصاراتهم وآمالهم وآلامهم. ومما يؤثر عن النبي قوله:

«المؤمن للمؤمن كالجسد الواحد إذا ما اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى؛»[1] وهكذا فعندما يهدم بيت فلسطيني، أو يقتل زلزال آلافاً من الإيرانيين، أو يموت بعض المسلمين من الاقتتال في أفغانستان، فإن المؤمنين في كل مكان يشعرون بالكرب والمهانة وذلك لأن: ﴿الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠/٤٩] و﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١/٩].

إن هذا الشعور بالمسؤولية المتبادلة تدعمه أحاديث محمد ومن بينها الأحاديث التالية: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2] و«ما آمن من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم به»[3] و«انصر أخاك ظالماً أومظلوما»[4] فإن كان مظلوماً فدافع عنه وإن كان ظالماً فامنعه من أن يظلم وبذلك تكون قد نصرته.

لقد عُرف الإسلام منذ القدم بمساواته بين البشر **egalitarianism** ولقد نسب العديد من العلماء والمفسّرين أن سبب انتشار الإسلام في إفريقيا بشكل سلمي نسبياً كان مردّه لهذه المزية من المساواة، لأنه عندما ينضم المرء للأمة الإسلامية سرعان ما يكتشف أن هناك أنموذجاً واحداً ينطبق على جميع أفراد هذه الأمة، وفيما وراء ذلك ينطبق على البشرية جمعاء:

---

(١) ترى المؤمنين... كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو...، حديث النعمان أخرجه البخاري في الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، رقم (٥٦٦٥) ومسلم في البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم...، رقم (٢٥٨٦).

(٢) حديث أنس أخرجه البخاري في الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣) ومسلم في الإيمان، باب: الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه...، رقم (٤٥).

(٣) عن أنس أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٧/٨) وقال: رواه الطبراني والبزار وإسناد البزار حسن.

(٤) من حديث أنس أخرجه البخاري في المظالم، باب: أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً، رقم (٢٣١١و٢٣١٢).

﴿يا أَيُّها النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣/٤٩].

وتلخص هذه الآية بإيجاز بارع عالمية القرآن، فهي تبدأ كما يبدأ القرآن دوماً بمخاطبة البشرية جمعاء. فالدعوة: ﴿يا أيها الناس﴾ تتردد في القرآن حوالي خمس وعشرين مرّة، وتشير إلى أن الدعوة موجّهة للجميع. وأما الجملة التالية فتؤكد المساواة الأساسية بين الناس سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً. ويخبرنا القرآن، في العديد من الأماكن، أنه توجد في عائلاتنا وعلاقاتنا مع القربى فرص حرجة للنماء الروحي والشخصي؛ وهذه الآية تكمل تلك الفكرة بإخبارنا أن الاختلافات بين البشر تزوّدنا بخبرات هامة أيضاً ذلك أن العدالة والمودة والتعاطف تأخذ بعداً جديداً عندما نطبّقها على أولئك الذين ننظر إليهم على أنهم مختلفون عنّا. إن هذا المفهوم يمكن أن نجده أيضاً في الآية الثانية والعشرين من سورة الروم.

لقد قدّمت مثل هذه المفاهيم أعظم تحد لمعاصري محمد من الكافرين الذين كانوا يؤمنون أن النبالة تعتمد فقط على الحسب والنسب، فقد كان من أبرز معالم الحج في الجزيرة العربية قبل الإسلام (الجاهلية) انعقاد المسابقات الشعرية حيث كان المشتركون يفخرون بعظمة أجدادهم وقبائلهم، وكذلك أسماء عشائرهم، وما يزال هذا الأمر قائماً، وإن يكن على نحو أقل شدّة، ويلعب دوراً معتبراً في تحديد مركز المرء والفرص التي يمكن أن يحصل عليها في المجتمع العربي. على هذا فالآية ﴿فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾ [البقرة: ٢٠٠/٢] تحض العرب على أن يذكروا الله في الحج بالحدة نفسها التي كانوا يذكرون بها آباءهم، أو بطريقة أشد من ذلك. إن المبدأ الذي جاء به القرآن والقائل بأن الكرامة تعتمد على التقوى وأن الاختلافات القبلية والقومية والعرقية واللغوية ليست أسباباً للانقسام والكره بين الأفراد

والجماعات (الآية ٢٢ من سورة الروم) كان من المؤكد أن تزعزع استقرار نظام المجتمع الجاهلي ولا سيما أنه كان هناك عدد كاف من الأفراد الذين كانوا يملكون الجرأة الكافية لوضع هذا المبدأ موضع التنفيذ.

ولهذا يعود السبب في كون هجرة النبي إلى يثرب (وهو اسم المدينة ما قبل الإسلام) وتأسيسه المدينة الدولة الإسلامية كانت مصدر تهديد للجزيرة العربية الكافرة. ولا بد أن الأمر كان واضحاً للعقول الثاقبة النظر من أن النظام القبلي ونظام المساواة بين البشر لم يكونا يتعايشان. ولقد عبّر هذا الصراع عن نفسه لمدة اثني عشر عاماً وفي مكة بشكل رئيسي على شكل هجاء ووعيد عندما اضطهدت قبيلة قريش القوية محمداً وقاطعته. ثم إنه عندما التقى ممثلو النظامين المتضادين في ساحة معركة بدر بعد عام واحد من الهجرة إلى المدينة، فإن بعض الأبناء قاتلوا آباءهم، كما قاتل أولاد الأخ أو الأخت ضد أعمامهم أو أخوالهم، وأولاد العم ضد أولاد عمومتهم، وهذا شيء لا يمكن التفكير فيه في المجتمع القبلي. وفي نهاية المعركة وبعد أن ردّ جيش المسلمين جيشاً يفوقه عدداً وعدة بثلاثة أضعاف أدركت الجزيرة العربية قاطبة أن رياح التغيير قد وصلت.

وبالنسبة للمسلمين فإن مجتمع المؤمنين يوجد حيث توضع مبادئ المساواة بين البشر موضع التنفيذ، وحيث يشترك في ذلك أولئك الذين التزموا بنظرة هذا المبدأ العالمية من خلال الإيمان، الحكومة، والقانون وترجمة ذلك إلى نظام اجتماعي سياسي. ولكن اهتمام الإسلام لا يقتصر على أتباعه وحسب، بل يمتد ليشمل البشرية جمعاء. فمن المهم أن نلاحظ أنه عندما يأمرنا القرآن أن نعطي الصدقات للمحتاجين، وأن نرعى اليتامى والثكالى، وأن يتعامل بعضنا مع بعض على قدر المساواة مع بعضنا بعضاً، وأن ندافع عن المظلومين، وأن نعتق الرقاب، وأن نعين عابري السبيل، فإننا لا نجد فيه ذكراً لديانة أولئك الذين يعانون. إن القرآن يصف الأمة الإسلامية على أنها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ٣/١١٠].

ألأنها تخدم الله الواحد؟ أم بسبب عبادتها؟ أم تراها لأنها تؤمن بالعقيدة الصحيحة؟ لا بد وأن المسلمين هم خير أمة أخرجت للناس يدافعون عن الحق ويعارضون الباطل ويقاومون الظلم والطغيان كعبيد لله، يقول تعالى:

﴿وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظّالِمِ أَهْلُها وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾[النساء: ٤/٧٥].

وحسب كلمات القرآن (أي الآيات ٣٩ من سورة البقرة، و١٦٥ من سورة الأنعام، و١٤ من سورة يونس و٢٦ من سورة النحل، و٣٩ من سورة فاطر) فإن الإنسان هو خليفة الله على الأرض Vicegerent وأن عليه أن يتولّى المنكوبين والمظلومين.

إن الأركان الخمسة في العقيدة الإسلامية، والتي هي التجسيد الشعائري لإيديولوجيةالإسلام، توحّد وعلى نحو جلي واجب البشر تجاه الله والتزامات الفرد نحو الإنسانية. فالشهادة، وهي دليل الإيمان الذي يجب على الفرد أن يردده قبل أن يعدّ مسلماً، كانت دوماً تمثل للمسلمين إحدى مسلمات الإيمان؛ إنها التزام اجتماعي سياسي أيضاً، ولهذا يجب أن يشهد النطق بها اثنان على الأقل من أعضاء المجتمع الإسلامي. إن الشهادة تمثل أيضاً اعتراف المرء بالإسلام وحمله للأمانة المقدسة لكي يكون خليفة الله على الأرض.

والزكاة، التي غالباً ما تفسّر على أنها ضريبة ضئيلة من نسبة مئوية محددة على ثروة المسلم، يجب أن تعطى سنوياً لأولئك الذين يستحقونها: أولئك الذين لهم أنواع شتى من الحاجات؛ والاهتمام الإنساني الكامن فيما وراء هذا الدستور واضح تماماً. وشهر الصوم رمضان، الذي يمتنع المسلمون فيه عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر وحتى مغيب الشمس، يخلق مشاعر قوية من التضامن بين المؤمنين. ولكن

لرمضان هدف آخر وهو أن يخلق عند كلّ مسلم شعوراً بالتعاطف مع الفقراء والجائعين في العالم، ويكون حافزاً لكي يترجم ذلك التعاطف عملياً. ولكي أوضح هذه النقطة يكفي أن أقدم المثالين التاليين.

خلال رمضان الفائت هذا، وبينما كنت خارجاً أتمشّى قبل غروب الشمس مباشرة سمعت صوت صرخة من سيارة عابرة تقول: هيه، جف! كيف حال الصوم معك؟ لقد كان مسلماً أميركياً آخر وأقول الحق: لم يكن الصوم على ما يرام ذلك اليوم فقد كان يوماً حاراً جداً، وكنت أشعر بالعطش الشديد. أجبته صارخاً: أشعر وكأنني معلّق من هنا. وتابع سيره وهو يمد يده من نافذة السيارة مشيراً بإبهامه نحو الأعلى، وقد قبض يده أي لا بأس عليك فأنا مثلك، وهذا ما أعطاني شحنة عاطفية كبيرة جعلتني أشعر بالقرب ليس فقط من هذا الرجل وحسب، بل من المسلمين جميعاً، لأن ذلك يذكّرني بأن مئات الملايين من المسلمين حول العالم يشعرون مثلما أشعر أيضاً في مثل ذلك اليوم الحار.

وفي أحد الأيام وخلال شهر رمضان نمت أكثر مما ينبغي بقليل، ومن ثم فقد فاتني تناول السحور في ذلك اليوم. وكان عليّ بالنتيجة أن أمضي الأربع والعشرين ساعة القادمة دون طعام أو شراب. إن هذه ليست كبرى المصائب إلا أن ذلك ليس بالأمر السهل وخاصة في يوم عمل طويل كذاك. بدأت أشعر بالعطش والإعياء، ومع مرور الوقت ذلك اليوم وحوالي الساعة الخامسة، بدأت أشعر بآلام في معدتي وصداع في رأسي. وعند الساعة الثامنة، وقبل أكثر من ساعة بقليل لمغيب الشمس، شعرت بالغثيان وكاد رأسي ينفجر. شعرت بحرقة في عيني، وكأنما أحد ربط عليهما في تجويفهما. استلقيت وحاولت أن أنام ما بقي من الوقت حتى المغرب، ولكنني كنت متضايقاً جداً، فقد كنت أشعر بالألم الشديد عندما كنت أفتح عيني ومع ذلك لم

أستطع النوم. وخلال نصف الساعة المتبقية حتى الإفطار كنت أعدُّ كل دقيقة. وأخيراً دقت الساعة التاسعة والربع وبدأ وقت الإفطار ومع ذلك لم استطع تناول الطعام، فقد شعرت بالوهن الشديد.

أحضرت لي زوجتي كوباً صغيراً من الثريد الخفيف، وبدأت أرتشف منه قليلاً رويداً رويداً. وسرعان ما بدأ الصداع يتبدّد، وعادت معدتي إلى طبيعتها، وبدأ يتحلل الألم من عيني ببطء. وبعد بضع دقائق شعرت بصحة طبيعية تماماً. كنا نشاهد الأخبار بينما كنّا نأكل وكان هناك تقرير حول المجاعة في أثيوبيا والصومال. إن صور الضحايا البشرية الهزيلة والتي كانت على وشك الموت ذكرتني بالأفلام التي نراها عن المذابح البشرية. فكّرت في نفسي كم كان الأمر بسيطاً بالنسبة لي كيْ أضع حداً لآلامي، في حين أنه يتوجّب على رجال ونساء في مثل سني أن يعيشوا آلاماً دائمة لا حدود لعظمتها دونما حل يلوح بالأفق؛ وأن عليهم أن يتحمَّلوا ذلك وهم عاجزون عن القيام بأي شيء، في حين تستلقي أطفالهم العارية ببطونها المنتفخة المتقرّحة على الأرض وهي تدفع التراب بأرجل ضعيفة. ربما كان عليَّ أن أشعر بأنني منَعَّم، ولكنني وجدت في آلامهم المريعة أنني أخفقت في الامتحان.

والحج، وهو الرحلة إلى مكة، قد غيَّر حياة العديد من المسلمين. وقد يكون أكثر أيام الحج إثارة عندما تحتشد الأعداد الهائلة من الحجاج على سفح عرفات. فهناك يجتمع هؤلاء وقد ارتدى الجميع ثياب الحج النمطية، وهم يتكلمون مئات اللغات في جو غالباً ما يكون حاراً جداً، وقد بذلوا أنفسهم في سبيل إيمانهم وفي سبيل الإنسانية. إن الحج رمز ليوم القيامة وعندها سوف تجتمع كل المخلوقات من كل زمان ومكان فوق سهل لا نهاية له، ليواجه كلٌّ منهم ما قدّمه في حياته الدنيوية. وبالنسبة لـ مالكوم (Malcom X) فإن الحج يمثل نقطة انعطاف كبيرة جداً يعبِّر عنها بالكلمات التالية:

وأما في الأسبوع الأخير فقد كنت عديم الكلام البتة، وأصبت بالذهول من الكياسة التي كانت تحيط بي من كافة الجهات والتي أبداها الناس لي رغم اختلاف ألوانهم. . . ربما تصدمك هذه الكلمات الصادرة عني. ولكن ما رأيت وما خبرت في هذا الحج قد أرغمني أن أعيد ترتيب الكثير من نماذج أفكاري السابقة وأن ألقي جانباً بعضاً من استنتاجاتي السابقة. . . ولعل الأمريكيين البيض يقبلون بوحدانية الله، عندها، أيضاً، يكون بمقدورهم أن يقبلوا بوحدانية الإنسان وأن يتوقفوا عن قياس ومضايقة وإيذاء الاخرين حسب اختلاف ألوانهم. . . فكل ساعة في الأرض المقدسة (الجزيرة العربية) تعطيني القدرة على امتلاك بصائر لما يحدث في أمريكا بين السود والبيض[٥].

والركن المتبقي الذي لم أذكره بعد هو الصلاة. وفي حين يحثنا الإسلام على إقامة الصلاة الفردية إلا أن صلاة الجماعة لها الأفضلية. ومن الطبيعي أن صلاة الجماعة، كما روي من أن المسيح ذكرها في الكتاب المقدس، يمكن أن يؤديها المرء رياءً بالقدر نفسه الذي يمكن أن يؤديها تعبيراً عن التقوى الحقيقية[٦]. وعلى الرغم من أن القرآن يحذرنا من مثل هذا النفاق (كما في سورة النساء: ٤/١٤٢ وسورة الماعون: ١٠٧/١-٧)، فإن النبي أخبر أتباعه أن صلاة الجماعة تفوق بثوابها صلاة الفرد بأكثر من عشرين مرّة، وهذه المقولة تؤكد ثانية على أهمية المجتمع (أو الأمة)[٧].

ويرتب المصلون في الجماعة أنفسهم بشكل محكم، مسوّين صفوفهم بحيث يتلامس المنكب والمنكب والقدم مع القدم في بداية الصلاة والتي تتألف من عدد من الركعات،

---

(٥) كاريس وادي، *العقل المسلم*، ص١١٣-١١٦.

Charris Waddy, *The Muslim Mind* (London: Longman, n. d.).pp. 113-16.

(٦) ماي ومتيزجر، *قاموس التوراة*، انظر الخطبة على الجبل في إنجيل متّى ٥:٦-٨.

(٧) صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة، حديث ابن عمر وأبي سعيد الخدري أخرجه البخاري في الجماعة والإمامة، باب: فضل صلاة الجماعة، رقم (٦١٩) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاة الجماعة، رقم (٦٥٠).

وهذه تمثل الوقوف والركوع والجلوس والسجود. ففي الركعتين الأوليين من صلوات الفجر والمغرب والعشاء يجهر الإمام بقراءة القرآن في حين تتم القراءة سّراً في بقية ركعات هذه الصلوات (للفجر ركعتان، وللمغرب ثلاث وللعشاء أربع) وكذلك في ركعات صلاتي الظهر والعصر (ولكل منهما أربع ركعات). وعلى نحو نموذجي فإن حركات المصلين قد لا تتزامن في الركعة الأولى من الصلاة، ولكن مع كل ركعة إضافية يصبح الجميع أكثر انتظاماً وتناسقاً، بحيث يبدو كل مصلٍ وكأنه يتوقع بشكل لا شعوري حركة المصلين الآخرين، وهكذا تسير صلوات الجميع وكأنها صلاة واحدة. إن هذه الخبرة قريبة من خبرة التنويم المغناطيسي. وتنتهي الصلاة بالتسليم على أولئك الملائكة على اليمين، ومن ثم على أولئك الذين هم على الشمال. وهكذا فإن الصلاة الإسلامية هي ملتقى رائع وظريف من التلاوة، والنصح، والحركة، والإيقاع، والشعيرة التي تدفع المؤمن، خارجياً، كي ينضم إلى المجتمع؛ وداخلياً إلى التخاطب الخاص مع الله، ثم خارجياً إلى تحية المصلين والسلام عليهم في نهاية الصلاة. وفي الحقيقة أن إيقاع الخطاب الصوفي وتكافل المجتمع (الأمة) يتحقق خلال الصلاة في حركة الجماعة المتزامنة.

ولقد عبّر أحد الطلبة المسلمين ممن عرفتهم في سان فرانسيسكو عن انزعاجه من هذا الأمر بقوله: "لماذا علينا أن نصلي ونحن متقاربون جداً بحيث يكاد يلتصق بعضنا بالآخر. فها هنا أحاول وبشكل مستمر أن أركّز كل اهتمامي مع الله في حين أنني أكون في الوقت نفسه شاعراً بأن جسداً واحداً آخر يحفّ بي عن اليمين وعن الشمال! فقلت له: لقد توصلت إلى ملاحظة هامة تكشف عن أحد الأوامر والوصايا الجوهرية في الإسلام، وهي أنك حتى في أشد حالات خشوعك في الصلاة فإنه عليك ألا تنسى أخاك أو أختك عن يمينك وعن شمالك. بمعنى آخر، إن سعادتك الشخصية والروحية وخلاصك هي أمور وثيقة الصلة باستجابتك إلى إخوتك في الإنسانية.

ولقد طبع في الغرب عدد كبير من الكتب التي تتحدث عن الانبعاث الإسلامي في الوقت الحاضر في محاولة منها لشرح الدوافع الكامنة وراء ذلك. وفي هذه الحالة غالباً ما يأتي مؤلفو هذه الكتب على ذكر تأثيرات الحداثة، والاستعمار، والاستعمار الحديث، وهزيمة الإمبراطورية العثمانية وتقسيمها، وإحباط المسلمين والوضع الراهن في العالم الثالث، ولا شك أن هذه العوامل كان لها دورها. ولكن الذي يعطي هذه الصحوة الإسلامية وقودها الأكبر هم الشباب الذين لا تمثل لهم الخبرات التاريخية سالفة الذكر سوى جزء من الماضي البعيد في أوطانهم. ولكي نفهم الدعوات الحالية للوحدة الإسلامية الشاملة وتأسيس الدولة الإسلامية فإن علينا أن نفهم أن معظم هذه التطلعات تولد وتتربى حالياً في المراكز الإسلامية والمساجد التي يديرها الطلاب في الولايات المتحدة وأوروبا.

وإذا ما أصغينا إلى خطبة الجمعة في المساجد فإننا نجد أن جوهر هذه الطموحات هو النظرة القرآنية في الوحدة الإنسانية تحت وحدة الله. في المجتمعات الإسلامية هذه يتوجب على المؤمنين من ثقافات متعددة شتى أن يتعاونوا في بناء نظام حياة إسلامية في الغرب. وغالباً ما تكون الخلافات عالية تبعاً للخلافات التي تنشأ حول السبل التي يجب أن تنجز بها هذه المسائل، وتبعاً للأحقاد القديمة التي تطفو على السطح من حين لآخر. ولكن المجتمعات تتلاحم مع بعضها بعضاً ذلك أن رؤية الأخوّة الإسلامية هي أكثر قوّة من العقبات العرقية والثقافية. ومن خلال كل ذلك أدرك المسلمون بطريقة ما أن الرؤية الإسلامية قد تصبح واقعاً، وأن الفرص لتحقيق ذلك قد تكون أعظم الآن مما كانت عليه قبل قرون، يقول تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا اغْفِرْ لَنا وَلإِخْوانِنا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ٥٩/١٠].

مسائل

تردد صدى صوتها الفتي من على مكبر الصوت في المدّرج الضخم قائلة: إن العديد من النساء المسلمات يشعرن بأن الفصل بين الجنسين في مؤتمرات كهذه تسبب أذىً أكثر من أنها تؤدي نفعاً. إن الأخوات قد حشرن في مؤخرة الشرفة وكأنهن وقعن في شرك، على بعد ألفي قدم من المنصّة في حين كان الرجال يشغلون البهو الرئيسي. وبسبب ذلك فإننا لا نملك فرصاً متساوية مع الرجال في حرية الوصول إلى المتكلم ويتوجب علينا أن نناضل كي نجعل أسئلتنا مسموعة ونحصل على جواب. هذا هو الوضع بغض النظر عمّا إذا كان المحاضر ذكراً أم أنثى. إن ذلك يتركنا نشعر بالدونية وأن وضعنا ثانوي، والسؤال المطروح هو: ألا تشعرون، في عصرنا الحالي، بأن أضرار الفصل تفوق منافعه، وهل يوجد في الإسلام متسع كاف كي يسمح، بلقاءات كهذه، للنساء والرجال أن يجلسوا جميعاً في البهو نفسه (القاعة) ويكونوا موضع ثقة من أنهم سوف يتصرفون بكل حشمة ووقار؟

توتر الجمهور في جلسة الشباب بشكل كبير لدرجة كنت تسمع فيها تنفُس رئيس الجلسة من خلال لاقط الصوت. نظر الشبان الأميريكيون الثلاثة المتحدّثون والذين كان يجلسُ بعضهم وراء بعض خلف المنضدة على المنصة، ليروا من سيردُّ على السؤال. هز الاثنان الجالسان على الطرف رأسيهما وتركا الإجابة لرئيس الجلسة. تنحنح رئيس الجلسة وبدأ يتكلم ببطء وحذر قائلاً: إن هذا سؤال. . . يجب أن. . . يحسمه أحد العلماء في مسجدكم المحلي. أذكر أننا حاولنا مرة أن ندير جلسة مثل هذه في أحد المؤتمرات وبسبب تصرُّف نفر قليل من الرجال غضبت بعض الأخوات غضباً شديداً. هل هناك أي أسئلة أخرى؟

سألت صاحبة الصوت الفتي ثانية دون أن نرى وجهها: كنت أعتقد أن الهدف من

مؤتمر الشبان هو أن يفتح الأبواب أمام الأسئلة والإجابات. كيف السبيل لنا أن نجد حلولاً لمشكلاتنا إذا كنا لاناقشها، لماذا يكون سؤالي موجَّهاً لمجتمعاتنا المحلية في حين أنه يتعلق بممارسات تجمعات على مستوى الأمة؟ إن ماأحاول أن. . .

آسف أيتها الأخت فليس لدينا مزيد من الوقت، وعندنا سؤال من البهو!"

إن جلسات الشبان في المؤتمرات الإسلامية المتعددة التي تعقد خلال العام هي إلى حد بعيد من بين البرامج الأكثر متعة وإثارة في هذه المؤتمرات. فهؤلاء يطرحون بشجاعة وحزم أسئلة هي غاية في الأهمية تخص مستقبل الإسلام في الغرب أكثر في الغالب من الأسئلة التي تطرحها الشابات. وربما يعود السبب لأن مستقبل المجتمع الإسلامي يعتمد بشكل كبير على نقطة الالتقاء بين هاتين القوتين وهما النساء والأطفال.

وفي حين أن واجب الرجال المسلمين بشكل رئيسي كان حماية النظام والحفاظ عليه، فإن شكل المجتمع الإسلامي المستقبلي يعتمد في النهاية على الأم المسلمة وعلى الولد المسلم. وكنت دوماً أعود من جلسات الشباب مفعماً بالأمل، وذلك لأنهم يثبتون أن العديد من شبابنا اليوم لايخشون الوقوف بحزم وطرح مواضيع نحن بحاجة لها كي تطرح. ولكنني أدرك أن هذا الأمل قد لايكون له مسوّغ؛ ذلك أن الجرأة هي إحدى خصال الشباب التي قد تؤدي في سن الرشد، وكما يُظهر هذا المثل، إلى أن يحمي المرء موقعه عن طريق تحاشيه لمواضيع حساسة وبالتالي تعليق الوضع الراهن.

إن الهدف من هذا الفصل هو مواجهة بعض المشكلات التي يواجهها المسلمون الأميركيون. إن اختيار المواضيع مبني على اتصالات قمت بها مع بعض من أبناء بلدي المؤمنين سواء أكان عن طريق المراسلة أم المحادثة. لقد حاولت أن أتمسَّك بمواضيعي التي تبرز مراراً وتكراراً على الرغم من أن الترتيب الذي تبرز فيه هو إلى حد ما عشوائي. ولقد عذّبني أمران اثنان:

الأمر الأول: كنت أتساءل إن كان عليَّ أن أناقش بعضاً من هذه المشكلات على الإطلاق؛ لأن النتائج التي سأتوصل إليها من شأنها أن تسبب ازعاجاً لعدد كبير من القرّاء المسلمين. وهذا يقود بالطبيعة إلى الأمر الثاني: هل يجب علي أن أقدِّم أيّ نتائج؟ أليس من الأفضل لي ببساطة أن أصنِّف الجوانب المختلفة لمسألة خلافية معيَّنة وأحذف أي آراء شخصية؟

إن قراري مشمول في تفكيري الطويل حول المؤتمرات الشبابية، إذ أننا لانستطيع أن نتحاشى دوماً مناقشة مسائل ذات اهتمام معاصر، ذلك أن هذا التحاشي عينه قد يدفع بالمجتمع الإسلامي كي يتبَنّى أكثر الحلول صلاحية لمشكلاته على الرغم من أن هذه المشكلات قد لاتكون وليدة ظروف إسلامية. وعندها نستطيع أن نتوقع اتجاهين متباعدين بين علمائنا ومفكرينا: التفسير الحر الذين يعقلن الممارسات الثقافية الغربية الراسخة على أسس دينية، وتشكيل الحلول الإسلامية (المثالية) التي هي بعيدة جداً عن الوقائع اليومية لجماهير المسلمين. وعلى كل، فإن كلا الأمرين من المحتم أن يقع إلى درجة معينة كما كان يحدث مراراً في الماضي وذلك

أولاً: لأن الدين له مرونة محددة بحيث يمكن لثقافات مختلفة أن تتبنَاه

وثانياً: يجب أن يكون هناك نموذج في عقولنا يطمح إليه أفراد المجتمع. ولكن تكمن هناك خطورة إذا ما غالينا بأحد الاتجاهين كثيراً، ويجب على كافة المسلمين أن يحرصوا على عدم حصول مثل هذه المغالاة؛ ولهذا السبب يتوجب علينا أن نناقش مواضيع حساسة بشكل علني الآن، وخاصة خلال هذه المرحلة التي تتشكل فيها الجذور الإسلامية في الغرب.

وعلى نحو مشابه أشعر أنه يتوجب علينا نحن المسلمين أن تكون لدينا الإرادة كي نأخذ مواقعنا وندافع عنها. لا أحد يريد أن يكون موضع شك أو انتقاد، ولكن هذه

هي الطريقة الأكثر تأثيراً وإخلاصاً كي نواجه مواضعنـا. صحيح أن القليل منا فقط يملكون السلطة لإصدار حكم حاسم، وكلما كنا مدركين لهذا الأمر فإن وضعنا سوف يكون أفضل؛ لأنه بهذه الطريقة سوف نكون مجبرين على أن نحل مشكلات مجتمعنا بشكل جماعي، وذلك بتطبيق مبادىء الإسلام في الشورى (التشاور المتبادل) والإجماع. مع العلم أنني أذكر القارىء بأني لست باحثاً في الإسلام وإني لآمل أن يكون هناك من ينتقد آرائي بحرية.

الأسرة

«خيركم خيركم لعياله وأنا خيركم لعيالي»[٨].

«أكمل المؤمنين إيماناً أفاضلهم أخلاقاً وخيركم خيركم لعياله»[٩].

لن ندعك تجوعين يا أمي أعلم أن كانساس Kansas ليست فردوساً، ولكنك تستطيعين القدوم والعيش معنا دوماً. وجدت نفسي محرجاً وأنا أحاول أن أواسي أمي وأنا أكلمها على الهاتف، فهي التي كانت تواسي الآخرين. فقد مرّت هي وزوجها وأولادها الخمسة بظروف قاسية، تحملت أعباء مخاوفنا وإخفاقاتنا برحمة لا تلين وتضحية بالنفس عظيمة دوماً ومراراً. ربما في أي وقت وغالباً مراراً، ولكن بين عشية وضحاها بدا أن هذه المرأة التي كانت فتية ومفعمة بالنشاط يوماً ما قد أدركتها سنوها الخمس والستون وتغلبت عليها. لقد كانت هذه أوّل مرّة أشعر بالأسى في صوتها.

---

(٨) خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي، من حديث عائشة أخرجه الترمذي في المناقب، باب: في فضل أزواج النبي ﷺ، رقم (٣٨٩٢) وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

(٩) إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً، حديث ابن عمرو أخرجه البخاري في المناقب، باب: صفة النبي ﷺ، رقم (٣٣٦٦) ومسلم في الفضائل، باب: كثرة حيائه ﷺ، رقم (٢٣٢١).

قلت لها: إننا نحبك يا أماه وعليك أن تثقي بذلك. " لقد كانت فترات صمتها تقتلني، ـ وددت لو أنها تقول شيئاً ما.

قلت لها: نحن أولادك! وإن من واجبنا أن نهتم بك الآن، بل الأكثر من ذلك، إنها نعمة من الله أن نجد الفرصة كي نساعد الناس الذين نحبهم كثيراً.

أصبح بمقدوري أن أسمعها الآن، ولكن على نحو خافت، فقد كانت تبكي بكاءً صامتاً وهي تعذّب نفسها في محاولتها لإخفاء ذلك البكاء الذي تنهمر فيه الدموع فوق شفاه مطبقة بإحكام والذي كنت أسمع التنهدات المضنية النابعة من القلب تنساب منه

قالت: عليّ أن أذهب الآن يا بني.

قلت: إني أحبك يا أمي.

قالت: أعلم أنك تحبني.

تستحوذ على أمي فكرة عدم جعل نفسها تصبح عالة على أولادها الخمسة لدرجة كبيرة، بحيث لا تسمح لنفسها أن تبكي أمامهم. فهي تهلع لفكرة جعل نفسها عالة عليهم يوماً ما، فهي تقول دوماً: لديكم أسركم الآن. ولكني كنت أجيبها ولكنك أسرتنا أيضاً، أولا يعني تربية خمسة أطفال الشيء الكثير؟ واعتقد أن الأمر بالنسبة لأمي هو أكثر من مجرد اعتمادها علينا مادياً، وعلى الرغم من أن الحاجة الماديّة هي وحدها حالة مروِّعة؛ لأنه ليس من الواضح بعد أن كان يمكن الاعتماد علينا إذا ما احتاج أهلونا ذلك. إن الأمر يتعلق باعترافها إن كانت دخلت طبقة (العجزة) تلك الكلمة المروعة التي تدل على الضعف، وعدم النفع، والاتكالية، والعزلة؛ وعلى من صار على وشك الموت؛ وعلى من أخذ يتحرك ويفكر ببطء شديد.

إن أمي أدرى بنفسها من الجميع، فقد عملت ممرضةً في إحدى الوحدات الصحية،

وهو بيت (العجزة) أو بيت (المعمّرين) أو بيت (المواطنين الأكبر سنّاً) (لا نستطيع أن نجد كلمة لهؤلاء الناس لها وقع إيجابي). وهذه الدار هي لخدمة الزبائن الأثرياء، وهي إحدى أفضل بيوتات التقاعد في المنطقة، على الرغم من أنه في الوقت الذي يأخذ سكانه طريقهم إلى جناح المشفى لقضاء آخر أيامهم لا يمكن عمل شيء لجعله مكاناً ممتعاً. وللعلم، فإن الممرضات يعملن ما في وسعهن، ولكنهن لا يستطعن استئصال الشعور الحاضر دوماً بالموت، والذي يقترب منهم، وفوق ذلك كله فإنهن لا يستطعن أن يصبحن العائلة التي لا تزور مرضاها أبداً.

لقد اعتادت أمي أن تذكّرنا مراراً وتكراراً بالوحدة المريعة التي كان يشعر بها مرضاها عندما كانوا يواجهون الموت بأنفسهم؛ وكم كانت تصلي كي تموت كما مات أبوها: ذا عزيمة ويعمل ويكفي نفسه. ولكن صحتها قد أخذت منحىً سيئاً ويشك أطباؤها في قدرتها على العودة إلى عملها.

وكان أبي قد أرغم أيضاً على التقاعد وهو وأمي يعتمدان الآن على معاش الضمان الاجتماعي (الذي يذهب ثلثه لدفع ضرائب الملكية) وعلى المساعدات غير الثابتة من أولادهم. اقترح أبي بيع البيت الذي عاشوا فيه أكثر من أربعين سنة، ولكن أمي رفضت قبول ذلك الكابوس. فسنواتهما الذهبية أصبحت الآن نضالاً يوميّاً في سبيل العيش وهم يدركون تماماً أنّه إذا ما احتاج أحدهما لرعاية طبية مطوّلة فإن مخزونهما من المال قد يتلاشى في الحال.

هناك ثقافات أفقر من ثقافاتنا بكثير، ولكنها تعامل مسنّيها بوقار واحترام أكثر مما نعامل به نحن شيوخنا. ومن الطبيعي أن نأخذ العوامل الاجتماعية الاقتصادية بعين الاعتبار. ففي الثقافات التقليدية تقوي الأسرة الممتدة العلاقات المتبادلة ومشاعر المسؤولية بين أعضائها. وأما في الأسرة النووية، التي ابتدأت في الغرب والتي أصبحت

حقيقة واقعة عالمياً، فقد حدثت نتيجة تحولات اجتماعية قاهرة وقد لعب التصنيع، على سبيل المثال، دوراً كبيراً فيها. ولكن التغييرات الطبيعية والضرورية في البنية الاجتماعية لم تكن المسؤولة وحدها عن المآزق التي يعيش بها شيوخنا ولا عن تشتت العائلة الغربية. إن علينا أن نذعن بشيء كبير من ذلك للأنانية القديمة الواضحة وللجشع.

إن بعض آباء معتنقي الإسلام الجدد من الأمريكيين غالباً ما يكون لديهم العديد من التحفظات حول الالتزامات الجديدة لأولادهم، ولكن من إحدى المزايا التي لها تأثيراتها الإيجابية هي أن الرابطة بينهم وبين أولادهم تنمو بشكل قوي وملحوظ بعد قبولهم للعقيدة الجديدة. وفي الحقيقة بعد أن أصبحت مسلماً كان إخوتي في الإيمان يذكّرونني دوماً بواجبي تجاه والديّ.

لقد كان هذا أكثر من مشاركة في المنظور الثقافي التقليدي، ذلك أن الإسلام، كما سبق و ذكرنا في العديد من الأماكن، يولي أهمية كبيرة لعلاقة الفرد مع أفراد أسرته. إن الأهمية الكبرى التي يوليها الإسلام لوحدة الأسرة (أو العائلة) بما في ذلك الأجداد والعمات والخالات والأعمام والأخوال وأولاد الأعمام والأخوال تساهم في صنع المجتمع الإسلامي، إن هذه الأهمية يمكن أن ندركها إذا أخذنا بالاعتبار المجلدات الضخمة حول الشريعة والمكرّسة للحديث عن علاقات تداخل الأسرة. في حين أن بعض الحكومات في البلدان الإسلامية كانت في الغالب مصممة خلال التاريخ أن تتجاهل الكثير من قوانين الشريعة التقليدية إلاّ أن قانون الأسرة الإسلامي كان عادة ما يوضع موضع التنفيذ[١٠].

---

(١٠) إسبوزيتو. *الإسلام: الطريق الصحيح*، ص ٨٨-٨٩ و١٤٩-١٥٢.

Esposito. *Islam: The Straight Path*, pp. 88-89, 149-52

ويقال عن اتجاه المجتمع الحديث: إنه شبابي، ذلك أن أزياء هذا المجتمع وطعامه وموسيقاه وفنه وإعلاناته وعناصر أخرى عديدة تطبخ من أجل الشباب. ويحاول هذا المجتمع أن يتماشى مع آخر اتجاهات الشباب، ويستمد منهم القدرة والمرونة والحيوية. ومن المؤكد أن هذا يعطي نتاجاً ضد الثقافات التي تعتمد على التقاليد، وعلى الأخص الثقافة الإسلامية، التي لا يمكن تصورها على أنها شبابية الاتجاه، على الأقل ليس بالطريقة التي وصفتها سابقاً. ولكن للتأكيد أقول: إن الغالبية العظمى من أتباع محمد السابقين كانوا من الشباب والشابات، ومعظمهم كان لا يتجاوز العشرين من العمر[١١] ونجد أن القرآن ينتقد بشدة أولئك الذين يتبعون على نحو أعمى التقاليد الثقافية الهدّامة (كما في الآية ١٧٠ من سورة البقرة، والآية ١٠٤ من سورة الأنعام، والآية ٢٨ من سورة الاعراف والآية ٥٣ من سورة الأنبياء والآيتين ٢١، ٣١ من سورة الجاثية)، ولكن كان لا بد من حكمة وخبرة محمد والصحابة الأكبر سناً أمثال أبي بكر وعمر وعثمان من أجل نجاح الحركة الإسلامية.

وفوق ذلك فإن القرآن يزوّدنا بمخزون كبير من الحكمة والتراث الصحيح وذلك عن طريق تقفّي آثار جوهر رسالته عبر التاريخ ومن خلال الأنبياء جميعاً. لقد وضع الإسلام حداً للعديد من الممارسات الثقافية الفاسدة مثل الوأد، والربا، والخمر؛ وعدّل من بعض الممارسات الأخرى مثل (الحج، وتعدد الزوجات، والطلاق وأحكام الميراث) وأقر بعضها الآخر. ومن الممارسات التي أقرّها الإسلام واجب المرء تجاه من هم أكبر سنّاً منه، وهو الاحترام الشديد لهم وخاصة الوالدين. وكما في اليهودية والمسيحية فإن تبجيل الوالدين هو مطلب إسلامي؛ وإن إظهار أقل درجة من التبرّم أو النفور حيالهم هو أمر محّرم في الدين:

---

(١١) واط، محمد في مكة، ص ٨٨-٩٩.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً. . .﴾ [النساء: ٣٦/٤].

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً ، وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: ٢٣/١٧-٢٤].

﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ، وَإِنْ جاهَداكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً﴾ [لقمان: ٣١/١٤-١٥].

وكما أشرت لاحقاً، فعند انضمامي للمجتمع الإسلامي دهشت تماماً من الأهمية التي أولاها المسلمون لعلاقتي مع والديَّ. وفيما يلي بعض من الأحاديث الكثيرة لمحمد فيما يختص بهذا الموضوع، عرضت لي مباشرة بعد إسلامي:

- يقول النبي: «رغم أنفه رغم أنفه» وعندما سئل النبي عن المقصود هنا أجاب: «من أدرك والديه عند الكبر: أحدهما أوكليهما ثم لم يدخل الجنة»[١٢].

ـ جاء رجل إلى محمد فاستأذنه في الجهاد فقال له النبي «أحيٌّ والداك» قال: نعم، قال «ففيهما فجاهد»[١٣] .

ـ عندما سئل النبي عن أفضل الأعمال إلى الله أجاب «الصلاة على وقتها » فقالوا ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». "قالوا ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله »[١٤] .

---

(١٢) وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر، حديث أبي ذر أخرجه البخاري في اللباس، باب: الثياب البيض، رقم (٥٤٨٩).

(١٣) حديث ابن عمرو أخرجه البخاري في الجهاد، باب: الجهاد بإذن الأبوين، رقم (٢٨٤٢) ومسلم في البر والصلة والآداب، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم (٢٥٤٩).

(١٤) حديث ابن مسعود أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب: فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٠٤) ومسلم في الإيمان، باب: بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

إنه من الصعب تقدير المقام الذي كانت تتمتع به الأم في جاهلية العـرب. فالمصـادر المتوفرة لا تعطينا فكرة واضحة، ولكن من المؤكد جداً أن الأم العربية كان لها نصيبها من احترام الوالدين. فالآية المشار اليها آنفاً [الآية ٢٠٠ من سورة البقرة] التي تخص الحج وحقيقة ممارسة عادة الوأد على الإنـاث أكثر من الذكـور تقودانـنا للاعتقـاد أن جزيرة العرب ما قبل الإسلام، مثلها مثل الحضارات الأخرى في ذلـك الزمـان، كـانت عموماً ترى أن الرجال أفضل من النساء وأن الأب كان يحترم أكثر مما تحـترم الأم. وإذا ما قارنّا بين هذا وبين الكتابات اليهودية والمسيحية والفارسية فإننا سنحصل على دعـم لهذا التصور[١٥] . فإذا كان هذا هو الحال مـع الأمـم الأخـرى فـإن الإسـلام لم يفـرض الاحترام والمسؤولية تجاه الوالدين وحسب، بل أضـاف بعـداً هامـاً وهـو أن خـصّ الأم بحصّة أكبر من الاحترام والمسؤولية:

﴿وَوَصَّيْنا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾ [الأحقاف: ١٥/٤٦].

﴿وَوَصَّيْنا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِـي عـامَيْنِ أَنِ اشْـكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤/٣١].

ـ جاء رجل إلى النبي فقال: «من أحق الناس بحسن صحابتي؟ » فقال: «أمك» قـال ثم من؟ قال أُمُكَ. قال: ثم من؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: «أبوك»[١٦].

إن أي مجتمع متديّن حقاً يعتمد بشكل كبير على التقاليد، وإن المسؤولية تقـع على

---

(١٥) بدوي، وضع المرأة في الإسلام؛ أفضال الرحمن، دور المـرأة المسلمة في المجتمع؛ نبيَّه آبـوت، عائشـة: أحـب النسـاء إلى محمد.

(١٦) حديث أبي هريرة أخرجه البخاري في الأدب، باب: من أحق الناس بحسن الصحبة ، رقم (٥٦٢٦) ومسلم في البر والصلة والآداب، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم (٢٥٤٨).

الآباء في أن يورّثوا هذه التقاليد والتعاليم إلى الأجيال اللاحقة. ففي نظام كهذا يكون الاهتمام بالآباء والمسنّين ضرورة طبيعية كما هو الحال في الإسلام. إننا لا نتوقّع وجود نظام كالإسلام له المرونة نفسها التي في الثقافة الغربية والتي يميل بعض المسلمين إلى اعتبارها حالة من عدم الاستقرار الاجتماعي وإنها ليست بالشيء الايجابي. إن المجتمع الإسلامي يبحث عن الاستمرار والتآلف مع ماضيه ومع ما هو دائم وثابت. إن صلة الوصل ما بين ماضيه ومستقبله هي الآباء وأولادهم، وهكذا فإن مسؤوليتهم جسيمة، إذ يتوجب عليهم أن يضمنوا تكريم وتقدير شيوخهم، وأن يلقنوا شبابهم مبادئ هداية ثابتة. إن جهوداً كهذه تتطلب منهم انصرافاً غير كامل في حياة كلا الطرفين، وليس هناك مكان كبير للـ (أنا أولاً).

بعد أن ناقشت علاقة المؤمن بأبويه أريد أن أقول شيئاً ما عن واجب هذا المؤمن تجاه أولاده:

هناك بعض الآراء في القرآن تتعلق على وجه الحصر بسلوك الآباء حيال أولادهم، وفي الواقع فإن هذه الواجبات مضمَّنة في جملة المواعظ التي تحث المسلم أن يستجيب إلى حاجات الأقارب بشكل عام. والقول بأن سعادة الأطفال هو من واجب المجتمع أمر لا يخطئه تحذير القرآن المستمر إلى كافة المؤمنين بألاّ يتجاهلوا حاجات الأطفال واليتامى. بل إن القرآن يغرس في القارئ من خلال الأمثلة بشكل رئيسي، مشاعر وطيدة ملحة حول مستقبل أولاده.

فعندما تطلب شخصيات مقدسة بارزة كأم مريم (في الآية: ٣٥ من سورة آل عمران)، أو زكريا (في الآية: ٣٨ من السورة نفسها)، أو إبراهيم (في الآيتين: ٣٥، ٤١ من سورة إبراهيم) من الله أن يهبها طفلاً أو عندما يسأل هؤلاء الله في أمر ذريتهم، فإن طلبهم الأوّل يكون ذرِّية صالحة تخشى الله. ويقدم القرآن أمثلة عدة عن

الوالدين الذين يحضّون أولادهم أن يكرسوا أنفسهم إلى الله وأن يشاطروهم دروساً أخلاقية (كما في الآيات: ١٣٢ من سورة البقرة، و٤٣ من سورة هود، و١٨، ٦٤، ٦٧، ٩٨ من سورة يوسف). ومن أرق الأمثلة على ذلك هو المحاورة بين لقمان وابنه:

﴿وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ، وَوَصَّيْنا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ، وَإِنْ جاهَداكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِها اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ، يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى ما أَصابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ، وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ٣١/١٣-١٩].

ونجد في القرآن أن الوالدين المؤمنين، على خلاف الآباء الكافرين كوالد إبراهيم، لا ينفرون من أولادهم أو يعاملونهم بقسوة. وبدلاً من ذلك نجدهم يتحملون أولادهم، ويعطفون عليهم، ويهتمون دوماً بمسألة تطور الإيمان عند أطفالهم. إن الطابع الديني لمحبة واهتمام الأبوين يثير في القرّاء المسلمين الشعور الملح نفسه من المسؤولية تجاه ذريتهم الذي نجد صداه في تحذير القرآن: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُها النّاسُ وَالْحِجارَةُ﴾ [التحريم: ٦٦/٦].

ولقد ذكرنا لتوّنا حقيقة كون محمد أعظم قدوة في الحنان العظيم تجاه الأولاد. قال له بدوي مرّة: إن قومه لم يتعودوا أن يقبّلوا أولادهم. فما كان من النبي إلاّ أن قال:

«أو أملك لك إن نزع الله من قلبك الرحمة»[١٧].

ومن خلال إشارات عدة في القرآن نحصل على رسالة مختلطة عن الكيفية التي ينظر بها المجتمع العربي الجاهلي للأبوة. فالقرآن يحتوي على نصوص تتحدث كثيراً عن العاطفة الأبوية تشير إلى أن هؤلاء، مثلهم مثل كل الناس في كل الأزمنة، اهتمُّوا كثيراً بأولادهم. وكذلك هناك العديد من الأماكن في القرآن تكشف عن أن حجم العائلة، بالنسبة لمعاصري محمد كان مقياساً لبسالة الإنسان ونجاحه (كما ترى في الآيات: ١٠ من سورة آل عمران، و٩ من سورة إبراهيم، و٤٦ من سورة الكهف، و٧٧ من سورة مريم و٨٨ من سورة الشعراء، و٣٥ من سورة سبأ) ويبدو أن هذا الفخر كان مبنياً فقط على عدد الصبيانَ دون الإشارة إلى البنات ذلك أن العديد من الآيات تشير إلى أن الذرية من الإناث كانت تعتبر بلاءً. والمرجعان التاليان يبرزان ذلك بشكل واضح، الأوّل يهزأ من الاعتقاد الكافر بأن الملائكة كانوا «بنات الله» على الرغم من أن الكافرين أنفسهم كانوا ينظرون إلى ولادة الأنثى على أنها أمر وضيع؛

والثاني يدين هذا الموقف ويدين أشد مظاهر الظلم وهو وأد البنات:

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ، وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف:٤٣/ ١٦-١٧].

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ١٦/٥٨-٥٩].

(١٧) حديث عائشة أخرجه البخاري في الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله...، رقم (٥٦٥٢) ومسلم في الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال...، رقم (٢٣١٧).

إن هذا الجور هو موضوع العديد من أحاديث النبي. على الرغم من أن العديد من الثقافات الإسلامية ما تزال تحتفل بولادة الذكر أكثر من الأنثى، إلا أن متتبعي الأخبار يشيرون إلى أن هذا التفضيل قد يكون في طريقه للاختفاء في هذا القرن من الصحوة الإسلامية، على الأقل بين المثقفين وقد أُثر عن النبي قوله:

- «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو، وضم أصابعه»[١٨].

- وكذلك قوله:«ما من تدرك له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه إلاّ أدخلتاه الجنة»[١٩].

وبهذا المنطلق يذكرني العديد من إخوتي في الإسلام وفي مناسبات لا تحصى كم أنا محظوظ لأني أب لثلاث بنات.

إن الأهمية القصوى التي يوليها الإسلام للعلاقات الأسرية هي نتيجة طبيعية للقاعدة القائلة بأن الإيمان يجب أن يعبَّر عنه بالعمل، وأنه ينضج ضمن المجتمع. ومادامت الأسرة تتطلب إبداء العاطفة والتضحية بالمال فإنها تصبح المكان الرئيس لتعلم وتعليم العدل والفضيلة. ولا عجب إذن أن دعا النبي الزواج على أنه: «نصف الإيمان»[٢٠]. وأن القرآن يأمر المؤمنين﴿وَأَنْكِحُوا الأَيامَى مِنْكُمْ﴾ [النور: ٣٢/٢٤].

---

(١٨) من حديث أنس أخرجه مسلم في البر والصلة، باب: فضل الإحسان إلى البنات، رقم (٢٦٣١) والترمذي في البر والصلة، باب: في النفقة على البنات رقم (١٩١٧).

(١٩) من كان له ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، أو بنتان، أو أختان، فأحسن صحبتهن، واتقى الله فيهن، فله الجنة. حديث أبي سعيد الخدري أخرجه أبو داود في الأدب، باب: في فضل من عال يتيماً، رقم (٥١٤٧) والترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في النفقة على البنات، رقم (١٩١٣).

(٢٠) من تزوج فقد استكمل نصف الإيمان فليتق الله في النصف الباقي، حديث أنس أخرجه الطبراني في الأوسط وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٢/٤) وقال: "رواه الطبراني في الأوسط باسنادين وفيهما يزيد الرقاشي وجابر الجعفي وكلاهما ضعيف وقد وثقا".

يجوز لنا القول: إن كل هذا يبدو على أنه حسن وجيد، بل ربما مثالي، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يتسنّى لذلك الفكر أن يقف في وجه قيم المجتمع المعاصر وبالأخص المجتمع الغربي؟ هل يمكن للشباب أن يسخّروا أنفسهم بشكل كامل لأجل حياة أولادهم وآبائهم؟ هل هذا أمر عملي لهم؟ وإلى أين سيقود هذا بالضبط؟ واليوم يحتاج العديد من الأزواج لخطي عمل منزليتين. ولا بد لي من الاستشهاد أخيراً بمن قال: إلى أيّ تغيرات أو تضحيات نحن متجهون، إن كان هناك تغييرات أو تضحيات فعلاً؟.

وجهات نظر

قال النبي: «ما تركت بعدي في الناس فتنة أضر على الرجال من النساء»[٢١] .

إن وجهة نظرنا لا تنبع من الفراغ؛ إنها تركيبة ومن نتاج بيئتنا، وخلفيتنا، وخبرتنا، وشخصيتنا. وتجد هذه انعكاساتها في أي محاولة إنسانية لاستنباط خطوط عريضة للمجتمع، ذلك أن النتائج التي يمكن تطبيقها هي دوماً محدودة الزمان والمكان. إن إحدى معجزات الوحي الإلهي هو أنه يبلّغ، من خلال مجتمع معين، رسالة تتعلّق بشعوب مختلفةجداً. إن واجبنا ليس محصوراً بتعلم الكيفية التي فهمت بها المجتمعات السابقة الرسالة المقدسة، ذلك أنه يتوجب علينا أن نبلّغها بشكل منظور بالكيفية التي نعيشها وبالطريقة التي نقضي بها حوائجنا. وإذا ما قصّرنا عن القيام بذلك، ولو بشكل بسيط، فإننا نكون بذلك قد تجاهلنا صفتها العالمية ونأينا بأنفسنا وبالأجيال اللاحقة عن مغزى الوحي الخالد.

(٢١) حديث أسامة بن زيد أخرجه البخاري في النكاح، باب: ما يتقى من شؤم المرأة، رقم (٤٨٠٨) ومسلم في الذكر والدعاء...، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء...، رقم (٢٧٤٠).

إني مدرك تماماً لحقيقة أن وجهة نظري (حول دور النساء والرجال في المجتمع المسلم، وحول جميع المواضيع الأخرى التي ناقشتها وأناقشها) متأثرة إلى حد كبير بظروفي الخاصة كما يتأثر أي إنسان بظروفه. ولهذا السبب بالضبط يجب ألاّ تتوقف عملية المراجعة والتفسير. وعملياً، فإن كل المجدّدين في الإسلام، سواء أكانوا سلفيين أم حداثيين، مقتنعون بأنه وخلال العصور قد غزت الفكر الإسلامي والممارسات الإسلامية الكثير من الإضافات الثقافية المرهقة وغير الضرورية؛ وأن علينا أن نعيد بناء الإسلام الصحيح. ويصر معظمهم على العودة إلى القرآن والحديث. ولكن هذه أيضاً تتطلب تفسيراً، ولا بد أن نختلف على الطريقة التي يجب أن نقرأهما. وهكذا، كيف ينبغي علينا أن نفصل بين التفسيرات الصحيحة من تلك الخاطئة أو الزائفة، وبين الشرعية واللاشرعية، وبين المحلّلة والمحرّمة؟

أما بالنسبة لهؤلاء الذين جاؤوا من مجتمعات إسلامية تقليدية فلهم دور هام جداً كي يلعبوه هنا، لأنهم وقفوا من الداخل على أثر التشويهات، ولأنهم عاشوا تجربة تبنّي الإسلام، مع أنها تجربة غير كاملة، على المستوى الاجتماعي. وهكذا فإن لديهم فهماً أفضل لنتائج تحقيق عناصر أخرى مدركة من الإسلام.

ولكن المجيء من داخل العالم الإسلامي له مساوئ معينة أيضاً، ذلك أن الذين نشؤوا في ذلك المجتمع هم، جزئياً، نتاج المجتمع الذي هم يحاولون تطهيره، وهذه حقيقة تجعل من الموضوعية أمراً صعباً. إن النقد الصادر عن الذين هم من خارج المجتمع الإسلامي قد يكون نقداً بناءً (أقصد هنا عمل الإسلاميين الغربيين هنا)، ولكن هؤلاء غالباً ما يُتحامل عليهم، وحتى ولو لم يعترض عليهم أحد، فإنه تعوزهم المواد الأكثر جوهرية لفهم الإسلام: مثل أيّ خبرة شخصية مع الإسلام، لأن الإسلام هو نظام حياة ويجب أن يعاش كي يفهم بحق. ومن هنا يدخل المعتنق الجديد للإسلام كما كان

يدخل غالباً خلال التاريخ الإسلامي، ذلك أن هذا المعتنق يخلط الالتزام بالشك وأحياناً يقف على حقائق، ومادام المعتنقون الجدد ليسوا نتاج الإيمان التقليدي، فإنه من المحتمل أن يجلبوا معهم أفكاراً راديكالية وغريبة لا بد أن يفحصها المجتمع كلية.

ولا يظهر هذا التوتر ما بين الأفكار السلفية والحداثية في أي مجال من حياة المسلمين كظهوره عند الحديث عن دور الرجل والمرأة في هذا المجتمع. ومعظم المفسرين الذين يناقشون الحديث النبوي: «ما تركت على الرجال فتنة أشد من النساء» يعتقدون أن هذا الحديث يشير إلى الإغراءات الحسية. ولكن هذا قد يكون فهماً ضيّقاً جداً. فالعديد من المفكرين المسلمين المعاصرين يشتكون من أن حقوق المرأة المسلمة قد أعاقتها قوى ثقافية ذات نفوذ. وإذا كان هذا هو الحال فربما هذا ما كان بذهن محمد أيضاً، ذلك أن موضوع وضع المرأة في الإسلام، ودون أدنى شك، يقف اليوم أكبر عائق ما بين الإسلام وقبوله في الغرب. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الكثير من المعتنقين الغربيين للإسلام سوف يعيشون بعزلة عن المجتمع الإسلامي حتى تحل هذه القضية بما يرضيهم.

فقبل اعتناقي للإسلام كنت أؤيِّد قليلاً بعض حملات حركة تحرير المرأة الوطنية ولكنني كنت في معظم الأحوال مشتتاً، مثلي مثل كثير من معاصريَّ، بين كافة أنواع الأفكار المتناقضة وغير المحددة حول أدوار الرجال والنساء في الحياة المعاصرة. كنت أعرف أن هناك خطأً ما بالطريقة التي كانت تسير عليها الأمور سابقاً، ولكن لم يكن هناك أيّ بدائل واضحة أو عملية. ثم إن الحركة النسوية أخذت بشكل تدريجي تحذو حذو الكثير من الحركات في الستينيات والسبعينيات: فقد ولّدت هذه الحركات في البدء الكثير من الإثارة وبعض النتائج الهامة، ولكن بعد ذلك سئمها الناس، وأخذت بالاضمحلال والتلاشي. لقد كانت هذه الحركات، في نظر العديدين، متطرفة جداً لأنها بدأت تطالب ليس فقط بمساواة بالحقوق، بل بالمساواة التامة.

لقد صمم العديد من النظريات لتشرح أنه ليس هناك فروق جوهرية مابين الجنسين على الرغم من أن الخبرات اليومية كانت توحي بشيء آخر. ربما أخفقت الحركة النسوية بإيصال رسالتها بشكل فعّال، أو ربما كان هناك نقص في الإجماع حول ماهية تلك الرسالة. لقد بُدت هذه الحركات وكأنها دعوة لنوع من مشاع الجنس، أو نوع من التجانس القسري بين الرجال والنساء، الأمر الذي حدا بالنساء كي يصبحن كالرجال وليس العكس. وعلى الرغم من أن الحركة النسوية قد أخفقت في إيجاد السبيل، إلاّ أنها تناقش عن قناعة أن المجتمع يظلم المرأة، وهذا أمر كنت مقتنعاً به عندما أصبحت مسلماً عام ١٩٨٢.

وفي ذلك التاريخ لم أكن لأعلم عن العلاقات بين الرجال والنساء المسلمين. وكل ما كنت أعرفه عن ذلك هو تعدد الزوجات والفصل بين الجنسين والحجاب، ولكن هذه المسائل لم تكن بالضرورة لتتضمّن الظلم. ففي حالة الفصل بين الرجال والنساء، على سبيل المثال، فإن كل جنس قد يفضّل أن يحدَّ من الاختلاط؛ وإذا حجبنا النساء عن وظائف الرجال فإن العكس صحيح تماماً. إضافة إلى ذلك فقد عرفت أن هذه الممارسات قد تكون مبنيّة أساساً على الثقافة أكثر من كونها مبنية على الدين. ومهما يكن فقد كنت أعتقد أن النساء المسلمات هن من بين النساء الأكثر خضوعاً لسيطرة الرجال في العالم. وهذه ببساطة فكرة مسلَّم بها في الفكر الغربي المعاصر. فقد كان هذا هو الفهم السائد في الماضي كما كانت تصوّره الروايات التي تجري أحداثها في الديار الإسلامية، ويقبل الغربيون هذا الفهم اليوم من خلال السينما والتلفاز.

هناك مشهد في فيلم سينمائي عرض مؤخراً تأخذ فيه الممثلة غولدي هون Goldie Hawn، وهي ترمز للمرأة الأميريكية المتحررة، مجموعة من نساء الشرق الأوسط، الجميلات (طبعاً!) ممن لهن عيون المها والمحجّبات، في رحلة لعاصمة الأمة، ويبلغ هذا

المشهد قمته في قراءة غولدي لهؤلاء النسوة، على صوت الموسيقا الملهمة دستور الولايات المتحدة.

إن هذا المشهد قد يرسم صورة مزيفة للمرأة الشرق أوسطية المسلمة، ولكنه يمثل وبدقة النظرة العامة لدى الأميركيين. والآن وعلى الرغم من أنك تدرك أن ما قدّم لك ليس من الحقيقة في شيء إلا أن لذلك تأثيره، وإذا لم تحصل على وجهات نظر بديلة فإنك قد تعتقد أنه لا بد وأن هناك بعض الحقيقة فيما قدّم لك. وعلى أيّ حال، فقد انضممت للمجتمع الإسلامي وليس لدي الكثير من التوقعات حول هذا الباعث.

لقد علمتني ثمانية أعوام من الاهتمام اليومي في المجتمع المسلم والسفر إلى الشرق الأوسط أن أسلم بمنظورات أخرى، ففي حين يرى المجتمع الأمريكي أن حجاب المرأة المسلمة هو رمز لسيطرة الرجال عليهن، فإن المسلمين من جهة أخرى يرون أن لباس المرأة في الولايات الأميريكية هو أمر استغلالي. وفي حين تفضّل العديد من النساء المسلمات أن يبقين ربّات بيوت فلابد وأنهنّ مظلومات / مادام العديد من النساء الأميريكيات يعملن طوال اليوم، فلابدّ وأنهن غير محميّات. وإذا كان لدي بعض الأسر الأميركية الكثير مما تريد قوله عن الزواج المبكر في العالم الإسلامي / فإن النساء الأميريكيات يعاملن أطفالهن دون اكتراث. وهكذا فما يفسّره طرف على أنه عبودية يراه الطرف الآخر على أنه حرّية. إن ذلك بعينه أمر لايستعصي على الفهم، ولكن ما العمل إذا كنت تنتمي لثقافتين مختلفتين؟

إلى المركز الإسلامي

بعد عدّة أسابيع من اعتناقي للإسلام قررت أن أذهب إلى المركز الإسلامي للمرة الأولى كي أحتفل بمعتقدي الجديد بين أناس اعتقدت أنهم سوف يفهمونني. لقد عانيت كثيراً كي أرتدي ثياباً مناسبة واستظهرت السورة الأولى من القرآن بينما كنت

أقود سيارتي عبر المدينة. وجدت بسرعة مكاناً في موقف سيارات المركز. كان الباب الرئيسي مفتوحاً ليؤدي إلى مؤخرة غرفة كبيرة للصلاة. وكانت الأرض مغطاة بما لايقل عن مئة سجادة شرقية، وكان دهان الجدران الأبيض ما يزال طرياً وكان يصل طول هذه الجدران البالغ حوالي الأربعين قدماً وتتصل بسقف تزيّنه قبة بيضاء واسعة وجميلة. وأمّا الجدار الأمامي ففيه المحراب الذي تزيّنه الخطوط العربية. وهذه هي الصورة التي كانت ترسم دوماً في ذهني عن المسجد.

لقد بدت الوجوه التي استدارت لتراني وكأنها اندهشت، وبدت عليها بوضوح علامات من عدم الارتياح؛ لذلك لم أرد أن أتقدم نحو الأمام كثيراً، بل جلست تفصلني عنهم مسافة حوالي عشرين قدماً معتقداً بأني أعطيهم الفرصة كي يبادرني أحدهم، و لم يقدم أحد منهم نفسه إليَّ ولا توجّه إليّ ولو بابتسامة أو بكلمة السلام عليكم. تساءلت في نفسي هل ارتكبت خطأً ما. ؟

وعندما وصلتْ بقية الجماعة التي كانت تتألف من الرجال فقط، كانت هنالك فئات أخرى من الحضور تقوم وتتعانق معهم ويجلسون ويهرجون ويمرحون. ومع ذلك لم يُلق عليّ أحد منهم أكثر من نظرة خاطفة. شعرت وكأنني مصاب بالجذام.

ثم نودي للصلاة فصلّينا، ولكنني صليت وحدي حيث كنت أجلس. وعندما انتهت الصلاة توجّهت نحو مقدمة البهو لكي أخرج من أحد المخارج الجانبية. حاولت أن أجعل عيني تلامس نظر بعض الإخوة كي يستجيب أحدهم بطريقة ما إليَّ، ولكنهم أداروا رؤوسهم عنّي.

لم أقدر على تصديق ذلك! اعتقدت أنه ربما كنت أحتاج لمزيد من الوقت لأكسر الحواجز؛ ولكن، في النهاية، كان واضحاً أنني كنت مختلفاً عن الآخرين وكنت غريباً.

عدت إلى المركز في مناسبتين تاليتين لكن في كل مرّة كانت الاستجابة هي نفسها، فقررت ألاّ أذهب لذلك المركز ثانية.

بالطبع لم تكن هذه خبرتي وحدي، فقد شاطرني هذه الخبرة امرأة مطلقة أميركية تناهز الخامسة والأربعين ولها طفلان يافعان مسيحيّان. ولقد سمعت قصصاً أخرى شائعة من نساء أميركيات في أكثر من مناسبة، ولكن في قصّة السيدة نكي Nicky كانت هناك بعض العناصر غير المألوفة.

إن معظم المعتنقين يدخلون الإسلام لسبب ما وهو أنهم غير سعداء بحياتهم، وعملية الاعتناق نفسها تعدّ قفزة عاطفية هائلة. لقد أخبرتني نكي أنها لم تكن سعيدة ألبتة. كان لديها عمل ممتاز ومنزل في سانتا بربارا Santa Barbara وكانت علاقتها بابنتها رائعة، وكانت تشعر بالسرور لأنها وحيدة، ولم تكن لتشعر بالحاجة لصحبة الرجال في هذه المرحلة من حياتها. وكانت قد كوّنت صداقة حميمة مع امرأة سعودية تعيش في المدينة نفسها لدرجة أنها دخلت في دين هذه المرأة الإسلام. لقد دخلت الإسلام وامتلأت حياتها بالسعادة والآمال الكبيرة. ولم تثبط محنتها في المركز الإسلامي من روحها ولامن سرورها لكونها مسلمة. فمنذ ذلك الحين قابلت بعض النساء الأميركيات المسلمات وبعض الصديقات الشرق أوسطيات ممن كن أقل محافظة من المرأة السعودية وشكلن جميعاً بمجتمعهن الإسلامي الصغير الخاص بهن: فكنَّ يجتمعن، ويصمن ويصلين معاً بانتظام.

وبالتأكيد فإن التجمع الذي واجهته نكي لم يكن يحاول أن يكون سيئاً. فقد كن، ببساطة، يتصرفن بالطريقة التي تعلمن كيف يتصرفن بها في أوضاع كهذه: فعندما تأتي معتنقة جديدة للإسلام إلى المسجد فإنه لا ينظر اليها أحد أو يقترب منها أحد. بمعنى آخر، من المناسب أن يتجاهلها المرء. فليس كل تجمّع في أمريكا الشمالية يمكن له أن

يتصرف بهذه الطريقة، ذلك أن الكثير يتوقف على مقدار اندماج أعضائه في الثقافة الأميركية. ولكن الغالب على الانطباع الذي استشفه من الأميركيات المسلمات، سواء كن معتنقات جديدات للإسلام أو غير ذلك، هو أنهن غير مرغوب بهن في المسجد.

إن هذا لهو الشعور الذي ينتاب ابنتي التي دخلت لتوّها الرابعة من عمرها، فجيراننا وهم من المسيحيين، لديهم طفلة تقارب طفلتي في سنّها وهذه الطفلة وجميلة ابنتي هما صديقتان حميمتان. تخبر هذه البنت ابنتي دوماً أن أسرتها تذهب للكنيسة معاً، وكيف أنهم يغنون في الكنيسة، وكيف تجلس مع أمها وأبيها هناك. لقد وصل بها الأمر كي تدعو ابنتي ببراءة خالصة كي تذهب معها لحضور إحدى قداسات يوم الأحد. وعندما ناقشت هذا الأمر مع جميلة سألتني: "لماذا لا يجوز للنساء أن يذهبن للمسجد يا أبتِ؟ أجبتها قائلاً: إنّه يمكن لهن الذهاب للمسجد ولكن كان من العسير عليّ أن أشرح لها لماذا لا يذهبن للمسجد فعلاً.

لست متأكداً كيف ومتى أصبح للمسجد جوّ لايكاد يسمح بدخول النساء إليه؛ ومن الواضح أن ذلك قد حصل في وقت متأخرّ وفي وضع ثقافي مختلف. هناك ثقافات أخرى قد تقدم مناهج أخرى لإغناء إيمان المرأة المسلمة. ولكن في هذه الثقافة، لأن تقدم للنساء بديلاً عن حضورهن الصلاة في المسجد، كاجتماع نسائي أسبوعي مثلاً، فهذا يعني أنك تعطيهن مقاماً من الدرجة الثانية. فإذا لم تُشجَّع النساء كي يأتين ويشتركن في لقاءاتنا الاجتماعية على قدم وساق مع الرجال، فإن الجو الموجود في مساجدنا هو عرضة للتبدل ببطء، وبذلك سيكون من المؤكد جداً أننا سوف نخسر أطفالنا. إنني لا أنادي بتغيير أشكال الشعائر بل إن ما أدعو إليه هو تشجيع اشتراك الأسرة في كل نشاطاتنا الاجتماعية والعمل على تسهيل ذلك والترحيب به.

النساء في القرآن

قال تعالى: ﴿فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنّي لا أُضيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْض﴾ [آل عمران: ١٩٥/٣].

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١/٩].

﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧/١٦].

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ وَالصّادِقِينَ وَالصّادِقاتِ وَالصّابِرِينَ وَالصّابِراتِ وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ وَالصّائِمِينَ وَالصّائِماتِ وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ وَالذّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥/٣٣].

إن نبرة الكتاب المقدس فيما يختص بالنساء قد صيغت من البداية على شكل قصة رمزية لأوّل رجل وأوّل امرأة في الوجود فحوّاء، الغاوية، هي الملومة أكثر من آدم؛ وبالتالي فإن عليها أن تتحمّل اللعنة، وهذه اللعنة تتمثل في عملية الحمل والولادة، فهي التي استسلمت أوّلاً لإغواء الشيطان، ثم ساعدته لإغواء آدم. وكون آدم عاجزاً عن الوقوف في وجه مثل هذا التحالف حوّاء والشيطان فقد تعلّم الدرس المرّ، وهو أن الرجل يجب أن يحافظ دوماً على سلطته تجاه المرأة ويجب أن يكون دوماً متأهباً لخداعها[٢٢].

(٢٢) ماي وميتزجر، ص ١١٦٩. The New Oxford Annotated Bible

إن هذا الرمز القديم للعلاقة بين الجنسين يدل على انحياز واضح إلى الرجل ويعكس أيضاً هيمنة المعاهد الدينية، ولا شك أنها سوف تمثل بدقة وضع الرجل والمرأة في معظم المجتمعات العالمية عبر آلاف السنين. وهذا الانحياز والسيطرة لجانب الرجل واضح أيضاً في تعليقات وتفسيرات علماء المسلمين القدامى على الروايات المشابهة الموجودة في القرآن، وهي عبارة عن تفسيرات توحي بتأثيرات يهودية ومسيحية قوية[٢٣].

ووجهة نظر الأكثرية بالنسبة للقرن العشرين هي أننا في موقع جيد تماماً وقادرون أن نميّز من خلاله بين ما يقوله القرآن عن الجنسين وبين ما اقترحه المفسرون القدامى. ومع ذلك فإن المستشرقين في الماضي القريب كانوا يخلطون، وعندما كانوا يغوصون في أعماقهم ليعبّروا عن آرائهم كانوا غالباً ما يخرجون بنتيجة مفادها أن نظرة الإسلام إلى المرأة كانت تحط من شأنها، وترى أنها وضيعة جداً، ولحسن الحظ فإن هذه النظرة تتبدل الآن ولكن ببطء. فمثال ذلك ما تقوله آن ماري سكيميل Anne Marie Schimmel في مقدمتها لكتاب رابعة الصوفية للكاتبة مارغريت سميث Margaret Smith:

إن القارىء الغربي الذي لديه ميل كي يقبل دونما أي نقد ملاحظات مارغريت سميث في الصفحة ١٢٧ من أن الإسلام مسؤول عن انحطاط المرأة عليه أن يفهم أن ذلك الانحطاط كان ناجماً عن قوى اجتماعية وليس عن الإسلام نفسه، ذلك أن القرآن يتحدث بشكل متكرر عن ﴿المسلمون والمسلمات والمؤمنون والمؤمنات﴾، وأن الأوامر نفسها التي تخص الرجال تخص النساء فيما يختص بالصلاة والصوم والحج، الخ. إن الإدعاء الذي يتردد على الألسنة من أن المرأة في الإسلام ليس لديها روح لا يمكن أن نجد عليه دليلاً لا في القرآن ولا في الحديث[٢٤].

---

(٢٣) غوردون د. نيوباي، *صناعة آخر نبي*، ص ١-٢٨.

Gordon D. Newby, *The Making of the Last Prophet* (University of South Carolina Press, 1989), p. 1-28.

(٢٤) مارغريت سميث، *رابعة الصوفية*، ص ٢٦-٢٧.

وتتميَّز رواية القرآن عن قصّه أوّل رجل وأوّل امرأة بما تقوله تماماً بقدر ما لا تقوله(كما في الآيات ٣٥-٣٩ من سورة البقرة، والآيات ١٩-٢٥ من سورة الأعراف). فليس هناك إشارة لإغواء حواء أدم، أو أن المخاض هو عقوبة للمرأة، أو أن هذه الحادثة هي أساس هيمنة الرجال على النساء، أو أن المرأة خلقت من أجل الرجل؛ ويتحاشى القرآن ذكر موضوع من الذي خلق أولاً لحكمة ما. فالقرآن يوضح أن كلاً من آدم وزوجه قد غويا وعصيا، وأن كليهما تاب ونال مغفرة من الله، فبناء على هذه الراوية وعلى آيات مثل التي ذكرتها والتي تدعم بوضوح المساواة الروحية بين الرجال والنساء، فإن بعض الكتّاب المسلمين كانوا دوماً قادرين أن يناقشوا بإقناع من أن الإسلام لا يقرّ بأيّ اختلاف بين الجنسين فيما يختص بالفضيلة والتقوى.

ومن سوء الحظ هناك اعتباران مزعجان غالباً ما يتم تجاهلهما أو التستر عليهما:

الأوّل: هو أن علماء المسلمين لم يدعموا دوماً هذه المساواة[٢٥] ؛ وحتى في أيامنا هذه، هناك من المسلمين من يعتقد أن المرأة، بسبب بنيتها النفسية الداخلية الضعيفة، هي أكثر ميلاً للمعاصي من الرجال. وليس من العسير جداً دحض هذا التفكير على أنه انحراف وتناقض مع التأكيدات الواضحة في القرآن، ويمكن أن يكون هذا التفكير دعماً فقط إذا ما استخدمت آيات ذات طبيعة تشريعية عملية ليستدل بها على شيء سلبي فيما يتعلق بنفسية المرأة.

والاعتبار الثاني: هو أنه يوجد هناك عدد من الأحاديث النبوية الموثّقة المسندة التي

Margaret Smith, *Rabia the Mystici* (Cambridge Univercity Press), pp. xxvi–xxvii

(٢٥) انظر عبد الوهاب بوهدية، الجنسانية في الإسلام، ص ١١-٤٠؛ وكذلك انظر سميث، رابعة الصوفية ص ٣٦-١٤١.

Abdel Wahab Bouhdiba, *Sexuality in Islam*, trans. by Alan Sheridan (London: Routledge of Kegan Paul, 1985), pp. 116-40.

تقدم صورة مناقضة، ولقد ذكرت لتوي أحد هذه الأحاديث الأكثر تأثيراً:

مرّ النبي يوماً ببعض النساء فقال لهن: «يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهن جزلة: ومالنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال «تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وما رأيت ناقصات عقل ودين أغلب لذي لبّ منكن». قالت: يا رسول الله وما نقصان العقل والدين؟ قال: « أما ناقصات العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل وتمكث الليالي لا تصلي، وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين»[٢٦] .

ومن بين كل أحاديث محمد فإن هذا هو الحديث الذي سألني عنه أمريكيون مسلمون أكثر من أيّ حديث آخر. وأخبرني أحد هؤلاء المعتنقين أن هذا الحديث سبب له ألماً كبيراً، وأنه زعزع ثقته بإيمانه. ويؤكد بعض العلماء المسلمين الذين تصدّوا لهذا الحديث أمثال جمال بدوي أن ما قصده النبي هنا ليس حكماً على روحانية النساء، بل حضٌّ خطابي لهن كي يعملن بجد أكبر على تقوية إيمانهن وذلك تبعاً لبعض الظروف المعوّقة[٢٧] . ويشير بدوي إلى أن مطلب الإسلام من المرأة أن تعتزل الصلاة والصوم خلال فترة حيضها وفترة النفاس بعد الولادة التي هي أربعون يوماً، وأن هذا المطلب هو امتياز رحمة مؤقت منحها الله إياه للامتناع عن هذه الواجبات (راجع الآية: ٢٢٢ من سورة البقرة فهي تصف محيض النساء على أنه أذىً). ويذكر بدوي أيضاً أن الإسلام يخصّ النساء أن يقمن ببعض الأدعية الخاصة خلال هذه الفترات.

والإشارة إلى موضوع أنّ شهادة الرجل تساوي شهادة امرأتين في العقود والمعاملات التجارية هي انعكاس للحقيقة القائلة، تبعاً لما يقوله بدوي، وهي أن النساء

---

(٢٦) راجع تخريج الحديث ص ١٤٣.

(٢٧) جمال بدوي، سلسلة تعاليم الإسلام.

Jamal Badawi, *Islamic Teaching Series*, Halifax, NS, Canada

أقل مراساً من الرجال فيما يختص بالمعاملات التجارية وخاصة، حسب رأي بدوي، في البلدان الإسلامية حيث تنصرف مواهبهن عن هذه الأمور إلى حاجات اجتماعية أخرى.

و هكذا فإن بدوي يرى أن امتناع المرأة عن أداء الواجبات الدينية خلال فترة حيضها وموضوع شهادتها التي تعادل نصف شهادة الرجل ليست بالأمور التي تدل على دونيّة المرأة بل هي دليل على الرأفة بها في الحالة الأولى، واعتراف بالفارق بين قوى الرجال والنساء في الحالة الثانية. ولذلك فهذا الفهم يبدو مخالفاً لفحوى الحديث المذكور، ويبدو لي أنه يقول: إن هذه الملابسات موجودة بسبب بعض النقص في تركيب شخصية الأنثى، الأمر الذي قد يجعل منها مرشحاً أقوى لدخول جهنّم. ويمكنني القول، وقد فهمت هذا القدر من ملاحظات بدوي: إن نتيجة سلبية كهذه تنجم من جرّاء التركيز على التفسير الحرفي جداً لمثل هذا الحديث. وفي الحقيقة، أن وصف النبي لإسرائه ومعراجه (التي تضمنت هذه الرؤية للنار) قد لا يكون قصد منها إعطاء معلومات مبنية على التجربة والاختبار حول اللامرئي ولكن للترغيب والترهيب.

وفي كتابه الصحة والطب في الحديث الإسلامي نجد أن فضل الرحمن ينتقد هذا الحديث كثيراً[٢٨]، فهو يرى أن هذا الحديث يعارض موقف القرآن حول المساواة الروحية للرجال والنساء؛ وهو يعتقد أن ذلك القول مفروض على الإسلام من خلال الحديث وذلك من خلال روح ثقافات الشعوب غير العربية التي دخلت في الإسلام بعد فتح المسلمين لبلادهم. ويقول فضل الرحمن بأن المقولة التي تتحدث عن القيمة البرهانية لشهادة المرأة على أنها تعادل نصف شهادة الرجل تفترض مقدماً التطور اللاحق لقانون البيّنة في الإسلام. ويقول فضل الرحمن، مثله مثل بدوي، إن الإشارة المشابهة في القرآن تتحدث بشكل خاص محدد عن المعاملات التجارية ولا تتخذ صيغة

(٢٨) فضل الرحمن، *الصحة والطب في الحديث*، ص ١٠٥-١٠٦.

القانون العام؛ ويضيف قائلاً: إن هذا الحديث النبوي يبدو كأنه يدعم التعميم المستنبط الأخير.

في حين أني أعترف بأن صياغة كلمات الحديث تبدو كأنها موجهة إلى النساء عامة، إلاّ أنه من المستحيل إثبات أن هذا هو المعنى المقصود هنا، وسوف نستمر بنقاش موضوع شهادة المرأة بعد قليل، أما الآن فإننا ببساطة سنقبل بأن إحدى وجهات النظر هذه قد تكون صحيحة، ذلك أن حجم الدليل من القرآن والأحاديث الأخرى الموثّقة هي بلا شك في صالح المساواة بين الرجل والمرأة.

وهناك طريقة أخرى لاكتشاف وجهات نظر القرآن، وهي أن ندرس القصص منه. بمعنى آخر، عندما يصوّر القرآن الناس مثلاً عندما نراهم يصلّون، أو يتحدثون، أو يقومون بأعمالهم يمكننا أن نسأل عن عناصر شخصيتهم التي يبرزها القرآن. ولقد تكلمنا على هذا عند مناقشتنا لموضوع الأبوّة.

إن بعض أهم صور الشخصيات التي تستحوذ على العاطفة والاهتمام في القرآن هي شخصيات نسائية مثل ملكة سبأ (الشخصية القيادية)؛ وأم موسى (التي سلّمت وليدها لمشيئة الله)؛ وزوجة فرعون (التي كانت تدعو الله كي يحميها من طغيان زوجها)؛ وأم مريم (التي نذرت ما في بطنها خالصاً لله). إن قصّة مريم، والدة المسيح، هي إحدى أروع القصص لدرجة أن السورة التي ذكرت فيها سمّيت باسمها.

وهناك ملاحظة ممتعة أخرى وهي أنه بينما تتدرّج صور الرجال في القرآن من رجال في منتهى الكفر والخسّة إلى أنبياء نبلاء نجد أن التصوير القصصي الذي يشتمل على قصص النساء هو في المحصلة النهائية إيجابي. إنني لا أشير الآن إلى مجرّد مسلّمة حقيقية مثلاً إن زوجة أبي لهب سوف تلقى في جهنم، أو أن زوجة نوح وزوجة لوط كانتا كافرتين، ذلك أن القرآن لا يرينا بالتفصيل شخصيات هاتين الامرأتين. إن ما

أشير إليـه هـو مـا يرينـا القرآن مـن شـخصية محـددة مـا في لحظـة مـا مـن حيـاة هـذه الشخصية. وكلما وردت هذه الحالة مع شخصية امـرأة في القـرآن، فـإن الحالـة تكـون امرأة مؤمنة حقاً في جميع الأمثلة التي ذكرها القـرآن عـدا واحـدة، فهـن مؤمنـات حـق الإيمان، ولكن حتى الاستثناء المذكور فإن المرأة المعنية هي امرأة العزيز في قصّة يوسف؛ وحتـى هـذه فإنهـا تتـوب في النهايـة ويصلـح إيمانهـا. وبالمقارنـة مـع الكتـب المقدسـة للديانات الأخرى فإن هذه إحدى سمات القرآن الرائعة والبارزة[٢٩].

---

(٢٩) إن الآيات ﴿إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾ [يوسف: ١٢/٢٩] و﴿أم اتخـذ ممـا يخلـق بنـات وأصفـاكم بالبنين. وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم. أوَمَـن ينشـأ في الحليـة وهـو في الخصام غير مبين﴾ [الزخرف: ٤٣/١٦-١٨] غالباً ما يقتبسها بعض المسلمين ليدلوا بها على أن القرآن يضـع المرأة في منزلة أدنى من الرجل فكرياً وأخلاقياً. وللأسف فقـد سمعـت بعـض رجـال المسلمين وفي الكثير من المناسبات يفعلون ذلك. إن كلمة (كيد) ترجمها يوسف علي على أنها "Cunning" أي مكـر، وهـذه معناهـا القدرة على التفوق في الفطنة والتفوق في المناورة الفكرية والخداع ولكن عبر الحذاقة. والآية الثانية تصفُ المرأة على أنها شخص إذا ما تورّط في مناقشة ما أو مشافهة فهو (غير مبين) ومعناها الحرفي (غير واضـح). وهكـذا فإننا أمام مسلمتين متناقضتين إلى حد ما حول ذكاء المـرأة. وإذا مـا أخذنـا هـاتين الآيتيـن مـن حيـث القيمـة الظاهرية، فإن علينا أن نسوّي بينهما. ولكن هذه لا تسبب أي مشكلة إذا ما أخذنا في الحسبان الطرف الـذي وردت فيه كل منهما. و الآية الأولى وردت على لسان [عزيز مصر] بوتيفار Potiphar الـذي حـاولت زوجتـه إغواء يوسف، وأمـا الثانيـة فقـد أنزلهـا الله للتعبير عـن فكـر الكفـار العـرب والتي، في آيـة أخـرى [النحـل: ١٦/٥٨-٥٩]، تتعلق بجريمة وأد البنات. وإذا ما تجاهلنا ظروف هـذه الآيـات فإننـا نصبـح كمـن يناقـش بـأن القرآن ليس سوى شعر وهذا ما قاله الكافرون وأكّدوه حسـب مـا بـدا لهـم. و في قصـة يوسـف عندمـا يعلـم العزيز زوج الغاوية ببراءة يوسف وذنب زوجته لا يفعل شيئاً ضدها ولو فعل نكان من حقـه أن يقـوم بذلـك. وبدلاً من ذلك وتجنباً للفضيحـة العامة وتعريض مكانته الاجتماعيـة العاليـة للخطر نـراه يصفـح عـن المسـألة برمتها بما قال أعلاه. وفيما بعد وعندما تتضح عاطفتها حيال يوسف بشـكل صـارخ يسـجنه زوجهـا تحاشـياً للحرج. ولقد رأى بعض المفسرين المسلمين الأوائل مثل الطبري في هذا العزيز على أنه مثال للعجـز الأخلاقـي وبعيد كل البعد عن مبـادىء الرجولـة الحقـة وجديـر بـالتوبيخ. وهكـذا نجـد مثـل هـؤلاء المفسـرين ينسـجون الأساطير حول القصة الناجمة التي تمت تفاصيلها بما رواه في هذه الشخصية على أنه نذالة. ومن هنا نجد الكثير من الروايات التي تربط بين ضعفه الأخلاقي وضعفه الجنسي. ونجد في هذه التفاسيز ذاتهـا تعاطفـاً –

الذّكر والأنثى

[قال تعالى]: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾ [آل عمران: ٣٦/٣].

[قال ص]: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"(٣٠).

لقد كان من الواضح أنه ساد اعتقاد في الماضي كحكم عام بين الناس جميعاً أن الذكور الرجال هم أكثر ذكاءً وعقلانية وأقل عاطفة من الإناث النساء؛ ولكن مؤخراً، وفي الحقبة التي تلت فترات التاريخ التي منحت فيها المرأة فرصاً متساوية مع الرجال لدخول الحياة الثقافية والسياسية، بدا لنا أن الكثير من هذه الافتراضات القديمة غير صحيحة. واليوم وفي الولايات المتحدة نجد أن الفروق في نتائج الامتحانات بين الذكور والإناث لا تكاد تذكر. وعلى الرغم من أن هناك تقدماً طفيفاً في المهارات الكلامية لمصلحة الإناث، وتقدماً في المهارات الرياضية لمصلحة الذكور، فإنه حتى هذا المنحى بدأ بالتغيُّر، طالما أن هناك عدداً أكبر من الإناث الآن بدأن بالتخطيط لدخول مشاريع

= شديداً مع زوجة العزيز ودفاعاً عن إغوائها ليوسف وذلك بسبب إخفاقات زوجها. ومهما كانت الحقيقة فإن القرآن يبدو وكأنه يقدم موقفين عامّين متعارضين يستخدمهما الرجال ضد النساء من أجل تسويغ مواقف ضعفهم الأخلاقية. فكلا الآيتين يرتبطان بأفعال غير مسوّغة على نحو مرخّص به ويجب ألاّ نتجاهل هذا عندما نريد تفسيرهما. ومن الجدير بالملاحظة والمؤسف حقاً أن بعض الرجال المسلمين ما يزالون يستخدمون هذه الآيات في غير مواضعها في محاولة منهم لتشويه سمعة النساء. إنني لا أنكر أن النساء غالباً ما يستطعن أن يتفوّقن على الرجال عقلياً ويفقنهم مناورة وهذا مبين في مكان آخر من السورة نفسها ولكن الرجال يجب ألاّ يستخدموا هذه الحقيقة تسويغاً لنقاط ضعفهم الخاصة.

(٣٠) حديث ابن عمر أخرجه البخاري في الجمعة، باب: الجمعة في القرى والمدن، رقم (٨٥٣).

الحياة العلمية. لقد اخترقت النساء عوالم السياسة، والمشاريع التجارية، والتعليم العالي، والطب، ومجالات أخرى كانت حكراً على الرجال سابقاً بسرعة ونجاح. ويدور هناك جدل اليوم مفاده أن الرجال هم ليسوا أقل عاطفية من النساء ولكنهم يظهرون مشاعرهم بطرق أخرى؛ كاللجوء إلى العنف والصراخ في معظم الأحيان. ويرتكب الرجال جرائم، كالجرائم العاطفية مثلاً، تفوق عدد الجرائم التي ترتكبها النساء.

ومع ذلك وعلى الرغم من كل تغييرات الأدوار والمدركات الحسّية التي حدثت في المجتمع المعاصر، فإنه لا يبدو أن الرجال والنساء مرتبط بعضُهم ببعض على الصعيد الشخصي بشكل يختلف كثيراً عما كان عليه آباؤهم وأجدادهم. وأعتقد أن الرجال ما يزالون يبحثون عن والدين عندهما الدفء والرعاية والدعم والرقة أي عمّا كان يعرف سابقاً بالخصال الأنثوية وعن النساء، ويبحثون عن صحبة الرجال الواثقين بأنفسهم، الأقوياء، والذين يقبلون التغيير وهذه خصال ذكريّة. إن نساء اليوم يقدرن عالياً رقة الرجال، ولكنني أسمع أن هذا غدا الآن أمراً نادراً.

فعلى الرغم من تجارب الستينيات والسبعينّيات يخبرني بعض طلابي أنه يتوقع من الشباب مرّة ثانية أن يدفعوا الثمن مجدداً وهذا شيء لم يكن ليقلقني عندما كنت مراهقاً وفي بداية العشرينيات من عمري. ففي الزواج أصبحت النساء أقل اعتماداً على أزواجهن من الناحية الاقتصادية، ولكن يترتب عليهن أن يدفعن ثمناً لهذا: فإذا أراد الزوجان أن يعيشا حياة تشبه حياة والديهما فإن على الطرفين أن يشاركا في أعباء الأسرة. ويمكن النظر إلى هذا الأمر من ناحية إيجابية، ناهيك عن حقيقة استمرار وقوع عبء المنزل والأطفال بشكل شبه كلي على الزوجة. والفكرة السائدة في الغرب هو أن النساء أكثر كفاءة من الرجال بالعناية بالأطفال. وهذا ما تعكسه بقوة القوانين والعادات المتعددة في ذلك المجتمع: فعلى سبيل المثال وفي معظم حالات الطلاق تعطى

الأم حق رعاية الأطفال، وغالباً ما يفضل الوالـدان أن يضعـوا أطفـالهم عنـد حاضنـات نساء Baby sitters . ولذلك يبدو أنه عندما يصل الأمـر إلى أدوار الجنـس فـإن المجتمـع الغربي قد يستمر في حالة من التبدل بحثاً عن تعريف، وهذا ينطبـق بشـكل أكـبر علـى المجتمع المسلم الذي يتوجب عليه أن يعيد فحص مواقعه في مواجهته للمجتمع الغربي.

وغالباً ما يدّعي بعض الكتّاب المسلمين أن المجتمع العربي الجاهلي كـان منغمسـاً في البربرية والجهل، وأن الإسلام قلب البنية الاجتماعية والسياسية لمجتمع الجزيـرة العربيـة رأساً على عقب. وبالإضافة إلى ذلك فغالباً ما يدعـي هـؤلاء أنـه في ذلـك الوقـت مـن التاريخ لم يكن ليوجد بيئة أكثر شوقاً من ذلك المجتمع ليتلّقى مبادئ الإسـلام الثوريـة. وفي حين يجب أن نعترف أن عرب الجاهليـة كـانوا قومـاً همجـاً وأنـه لم تكـن لتوجـد لديهم أية دلائل عن الحضارة، إلا أني اعتقد أن بساطة حياتهم وعهود الشرف والنبالـة والحرية جعلت منهم مرشحين من النخبة الأولى لتلقي الأفكار التي يتضمنها القرآن. إن مبادى الديمقراطية، والأبوة والمساواة والشهامة كانت متأصلة على نحو راسخ في القيـم القبلية التي آن لها أن تمتد لما وراء القبلية[٣١] . إن المبدأ القائل بأن المرء قد يصبح مواطنـاً أصيلاً بمجرد قبوله لإيديولوجية ما (كما كان الأمر في المجتمـع الإسـلامي) كـان يلقـى معارضـة شـديدة ومنظمـة في الإمـبراطورتين العظمييـن المجـاورتين وهمـا الرومانيـة والفارسية. وهكذا وبينما كانت رسالة الإسلام ثوريّة حقاً كانت الجزيرة العربية التربـة الأكثر خصوبة لنمائها وخاصة فيما يتعلق بوضع المرأة.

لقد كان وضع المرأة في الثقافات الهندية، والإغريقية، والرومانية، والفارسية القديمـة في منتهى الخنوع، وليس من العسير التزويد بالوثائق التي تثبت ذلك[٣٢] . ولقد كـانت

---

(٣١) محمد أسد، صحيح *البخاري*؛ غولدزيهر، italic ٢.

(٣٢) بدوي، وضع *المرأة في الإسلام*، ص ٥-١١؛ فضل الرحمن، ص ٢٣٧-٢٤٧.

المرأة في هذه المجتمعات محرومة من أي وضع قانوني، وكانت تعامل كمخلوق أدنى تحت رعاية أقرب وصي ذكر وبالمقارنة فقد كان وضع المرأة في المجتمع العربي قبل الإسلام أفضل بكثير. ونعلم من الأحاديث النبوية أنه كان هناك نساء عربيات كن يرثن، ويطلقن، ويعقدن الزواج، ويشتركن في المعارك، ويدرن الأعمال التجارية؛ ويبدو أن هذه الحقوق لم يكن معترفاً بها بشكل رسمي في الجزيرة العربية؛ لأنه كان على القرآن أن يفرض العديد من هذه الحقوق بقوة. ومهما يكن فإن ذلك يظهر لنا أن بعض السابقات للعديد من التشريعات القرآنية التي تحمي المرأة كانت موجودة في ذلك الزمان. إن وجود أمثلة عديدة عن النساء اللاتي كن يمتلكن قدراً من الاستقلالية يفوق نظيراتهن في البلدان المجاورة يقودنا للاعتقاد بأن الإصلاحات القرآنية كان يمكن تقبلها في الجزيرة العربية بشكل أسهل من أي مكان آخر.

وفي صميم مفهوم الإسلام عن العلاقة بين الذكر والأنثى وردت آية من سورة آل عمران تقول ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣/٣٦]. ويأتي هذا القول بعد أن تعبر أم مريم عن خيبة أملها لأنها وضعت أنثى بعد أن كانت دعت ربها أن يهبها مولوداً ذكراً. ثم يأتي تأنيب إلهي مخفف مخبراً إياها أن الله يعلم خير العلم ما الذي كانت ستضعه، وأن الذكر يختلف عن الأنثى، والمعنى المتضمن هو أن الله قصد أن يكون هناك اختلاف بينهما.

ومن الممتع أن نصادف هذا النقد في تفضيل الذكر على الأنثى في قصة مريم أم المسيح، وهي إحدى أبرز الشخصيات في القرآن. وهكذا وفي مكان واحد بعينه، ومن خلال مسلّمة ومثال واضحين، يتركّز التوكيد على الطبائع المتباينة للرجال والنساء وعلى إمكانية تفوّق النساء على الرجال.

وحسب الخطة الإلهية فإن الرجال والنساء لم يقصد منهما أن يكونا الشيء نفسه بل ليكمل وليدعم كل منهما الآخر، وهذا ما عبّر عنه القرآن بطرق شتى:

﴿هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢/١٨٧].

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/٧١].

﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٣٠/٢١].

إن هذا المفهوم جوهري لمعالجة الإسلام لدوري الرجل والمرأة. إن الفكرة هنا هي أنه ليس على الرجال والنساء أن يُجبروا على قبول نمط معيّن من العلاقة، بل الفكرة هي أن الله قد خلق الرجال والنساء بطريقة يرتبط الواحد منهما بالآخر، وذلك تبعاً لأنماط سلوكية محددة. ولا يحتاج القرآن، ولا أحاديث الرسول، أن يصرّوا على أنه يتوجب على الأزواج تبني وضعيّة معينة من السلطة في الأسرة، ذلك أن الافتراض الواضح على الأرجح هو أن الزوج سوف تكون له الحرية والسلطة في الزواج أكثر من الزوجة، وذلك بسبب مختلف نقاط الضعف والقوة التي توجد في كل من الشريكين. ومن المؤكد أن الرجل سيميل إلى استخدام مايرى أنه ميزته؛ وذلك عن طريق القوة الوحشية عندما يرى ذلك مناسباً. وبما أن الإسلام يعلم أن الأمر سيؤول إلى هذا فإنا نراه يقلّص من سلطة الرجل، ويحمي المرأة من سوء استخدام هذه السلطة، ويشدد في الوقت ذاته على كل منهما أن يؤدي أدنى واجباته تجاه الطرف الآخر. وهكذا فعندما قال محمد: إن الرجل راع في أسرته وإن المرأة راعية في منزلها، فإنه لم يكن يقدم بذلك إعادة ترتيب للسلطة في الأسرة، بل كان على الأصح يفترض نمطاً عاماً مشيراً بذلك

إلى أن كلاً من الرجل والمرأة مسؤول بدوره عمن هو تابع له. بمعنى آخر، كان محمد بذلك يركّز على الواجبات والمسؤوليات وليس على الميزات والحسنات.

إن الإعلان البدهي القائل: إن لكل من الرجل والمرأة نمطه المميّز في الشخصية، إن هذا الإعلان لا يخص أحد الطرفين بالتفوّق، وبذلك يجب أن يترك موضوع كيف يختلف الذكر عن الأنثى؟ بالضبط مفتوحاً على نحو خفي. والقرآن يخبرنا أن الرجال والنساء يحمي بعضهم الآخر، وأن كلاً منهما لباس الآخر، وأن كلاً منهما يحقق حاجات الآخر من الرقة والمحبة. إن هذه العلاقة المتبادلة هي جزء صغير من التوازن العالمي (كما في الآية ٧ من سورة الرحمن، والآية ٢٥ من سورة الحديد) الذي يسري بين الخلق جميعاً. إن القرآن يخبرنا أن كل شيء خلق من زوجين (كما في الآية ٣٦ من سورة يّس، والآية ١٢ من سورة الزخرف، والآية ٤٩ من سورة الذاريات). والكلمة العربية (زوج) (pair) أي اثنين هي في الحقيقة كلمة زوج نفسها أي قرين. ومن هنا فإن العلاقة ما بين الجنسين هي عنصر وحيد ضمن نظام معقد وهائل من التكافؤات؛ ويدّعي الإسلام بتيسير هذا التناغم من قوى الذكر والأنثى، ولكن مواضيع التكامل (تكميل الشيء بعضه الآخر) والتوازن تبرز في طريقة تناول الإسلام حقوق الرجال والنساء.

حقوق ومسؤوليات

قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨/٢].

إذا كان القرآن غالباً ما يخاطب المؤمنين بشكل جماعي بالكلمات ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فإنه أحياناً ولهدف ما يخاطب كلاً من الرجال والنساء على حدة كما في الآية (٣٥ من سورة الأحزاب) ولكن في العديد من النصوص، نجد أن البيانات موجهة بشكل خاص إما للرجال أو للنساء على الرغم من أنه توجد في هذه الحالات مسلمات موازية للجنس الآخر والقريب جداً. ففي سورة النور نجد أن التصرف بحشمة أمر مطلوب:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٢٤/٣٠-٣١].

وعندما سئل النبي أن يعقب على هذه الآيات أجاب شارحاً: إن معنى يغضوا من طرفهم أي يتجنبوا النظر بشهوة. ومن الجدير بالملاحظة أن كلاً من الرجال والنساء مأمور بغض الطرف، ذلك أنه خلال حقب معيّنة من التاريخ الغربي كان يعتقد أن النساء تعوزهن الرغبة الجنسية أو حتى إنهن عديمات الجنس.

وعندما كنت طالباً في المرحلة الجامعية كان البحث جارياً لدحض هذا الافتراض. ولكن القرآن وأحاديث الرسول يعترفان بصراحة تامة بالدافع الجنسي الكبير عند النساء. ولنأخذ باعتبارنا على سبيل المثال استجابة النسوة المصريات عندما رأين النبي يوسف (الآيات ٣٠-٣٤ من سورة يوسف)، ونلاحظ أيضاً في (الآية ٣١ من سورة النور) أن الأمر للنساء يتضمن اشتراطات على اللباس الملائم وهذا مايرد في نصّين آخرين وهما بالتحديد (الآية ٦٠ من سورة النور والآية ٥٩ من سورة الأحزاب) وليس هناك آيات مماثلة موجهة للرجال. ويبدو أن قلق القرآن هو أن المجتمع أكثر عرضة لاستغلال جنسية المرأة أكثر من جنسية الرجل.

وإذا ما سلك أحد الزوجين سلوكاً لا أخلاقياً فإن القرآن يتخذ موقفاً من هذه المسألة في موضعين اثنين وذلك في الآية الرابعة من (سورة النساء)، والوضع الأول يناقش حالة المرأة المنحرفة:

﴿وَاللاَّتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا﴾ [النساء: ٤/٣٤].

تتفق جميع مراجع اللغة العربية على أن هذه الآية تصنّف سلسلة أولويات من المراحل التي لا يجب اتخاذها دفعة واحدة وأن النشوز يجب أن يكون ذا طبيعة متطرّفة وإجرامية. ومعظم الفقهاء يتخذون من الاتصال الجنسي غير المباشر مثالاً على النشوز، ويمكننا أن نضمّن هنا انتهاكات أخرى للقانون الإسلامي كالإدمان على الخمرة. إن كون النشوز معصية لإرادة الله، وليس مجرد نزوة الزوج، هو أمر مثبت بحقيقة كون الكلمة نفسها (نشوز) واردة في الآية (١٢٨ من سورة النساء) لتصف الخطوات التي يجب على الزوجة اتباعها في حال كون هذا النشوز من جانب الزوج. واتفق بعض علماء المسلمين (الطبري والرازي والشافعي) على أن الخطوه الثالثة، وهي الضرب، يجب ألاّ يستخدم إلاّ رادعاً أخيراً والأفضل تجنب استخدامها. وتبعاً للحدود التي وضعها النبي فإن هؤلاء العلماء قد فهموا أنه إذا ما اضطر امرؤ للجوء لهذه الحالة فإن الضرب يجب أن يكون رمزياً أي غير مبرح. ولقد رأت السلطات الدينية في الإسلام أنه يمكن اللجوء لهذا المرجع فقط في الحالة اللاأخلاقية التي تسبب مقتاً كبيراً، وليس كرخصة للأزواج كي يضربوا نساءهم، وهذا ما تشهد به كل الأحاديث، و لم يحصل أبداً أن ضرب النبي واحدة، بل إنه كان يشجب هذا العمل بشدة[٣٣].

و يزود القرآن النساء بتعليمات في حالة حدوث ظروف مماثلة:

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨/٤].

وكما هو واضح من الآية (١٣٠ من سورة النساء)، فبالإضافة إلى محاولة المرأة حل خلافها مع زوجها، فإن القرآن يذكرها بأن الخيار مفتوح أمامها إن أرادت إنهاء الزواج. وفي الحقيقة يعتقد العديد من الفقهاء أنه إذا استمر الرجل في سلوكه المشين

(٣٣) فضل الرحمن، دور المرأة المسلمة في العمل، ص ٤٠٧-٤٠٨.

فإنه يستوجب عليها أن تطلب التفريق. إن خيارات المرأة في هذه الظروف الموازية مختلفة عن خيارات الرجل لأسباب واضحة. وطالما أن الرجل قد يكون لتوّه عنده زوجة ثانية، ولأن بوسعه أن يتزوَّج أخرى وفي الحال، وفي حين أن على المرأة أن تقضي فترة انتظار مدتها ثلاثة أشهر العدة قبل أن تكون قادرة على الزواج مرة أخرى، فلن يكون في صالحها أن تهدد بإيقاف علاقاتها الزوجية، وكذلك لن تكون في صالحها أيّ عقوبة جسدية، حتى ولو كانت مجرد عقوبة رمزية في طبيعتها. وإذا ما استمر زوجها على تمرده وعناده فإن خير بديل للمرأة هو أن تبدأ بالحل. وطالما أن الخطوة الأولى، بناءً على الآية (٣٥ من سورة النساء)، تتضمن إحضار الأقارب من كلا الطرفين للمساعدة في التوسط لحل الأزمة فإن هذه المبادرة قد تخدم مصالح كلا الطرفين بأفضل طريقة ممكنة.

إن معالجة القرآن للميراث يعكس اهتمام القرآن وتأكيده إلى درجة كبيرة على استقلالية المرأة في الوقت الذي يوازن حاجاتهن ومسؤولياتهن مع حاجات ومسؤوليات الرجال:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء: ٤/١١].

﴿وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً. وَلِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً. الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ فَالصَّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٤/٣٢-٣٤].

إن تبيان القرآن لتخصيصات الميراث هنا يكوِّن إحدى الملامح الرئيسة في التنظيمات الاقتصادية في الأسرة المسلمة. و على الرغم من أن هناك بعض الاستثناءات إلا

أن حصة المرأة من الميراث تساوي بشكل عام نصف حصة الرجل. وقد وجدنا كيف أن هذا النص القرآني الأخير يربط حكم الميراث هذا بمسؤوليات الأسرة؛ وتبعاً للقانون الإسلامي، فإن الزوج مسؤول بشكل تام عن نفقه أسرته. وعلى الرغم من أن زوجته قد يكون لها حصتها المضمونة من الميراث – وقد يكون لها مصادر أخرى من الدخل – إلاّ أنه لا يتوقَّع منها أن تساعده بأمور المعيشة، لا لنفسها ولا لأولادها. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه لا يستطيع أن يرغمها على فعل ذلك. وهكذا فالمرأة المسلمة لها كيانها الاقتصادي المستقل سواء في الزواج أم في المجتمع.

وهذا ينطبق أيضاً على الرجال ولكن مع بعض التعديل. فالإسلام يعترف بملكية الزوج المستقلة من الأملاك والثروة، ولكن هذه الملكية خاضعة لتحديدات أكبر من تحديدات ملكية المرأة. فعلى سبيل المثال، إن الرجل مسؤول بشكل قانوني عن سدّ حاجات أسرته. وبدافع الحاجة فإنه يأخذ برأي زوجته عن الكيفية التي يجب أن تستخدم فيها أملاكه وأمواله، وخاصة في حال غيابه. وفي الوقت نفسه يذكّر الإسلام المرأة أنه في حال غياب زوجها يجب عليها أن تبقى مطيعة لله بالمعنى العام للكلمة، وبشكل خاص، ألاّ تسيء استخدام أملاك زوجها أو تخالف رغباته الصريحة فيما يختص بهذه الأملاك. وفي حين أنه يمكن لكل من الرجل والمرأة أن يرى أن هذا الترتيب يخدم الجنس الآخر (في التاريخ الإسلامي المبكر شعر بعض الرجال أن هذا الترتيب وضعهم في مأزق اقتصادي)[٣٤]، فإن القرآن يحذّر كلاً منهما أن يشتهي ما أعطاه الله للآخرين طالما أنه في النهاية سوف يتحقق توازن عملي ما.

من العسير القول إلى أي درجة يمكن تطبيق نظام كهذا في الولايات المتحدة. هناك فرص أعمال متوافرة للنساء أكثر من أي وقت مضى، واستقلال المرأة الاقتصادي هو

(٣٤) أ. ر. آي. دوي، *الشريعة في القرن الخامس عشر الهجري*، انظر الفصل حول الميراث.
A.'R. I. Doi, *Shariah in the 15th century of the Hijrah* (Islamic Trust Publications n. d).

أمر مرغوب به ومقبول على نطاق واسع. إضافة إلى ذلك فإنه ضرب من المستحيل لمعظم الأسر التي يأتيها دخل واحد أن تعيش (في بحبوحة). في الحقيقة لقد تعود الأزواج الأميريكيون أن ينظروا إلى الزواج على أنه اتحاد ومغامرة مشتركة، إلاّ أن هذه الفكرة أقل صعوبة عند الأزواج في الثقافات الإسلامية التقليدية. فزوجة أحد أصدقائي المصريين تدير مشروعاً تجارياً ناجحاً يقدم الطعام هنا في حي لورانس Lawrence، وتعتزم استخدام أرباحه لشراء مشروع آخر مشترك وتأجيره. وهي مرتاحة جداً لحقيقة أن دخلها، الذي بدأ يفوق دخل زوجها، هو ملكها تماماً ولاتصرف منه أي شيء على أسرتها، وهذا المثال ليس استثناءً.

وإذا ماكان على الأزواج أن يضمّوا دخلهم بدافع الحاجة أو غيرها، فإن بعضاً من بنود الحماية المتأصلة في هذا الترتيب سوف تضعف من دون شك. فالاستقلال الاقتصادي للزوجة يفترض أنه إجراء وقائي في حال حدوث الأزمات كالطلاق أو الموت. ومن هنا فإذا اعتبر الأزواج دخلهم مشتركاً فإنه يجب اتخاذ الترتيبات لتقديم حماية قانونية عملية ومعقولة موازية لكلٍ من الزوجين.

عند هذا الحد أجد من المفيد أن نأخذ بالاعتبار كيف تصوّر فقهاء المسلمين المتطلبات الدنيا للزوج المسلم والزوجة المسلمة بعضهما جيال بعض. وفي رأييّ يبدو أن هؤلاء العلماء غالباً ما كانوا يحددون امتيازات النساء بقدر ما تسمح النصوص بذلك، في الوقت الذي كانوا يمدّون في حقوق الرجال قدر المستطاع دون أن يناقضوا المصادر النصيَّة على نحو صارخ. أما من عنده وجهة نظر مختلفة، فإنه يتوقع وهذا ما يحصل الآن أن مفكري اليوم من المسلمين سوف يعكسون هذا الاتجاه إلى حد ما.

ومهما يكن وبالإضافة إلى الحقيقة القائلة بأن الزوج في السابق قد أعطي سلطة لاتقبل الجدل تقريباً على زوجته إن أرادت الذهاب إلى أي مكان أو أرادت رؤية أحد

ما، فإنه من المهين لنا تماماً أن نكتشف ندرة الالتزامات عند كل شريك. فكلاهما لديه حقوق زوجية حيال الآخر مع بعض الميزات لمصلحة الزوج. لقد كان من واجب الزوج إعالة زوجته وأطفاله وأحياناً أقربائه المقربين أيضاً، في حين يبقى دخل المرأة لنفسها دون غيرها. وليس من واجب الزوجة أن تقوم بالأعمال المنزلية أو أن تطهو أو حتى تهتم بأولادها. بالإضافة إلى ذلك كان على الرجل، إن كان ميسوراً، أن يحضر لزوجته مدبرة منزل (إلى هذا اليوم تفترض النساء في الجزيرة العربية ما يمكن أن يؤدي عملياً إلى الحق الشرعي في الحصول على خادمة عندما يتزوجن). ولقد كان من واجب الزوج أن يدفع لزوجته ما تمليه عليه التعليمات الدينية[٣٥]. وكان على الزوجة مسؤولية إدارة ممتلكات زوجها وبما يتناسب مع رغباته في حال غيابه. ولم يكن عليها أن تسمح لأحد بالدخول لمنزلها، وبخاصَّة الرجال، دون موافقته. وعلى الرغم من أنني لأشعر أن الأزواج الأميريكين المسلمين سوف يوافقون على أن سيطرة الزوج الكاملة على خروج زوجته ودخولها أواختيارها لأصدقائها شيء ضروري أو مرغوب به، فإنهن قد يندهشن بالآراء الإسلامية حول الواجبات العائلية.

بدايات ونهايات

وصلت صداقتهن إلى درجة من الصراحة، وهكذا فقد أطلقت المرأة صاحبة المشروع التجاري العنان في أسئلتها لكل ما كان يختلج في صدرها من امتعاض وانزعاج منذ زمن طويل، قالت:

ـ لماذا أنت ترتدين غطاء رأس مربعاً؟

(٣٥) لمزيد من الاطلاع على هذا الموضوع انظر *دور المرأة المسلمة في المجتمع* لفضل الرحمن و*قانون الأسرة المسلمة* لكيث هودكينسون.

Kaith Hodkinson. *Muslim Family Law* (London: Croom Helm Ltd 1984).

ـ بسبب عقيدتي، إنني لاأعتقد أنه يجب أن تُستَغلَّ النساء جنسياً.

ـ إنك تحملين الإجازة في الرياضيّات، يجب عليك أن تدبري عملاًما.

ـ لدي عمل، وأستفيد من ثقافتي في عملي. إنني أم وأربي ثلاثة أطفال.

ـ أقصد عملاً مفيداً، عملاً يجلب لك النقود.

ـ ماالشيء الذي تفوق قيمته الحب؟ إن الحب لايمكن قياسه أو رؤيته، ولكن ينمو داخلك وفيما بينك وبين من تحبين.

ـ ولكنك لوتعملين تصبحين أكثر استقلالية من الناحية الاقتصادية.

ـ إني أعمل بجد كبير وزوجي يعطيني عشرة بالمئة من دخله الصافي كي أنفقه كيف أشاء. كذلك يدفع لمدبرة منزل تأتي لبيتنا مرتين في الأسبوع.

ـ لو كان لديك عمل مأجور لماكان عليك الاعتماد على كرمه.

ـ ولكن ذاك المال هو لي، والمال والخادمة هما جزء مما كتب في عقد زواجنا. وعلى الرغم من أني أحب أطفالي وبيتي إلاّ أن جهودي لها قيمتها وأستحق ماتم الاتفاق عليه!

ـ ولكن لو كان لديك المزيد من المال لكان بمقدورك إنجاز أشياء أكثر، مثلاً كان يمكنك السفر بشكل أكثر.

ـ إن هدفي في الحياة هو ليس العيش في أوربة.

إن طريقة الزواج الإسلامي مصلحية فبعد أن يعبِّر المرشحان للزفاف (الخاطبان) عن قبول كل منهما زوجاً للآخر يجتمع ممثلان عن كلا الأسرتين ليمهدوا لتفاصيل مسودة عقد الزواج. وإذا ما وافق جميع الأطراف فإن الخاطب يقدم للعروس مهراً متفقاً عليه.

ثم يعقب ذلك طقس ديني قصير يتعلق بعقد القران، ثمّ يأتي بعد ذلك احتفال الفرح العرس.

والعرف بين العرب المسلمين هو ألاّ يعيش العروسان (الخطيبان) مع بعضهما بعضاً في الحال. بل يبقى كلٌّ منهما في بيت ذويه لبعض الوقت لكي يعرف كل منهما الآخر بشكل أفضل على أمل أن تنمو علاقات الحب بينهما بشكل أكبر. ومن أجل أسباب واضحة في هذه المرحلة فإن العريس والعروس لايبنيان زواجهما، ولو فعلا ذلك فإنهما لايكونان آثمين دينيّاً لأنهما متزوجان شرعاً. إن الكثير من رومانسية الزواج، كما نفهمها في الغرب، تزول بسبب الإجراءات القانونية الرسمية والصارمة التي تؤدي إلى الاتحاد (الزواج). وعلى كلٍّ فإن الخاطبين، وخاصة إن كانوا حديثي السن، سوف يبنون خياراتهم في الغالب على اعتبارات رومانسية، ثم تأتي مهمّة ممثلي الأسرتين للشروع في مفاوضات أشد قسوة. والأساس المنطقي لهذه المفاوضات هو الأخذ بالاعتبار البدايات الأولى للمصاعب التي قد تبرز بعد أن يتم الاتفاق، قبل إنهاء أمور العرس، على أيّ تسوية طلاق إذا ماكتب لهذا الأمر أن يحصل يوماً ما. وهكذا فإنه يتبيَّن أن إمكانية حل الزواج تؤخذ بالحسبان خلال هذه المفاوضات حول هذين العرفين الإسلاميين وهما مهر الزواج وعقد الزواج، قال تعالى:

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ إِلاّ أَنْ يَعْفُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٧].

﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاّ أَنْ يَخافا أَلاّ يُقِيما حُدُودَ اللّٰهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّ يُقِيما حُدُودَ اللّٰهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيما افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٩].

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ [النساء: ٤/٢٠].

إن احتمالية حدوث الطلاق هو أمر يمكن توقُّعُه في هذه الآيات التي تتعلق بالمهر والـذي يجب أن يعطيه الرجل لزوجة المستقبل. ووفقاً لذلك فقد عَرَف المسلمون نوعين من المهر يجب أن يثبَّتا خلال مفاوضات عقد الزواج: المهر المعجَّل يدفع قبل الزواج؛ والمهر المؤجَّل يدفع على أقساط أو كاملاً عند الطلب إذا أخل الزوج بعقد الزواج كما في الآية (٤٠ من سورة النساء) وإذا أراد الزوج الطلاق قبل الدخول علـى الزوجة فإنه يتوجب عليه دفع نصف ما كان قد اتفق عليه كما في الآية(٢٣٧ من سورة البقـرة) وأمـا إذا أرادت الزوجة فسخ عقد الزواج فإنه يتوجب عليها أن تعيد بعض صداقها أو كله، وذلك حسب درجة اللوم الذي توجهه المحكمة إلى الزوج كما في الآية(٢٩ من سورة البقرة)[٣٦].

وغالباً ما يكون المهر (الصـداق) علـى شـكل أشياء ذات قيمـة مثـل المجوهـرات أو الممتلكات، ويمكن أن تكون تسوية المهر، كمـا تقـترح الآيـة (٢٠ مـن سـورة النساء) كبيرة جداً. وكمثال على ذلك فقد اشترى أحد أصدقائي الأميركين لعروسه، كجـزء من صداقها، شقّة في القاهرة تقوم حالياً بتأجيرها واستثمار أموالها. وصديـق آخـر مـن السعودية أعطى زوجته بموجب عقد زواجها من الماس ما قيمته مئة ألف دولار.

وعلى نحو مشـابه فـإن المهـور المؤجلـة قـد تتضمـن بعـض الترتيبـات الـتي تـأخذ في حسابها التضخم، مثل نسبة محددة من دخل الرجـل السـنوي ولعـدد مـن السنوات أو بعض من أمواله المجموعة المنقولة؟ فعلى سبيل المثال قد تسـتحق الزوجـة نصـف أمـوال زوجها غير المنقولـة. وممـا يثـير الاهتمـام غالبـاً أن يسـألني بعـض الشـباب الغربـاء مـن المسلمين إن كنت أعرف أيّ نسـاء مسـلمات أميركيـات يرغـبن في الـزواج. وعندمـا كنت أنصح هؤلاء الشباب أنه من الأسهل لهم أن يتخذوا أزواجـاً مـن بلدانهـم، كـان

(٣٦) راجع المراجع السابقة في أجل مزيد من المعلومات.

معظم هؤلاء يقول لي: إن النساء الأمريكيات لايطلبن مهوراً عالية. إنني شخصياً لست مرتاحاً بتقديم صديقاتي إلى رجال قد يستغلّون عدم معرفتهن بهذا العرف.

إن المهر هو أحد العوامل التي يجب أن يتم الاتفاق عليها بواسطة عقد الزواج والذي هو الأداة الرئيسة لحماية حقوق وحاجات كلا الشريكين. وفي عقد الزواج يمكن لأي شريك أن يحدد أيّ مطالب مادامت لا تتعارض مع أي عنصر من عناصر الشريعة الإسلامية. وهكذا يمكن للمرأة أن تُصِر على أن تكون قادرة على العمل خارج منزلها، أو أن يتولى زوجها نفقات دراستها إن كانت طالبة أو أن يكون لها مربية لأولادها. والقضاة في الإسلام يعترفون بأن الرجل إن أراد أن يتخذ زوجة أخرى فإن الأمر قد يتطلب الحصول على موافقة زوجته الأولى[٣٧]. وقد يكون من الزيادات في الذين أن يدّعي أحد الشريكين الحصول على امتيازات يسمح بها القانون أصلاً، ولكن عقد الزواج يحاول من البداية أن يثبّت نقاط اتفاق ممكنة، وفي حال حدوث الطلاق فإن هذا العقد لن يبقى اعتباراً حيادياً في عين القاضي، بل إن الفريق الذي أخل بالعقد سوف يكون هو المذنب.

وبالنسبة للمسلم فإنه يجب أن يتحاشى الطلاق مهما كلّف الأمر وخاصة إن كان هناك أولاد؛ وحتى في أفضل الحالات لن يكون الطلاق عادلاً بحق لأولئك الذين يتأثرون به. وقد أثر عن النبي قوله:« إن الطلاق هو أبغض الحلال إلى الله[٣٨] ». إن موقف الإسلام بالنسبة للطلاق يشبه موقفه تجاه الحرب: أحياناً قد يكون ضرورياً ولكن فقط كملاذ أخير، ولهذا السبب يجب استدعاء وسطاء من كلا الطرفين كما في

(٣٧) هودكينسون، *قانون الأسرة المسلمة*، ص ١٥٠-١٥١.

(٣٨) ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق، حديث محارب بن دثار أخرجه أبو داوود في الطلاق، باب: كراهية الطلاق، موصولاً ومرسلاً، رقم (٢١٧٧و٢١٧٨)

الآية (٣٥ من سورة النساء) ولهذا السبب لايصبح الطلاق غير رجعي(بائناً) إلا بعد أن يُلْفَظَ في ثلاث مناسبات منفصلة، وبعد أن تعقبه فترة انتظار مدتها ثلاثة أشهر يقول تعالى:

﴿الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإحْسانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إلاّ أَنْ يَخافا أَلاّ يُقِيما حُدُودَ اللّهِ فَإنْ خِفْتُمْ أَلاّ يُقِيما حُدُودَ اللّهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيما افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلا تَعْتَدُوها وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ ، فَإنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإنْ طَلَّقَها فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا إنْ ظَنّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٩-٢٣٠].

وإذا ما أخفقت مساعي الصلح ووقع الطلاق ثلاثاً فإنه يقال للمرأة أن تنسى زواجها، وأن تتطلع بإخلاص إلى زواج جديد، وقد يكون زواجاً أكثر نجاحاً، ويكون في الوقت نفسه عبرة للزوجين السابقين لقاء اتخاذهما قرار إنهاء ذلك الزواج. ولمّا كان حل أي زواج غالباً ما يشحن بمزيج من العواطف والانفعالات، فإن هناك الخطر دوماً وهو أن بعض الأطراف سوف يحاولون خرق روح أوامر الدين بينما يحاولون الحفاظ على حرفيته. إن هذا يشرح سبب عدم قدرة المرأة على العودة إلى زوجها السابق إن أرادت ما لم يطلقها زوجها الجديد كما في الآية(٢٣٠ من سورة البقرة) ذلك أن هذا الإجراء يؤكد صحة نيتها في البحث عن زواج ثان.

ومن المفارقات أن العديد من القضاة المسلمين في الماضي كانوا يسمحون للزوج أن يطلق زوجته طلاقاً بائناً، وذلك بأن يلفظ كلمة الطلاق ثلاثاً في مناسبة واحدة، وهذا أمر ينافي مقاصد القرآن. ومن أجل استدراك مساوئ كهذه فقد عمدت العديد من الدول الإسلامية لتسجيل كافة حالات الزواج وفسخ الزواج على نحو رسمي. إن هذا

الإجراء قد يبدو إيجابياً وينسجم مع الأمر القرآني ﴿وَلا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً﴾ [البقرة: ٢/٢٣١] والذي يرد في وسط نقاش مطوّل عن الطلاق.

وبناء على الآية (٢٢٩ من سورة البقرة) وعلى حوادث أخرى عدة خلال عهد النبي، فإن المحامين المسلمين يعترفون دوماً بحق المرأة أن تطلّق زوجها. وفي المراجع الشرعية فإن المصطلح الفني للطلاق المستخدم (في العربية) بناء على طلب الزوج هو (طلاق) والمصطلح المستخدم بناءً على طلب الزوجة (خلع) (٣٩) وغالباً ما يتم الاستشهاد بالحالة التالية:

اشتكت جميلة بنت سلول إلى النبي من زوجها قائلة: يا رسول الله! ثابت بن قيس، ما أعتب عليه في خُلُق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام فقال رسول الله: «أتردّين عليه حديقته؟» قالت: نعم. قال رسول الله: «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة» (٤٠).

والمؤسف أنه على الرغم من أن الدليل كان يمكن ببساطة تفسيره بحرّية، إلاّ أن العديد من القضاة فعلوا العكس، واختاروا أن يحدّوا من حقوق المرأة في هذا الصدد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ومن الممارسات الشائعة في بعض الأماكن عدم السماح للمرأة بممارسة حقوقها ما لم يكن ذلك مكتوباً في عقد الزواج، وما لم يرتكب زوجها إحدى الكبائر وهذه محدودة جداً في عددها.

إن قيود القرآن المتعلقة بالطلاق وهذا ينطبق على حقوق الرجال والنساء بشكل عام ليست واحدة بالنسبة للجنسين. فعلى سبيل المثال يتوجب على النساء قضاء العدة، وهي ثلاثة أشهر، قبل أن يصبحن قادرات على الزواج ثانية (إن شئن ذلك) وذلك من أجل تثبيت الأبوّة إن كان هناك حمل ما، في حين أن الرجال يستطيعون

(٣٩) هوديكنسون، *قانون الأسرة المسلمة*، ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٤٠) فضل الرحمن، دور النساء في المجتمع الإسلامي. ص ١٥٠-١٥٢.

الزواج ثانية في الحال. ولكن القرآن يؤكد أن العدالة والمساواة يجب أن يسودا، ومرة ثانية أقول: إن هذا هو أحد العناصر البديعة في القرآن، فالقرآن دوماً على احتياط لمواجهة التحديات المستقبلية التي لم تكن في الحقيقة لتثار خلال فترة نزول الوحي بل لقرون لاحقة. ففي القرن السابع لم يكن من السهولة بمكان تبرير أي تفاوت بين الجنسين فيما يتعلق بالقيود الدينية فيما وراء مقولة إن الرجال بالفطرة يتفوقون على النساء. ومع ذلك فإننا نجد في القرآن الدفاع التالي في نهاية النص حول مسألة الطلاق:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٨].

وهناك أيضاً الآية التي ذكرناها سابقاً:

﴿وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً. وَلِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ، الرِّجالُ قَوّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِم﴾ [النساء: ٤/٣٢-٣٤].

وهكذا فإننا نشعر بإشارة من القرآن إلى أن حقوق المرأة المسلمة ستبقى نقطة خلاف. وجواب ذلك يبدو أنه يتوجّب على المرء أن يأخذ باعتباره النطاق الأوسع الذي جرت فيه لفظات الطلاق. وإذا كان للرجال والنساء المسلمين الحقوق والواجبات نفسها تقريباً (في الوقت الذي أعطى الرجال درجات أكبر من الحقوق والواجبات) فإن مرد ذلك هو أن الخالق قد أخذ بحسبانه طبيعة المجتمع برمّته.

سبل الجنّة

وقفت أراقبهما عندما التقتا ثانية. لقد ارتاحت كلٌّ منهما للأخرى لدرجة بدتا

وكأنهما لم تمرا بالعذاب الذي عانته كل منهما، وكأن الحب الذي بينهما كان منذ زمن بعيد. قلت في نفسي إن كان الله يعطينا شيئاً ما من روحه، فلا بد وأن النساء قد نلن النصيب الأكبر من الرحمة والعطف. في ذلك الوقت تماماً وبعد ولادة طفلتي الثالثة شعرت بأن الله قد حباني بقبس خاص من الاندفاع الخلاّق الذي يأتي بنا للوجود.

إن القرآن واضح تماماً في تأكيد أن الرجل والمرأة خلقا من الجوهر الروحي نفسه، وأن ليس لأحد منهما فضل على الآخر في مسألة الصلاح. ومع ذلك، وضمن هذا المجال فإن الإسلام يعترف بالفروقات بأفضل الطرق التي تناسب التطور الروحي لكل منهما. لقد كانت أمي دوماً تصرّ على القول: إنه ليس هناك على الأرض حب يعادل حب الأم لأطفالها. إن لفكرتها هذه مايؤيدها في الإسلام.

لقد لا حظنا لتوّنا وفي مواضع عدة كيف أن القرآن يقرن ما بين اعتماد الإنسان على الله باعتماد الطفل على أمّه كما في الآيات (١٤ من سورة لقمان، و١٥ من سورة الأحقاف)، وأن هناك العديد من أحاديث النبي التي تقارن ما بين محبة الله ومحبة الأم لأطفالها. ففي إحدى المرّات أشار النبي إلى امرأة تحتضن وليدها فسأل صحابته إن كانوا يظنوّن إن كانت طارحة طفلها في النار، وعندما أجابوا: إن ذلك مستحيل طبعاً، أخبرهم قائلاً «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»[٤١].

وليس كون محبة الأم هي أقرب الأشياء على الأرض من محبة الله فحسب، بل إن هذا الحب قد يكون قوتها العظمى، وأحد سبلها الرئيسة إلى التفوّق الروحي. ويمكن

---

(٤١) حديث عمر أخرجه البخاري في الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله...، رقم (٥٦٥٣) ومسلم في التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (٢٧٥٤).

تفسير قول محمد: «الجنة تحت أقدام الأمهات» [٤٢] بـ (الأمومة هي حجر الارتقاء إلى الجنة). إن هذا يجب ألايعني أن الأبوّة لا تلعب دوراً كبيراً في التطوّر الأخلاقي للإنسان؛ ذلك أن هناك آيات في القرآن وأقوالاً للنبي تشدّد على أهمية الأبوّة، بل يتوجب علينا القول إن المصدرين نفسيهما القرآن والحديث يعذان أن تضحية الإنسان بنفسه في سبيل هدف عادل من أعظم ما يقوم به الإنسان في سبيل سعيه للكمال.

وبنظرة أدق إلى الأيتين (٣١ من سورة لقمان، و١٥ من سورة الأحقاف) نجد أنهما تقترحان موازنة روحية عميقة ما بين الله والإنسان - والطفل والأم. وفي رأينا، فإننا نادراً ما نربط محبتنا وتعلقنا بأمهاتنا مع هاتين الحالتين الهامتين الواردتين في هاتين الآيتين: عمل الولادة وعمل فطامنا عن ثدي أمهاتنا. ولكن علماء النفس يؤكدون أن المرء خلال حياته يمر بمحن ما بين رغبته أن يكون اعتمادياً وأن يكون استقلالياً في الوقت نفسه، والطريقة التي يتعامل بها مع هذه المعاناة هي التي تحدد بشكل جزئي شخصيته. إن هاتين المحنتين اللتين لامفر منهما في حياتنا ينبعان من خلال إرادة الحب التي لا يمكن كبح جماحها. وعلى نحو مشابه فإن انفصالنا الدنيوي عن الله والصراع الداخلي الذي يخلقه ما بين رغبتنا الروحية (التي غالباً ما تكون غير مدركة) بالعودة إلى الله وما بين الباعث الضمني للاستقلال الشخصي، إن هذا الانفصال يزكي تطور روحانيتنا وكامل شخصيتنا. وبهذه الطريقة يكون حب الأم وحب الطفل المقدسان دلائل على الرحمة السامية التي جاءت بنا لهذا الوجود.

(٤٢) جاء جاهمة إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت أن أغزو، وقد جئت أستشيرك. فقال: هل لك أم؟ قال: نعم! قال: فالزمها، فإن الجنة عند رجلها، حديث معاوية بن جاهمة أخرجه النسائي في الجهاد، باب: الرخصة في التخلف لمن له واحدة (١١/٦) وأحمد في مسنده (٤٢٩/٣) وإسناده حسن.

والإسلام كنظام واثق كل الثقة من أن أي تذكير بأهمية وسموّ الأمومة هو باعث كاف للمرأة المسلمة بأن تلد الأطفال وترعاهم؛ وإلاّ لما منحها الإسلام استقلالاً شرعياً واقتصاديّاً ولاحَقّاً بالطلاق والميراث. وعلى الرغم من أنه توجد في الغرب هذه الأيام عدة أسر مسلمة تناضل بجد لتأمين هذا الخيار للأمهات المسلمات إلاّ أن المصاعب لتحقيق ذلك تزداد باستمرار.

فيما وراء العلاقة ما بين الزوج والزوجة

ما زلنا حتى الآن نناقش علاقة الرجال والنساء ضمن الأسرة وبشكل رئيسي علاقة الزوج والزوجة. ولكن علاقة الزواج، من الناحية النظرية، قد تتضمن أكثر من مسألة شراكة مادام أن القانون الإسلامي يسمح بالزواج حتى من أربع زوجات.

فعندما نزل هذا البيان أولاً كان في الواقع بمنزلة تحديد، ذلك أن عرب الجاهلية كان بمقدروهم أن يتخذوا عدداً غير محدد من النساء زوجات. إن ردود فعل مسلمي اليوم مختلط يتفاوت ما بين الإصرار على أن الإسلام يأمر بالزواج الأحادي monogamy، إلى الاعتقاد بالفكرة القائلة: إن الرجال مزواجون بالفطرة؛ وأنهم بالنتيجة، سيكونون مجبرين على البحث لإيجاد طرق يشبعون فيها هذه الحاجة إذا ما حرِّم أمر تعدد الزوجات polygyny.

إن هذا الموضوع غالباً ما يناقشه غير المسلمين من وجهة نظر دنيوية. ولقد بثّ التلفزيون العام مؤخراً برنامجاً للتحقق فيما إذا كان الرجال مزواجين بالفطرة أم أن النساء أحاديات بالفطرة، وفي عام ١٩٨٧ استطلعت جريدة الطلاب في جامعة كاليفورنيا (بيركلي) رأي عشرة من الطلاب والطالبات تقريباً فيما إن كانوا يعتقدون إن كان يجب على القانون السماح للرجال بالزواج من أكثر من امرأة وذلك استجابة للنقص الملحوظ في عدد المرشحين من الذكور للزواج في كاليفورنيا. لم يكن الاستفتاء علمياً ولكن المدهش أن جميع المستفتين تقريباً أيدوا هذه الفكرة. وذهبت إحدى

المستفتيات إلى حد القول إن الزواج التعددي يرضي حاجاتها العاطفية والجنسية ويعطيها حرية أكبر من تلك التي يعطيها الزواج الأحادي. وطالما أن بيركلي Berkeley مشهورة بتطرّفها فإن ردود الفعل نفسها قلما تجدها عند الطلاّب في حرم الكليات الأخرى. ولكن فكرة تعدد الزوجات كحل لبعض المعضلات الاجتماعية تتناسب ومقاصد القرآن:

﴿وَإِنْ خِفتُمْ أَلاّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتامَى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النّساءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُباعَ فَإِنْ خِفتُمْ أَلاّ تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاّ تَعُولُوا﴾ [النساء:٤/ ٣].

لقد كان هناك نوع من الخلاف بين صحابة الرسول حول التفسير الدقيق لهذه الآية[٤٣] ومناسبة نزولها، ولكن كان هناك إجماع على أنها تحدد عدد الزوجات اللواتي يمكن للرجال أن يتزوجوهن وهو أربع. وهناك أيضاً اتفاق بين مفسّري القرآن من أن هذا التنزيل كان استجابة للازدياد المطرد لعدد الأرامل واليتامى من جرّاء الحروب في العاصمة الدولة المدينة المنوّرة. ويعتقد الكثير من المفسّرين أن هذه الآية تقدم حلاً لمشكلة هؤلاء الأرامل الثكالى. وفي حين أنه ليس هناك من شك بأن فعلاً أو عملاً كهذا سوف يكون ضمن هدف التنزيل، إلا أن الهدف هو بالتأكيد أكثر عمومية مادام أن ذلك يخاطب قلق جميع اليتامى وليس فقط الإناث. وهذا واضح من خلال كلمة (يتامى) المستخدمة هنا والتي تدل على جمع المذكر (وجمع المذكر في العربية هنا يشتمل على كلا الجنسين في حين أن جمع المؤنث يستخدم فقط عندما تكون النساء هن المعنيات). وهكذا يبدو أن القرآن يشجع الرجال أن يشملوا برعايتهم العائلات المنكوبة التي فقدت معيلها (الأب)، وذلك عن طريق الزواج الشرعي من هؤلاء الأرامل ومن اليتيمات اللاتي وقعن ضحية مثل تلك المآسي.

(٤٣) محمد أسد، *الرسالة*.

إن الحس العام يشير إلى أنه في الظروف العادية يكون الزواج الأحادي هو المفضّل بتخطي مثل الظروف المذكورة في الآية، وكذلك إن كان عدد الرجال والنساء المؤهلين للزواج في شعب ما متساوياً فإن الزواج من واحدة هو الاستجابة الفعّالة لأمر الله ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيامَى مِنْكُمْ﴾ [النور: ٢٤/٣١-٣٢]. ومن المتوقع أن يكون هناك توتر في وضع الأسرة متعددة الزوجات. ويرى العديد من المسلمين اليوم أن الزواج من واحدة هو المفضّل مستشهدين بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩/٤]. وطالما أن هذه الآية تظهر في مواقع عدة المواقع حيث الزواج على شفا حفرة من الطلاق ربما يجب ألاّ تؤخذ على أنها تعليق مباشر على الآيات (٢-٥ من سورة النساء)، ولكن مهما يكن فإن ذلك لا يمنع استخدامها للمساعدة على توضيح معنى النص. إن حقيقة كون الآيات هذه تعبّر عن القلق الذي قد ينجم من عدم العدل بين الزوجات، إن هذه الحقيقة تبرهن على أن أمر الزواج من أكثر من واحدة يجب أن يأخذه الزوج على عاتقه بعناية بالغة. ففي الباكستان مثلاً، وفي محاولة لدرء المساوئ والتقليل منها قدر الإمكان، فإن الحكومة الآن تطلب برهاناً من الزوج على أنه يستطيع أن يلبي كافة حاجات زوجاته جميعاً وبالتساوي قبل أن يسمح له بالزواج من أكثر من واحدة[٤٤].

ومن سوء الحظ أنه في كل زمان ومكان تقريباً تحدث أزمات من النوع الذي ذكر في الآية (١٢٩ من سورة النساء) حول الزواج من أربع. وفي الولايات المتحدة اليوم إن عدد سكان الأسر التي تشتمل على أم واحدة وأطفال يتامى هو عدد كبير جداً، وغالباً ما نجد توسلات في المجلات الإسلامية من هؤلاء يطلبون من أسر أخرى أن تساعدهم. إن قلق مثل هؤلاء الأمهات هو من أجل أطفالهن، كما هو الأمر في القرآن،

(٤٤) هودكينسون، *قانون الأسرة المسلمة*، ص ٩٥-١٠٠.

ذلك أن الآية (٣ من سورة النساء) تبدأ كالتالي: ﴿و إن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى﴾.

إن العائقين الرئيسين أمام اتخاذ زوجة ثانية في الولايات المتحدة هما القانون والكره الثقافي الأمريكي الشديد لمسألة تعدد الزوجات. إضافة إلى ذلك، فإن معظم الأميركيين من الرجال يشعرون أنه من العسير إعالة أسرة واحدة، فكيف إذا كان أكثر من أسرة؟! إن الرجال الذين يرغبون بالزواج للمرة الأولى يحجمون لأسباب معروفة عن تبني أسرة قد ألمت بها فاجعة، بل إن معظم الرجال يفضلون أن يبدأ زواجهم الأوَّل على الأقل تحت ظروف أفضل. إن هذا قد يشرح قول القرآن: ﴿فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ﴾ [النساء: ٣/٤]، لأنه بالإضافة إلى فرض سقف على عدد الزوجات، فقد تشير هذه الآية إلى أن الرجال الذين يملكون الوسيلة ويملكون الأُسر تقع عليهم مسؤولية أكبر وهي أن يشملوا برعايتهم مثل تلك الأسر المنكوبة، كما قد يفهم من كلمات الآية التي تشجعهم على القيام بذلك. وعلى أي حال ما لم يستطع المسلمون الأميركيون التغلب على عقبات تعدد الزوجات فإن عليهم تأسيس صندوق اجتماعي لمساعدة الثكالى[٤٥].

وخارج نطاق علاقات الزواج فإن مواضيع تتعلق بمكانة النساء في الأعمال التجارية والسياسية والثقافية ومواضيع متعلقة بها عن اللباس والفصل عن الرجال تثير حالياً قدراً كبيراً من الجدل. وأريد أن اختتم هذا البحث عن مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي بالحديث

---

(٤٥) في بعض المناسبات كانت بعض المجتمعات الإسلامية تواجه مشكلة وجود شبان مؤهلين للزواج مع قلة عدد النساء. مثال ذلك عندما خرج المجتمع الإسلامي مهاجراً من مكة إلى المدينة وكذلك خلال الفتوحات الإسلامية إذ كانت الاقاليم المفتوحة خالية تماماً من أي نساء مسلمات. ففي حالات الإقامة المؤقتة كان النبي يشجع أصحابه على الصوم كطريقة لكبح جماح الشهوة الجنسية وأما الخيار الآخر فهو أنه بمقدور المسلم الزواج من الكتابيات على الرغم من أن الزواج من غير المسلمات أمر لاينصح به.

المقتضب عن كلٍّ من هذه المواضيع. مادام وضع المرأة المتدني شاهدة كان سبباً في تحديد دخولها إلى الحلبة المدنية والمدينية فإني أجد من المناسب أن أبدأ بهذا الموضوع.

شهادة المرأة

قال تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُما الأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢/٢٨٢].

تستخدم هذه الآية حجةً لاستبعاد النساء من المناصب المدنية والسياسية وذلك بسبب قلة شأنهن السياسي، وبالتالي الأخلاقي وكذلك بسبب عدم جوازشهادة المرأة في جميع القضايا خارج نطاق الصفقات التجارية[٤٦]. ومن حسن الحظ، وكما يوضح بدوي، فإن أفكاراً كهذه لم تكن لتعجب جميع العلماء المسلمين، ويبدو أن علماء اليوم يتحركون ببطء في الاتجاه المعاكس[٤٧]. ومن هذا النص نفهم أن الغرض الأساسي منه ولم أقتبس سوى نصفه فقط هو حماية الاتفاقيات التجارية في سبيل تجنب أي خلاف لاحق. وفي مواجهته للأمية الواسعة الانتشار، فإن الإسلام قد فرض معايير صارمة لضمان شروط العقود التجارية مقللاً بهذا الإجراء من إمكانية الخداع وسوء الفهم اللذين كانا غالباً ما يحسمان، على الأقل في الماضي، عن طريق العنف. وفي ذلك الزمان، ولعدة قرون تالية وفي كل المجتمعات، كانت النساء بشكل عام أقل ثقافة وأقل

---

(٤٦) فضل الرحمن، *دور المرأة المسلمة في المجتمع*، ص٢٦٠-٢٧٠ و٣٤٧-٣٥٧.

(٤٧) بدوي، *وضع المرأة في الأسلام*، ص ٢٢-٢٥ : فضل الرحمن، *دور المرأة المسلمة في المجتمع*، ص٢٦٠-٢٧٠.

حنكة في المعاملات الاقتصادية من الرجال؛ وبالنتيجة فإن القرآن يتطلب شهادة رجلين أو رجل وامرأتين.

ففي ثمانية مواضع من القرآن (البقرة: ٢٨٢/٢، والنساء: ٤/٦،و١٥ والمائدة: ٥/١٠٩-١١٠ والنور: ٢٤/٤ و٦و٩، والطلاق: ٦٥/٢) نجد أن هناك تعليمات تتعلق بالإدلاء بالشهادة. ومن هذه هناك حالتان تشيران فقط إلى حلف يمين وليس إلى الشهادة بشكل عام، في حين تشير الحالات الست الباقية إلى الإدلاء بالشهادة. ففي جميع الحالات عدا الآية (٢٨٢ من سورة البقرة) لايوجد هناك تحديد لجنس الشاهد. وهناك العديد من الأمثلة في مجموعات الحديث إذ تقبل شهادة المرأة دون الحاجة إلى تعزيز إضافي، وأحياناً هناك أماكن تجعل فيها شهادة امراة واحدة تلغي شهادة عدة رجال[٤٨] . إضافة إلى ذلك فإن العديد من أحاديث النبي قد تضمنتها الصحاح على أنها موثوقة على الرغم من أن مصدر هذه الأحاديث هو رواية امرأة واحدة. من هذه الملاحظات، فإن العديد من الكتّاب المعاصرين يصرحون علناً أن الآية المذكورة لم يقصد بها أن تكون شرطاً عاماً. ولقد قدمت تسويغات عدة من أجل هذا المطلب شهادة امرأتين تعادل شهادة رجل واحد في حالة المعاملات التجارية: مثل مزاجية المرأة الكبيرة، وحالة عدم الاستقرار العاطفي الذي تسببها دورة الطمث، وكفاءة الرجل الطبيعية في شؤون التجارة والرياضيات والتي تفوق كفاءة المرأة. وإذا ما قبلنا بأن هذه الآية يجب ألاّ تعمم لتشمل الأمور غير المالية، وهذه فكرة سائدة في الغرب، فإن الشرح الأخير فقط هو الذي يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، مادامت الشروحات الأخرى، إذا ما أصبحت سارية، سوف تكون على عكس شهادة المرأة في أوضاع أخرى مثل جلسات سماع المجرمين.

ففي الولايات المتحدة وأوربة ومجتمعات أخرى أيضاً تثبت النساء جدارتهن بأنهن

---

(٤٨) فضل الرحمن، دور المرأة المسلمة في المجتمع، ص ٢٦٦-٢٧٠.

قادرات على منافسة الرجال في عالم المال. إن غالبية القياديين في الأمور التجارية الكبرى ما يزالون من الرجال ولكن النساء يثبتن جدارتهن ويكسبن نفوذاً متزايداً؛ وهكذا فإن الادعاء بأن الرجال هم أكثر كفاءة من النساء في أمور المشاريع المالية هو ادعاء أصبح الآن من الصعب الدفاع عنه. ولقد تم التصريح علناً أنه في المجتمع الإسلامي الصحيح تكون مهارات النساء مفيدة إذا ما دعت الضرورة إلى مشاريع أخرى غير أمور المال وهذا ما سيجعل عالم المال حكراً على الرجال. ولكن المناقشات المثالية تعتمد على نظرة المرء إلى المجتمع الإسلامي الحق ولابد أن هناك خلافاً حول كيف يجب أن يكون المجتمع إسلامياً بحق؟

إن لب المسألة يعود لشرط القرآن وهو ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان﴾. وكما هو الحال في الغالب عندما نقرأ كلام الله فإننا نشعر مجبرين على مطابقة خبرتنا الحالية مع التنزيل، فبعضهم يصر على الاستسلام الكلي للنص القرآني، في حين نجد آخرين يدافعون عن التفسير في ضوء الظروف التي طرأ عليها التغيير. وكمثال أقول، مادام القرآن وضع معايير معيَّنة لمعاملة الأرقاء (أي إذا زنت الرقيقة فعقوبتها تكون نصف عقوبة المرأة الحرة)، فإننا قد نسأل إن كان يسمح للحكومات المسلمة على الإطلاق أن تحرّم الاسترقاق. ولسوف يصرّح معظم الناس أن القرآن يروّج أمر إبطال الاسترقاق النهائي ويؤيد أمر إبطاله. وبطريقة مشابهة، بعضهم سوف يصرّون على أن الإسلام يروّج للمساواة في الفرص للرجال وللنساء في الثقافة وفي أمور المشاريع المالية. وإذا ماتم تحقيق ذلك وتمت إزالة الفوارق، فهل يبقى من الضروري الأخذ بعين الاعتبار جنس الشاهد في المعاملات التجارية؟ ويجيب فضل الرحمن بالنفي قائلاً:

ولأن الحالة التي يتحدث القرآن عنها هي حالة عقود مالية، ولأنه في تلك الأيام لم تكن النساء ليتعاملن بالموارد المالية أو المشاريع المالية بشكل عام، فقد جاء النص

القرآني على أنه من الأفضل الأخذ بشهادة امرأتين بدلاً من واحدة إذا ما دعت حاجة إلى شهادة النساء أصلاً. إن هذا يعني طبعاً أنه إذا ماتوجب على المرأة الحصول على ثقافة تعادل ثقافة الرجل، وإذا ماتوجب عليهن أن يصبحن محنكات بأمور الموارد التجارية والمشاريع المالية، فإن القانون يجب أن يغيَّر تبعاً لذلك[٤٩].

إن المسلم يحجم بشكل (أوتوماتيكي) تقريباً عن أي تفكير من هذا القبيل، ذلك أن القرآن للمسلم والمسلمة ليس مجرد محصلة ثانية للوحي المقدس، بل إن القرآن هو وحي خالص مباشر. إن تفسيرات جزئية من هذا النوع تبتعد عما يتوافق مع الأوامر، ذلك أن هذه التفسيرات تفترض أن المفهوم الإلهي قد يكون وسيلة للانغماس الذاتي، ووسيلة للتملص مما قد أمر الله به وخاصة إذا كانت هذه التفسيرات غير جادة. ومع ذلك فإن جميع التفسيرات، بما في ذلك التفسيرات الحرفية، تتضمّن بعض التأمّل، لأنها تفترض أن هذه التفسيرات لم يقصد منها أن تختص ببيئة محددة. من أجل ذلك وحول هذه النقطة أشعر بالميل لموافقة فضل الرحمن لأنني أقبل ما يذهب إليه، وهو أن من أحد أهداف الإسلام هو تحقيق تكافؤ الفرص في التعليم والمشاريع المالية للرجال وللنساء، وأنه في الوقت نفسه قد أخذ القرآن بكامل حسابه التباين الموجود لكي يحمي العقود المالية.

ومن الطبيعي أنه يتوجب علينا أن نأخذ في حسابنا أن التقدم في التكنولوجيا قد مكّن من إيجاد نقاط تقاطع أكبر لدور الذكور والإناث، وكذلك أنتج مجتمعاً ذا بنىً اقتصادية أكثر تعقيداً من بنى الجزيرة العربية في القرن السابع. ومع ازدياد تعقيد عالم المشاريع المالية والقانونية فإن طرق الخداع البارعة جداً تزداد باطراد، مما يرغم المؤسسات المالية والقانونية على وضع معايير أفضل من أجل ضمان تعاملاتها. ففي الولايات المتحدة إذا كان لمعاملة شراء بيت ما عن طريق القروض طويلة الأجل أو عن

---

(٤٩) فضل الرحمن، *الصحة والطب في الحديث*، ص ١٠٥-١٠٦ والتشديد في النص هو تشديد الكاتب.

طريق عمل وصية أن يكون ذا قوّة قانونية فإن كلتا الطريقتين يجب دوماً أن تمرّا عبر مراجعات عدد من أقسام بعض المؤسسات، وبالتالي فإنها عادة ماتصبح مسألة سجل عام. مادام القرآن يولي أهمية كبرى لمسألة العقود وحماية العقود المالية، فإني أعلن بوضوح أن الإجراءات الوقائية القانونية للعقود المالية الموجودة حالياً، والتي تتجاوز متطلبات الآية قيد النقاش (أي الآية ٢٨٢ من سورة البقرة) هي في الغالب من أجل الصالح العام وضرورية جداً.

القيادة (قيادة المرأة للمجتمع)

إن انتخاب بنازير بوتو Benazer Bhutto لمنصب رئاسة الوزراء في الباكستان قد أثار نقاشاً كبيراً حول مقدرة النساء أن يشغلن مناصب قيادية في المجتمع الإسلامي. إن لهذا الأمر مضاعفاته للمسلمين الأميريكيين أيضاً مادام العديد ممن يعتنقون الإسلام هم من النساء الماهرات المدربات في التنظيم والقيادة، وممن يمتلكن مواهب في مجتمع هو في أمسّ الحاجة إليها. وليس هناك في القرآن تصريح مباشر ضد انتخاب نساء قائدات، بل إن القرآن يقدم لنا أنموذجاً فريداً عن الحاكمة الصالحة وهي ملكة سبأ بلقيس[٥٠]. ويظهر القرآن هذه الملكة على أنها قائدة حكيمة وعميقة التفكير وديمقراطية كرّست جلّ اهتمامها لسعادة شعبها ورفاهيته؛ ولقد قادت أمتها، من خلال نفوذ سليمان، إلى الإيمان بالله. ونظراً لغياب أي تحريم قرآني لهذه الإمكانية، ولأن المثال الوحيد المذكور في القرآن حول هذا مثال إيجابي، فإننا يمكن أن نتوقّع أن تكون فكرة المرأة الزعيمة مقبولة عند المسلمين ولكن، بشكل عام، ليس هذا هو الحال.

إن إحدى الحجج التي تقف حيال تولي المرأة للرئاسة هو أن المرأة غير قادرة على القيام بكافة الواجبات التي كان ينفذها محمد ومن بعده الخلفاء الراشدون. فعلى سبيل

(٥٠) آبوت، عائشة أحب الزوجات إلى محمد، ص ١٧٦.

المثال، كان محمد ومن بعده الخلفاء الراشدون، يؤمون المسلمين في صلاة الجماعة وطبيعي إن كان الحاضرون رجالاً فلا بدّأن يؤمهم رجل. وعلى نحو مماثل، فقد كان هؤلاء قادة عسكريين قادوا الجيوش إلى ساحات القتال، ويبدو أن النساء، بشكل عام، هن أقلّ كفاءة من الرجال لتنفيذ عناصر قيادة كتلك. ومادام المسلمون المسلمين يقبلون بقيادة النبي ومن بعده خلفائه الأربعة على أنها المعيار الأمثل لقيادة المجتمع، إذن فالمرأة لن تكون مؤهّلة لتسلُّم منصب رفيع كهذا.

و مع ذلك فإنه من غير المعقول أن نصرّ على أن القائد يجب أن يكون قادراً على تولّي الوظائف كافة التي كان يقوم بها الحكام المسلمون الأوائل. فالحكومة أكثر تعقيداً اليوم مما كانت عليه في السابق، وعلى الرغم من أننا نفضل مرشحاً رئاسياً متمرساً تماماً بالقانون الإسلامي والعلوم العسكرية والاقتصاد والإدارة، فإنه يكفينا أن نخلق معاهد حكومية عدة تتخصص كل منها في مجال من هذه المجالات. وبالنتيجة، فإن رئيس الدولة يستطيع أن يوجّه هذه المؤسسات من أطرافها. إننا لانتوقّع من قادتنا السياسيين أن يذهبوا شخصياً للحرب، ولسنا بحاجة أن نطلب منهم أن يكون عندهم المعرفة الضرورية والتدريب لتؤهلهم كي يقودوا الشعائر الدينية. وفي الحقيقة فإن القانون الإسلامي السني التقليدي، الذي يخالف وجهة النظر الشيعية، لا يضع الكثير من الواجبات على رئيس الدولة الذي كانت واجباته الأساسية إدارية. ومادام بمقدور هذا القائد أن يتولّى الدفاع عن الدولة بشكل فعّال ويطبّق الشريعة، فإنه يتوجب على المواطنين تقديم الولاء له[٥١] .

(٥١) جون ل. إسبوزيتو، *الإسلام والسياسة*، ص ٢٦-٢٩.
John L. Esposito, *Islam and Politics* (Syracuse: 1987), pp. 26-29

ولكن الاعتراض الأكثر جديَّة هنا يمكن أن يكون قول النبي: «ما أفلح قوم ولوّا أمرهم امرأة». ولقد ورد هذا الحديث في صحيح البخاري[٥٢] ، وهناك روايات أخرى في الصحاح الأخرى تصف القوم الذين يولون أمرهم امرأة بأنهم (تعساء" أو "قليلو الحظ). ولقد تم التشكيك بموثوقية هذا الحديث مؤخراً، ولكن الغالبية العظمى من علماء المسلمين يقبلون به. ومن الناحية الفنية يبدو أنه لايوجد هناك سبب معيَّن للتشكيك بهذا الحديث، مادام الراوي هو أبو بكرة نافع بن مسرّة الذي يعتقد أنه كان أحد عتقاء محمد وراوياً لعدد من الأحاديث الواردة في الصحاح. وكذلك فإن العلاقة المتبادلة القريبة ما بين تفاصيل الرواية والتطورات السياسية المعقدة في تلك الفترة تضيف مصداقية أخرى، علماً أنه كان بمقدور الناس آنئذ أن يحطّوا من جدارة المرأة في القيادة لو أراد أحد فعل ذلك.

وخلال ست سنوات من بعثة محمد، والتي تتوافق مع العام (٦١٥-٦١٦ ميلادية) أنزلت (سورة الروم) من القرآن الكريم. وحتى ذلك التاريخ، دفعت سلسلة منتظمة من الغزوات الفارسية ضد بيزنطة بالإمبراطورية المسيحية إلى حافة الانهيار، وقد أعطى سقوط القدس إشارة إلى بداية نهاية هذه الإمبراطورية. ولقد ابتهج مشركو قريش لهذا التطور؛ مادامو رأوا فيه ضربة ضد التوحيد الذي جاء به الإسلام. عندها تنبأت بداية هذه السورة بنتيجة معاكسة لهذه الفكرة لم يكن ليتصورها أحد تقريباً:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ، فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ، فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٣٠/٢-٤].

---

(٥٢) لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة، حديث أبي بكرة أخرجه البخاري في المغازي، باب: كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، رقم (٤١٦٣).

ويسجل التاريخ أن نجم الفرس بدأ بالأفول بعد ذلك بوقت قصير. ففي الفترة الواقعة ما بين (٦٢٢-٦٢٧) كانت الإمبراطورية الرومانية قادرة على استرداد أقاليمها المفقودة وذلك من خلال سلسلة من الانتصارات المذهلة وأن تتوغّل بعمق داخل الحدود الإقليمية الفارسية. وفي عام (٦٢٨) انهارت الإمبراطورية الفارسية، وسجن كسرى خسرو Khusrau ثم أعدم. وخلال فوضى الأعوام الثلاثة التالية اعتلى عرش هذه الإمبراطورية المتداعية أكثر من عشرة أفراد بما في ذلك إحدى بنات خسرو بوران. ولقد دام حكمها عاماً وبعض العام، وقد كانت تلك أوّل مرة في تاريخ الإمبراطورية الفارسية تصل فيها امرأة إلى سدة الحكم[٥٣]. وعندما سمع المسلمون الذين كانوا يرقبون بحرص الأحداث السياسية التي كانت تجري في فارس ليروا إن كانت ستصدق نبوءة القرآن، فعندما سمع هؤلاء أن امرأة اعتلت عرش إيران زفّ النبأ إلى النبي الذي نطق عندها بالحديث الذي ورد ذكره أعلاه، ومن الصعب القول إن كان النبي قد قال ذلك الحديث كمبدأ عام أو كاستجابة لتلك التطورات السياسية المعاصرة. فإذا ما عزلنا هذا الحديث عن المناسبة التاريخية التي قيل فيها أمكن اعتباره أمراً دائماً ضد مسألة شغل النساء لأيّ مناصب قيادية. ولكن يمكن القول إن النبي ربما كان يثبت بذلك القول نبوءة القرآن ويؤكد لصحابته أن الإمبراطورية الفارسية لن تسترجع قوّتها السابقة، وأنها بقيامها بهذا الإجراء الجذري (تولية امرأة لأول مرة في تاريخها)، قدمت دليلاً آخر ينذر بانهيارها الوشيك. وعلى هذا فالحكم على ما قد عناه النبي بهذا الحديث يعتمد على اللجوء لدليل آخر. وبسبب التصوير القرآني الإيجابي لملكة سبأ، ولأن سجل النساء الحاكمات في الماضي والحاضر كان وما يزال لا بأس به، وبالإضافة إلى حقيقة أن فكرة تولي النساء أصبحت الآن مقبولة على نحو واسع في الثقافة الغربية،

---

(٥٣) إحسان يارشاطر، *كامبريدج (مطبعة جامعة كامبريج،١٩٨٣)* ص ١٧٠-١٧١.
Ehsan Yarshater, The Cambridje History of Iran (Cambride Unierty Paris,1982), pp. 170-171.

فسوف أكون مندهشاً إذا ما أنكر المسلمون الأميركيون على النساء جدارتهن في تسلم المناصب السياسية القيادية.

لباس المرأة

لقد كانت دعوة النساء الماليزيات صغيرات القامة والأنيقات لطيفة وصادقة بحيث كان من الصعب على كارين Caren زوجتي أن ترفضها. وفي غضون الأسابيع القليلة منذ أن اعتنقتْ الإسلام، فقد كان المسلمون الوحيدون الذين قابلتهم كارين أولئك الذين كانوا يحضرون صلاة العشاء، وباستثناء حالة واحدة، فقد كان هؤلاء المسلمون جميعاً من الرجال، لذلك فقد كانت تتطلع لهذه المناسبة لتجتمع مع أخوات مسلمات في اجتماعهن هذا.

لقد دهشت كارين نوعاً ما عندما وجدت أنها الوحيدة التي لم تكن ترتدي الثياب الإسلامية التقليدية، ولطالما كانت تلاحظ نساء مسلمات أخريات في الحرم الجامعي يرتدين الأزياء الغربية. ولقد كانت دهشتها أكبر عندما علمت أن موضوع المحاضرة في تلك الليلة كان عن دستور اللباس الإسلامي، وقد كان واضحاً أن جميع النسوة الحاضرات قد استوفين شروط هذا الدستور؛ وبالنتيجة، فقد شعرت كما لو أنها كانت تمرّ باختبار، وتخضع، لتحقيق مقدس.

ارتسمت على وجه النساء الأخريات الحاضرات علامات التظاهر بالتقوى عندما أخذت الأميركية المحاضرة والمعتنقة للإسلام بالتحدث عن المخاطر والمرض و الرغبات اللاأخلاقية الرخيصة في المجتمع الغربي وبخاصة النساء فيه اللائي يعذبن أنفسهن والآخرين بعرض نصف أجسادهن عاريات. وحتى طلاء الأظافر لم توفره في خطبتها اللاذعة الذي وصفته على أنه شر. لقد أرادت كارين أن تخبيء يديها خلف ظهرها، وأن تنسلّ من هناك خارجة، وأن تقول للجميع أن يذهبن وأن ينتبهن لعملهن. لقد

كانت تلك أوّل محاضرة تحضرها عن الإسلام ومن بين الأشياء الوحيدة التي ركزت عليها المحاضِرة، وللدهشة، أساسيات ارتداء غطاء الرأس!

قلت لها بعد ذلك «ليتك أبلغتني عن دعوتهن لك مقدماً فأنا أكره أن أراك منزعجة هكذا». وعملياً فإن جميع النساء المسلمات يعانين من مسألة اتخاذ القرار للتقيد بما يشار إليه غالباً على أنه دستور لباس المرأة. وعندما أقول: النساء المسلمات فإني لا أقصد بذلك النساء الأميريكيات أو الغربيات فقط، ذلك أنه في رحلاتي للسعودية اكتشفتُ أن العديد من النساء السعوديات، إن لم يكن معظمهن، يتقيَّدن بالقواعد في العلن فقط وبسبب قرار الحكومة؛ وأما في بيوتهن فإنهن يرتدين ثياباً غربية نموذجية حتى مع حضور رجال غرباء. ومع ذلك وفي الوقت نفسه، فإن هؤلاء النسوة أنفسهن -وهذا ينطبق على النساء المسلمات في كل ثقافة- يصررن بشكل ثابت أن على المسلمة أن تتقيَّد بهذا الدستور بعد وصولها إلى سن البلوغ ويعزون إهمالهن إلى ضعف في الالتزام[٥٤] . مادامت الجزيرة العربية هي موطن الثقافة الإسلامية الأكثر تقليداً ومحافظة فإنه من غير المتوقع أن تكون نسبة النساء اللاتي يتقيدن باللباس الإسلامي فيها أقل من البلدان الأخرى.

وتتركز المصاعب أمام المرأة المسلمة في الغرب وبشكل أكبر لمعتنقات الإسلام وذلك لأسباب عدة، فبالإضافة إلى انضمامهن إلى نظام عقائدي ينظر إليه العديد من أبناء وطنهن على أنه مهدّد أو غريب، فإن المجتمع الإسلامي يشجّعهن على نبذ أسمائهن التي تسمين بها عند ولادتهن وتبديلها بأسماء عربية وأن يستخدمن العديد من التعابير العربية الرسمية في حديثهن اليومي. وقد يبدو كل من هذه المصاعب عرضيّاً، وبطريقة ما نفعياً، ولكن تأثيراتها التراكمية قد تؤدي إلى أزمة في الهوية. ويتفاقم الموضوع بحقيقة

---

(٥٤) ثريا التركي،المرأة في المملكة العربية السعودية، ص ٣٥-٣٨.

Soraya Altorki, *Women in Saudi Arabia* (Columbia Press, 1986), 35-38.

أنه على الرغم من أن رجال المسلمين عندهم دستور لباس إسلامي إلا أنه أكثر مرونة وأقل وضوحاً من دستور لباس النساء، وقد تم تفسيره بحرية أكثر. فمثلاً عورة الرجل قدتم تعريفها على أنها جسم الرجل مابين سرّته وركبتيه. وقد قام بعض العلماء في السعودية مؤخراً، وبعد مراجعتهم للمصادر الشرعية، بإعادة تعريف عورة الرجل على أنها المنطقة الواقعة ما بين السرّة وأعلى الفخذ. وعلى هذا فإن الرجل الغربي يمكن له أن يعتنق الإسلام، ويبقى- طالما استمر بإيمانه - مجهول الهوية من حيث المظهر، في حين أن هذا الشيء نفسه لايمكن أن ينطبق على المرأة الملتزمة بدينها.

و مما لاشك فيه أن القرآن في معالجته لموضوع الحشمة لايفرّق بين الرجال والنساء، إذ لا أوامر واضحة في القرآن حول لباس الحشمة للرجال في حين نجد أن هناك ثلاث آيات فيما يختص بلباس المرأة يقول تعالى:

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاّ ما ظَهَرَ مِنْها وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ. . . وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِن. . .﴾ [النور: ٣١/٢٤].

﴿وَالْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللاّتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ [النور: ٦٠/٢٤].

﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩/٣٣].

ففي عصور ما قبل الإسلام كان الزي التقليدي للمرأة القبلية العربية يتألف من غطاء رأس مزركش يتدلّى فوق ظهرها، وبحيث يظهر شعرها من الأمام وبلوزة طويلة واسعة الفتحة من الأمام تظهر النهدين مع تنورة تُحزم عند الخصر، إضافة إلى قطع

شتىً من المجوهرات كالخواتم والأقراط وأساور لليدين والكاحلين[٥٥] إن هذا الزي من اللباس، والذي لم يكن يغري فحسب، بل كان يخفف من قيظ الصحراء، كان يمكن رؤيته عند بعض النساء البدويات في الجزيرة العربية حتى بداية هذا القرن وقد قام بعض الرحالة الأوربيون بتصويره[٥٦]. فأوامر القرآن للنساء المؤمنات أن يضربن بخمرهن فوق جيوبهن كما في (الآية ٣١ من سورة النور) وأن يرتدين الجلابيب أمام الناس كما في (الآية ٥٩ من سورة الأحزاب) قد تسبب بفرض مستوى معيَّن من لباس الحشمة للنساء المسلمات بأقل إزعاج ممكن لهن في حين تستمر الآية (٣١ من سورة النور) بالقول بأنهن يستطعن أن يرتدين لباسهن المعتاد في بيوتهن بحضور المحارم والإماء. على هذا تصبح واضحة أقوال النبي المتعلقة بهذه الآيات، وبخاصة تلك المختصة بالآية (٥٩ من سورة الأحزاب)، علماً أن هذه الآيات كانت قد نزلت لدرء المفاسد الجنسية. مادامت المجتمعات بطبعها ميّالة دوماً لاستغلال النساء جنسياً أكثر من الرجال فإن التشديد باللباس يقع هنا على النساء أكثر من الرجال.

ومع الزمن فقد طوّر الفقهاء نظام لباس صارم للنساء المسلمات. ولكن ما أدى إلى الاستطرادات اللاحقة على اللباس الإسلامي بشكل وثيق هو ربما الخمار، كما هو مذكور في الآية (٣١ من سورة النور)، والذي يجب أن ينضم إلى الجلباب الذي ورد ذكره في الآية (٣٣ من سورة الأحزاب). والسجلات الأولية لمناقشات الفقهاء حول هذه المسألة، والتي تعود إلى أجيال صحابة رسول الله وتابعيهم، تركزت حول قضية

---

(٥٥) يوسف القرضاوي، *الحلال والحرام في الإسلام*، ص ١٦٠ ومحمد أسد، *الرسالة*، ص ٥٣٨-٥٣٩.

(٥٦) ويلفرد ثيسيغر، *الرمال العربية*، ص ١٩٢.

Wilfred Thesiger, *Arabian Sands* (New York: E. P. Dutton &Co., 1959), p. 192.

أنه على المرأة أن تغطي رأسها أمام الناس، ولكن لابأس عليها إن بدا منها وجهها ويداها[٥٧].

والفكرة الأخيرة كانت فكرة الجمهور ولقد بقيت المعيار منذ ذلك الوقت، ولكن هذا لايعني أن جميع النساء في العالم الإسلامي يعترفن بلباس شرعي واحد، بل إن هناك اختلافاً كبيراً. فمثلاً نجد أن العديد من النساء المصريات يغطين شعورهن ولكن يبدين نحورهن، في حين نجد أن النساء الماليزيات يرتدين أحياناً مئزراً ومن تحته سراويل طويلة؛ ونجد أن السعوديات يلففن بأحد طرفي المنديل أعناقهن عدة لفّات؛ وأما النساء الإيرانيات فغالباً ما يدنين من مناديلهن فوق جباههن بحيث لايمكن رؤية حواجبهن. ومهما يكن، فإن هناك شبه إجماع دولي أنه يسمح للمرأة باظهار وجهها ويديها فقط. ولكن هذا لايعني عدم وجود آراء مخالفة إذ يُمكننا أن نتخيّل بسهولة المشقات التي تواجهها النساء المسلمات في ترحالهن وعند إقامتهن في مجتمعات غير إسلامية.

وحتى هذا التاريخ فإن المناقشه الأكثر وضوحاً ومرونة في هذا المجال تأتينا من محمد أسد، فهو يقول:

على الرغم من أن الشارحين التقليدين للشريعة الإسلامية كانوا، ولعدة قرون، يميلون لحصر تعريف (ما يمكن أن يظهر بحشمة) من وجه المرأة ويديها وقدميها وأحياناً أقل من ذلك فإننا يمكن أن نفترض بأمان أن معنى (إلا ماظهر منها) هو أكبر من ذلك التعريف؛ وأن الغموض المتعمد من هذه العبارة إنما قصد به أن يسمح للتغيرات التي لابد منها عبر العصور والتي هي ضرورية لتطورّ الإنسان الأخلاقي والاجتماعي. إن العبارة المحورية في الحكم المذكور أعلاه هو المطلب الذي يخاطب الرجال والنساء بتعابير حرفية وهو أن يغضّوا الطرف ويلتزموا العفة، وهذا يحدد درجة ما يمكن شرعاً

---

(٥٧) القرضاوي، ص١٥٥-١٥٩.

(أي متوافقاً مع مبادئ القرآن في الآداب الاجتماعية) أن يعتبر محتشماً أو غير محتشم في المظهر الخارجي لأي شخص في كل زمان. . . ومن هنا فإن الأمر الإلهي بتغطية النحر بالخمار (مصطلح الخمار كان مألوفاً للصحابة) لايتصل بالضرورة باستخدام الخمار على هذا الشكل بل عني به أن يوضح أن نهدي المرأة هما غير مشمولين في مفهوم إلا ماظهر منها من الجسد وبالتالي يجب على المرأة ألاّ تبديهما. . .

إن صيغة الآية (٥٩ من سورة الأحزاب) مقيدة بالزمان (الواضحة من خلال الإشارة إلى أزواج وبنات النبي)، وكذلك من خلال غموض النصيحة من أن على النساء أن يدنين من جلابيبهن أمام الناس ويجعل الأمر واضحاً من أن الآية لم يكن يراد بها أن تصبح حكماً في المعنى العام اللازمني من هذا التعبير، بل خطوطاً أخلاقية عريضة يجب المحافظة عليها ضد خلفية الزمن والبيئة الاجتماعية الدائمي التغيُّر. إن هذه النتيجة تدعمها الإشارة الختامية في هذه الآيات لمغفرة الله ورحمته(٥٨).

ولكن ما أضعف قوّة الحجة في مناقشة محمد أسد هو توكيده بالقول على أن القيود المفروضة ضد المرأة التي تعرّي صدرها هي غير مقيدة بزمن، ذلك أنه إذا كان لأحد أنواع الحجاب فعالية أبدية فلماذا لاتشمل هذه الفعالية الأنواع الأخرى من الحجاب؟ ومن المؤكد أن تثار قضية الاصطفائية. وكلما طرأ تفسير جديد في ضوء الظروف المتغيرة، فإننا يجب أن نتوقّع حقاً أن تثار هذه التهمة الاصطفائية ثانية. إن غموض هذه الآيات عند بعض النقاط يعطي المجال لتطبيقات ثقافية مختلفة، وكما بيّنا سابقاً، كانت هناك فعلاً تطبيقات مختلفة، ولكن لموضوعنا الحالي ذيول.

وحتى الآن وحول مسائل كهذه فقد طالبت أنا وكتّاب آخرون أن يقوم القائمون عليها باستنباط التوجّه العام عند تفسيرهم لآية معيّنة. فمثلاً، وكما أشرنا سابقاً، لم

---

(٥٨) محمد أسد، *الرسالة*، ص ٥٣٨-٥٣٩ (الملاحظات ٣٧و٣٨) وص ٦٥١ (الملاحظات ٧٥).

يعد المسلمون يصرّون على حشد الخيل استعداداً للمعركة على الرغم من أنّ هذا هو ماتمليه الآية (٦٠ من سورة الأنفال) بوضوح، ذلك أن هذا الإجراء لن يسهم في تقدم الهدف الأكبر للقيام بإجراءات كافية للحرب هذه الأيام. من أجل ذلك وفي القضية الحاضرة يمكن أولاً أن نقرر هل كان على المجتمع الإسلامي أن يطبق على الأقل مستوى أدنى من الحشمة في اللباس أم لا؟ ربما يذعن جميع المؤمنين بهذا القدر بناء على الآية (٣١ من سورة النور)، كما فعل محمد أسد في تعليقه على هذا النص. وربما يوافق هؤلاء في الغالب أن دستور اللباس الموروث عن المجتمع الإسلامي السابق والذي توارثته الأمة جيلاً بعد جيل كان بالتأكيد ملائماً في الماضي ومتوافقاً مع أوامر القرآن.

عندئذ يمكن لنا أن نتساءل، عند أيّ مرحلة من التاريخ الإسلامي أصبحت المعايير الغربية في اللباس ممكنة أو مسموحاً بها؟ إنه من الصعب أن نجد تسويغاً أخلاقياً أو نفسياً لتغيير كهذا. ففي كتابه الإسلام على مفترق الطرق حثّ محمد أسد المسلمين أنفسهم في القسم الأول من هذا القرن على الاّ يتبنَّوْا المعايير الغربية أنموذجاً في حياتهم[٥٩]. وفي الطبعة المنقحة من هذا الكتاب والتي ظهرت بعد نصف قرن تالٍ لم يُبْد محمد أسد أي أسف على وجهة نظره تلك، بل قال: إنها أتت مناسبة في حينها. وأضاف محمد أسد قائلاً: ولكن الشعوب الإسلامية قد تشربت منذ تلك السنوات القيم الثقافية الغربية، بحيث تصبح أيّ محاولة للعودة للمعايير السابقة لامعنى لها تماماً كما كان تبني المعايير الغربية في البداية لا معنى له. بل لن يؤدي ذلك، في رأيه، إلا إلى عمل آخر من التقليد العقيم وغير المبجل: في مثل هذه الحالة، تقليد الماضي الميّت الذي لاعودة له. بكلمات أخرى إن الأعراف الاجتماعية في الحقيقة قد تغيَّرت، سواء

(٥٩) محمد أسد، *الإسلام على مفترق الطرق*، ص ٧٨-٧٩.

للأفضل أم للأسوأ، نتيجة حتمية للتلاقي مع حضارة أقوى. وبالنتيجة، فإن ما كان يعتبر استغلالاً ولباساً غير محتشم في الماضي لم يعد ببساطة يعتبر هكذا اليوم.

إن العديد من المسلمين لن يقتنع بهذه المناقشة ذلك أن جزءاً كبيراً من قناعة المؤمن ناجمٌ عن أن الدين هو الذي يجب أن يحدد المعايير الأخلاقية للمجتمع، وليس العكس. إضافة إلى ذلك على الرغم من أن النساء في الغالب يعملن بما حدده الدّين من لباس، فإن المسلمين رجالاً ونساء يؤمنون بما جاء به الدين؛ بل إن المجتمع الإسلامي في جميع أنحاء العالم قد شهد مؤخراً إعادة ظهور لباس النساء التقليدي على نطاق واسع. وأخيراً أقول: إن لباس النساء التقليدي يعمل وفق روح القرآن ووفق أربعة عشر قرناً من العادات وكرادع حائلاً دون ما يراه المسلمون نوعاً من الاستغلال الجنسي للمرأة في الغرب.

لذلك أشعر بأن أيَّ مناقشة لهذه المسألة لن تكون مقنعة تماماً. ومن ناحية أخرى هناك حاجة ملحّة للأمة لكي تظهر العطف والفهم نحو أولئك الذين يتشبثون بهذه المشكلة وبخاصة النساء المسلمات اللاتي يعشن في الغرب. إن المصاعب والمشقات العاطفية، والاجتماعية، والتطبيقية التي يواجهها المسلمون بتطبيقهم لهذا النظام من اللباس تختلف من فرد لآخر، ويجب أن يكون نهج المسلمين سمحاً ولطيفاً وليس اتهامياً وتوبيخيّاً. ويجب أن تمنح النساء أكبر درجة ممكنة من الحرية في اللباس بحيث لا يثني ذلك النساء عن المساهمة الفعالة في المجتمع، ويجب على رجال المسلمين في هذه الحالة أن يظهروا أكبر قدر ممكن من الحساسية والموافقة في هذا الشأن. و لم يمض وقت طويل على مشاهدتي لمنظر سخيف كانت فيه النساء المسلمات تعانين فيه حرّ الشمس على إحدى طاولات النزهة فيما راح أزواجهن يمرحون عند الرمال والأمواج بين الأميريكيين والأميركيات الذين كانوا يأخذون حمامات الشمس.

سوف يمضي بعض الوقت قبل أن تتمكّن النساء المسلمات الأميريكيات

والأوربيات من أن يجدن الأزياء التي تنسجم مع ثقافتهن وديانتهن، ولكن إذا ما ألحت الحاجة لذلك فلا بد لهذا الأمر من أن يتحقق. وليس لي الآن إلاّ أن أقترح موقفاً اجتماعياً حول هذا الأمر يتمشّى مع الاستغاثة التي تختتم الآية (٢٩ من سورة الأحزاب) والتي تذكّر القارئ بمغفرة الله ورحمته. وقد يكون ذلك، كما يقترح محمد أسد، إقراراً بالمصاعب المستقبلية التي سيواجهها المسلمون في هذه الناحية ذلك أنه حقاً ﴿لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦].

التعليم وعدم الاختلاط

يصرّ العلماء والفقهاء المسلمون على أن الثقافة ليست حقاً لكل رجل مسلم وامرأة مسلمة، بل هي فريضة دينية عليهم جميعاً. فكلمة (علم) العربية والتي تعني (علم) و(معرفة) و(ثقافة) ترد في القرآن (٨٢٤) مرّة. وهذه الكلمة (لم تستخدم لتحرم النساء من الثقافة، بل على العكس لتقنعهن بتثقيف أنفسهن)[٦٠]. وخلال الجزء الأكبر من التاريخ الإسلامي، فإن النساء المسلمات، مثلهن مثل النساء في الثقافات الأخرى، لم يسهمن كثيراً في تطوّر العلوم الطبيعية، ولكنهن مارسن تأثيراً معتبراً في نشوء الأدب والعلوم القضائية[٦١]. وأما الدور الذي لعبته النساء في علوم الحديث فموثّق بشكل جيد؛ ويقول صدّيقي إنه خلال القرون الإسلامية العديدة الأولى كانت النساء شريكات متساويات مع الرجال في هذا الحقل (علوم الحديث) وأن:

هذه الشراكة بين الرجال والنساء في رواية الحديث استمرت عبر التاريخ. فكل

---

(٦٠) عدنان أ. الغادي، الاستفادة من المصادر الإنسانية: قضية المرأة في المملكة العربية السعودية، ص ٥٦

Adnan Alghadi, *Utilization of Human Resources: The Case of Women in Saudi Arabia* (Sacramento: California State University, 1979),p. 56.

(٦١) فضل الرحمن، دور المرأة المسلمة في المجتمع، ص ٥٦-٦٤. وكذلك انظر: سها عبد القادر، البحث العلمي الاجتماعي والمرأة في العالم العربي، ص١٤٠-١٤١

جامعي الحديث الهامّين تلقّوا، ومنذ تاريخ الحديث المبكر، العديد من هذه الأحاديث عن شيخات. فكل مجموعة هامة من الحديث تحتوي العديد من أسماء النساء اللاتي روين مباشرة عن الرسول، ولكن بعد جمع العديد من الصحاح تمكنت المحدثات من ضبط العديد من هذه الأعمال وقمن بإعطاء الدروس التي كان يحضرها عدد كبير من الطلاب (رجالاً ونساء)، وجلس العديد من المحدثين عند أقدامهن للاستماع إليهن ولكي يحظوا بإجازتهن[٦٢].

وفيما بعد يضيف صديقي قائلاً:

وهذه المحدّثات الواعدات في الإسلام - كما يمكن لنا أن نستشفّ حسبما قيل - لم يحصرن نشاطاتهن في دراسةٍ شخصيةٍ للحديث، أو في ترؤس جلسات لبعض الأشخاص في الحديث، ولكنهن أخذن مقاعدهن طالبات ومحاضرات في المعاهد الثقافية العامة جنباً إلى جنب مع إخوانهن من الرجال. فقد كن يحضرن الدروس العامة التي كان يحضرها الطلاب من الرجال والنساء. وتظهر حواشي العديد من المخطوطات، التي ما تزال محفوظة في العديد من المكتبات، النساء طالبات يحضرن صفوف المحاضرات الكبيرة ومعلمات يلقين المناهج المنتظمة للطلاب[٦٣].

وإذا أردنا أن نحكم من خلال تعدادات صدّيقي لمساهمات النساء في هذا المضمار فإننا نلاحظ انحطاطاً منتظماً في نشاطات النساء يتزامن مع الانحطاط الثقافي العام الذي دخل مع القرن الإسلامي العاشر، وإن يكن بدرجة بدت متسارعة. ومما يثير الاهتمام هو التحقيق في أسباب هذا التغيير والكشف عن تأثيرات ذلك، إنْ وجدت، حول وجهات نظر المسلمين المعاصرة فيما يتعلق بوسائل تعليم النساء. إن هذا قد يلقي بعض

(٦٢) صدّيقي، *أدب الحديث*، ص ١٨٤.

(٦٣) المرجع السابق، ص ١٥٢-١٥٣.

الضوء على المشكلات التي تواجه العديد من المجتمعات الأميركية المسلمة؛ فهي من ناحية تذكّر النساء بواجبهن المقدس لتحصيل المعرفة وخاصة المعرفة الدينية في حين أنه من ناحية أخرى، لا تتاح لهن إلاّ الفرص غير المتساوية والمتدنية بشكل كبير، إذا ما قورنت بالفرص المتاحة للرجال.

وهذا ناجم بشكل رئيسي عن الفصل بين الجنسين، ذلك أن المصدر الرئيسي للتعليم في المجتمعات الإسلامية في الغرب هو المسجد تماماً كما كان الوضع في أيام الإسلام الأولى. ولكن النساء المسلمات المعاصرات، على خلاف النساء في تلك الأيام، لا يحثهن أحد، ولا حتى على حضور صلوات الجماعة. صحيح أنهن يستطعن التعلم من خلال الكتب والأشرطة ويستطعن الإصغاء لمحاضرة عرضية غالباً ما تكون مفتوحة للجمهور من غير المسلمين، ولكن هذه الوسائل والفرص نادرة وتتطلب حافزاً شخصياً واستثماراً، ولا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يعوّض عن فرص تعلم وملاحظة تطبيق تعاليم الإسلام على المستويات الاجتماعية المتاحة للرجال.

إنني لا أقول: إن الفصل حسب الجنس هو خطأ ضمني، أو إنه يقلل من شأن النساء. ذلك أن هذا الأمر، على ما أعتقد، يعتمد بدرجة كبيرة على الوسط الثقافي، والثقافات التي ما يزال الفصل فيها سارياً قد طوّرت عموماً أدواراً مميّزة جداً خاصّة بكل من الجنسين وميادين مختلفة خاصة يمارس فيه كل منهما سلطته. وغالباً مايعطى الرجال في هذه الحالة فرصاً خاصة لدخول ميادين النساء أقل من الفرص التي تعطى للنساء لدخول ميادين الرجال[٦٤] . ويشير البحث إلى أن الغالبية العظمى من النساء في هذه الثقافات لا ينظرن إلى أنفسهن على أنهن مظلومات وأنهن أكثر ارتياحاً وثقة

---

(٦٤) سها عبد القادر، *البحث العلمي الاجتماعي والمرأة في العالم العربي*، ص ١٤٧-١٤٨؛ وكذلك كاركا مخلوف، *تبادل الحجب*، ص ٢٥-٢٨؛٤٤؛٩٦-٩٧.

Carka Makhlouf, *Changing Veils* (Austin: University of Texas Press, 1979), pp. 25-28; 44; 96-97.

بأنفسهن من النساء في الغرب[٦٥]. ومرّة عندما أخبرت زوجتي أن ثقافتها تظلم النساء، لأنهن لا يشاركن في العملية السياسية، فردت بشكل حاسم قائلة: «وما عليه؟ فللرجال دور صغير وأحياناً، لا يقومون بأي دور، في العديد من الوظائف في مجتمعنا مثل ترتيبات الزواج وتدبير المنزل. بالإضافة إلى ذلك، فإن النساء السعوديات ليس لديهن الرغبة في أن يصبحن رؤساء بلديات أو حاكمات».

ومن دون أي نقاش فإن الأمريكي ليس في وضع جيد ليقرر هل كان الفصل بين الجنسين في السعودية أو اليمن خطأ أم صواباً، ذلك أن هذا الأمر يجب أن يحسم بشكل موضوعي وضمن تلك المجتمعات نفسها. ولكنني على مقدرة تامة كي أقول إن عزل النساء واستبعادهن هو أمر خاطيء في الغرب. فتاريخ الشعوب الغربية وثقافتها مختلفة جداً عن تاريخ وثقافة المجتمعات التقليدية؛ وعلى الرغم من أن الفصل بين الجنسين يمكن أن يطبق عملياً في الغرب، إلا أن التاريخ والثقافة ووجهة النظر العالمية التي انبثق فيها الغرب لا يمكن أن تتحوّل هنا. وبالإضافة إلى ذلك فإن البدائل الثقافية المتصلة بذلك، والتي قد تتوافر للنساء في الثقافات التقليدية، لا يمكن أن نعثر عليها في الغرب. إن الواقع الموضوعي هو أن الفصل بالنسبة لمعظم الرجال والنساء الأميريكين، سواء أكان عرقياً أم جنسياً هو نوع من الإخضاع والظلم الذي يمنع العديد من الأميريكين بما في ذلك أطفال من أسر مسلمة من اعتبار الإسلام بديلاً قابلاً للتطبيق.

ولكن ألا يمكن أن نستخدم التعليل نفسه ضد نظام اللباس الإسلامي؟ هناك بعض الفروقات الرئيسية. ففي المقام الأوّل ليس هناك مبدأ لا في القرآن ولا في الحديث لتبني الفصل على مستوى المجتمع. ويوضح أفضال الرحمن القضية بشكل واضح:

«وعلى نحو مشابه فقد وجد أن عادة الفصل (الحريم أو البردة »نظام الفصل

(٦٥) خلوف، *تبديل الحجب*، ص ٢٥-٣٠.

الهندي) كانت تمارس في بيزنطة القديمة وفي فارس، ومن هناك، وجدت طريقها إلى بلاط بغداد؛ وفي نهاية المطاف لاقت قبولاً شعبياً في معظم الأراضي الإسلامية. ومهما يكن، فإنه لا يمكن القول: إن هذه الممارسات مبنّية على مراسيم إسلامية. وفي الحقيقة ليس هناك من مرسوم ديني، أو على الأقل لا شيء في القرآن الكريم يبرر استنتاجاً كهذا. فالقرآن الكريم يشدد عليهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن. فالأصل التاريخي لعادة فصل النساء تعود إلى ما قبل ذلك التاريخ، أي إلى ما قبل مجيء الإسلام. إن القيود المفروضة على محيط حركة النساء جاءت لتتركب على المجتمع الإسلامي من خلال امتصاص العادات المحلية، وهذه العادات المحلية هي التي جعلت النساء اتكاليات بشكل أكبر على رجالهن من النواحي النفسية والاقتصادية والاجتماعية، وليس الدين نفسه. وفي النهاية بدأ الناس يعدون مسألة فصل النساء على أنها أحد رموز الوضع السائد بين الطبقات الوسطى والطبقات العليا ممن لم تضطرهم ظروفهم الاجتماعية لتوظيف النساء خارج البيت. فانشغالها مع الأسرة التي أصبحت مع ذلك الزمن أسرة ممتدة، والتي كانت تخدم كوحدة اقتصادية، تكفي نفسها في مجتمع زراعي، إن هذا الانشغال ساهم في عزلها مع الأسرة وأن يحدَّ من إمكاناتها كمساهم في مجرى الحياة الرئيسي»[٦٦].

ويشير أدب الحديث أيضاً إلى أن الفصل كان في الغالب أحد الممارسات المحدودة في القرن الإسلامي الأوّل ربما، وكما يذكر أفضال الرحمن، المحصورة ببعض الأسر الأرستقراطية التي كانت متأثرة بالعادات الفارسية والبيزنطية. ففي أكثر كتب الحديث موثوقية هناك روايات تحكي عن ذهاب النبي وصحابته لنساء غير محرمات كي ينزعن

(٦٦) أفضال الرحمن، دور المرأة المسلمة في المجتمع، ص ٣٣٣-٣٤٢.

القمل من شعرهم(٦٧)؛ وعن امرأة من خارج أسرة محمد كانت تأكل الطعام من نفس صحن النبي(٦٨)؛ وعن زوجة أحد الصحابة التي كانت تكرم ضيوف زوجها من الرجال(٦٩)؛ وعن زيارة النبي لزوجين من مجتمعه وحديثه مع المرأة عن حلم كان قد استيقظ منه لتوّه(٧٠)؛ وعن زيارة صحابيين لإحدى الصحابيات وبكائهم جميعاً على موت النبي(٧١). إن الدليل يقودنا إلى خلاصة سَهَا عنها كل من عبد القادر وليفي Levy وهي:

أن حجاب الوجه والفصل بين الجنسين لم يوجدا في أيام الجزيرة العربية الأولى. فجميع الروايات التاريخية تشير إلى الحقيقة القائلة: إن النساء في أيام الإسلام الأولى، في الجزيرة العربية وفي البلدان التي وقعت تحت سيطرة العرب قد لعبن دوراً فعَّالاً في الحياة السياسية والاجتماعية للمجتمع. فإن دراسة للقرآن وأحاديث النبي تظهر أنه ليس هناك دليل شرعي خاص يشير بأنه يتوجّب على النساء أن يحتجبن أو يحرمن من الاشتراك في الحياة العامة(٧٢). وأنه قد تم تأسيس الحجاب والفصل بشكل كامل بعد ما يقارب المئة والخمسين عاماً. . . والذي تم فيه حجب النساء من الطبقات الغنية عن بقية أفراد الأسرة التي كانت تحت عهدة الطواشين(٧٣).

وغالباً ما تقتبس الآيتان القرآنيتان (٣٣ و٥٣ من سورة الأحزاب) شواهد تدل على

(٦٧) صحيح *البخاري* ترجمة محسن خان، المجلد الثاني، "كتاب الحج" الحديث رقم ٧٨٢ وكتاب الجهاد الحديث رقم ٤٧.

(٦٨) أفضال الرحمن ١٠-٦٥.

(٦٩) المرجع السابق ٦٢- ٧٨.

(٧٠) المرجع السابق ٤١- ٧٤.

(٧١) مقتبس من صحيح *مسلم* للإمام النووي ومن كتاب *رياض الصالحين*. ترجمة ظفر الله خان.

(٧٢) سها عبد القادر، ص ١٤٥-١٤٦.

(٧٣) ر. ليفي، *"وضع المرأة في الإسلام" في البنية الاجتماعية في الإسلام*، ص ٩١-١٣٤.
R. Levy, "The Status of Women in Islam" *in The Social Structure of Islam* (New York: Cambridge University Press, 1965), pp. 91-134.

مسألة الفصل بين الرجال والنساء. وهناك أسباب تدعو للشك من أن الحدود التي تبنّتها أسرة النبي كاستجابة لهاتين الآيتين كانت صارمة بالحدة نفسها التي تقوم بها الأسر المسلمة المحافظة اليوم. وبعودة إلى القرن الإسلامي الثالث نجد أن الطبري في تفسيره المشهور يفسّر هاتين الآيتين على أنهما تحريم ضد الاختلاط الإباحي بين الجنسين والذي كان سائداً في عصور ما قبل الإسلام، وليس تحريماً يمنع زوجات النبي من مشاركتهن في المجتمع(٧٤).

وعندما استخدمت الآية (٣٣ من سورة الأحزاب) ضد زوجة النبي عائشة؛ لأنها قادت جيشاً ضد علي في معركة الجمل، لم تقبل عائشة بتفسير متهميها لهذه الآية(٧٥). ومع ذلك وعلى الرغم من أن أسرة النبي لم تتبنَّ شكلاً صارماً من الفصل بين الرجال والنساء كاستجابة لتلك الآية، إلاّ أن علينا أن نتذكر أن الآيات توجّه نفسها بشكل محدد للنبي وأسرته؛ وأن السورة نفسها تحتوي على عدد من الأحكام التي كانت خالصة لهم. فمثلاً سمح النبي لنفسه بأن يحتفظ بأكثر من أربع زوجات، ولم يقدم قط في مرحلة من المراحل على تطليقهن، وقد أمرت زوجاته بعدم الزواج ثانية بعد وفاته. إن الطبيعة الشخصية لهذه الأوامر يؤكّدها التصريح الوارد في السورة وهي أن زوجات النبي لسن ﴿كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢/٣٣]. وعلى هذا إذا ما اختار بعض الأفراد أن يفرضوا على أنفسهم شكلاً قاسياً من الفصل عن الجنس الآخر، فإن أقصى ما يمكن أن يدعيه أحدهم هو أنه يقلد ما يسميه المسلمون سنّة، وهو اقتداء بما فعله النبي من فعل وقول واستخدام، ولكنه إن لم يكن لهذا التقليد نصٌّ واضح في السنة فإننا لا يمكننا أن نتخذه على أنه قاعدة عامة ويجب ألا يفرض على جمهور المسلمين العام(٧٦).

---

(٧٤) فضل الرحمن، دور المرأة المسلمة في المجتمع، ص ٣٤٢.

(٧٥) أبوت، عائشة، ص ١٢٨-٧٦.

(٧٦) يجب أن نذكر هنا أن مسألة الفصل بين الرجال والنساء في الصلاة هي دليل الفصل العام بين الرجال والنساء. ويجب علينا أن نلحظ ببساطة أنه في الشعائر الإسلامية الأخرى كالحج لا يوجد هناك فصل بين الجنسين.

صحيح أن الإسلام ينكر الاختلاط العشوائي بين الجنسين ولكن باستثناء ذلك فإن معظم المعتنقين قد لاحظوا شخصياً أن اشتراك الأسرة في المحاضرات وفي تجمعات المسلمين الاجتماعية يشكل أرضاً خصبة للخلاعة غير المرغوب بها. وفي الحقيقة أنه في كل من مكة والمدينة تجلس جماعات من الأسر بعضها مع بعض ما بين إقامة الصلوات، وعندما يؤذّن للصلاة تنفصل جماعات الرجال عن جماعات النساء، وبعد انتهاء الصلاة يستأنف الجميع أماكنهم الأولى، ويبدو أن الكثير من التحذيرات الأخلاقية الواردة في القرآن والحديث، وتبني اللباس المحتشم، ووجود العقاب الشديد للزنى على الأقل نظرياً يبدو أن هذا يجب أن يكون رادعاً كافياً للاخلال الأخلاقي وخاصة في اللقاءات الدينية. إن كل هذا لن يضمن الردع، ولكن هناك أنواع أخرى من الانحراف الجنسي التي يمكن أن تنشأ عن طريق الفصل.

والأهم من ذلك هو أن اللا أخلاقية الجنسية هي ليست بالضرورة الخطر الأعظم أو الخطر الوحيد بالنسة للمجتمع، فإن مخاطر بعثرة مصادر عظيمة وحيوية من المعرفة والاستنارة، وعدم تزويد النساء بالفرص المكافئة من التعلم وممارسة عقائدهن، وأن يصبح النساء جاهلات بحقوقهن أو أن ينتهك الرجال تلك الحقوق بسبب تحيّزهم، هي مسائل خطيرة ويجب ألاّ نغفل عنها. وكما أخبرتني إحدى المعتنقات: لقد ناضلت النسوة الغربيات بشكل مرير ولفترة طويلة للحصول على بعض الحرية لتقرير مصير أنفسهن ولن أضع سعادتي تحت حكم الرجال وطبيعتهم الخيّرة. وهذا ما ينقلنا إلى الفرق الثاني الكبير ما بين نظام اللباس والفصل؛ فلباس الحشمة عند هذه النقطة قد يتطلب تكيُّفاً شخصياً صعباً، ولكن ولوتكلمنا على سبيل الحصر، فإن هذا النظام يجب ألايعيق النساء عن الاشتراك الكامل في المجتمع الديني. بل إن ذلك قد يعزز من هذه الإمكانية، ذلك أنه على الرغم من أن لباس المرأة المسلمة هو لاشك جنسي، إلاّ أنه

ليس مثيراً للغريزة الجنسية، بل يستر كثيراً من جمالها الجسدي والظاهري كما يقول القرآن (زينتها)ــ ويعزز من قواها الدفينة. إن هذا قد يضعها على قدم المساواة مع الرجل في التفاعل العام بين الناس.

شكوى المرأة

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ [النساء: ٤/١٢٧]. ولسوف يستمرون في الاستفتاء حتى اليوم. وخلال التاريخ لم يكن الدين عطوفاً على المرأة، ذلك أن المعتقدات التقليدية القوية التي كانت دوماً لمصلحة الرجال، خلطت النزعات الثقافية والكره بالعقائد والقانون وتفسيرات الكتب المقدسة. وكان لابد لمجتمع القرن العشرين أن يحقق في ذلك إذ كيف يعقل أن الله نفسه قد جعل لشخصية ومكانة المرأة حكماً متدنياً كهذا؟ فالمسلمون الغربيون الذين انفصلوا أو انقطعوا عن الثقافات التي حفظت واحتفظت بالإسلام يكتشفون في القرآن والإسلام نظرة إلى المرأة مختلفة عن تلك التي كانوا يضمرونها في الماضي. صحيح أنه (ليس الذكر كالأنثى) وأن أي قراءة نزيهه للقرآن عليها أن تقبل بهذا المبدأ، ولكن هذا لايعني أن أحدهما هو بالفطرة أكثر ذكاءً أو تقيً. ولكن ذلك يعني أن شخصية الذكر والأنثى متوازيتان وإن كانت إحداها تزيد على الأخرى بطرائق تتناسب بشكل حسن مع التغيّرات التي يمر المجتمع بها.

إن ما هو صحيح على نحو مماثل وهذا يتفق مع القرآن والحديث هو أن هناك شيئاً ما في شخصية كلا الجنسين مما يسمح للرجال بتولي القيادة والسيطرة بجاهزية أكبر من جاهزية النساء. ومع ذلك: فإن هذه الحقيقة لاتعني أن النساء لسن مؤهلات للقيادة وللتعلم وللاشتراك، ذلك أني أعتقد بأن مصادر نصوص الإسلام مفتوحة بشكل واضح لهذه الاحتمالية. إن ذلك يعني شيئاً واحداً وهو أن المجتمع يجب أن يكون منتبهاً

لمسألة الإساءة إلى النساء، ذلك أنه خلال القرآن نجد أوامر وتحذيرات متكررة ضد مثل هذه الإساءات للنساء. فآية مثل قوله تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ٥٨/١].

والتي تشير إلى ظلم عام اقترفه بعض رجال الجزيرة العربية في القرن السابع، يجب أن تقرأ على أنها تحذير عالمي وذلك بسبب التحديد الثقافي الواضح في الآية التالية، ولكي ينتبه المجتمع الإسلامي وللأبد لعدم إيقاع مثل هذا الظلم.

إن أي تفسير أمين للإسلام يقوم به مسلمون معاصرون على الأغلب لن يتوافق تماماً مع برامج الحركة النسوية في القرن العشرين، ولن يتوافق أيضاً مع العديد من وجهات النظر حول النساء والتي وجدت في الدراسات الإسلامية المبكرة. ومرّة ثانية، كما هو الأمر في العديد من المواضيع، يجد المجتمع الإسلامي نفسه مرغماً على أن يكون ﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾ [البقرة: ١٤٣/٢] في صراعها لتحقق ما يعنيه رجل مسلم أو امرأة مسلمة في العالم الحاضر.

القانون والدولة

إن الوحدة، والأخوّة، والكهولة، والأسرة، والزواج وأدوار الرجال والنساء هي المواضيع الرئيسة في النقاش الدائر في المجتمع الإسلامي الأميريكي اليوم. وإن مايؤكد هذا هو نظرة عامة على الصحف والمجلات الإسلامية في أميركا وكندا. مادام أن المسلمين الأمريكيين هم ليسوا في موقع قوي قادر على التشريع، فإن المناقشة الحالية حول القانون المدني والجنائي والدولي تبقى محدودة ونظرية.

لقد كان هناك بعض الجهود لاختراع بديل عن نظام المصارف الغربية بما يتناسب

وتحريم الإسلام للربا usury[٧٧]، ولكن وكما يمكن أن نتصور في الحال فإن كلاً من المشاكل النظرية والعملية كبيرة جداً، ويتفق جميع الاقتصاديين المسلمين تقريباً أنه لم يتم حتى الآن تطبيق بديل مناسب حقاً لهذا النظام[٧٨].

إن اهتمام المسلمين في الغرب يتركز على بعض المواضيع التي ليس لها تأثير كبير في حياتهم. فتأسيس الجمهورية الإسلامية في إيران، والدعوات العديدة المتنوعة للجهاد، وحكم الإعدام الذي أصدره الإمام الخميني ضد سلمان رشدي، وأحداث أخرى قد أعادت في الغرب فتح مواضيع حول مواقف الإسلام من الحكومة، ومن الأقليات غير المسلمة، ومن الحزب، ومن الردة. وغالباً مايُحرج المسلم الغربي حين يجد نفسه في الدور الصعب، عندما يأخذ دور المتحدث عن الإسلام إلى ثقافة غير مسلمة، في الوقت الذي تركّز كاميرات التلفاز والمياكروفونات على المؤمن العادي لتستخلص منه تعليقه العفوي وتفسيره لأحداث العالم.

الجهاد

قال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/٥].

أعلن المتحدث المسلم أن الدولة الإسلامية لاتشن الحرب ببساطة على النظم السياسية غير المسلمة، إن عليها أن تتبّع خطوطاً عامة محددة. فقبل القيام بأي هجوم على بلد غير مسلم، يجب على الدولة المسلمة أن تبذل كل جهد بإرسال بعثات تدعو

(٧٧) محمد صدّيقي، التفكير الاقتصادي الإسلامي،
Muhammad N. Siddiqi. *Muslim Economic Thinking* (Leicester: U. K. The Islamic Foundation, 1987).

(٧٨) المرجع السابق.

نظام هذا البلد وشعبه أن يقبل إما بالإسلام أو بالحكم الإسلامي. فإذا ما رفضت هذه الدعوة في النهاية، وعندئذ فقط يمكن للحكومة الإسلامية أن تعلن الحرب على الحكومة غير المسلمة".

ولكن إحدى الأعضاء الحاضرات من الجامعة ردّت عليه قائلة: ولكن ذلك يشبه من يقول: إن عليك أن تصغي لدعوتي أو إنني سألكمك في وجهك. وأضافت قائلة بحدّة: أريد أن أعرف إن كان على الحكومات الإسلامية أن تقبل، من باب العدل، وتبعاً للقانون الإسلامي، بمبشرين من الديانات الأخرى.

لا يمكن للمؤمنين با لله الاّ أن يدركوا قدرة ا لله على أفعال الإنسان، سواء أكان ذلك من خلال قوانين ا لله القدرية والمبنية في النظام الكلي، أم من خلال معالجة بارعة ومباشرة وحاذقة، أو من خلال مزيج من كلا الأمرين. ويفسر الناس المتدينون الازدهار دوماً على أنه فضل إلهي ويفسرون السوء على أنه مقت إلهي؛ ولابد أن هذا المقت هو بسبب ذنوب الأمة بأجمعها مطالباً إيّاها بعودة إلى المصادر الصافية للإيمان.

ويحتوي القرآن على تذكيرات دائمة من أن تركيبة كهذه هي غير دقيقة ومفرطة في البساطة. والتحصيلات الدنيوية تتضمن اختبارات هامّة، وصبر المريض على ألمه يجلب الجزاء الكبير. ومع ذلك وخلال فترة حياة النبي فقد كان النصر النهائي توكيداً ربانياً على صدق دعوته وعلى صدق أتباعه وإيمانهم. فبعد وفاته مباشرة وجد المجتمع الإسلامي نفسه رهين الحروب، أولاً مع قبائل المرتدّين وبعد ذلك مع الإمبراطورتيين الرومانية والفارسية؛ فانتصارات هذا المجتمع الإسلامي المذهلة والسريعة تحت القيادة المؤمنة لأبي بكر ومن بعده عمر، لم يكن من شأنها إلا أن تقوّي إيمان الأمة من أن ا لله كان دوماً معها، وأنها أداة ا لله لتأسيس مملكته العالمية على الأرض. ولكن من المؤكد أنه لم يكن لجميع أولئك المسلمين الذين اشتركوا في هذه الغزوات دوافع دينية وغير

ماديّة. فغنائم الحرب كانت دوماً إغراءً قوّياً، والتي قلل القرآن والحديث من قيمتها في العديد من المناسبات، إذا ما قورنت بالمكافأة الروحية وذلك جزاءً لمن ضحّى بنفسه في سبيل هدف عادل، يقول تعالى:

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ٤/٧٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٩/١١١].

وفي غضون أجيال قليلة من وفاة محمد اتسعت الإمبراطورية الإسلامية نحو الغرب عبر شمال إفريقيا إلى المحيط الأطلسي، ونحو الشرق عبر فارس لتصل إلى الصين. وفيما بعد، كان هناك نكسات جرت لهذه الإمبرطورية على يد المغول والأتراك والصليبيين؛ ومع ذلك، فقد تبنّى كلّ من المغول والأتراك الإسلام صدّ الكثير من الغزو المسيحي؛ وفي القرن السابع عشر وصل هؤلاء بفتوحاتهم نحو الغرب حتى إنهم حاصروا فيينّا عاصمة النمسة.

إن تكرار الانتصارات المحتمة التي حققها المسلمون خلال ألف العام، والتي تعود إلى زمن حياة النبي، تساعد على شرح الثقة العظمى في الفكر الديني السياسي الكلاسيكي المسلم ذي الاتجاه الواحد. فلقد قسّم علماء المسلمين في الماضي العالم إلى منطقتي سلطان خاصتين على نحو متبادل وهما:

ـ دار الإسلام (The abode of Islam) وهي الإقليم الذي يحكمه المسلمون.

ـ دار الحرب (The abode of war) والتي كان عليهم إخضاعها، بالغزو إن كان هناك ضرورة، للحكم الإسلامي.

وعلى الرغم من أنه وجدت هناك، ولونظرياً، حالة مستمرة من الصراع مع القوى غير المسلمة، إلا أنه كان هناك فترات سلم طويلة فاصلة حدث فيها في الحقيقة تبادل تجاري وثقافي بين النظام الإسلامي والنظم الأخرى. ولم يكن اعتناق الإسلام هو الموضوع الرئيسي، بل كان فقط الخضوع لقانون الله هو الموضوع الأساسي كما كانوا يفهمونه. وفي الحقيقة فإن الحكام المسلمين لم يكونوا في العادة على عجل من أمرهم لإرغام الشعوب كي تعتنق الإسلام، وذلك ليس فقط بسبب تقييد القانون الإسلامي لهم، والذي لايرغم الناس على اعتناق الإسلام، ولكن بسبب الفوائد الاقتصادية التي كانوا يجنونها من فرض الجزية على المواطنين غير المسلمين بمبالغ طائلة.

وعلى العموم فقد استمر الناس في اعتناق الإسلام ولكن بشكل تدريجي، وبقي المسلمون في أجزاء عديدة من الإمبراطورية الإسلامية الأقلية بين السكان ولمئات من السنين. وأخيراً فقد بددت الدراسات الغربية التصوير النموذجي للفارس العربي المتعصّب الذي كان يلوّح بالسيف بيد والقرآن باليد الأخرى عارضاً على خصومه الإسلام أو الموت(٧٩). وكما يجب أن نتوقّع فقد كان هناك تمييز عنصري دينيّ، ولكن في عصور ما قبل عصر التنوير كانت الحضارة الإسلامية تمتاز على غيرها من الحضارات بهذا الشأن وخاصة على أوروبة المسيحية ونادراً ما كان يأخذ عدم التسامح شكل إرغام على اعتناق الإسلام.

والعالم الإسلامي ما يزال يناضل ليخلق كياناً من أجل أن ينهض من كبوته غير المتوقعة وانتهاك الاستعمار الأوروبي لأراضيه، ومن انحطاطه على نحو ثابت إلى مستوى العالم الثالث، ومن عودة الدولة اليهودية إلى فلسطين والتي كان امتلاك المسلمين لها لفترة طويلة برهاناً على تفوّق الإسلام على ما سبقه من الديانات، وهما اليهودية

---

(٧٩) برنارد لويس، يهود الإسلام، ص ٣-٤

Bernard Lewis, *The Jews of Islam* (Princeton University Press, 1984), pp. 3-4

والمسيحية. فهيجانات الإحباط كما يصورها موجز الأنباء تبدو على أنها نداءات دائمة من عدة جهات تدعو للجهاد. ونجد أن هذه النداءات موجهة تقريباً دوماً ضد الغرب أو ضد بعض الحكومات وأحياناً بعض الأفراد ممن يعتقد أنهم (دمىً) بيد الغرب؛ وفي بعض المناسبات نجد أن المسلمين الذين هم على طرفي النقيض من الصراع يعلن بعضهم الجهاد ضد بعض. ويراقب جمهور الغرب هذا برعب، إذ يذكّره بتلك الفظائع التي ارتكبت في الماضي، والتي ماتزال ترتكب، في بعض المواضع، باسم الله. وبالنتيجة فإن الغرب يأمل بحماسة شديدة أن يستمر الفصل بين الكنيسة والدولة في دياره الخاصة للأبد.

إن الشعوز العميق بنشوب الحرب الدينية والتعصّب يلفت أسماع الغربيين إلى نوع غريب من الصراع "المقدس" تشنّه صرخات بعيدة غاضبة مثل (الموت لأميركا!) (الموت لإسرائيل!) (الموت لإنكلترة!) (الموت لبوش!) (الموت!)(الموت!) (الموت!) ولايهم السامعين في الغرب إن كانت الصيحات تنبعث من شعوب عانت البؤس من الإمبريالية الغربية ومن التلاعب، ومن الاستعمار والاستعمار الحديث. ومعظم هؤلاء غير مدركين لهذا، ولكن حتى لوكانوا مدركين لتلك المعاناة، فإن الشعور بالعظمة المتأصل في نفوسهم والذي تثيره هذه الصيحات قد يبرر الماضي بأي طريق ما. "فحقيقة الأمر هي أنهم يكرهوننا، ونحن نكرههم، وهم يريدون أن يقتلونا ويحطمونا ويخضعونا لإرادتهم باسم الله! وإخال لسان حالهم يقول: إن الإسلام الذي يراه الغرب، وهو تتكشف صورته على شاشة التلفزيون، ليس له علاقة كبيرة بالسلام والرحمة، بل إن الإسلام يبدو للمشاهد الغربي على أنه حقد وموت.

والسبب يعود جزئياً لوسائل الإعلام الغربية، والأكثر من ذلك إلى الطريقة التي تستخدم فيها جماهير المسلمين المصطلح اليوم؛ فكلمة الجهاد تترجم على وجه الحصر

إلى اللغة الإنكليزية على أنها (الحرب المقدسة) holy war أو (الحرب الدينية) religious war. ولكن مايثير الدهشة هو أن المعنى الأولي للجهاد بالنسبة للعرب القدامى وبالنسبة للمصطلح الموجود في المعاجم الحديثة هو ليس القتال أو القتل، بل إن هناك كلمة أخرى لتعني القتل، وهي: (القتال). فالفعل جَهَدَ (ومنها يأتي الاسم الفعلي جهاد) يعني كدح، بلغ المشقة، عانى، سعى وراء، وأعيا نفسه. فمثلاً الاشتقاق اجتهاد تعني الجهد والكد. وبنظرة شاملة إلى استخدام القرآن للفعل جَهَدَ، وخاصة في النصوص التي نزلت في مكة قبل أن يشرّع القتال، توضح المعنى الضمني العام لهذه الكلمة، يقول تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩/٢٩].

﴿وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦/٢٩].

﴿وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ﴾ [الحج: ٧٨/٢٢].

﴿فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً﴾ [الفرقان: ٥٢/٢٥][٨٠].

وهذه الآية الأخيرة ترد في سورة تخبر المسلمين أن يستخدموا القرآن في نقاشهم مع الكافرين.

وهناك عدد من الأحاديث التي تعطي معنىً أوسع للجهاد، وبشكل عام فإن هذه الأحاديث تقدّم بدائل عدة للقتال، فالحديث الذي يقول: «إن أفضل الجهاد حج مبرور» هو جنس آخر من الجهاد[٨١]. وهناك حديث منسوب لأحد الصحابة، وهذا من شأنه أن يعطينا معنى أوسع لمفهوم الجهاد، فبعد قيادته للجنود قافلاً من إحدى

---

(٨٠) انظر أيضاً الآيتين ١١و١٢ من سورة الصف في القرآن الكريم.

(٨١) *حديث عائشة أخرجه البخاري في الحج، باب: فضل الحج المبرور، رقم (١٤٤٨).*

المعارك قال هذا الصحابي: «رجعنا الآن من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». وعندما سألوه إن كان هناك مهّمة قتالية أشد سوف يذهبون إليها، فأجاب شارحاً: إنّه عنى بالجهاد الأكبر جهاد النفس[٨٢] . وهذه خلاصة واضحة عن وجهة النظر القائلة بأن حياة الفرد الدنيوية هي بشكل أساسي كفاح شخصي متواصل.

وكانت الهجرة إلى يثرب تمثل تحوّلاً حاسماً في العلاقات بين الكافرين والمسلمين، فمعاناة الصبر أصبحت الآن تفسح مجالاً لعمل عسكري، وما يحمله من معاني الموت لكل من الفريقين حسب ما تسجله الأحاديث، ومن هنا كان هناك محاولات قام بها الكافرون لتعقّب محمد وقتله قبل أن يصل إلى المدينة[٨٣] ؛ وبالنتيجة، فقد أدرك المجتمع الإسلامي أن المعنى الأساسي للجهاد في المعركة هو القتال. ولكن المشكلة الملحة كانت في كيفية تحريض المسلمين حديثي العهد بالإسلام على أن يخاطروا بحياتهم في سبيل مثل أعلى جديد، عندما بدت المنافع ضدهم وأصبح أمر الحصول على الغنائم في شك، ذلك أن العرب الجاهليين كانوا يتذرّعون كثيراً كي ينصرفوا عن القتال عندما لا يكون الشرف أو الثروة معرضين للخطر، يقول تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦].

﴿وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ [النساء: ٤/٧٥].

---

(٨٢) قدم النبي ﷺ من غزاة، فقال: قدمتم من خير مقدم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه، حديث جابر أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٤٩٣/١٣).

(٨٣) الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، المجلد السادس، ترجمة مونتغمري واط وماكدونالد، ص ١٤٠-١٥٢.

﴿يا أَيُّها النَّبيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٨/٦٥].

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة: ٩/٨١].

﴿فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيها الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٤٧/٢٠][٨٤].

وكلما كانت هناك آيات تحرّض المؤمنين على الذهاب للمعركة كانت تبرز هناك قيود مشابهة في القتال، يقول تعالى:

﴿وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/١٩٠-١٩٢].

﴿وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة٢/١٩٣].

﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦].

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِيناً﴾ [النساء: ٤/٩١].

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٨/٦١].

---

(٨٤) انظر أيضاً الآيات من ٦-١١ من سورة الفتح.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ [الحج: ٣٩/٢٢-٤٠].

إن هذه النصوص (والتوكيد فيها لي) توضّح تماماً أن القتال إنما سمح به في حالة الدفاع عن النفس، أو في حالة الدفاع عن ضحايا الطغيان والظلم الذين لايستطيعون الدفاع عن أنفسهم بسبب ضعفهم. ومن المهم أن نذكر أن ثلاثة من هذه النصوص القرآنية قد وردت في السورة الثانية (البقرة) والتي يعتقد العديد من العلماء أنها السورة التي تلخص المواضيع الرئيسة في القرآن. وآخر هذه النصوص المذكورة هنا ربما هو أفضل وصف يصوّر موقف القرآن من الحرب: تحذيري، واحتراسي، وواقعي؛ ولكننا نجد أن القرآن قلمّا يؤيد اللجوء إلى العدوان لإجبار الدول غير المسلمة أن تقبل بالحكم الإسلامي. والآية الأولى من هذا القسم الخامسة من سورة التوبة هي التي يستخدمها المسلمون غالباً، ولكن نظرة سريعة إلى الواقع تظهر على أن هذا النص موجه ضد أولئك الذين ينقضون العهود مع المؤمنين من خلال غدرهم. فالآية السابقة لها تقول:

﴿إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤/٩].

وفيما بعد نقرأ:

﴿فَما اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ٧/٩][٨٥].

---

(٨٥) المرجع السابق. غالباً ما يستخدم المسلمون آيات من سورة التوبة مثل الآية ٢٩ والآية ١٢٣ ليسوّغوا غزو الدول المسالمة من أجل إخضاعها للحكم الإسلامي. إن استخداماً كهذا ليس فقط تناقضاً صارخاً مع الآيات التي تم الاستشهاد بها أعلاه، وبالتالي تفسح المجال لافتراض نسخ على نطاق واسع، بل وكما يناقش محمد علي بشكل كامل في كتابه دين الإسلام ولكنه استخدام يتجاهل الظروف التاريخية وظروف تنزيل الوحي.

إنّ تقسيم العلماء المسلمين القدامى للعالم بين (دار الإسلام) و(دار الحرب) كان يعكس وقائع موجودة. فأي قوة هامة في أيامهم كانت بشكل أساسي في حالة غازية أو مغزوّة[٨٦] . واليوم نرغب في الاعتقاد أن كل ذلك يتغيَّر، ولكن ربما خير ما يمكن أن نفعله هو استبدال كلمة (يخضع) بكلمة (يسود) أو (يسيطر)، ولكن أعتقد أننا بلغنا درجة من الوعي التي لاتجد راحة لها في أي من هاتين الفكرتين، ولكنها تتناسب بشكل سهل مع أخلاقية القرآن في الحرب.

الإيمان والسلطة

قال مدير جامعة الشرق الأوسط Middle Eastern University وهو يدرك أن الحديث والدراسة في صالحه: «إنـي واثق أنك تعلم أن المسلمين الذين يعيشون في الولايات المتحدة ليسوا مجبرين على العمل والمعاناة والكفاح إن دعت الضرورة كي يؤسسوا الدولة الإسلامية».

أجبته قائلاً: "إن فكرتي عمّا يجعل الدولة إسلامية قد تكون مختلفة عن فكرتك، فهل تعتقد مثلاً أن بلدك هو دولة إسلامية؟"

قال: «طبعاً ليست دولة إسلامية كاملة، ولكننا أحرار في ممارسة شعائرنا ومعظم أوامر الشريعة مطبقة عندنا».

---

(٨٦) إن هذا يرمز إلى غزوات عمر. ففي كتاب *دين الإسلام* يشير محمد علي إلى أنه بعد وفاة محمد ثارت بعض القبائل العربية وشكلت خطراً عسكرياً يتهدد السلطة السياسية للدولة الإسلامية. وكان مركز هذا النشاط يتاخم أراضيَ الحدود الغربية مع سورية وفي الشرق (أي البحرين). وكانت الإمبراطوريتان الرومانية والفارسية تدعم هذه الثورات وتمدها بالعتاد والرجال (الرومانية تدعم التمرد على الحدود السورية والفارسية تدعم التمرد في البحرين). وهكذا وجدت الأمة الإسلامية الفتية نفسها مقحمة في صراعات مع هاتين الإمبراطوريتين. وفي حالة الإمبراطورية الفارسية يعترف موير Muir في كتابه *تاريخ الخلافة* أن الأوضاع لم تترك لعمر أي خيار سوى أن يغزو فارس كإجراء دفاعيّ عن النفس.

قلت: «ولكن وما علينا إن كنا نشعر بالحرية ونمارس شعارنا أن نؤثّر في القوانين والحكومة من خلال الديمقراطية؟»

قال: «ولكن الديمقراطية تعترف بإرادة الأغلبية، في حين تعطي الدولة الإسلامية الحكم النهائي لله كما أنزل في القرآن وتعاليم النبي!»

قلت: «ألايمكن أن يندمج الاثنان في مجتمع واحد حيث تلتزم الأغلبية بوجهة النظر القائلة: إن الله هو السلطة المطلقة وأن محمداً هو نبيُّه؟ وإذا لم تلتزم الأغلبية، فما الغرض إذن من إعلان الدولة الإسلامية أو دولة دينية؟»

قال: «إن ماتدعو إليه هو علمانية!»

لقد تمخضت محادثتنا عن عدد من المواضيع التي تزعج النقاش السياسي الإسلامي المعاصر، وهذه تتضّمن واجب إنشاء الدولة الإسلامية ومشكلة تعريف ما حقيقة الدولة الإسلامية، ومالعلاقة بين الإسلام والديمقراطية والعلمانية؟ وأجد من الأفضل لي أن أناقش كلاً من هذه النقاط، ولكن بترتيب عكسي.

فالإسلام والعلمانية لاينسجمان. فالعلمانية تعريفاً تتضمن اللامبالاة أو إقصاء الدين، وهي تعانق العقيدة القائلة بأن أساس الأخلاق يجب ألاّ يكون دينيّاً، وهذه عقيدة لا يمكن للمسلم القبول بها. ولكن العلمانية والديمقراطية ليستا صنوين، ولا تبدو الديمقراطية على أنها تتنافر مع الإسلام لأن الديمقراطية هي حكم الشعب أو حكم الأغلبية. فقد رأى العديد من المفكرين المسلمين خطوط تشابه كبيرة ما بين مبادئ الديمقراطية والمفهوم الإسلامي للشورى. فالديمقراطية لاتعني إقصاء الاعتقادات الدينية من صناعة السياسة الحكومية؛ بل في الحقيقة إن الأنظمة القانونية والسياسية للعديد من الأمم الديمقراطية الحديثة ممزوجة مع الاعتقادات الأخلاقية التي لها قاعدتها

الدينية على نطاق واسع. والديمقراطية لا تمنع الجماعات الدينية من كسب الأنصار في سبيل أهدافها: أذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر حركة منع الإجهاض الأميريكية، وترشيح بات روبرتسون Pat Robertson نفسه لمنصب الرئاسة، والاحتجاج الأخير الذي قامت به الكنيسة الكاثوليكية الرومانية احتجاجاً على حرب الخليج الأخيرة، فهذه جميعاً حدثت تحت اسم الديمقراطية دون أن يمنعها أحد من ذلك. وعلى هذا فكلمة (علماني) عندما تطلق على الديمقرطيات الغربية هي مصطلح مغلوط. فالنظام الديمقراطي يحاول التحقّق من أن الرأي السياسي لكل فرد له وزنه المتكافئ، وأن جميع المواطنين لايمكن إخضاعهم لوجهة نظر الأقلية. فالديمقراطية في مجتمع متجانس من المسلمين يجب ألاّ تتحدى السلطة المطلقة لله أكثر من أي نظام حكم آخر. وفيما إن كان الجميع سيتوافق مع الإرادة الإلهية أم لا، فإن ذلك يعتمد على التزام الجماهير وممثليهم المُنْتَخَبِين وتفهمهم.

وفي المجتمع التعددي تساعد الديمقراطية على حماية الحرية الدينية والسياسية؛ إنها تساعد ولكن لا تضمن، ذلك أنه من الطبيعي أن يكون للفكرة المهيمنة التأثير الأكبر. فالمسلمون الذين يعيشون في الولايات المتحدة، على سبيل المثال، يخضعون لقوانين زواج قد تم إعداده للمسيحية من قبل، وهذا يتعارض مع معتقداتهم. ولكن الفرصة مفتوحة أيضاً للمسلمين كي يناقشوا حالتهم وأن يتمكنوا من الحصول على تغيير في سياسة الحكومة. وعلى نحو مشابه، فإن التاريخ يسجّل درجة جيدة من التسامح الديني للحكومات الإسلامية، وخاصة إذا ما قوبلت مع الأنظمة الأخرى. ومهما يكن، وحسب الشريعة الإسلامية، فإن المجتمعات غير الإسلامية كانت تمنع أحياناً من هدي الناس لدينهم أو من إنشاء دور عبادة جديدة[٨٧]، وهذه المسائل تعد بالنسبة للمسلمين

(٨٧) برنارد لويس، *يهود الإسلام*، ص ٢٥-٢٦.

واجبات دينية. وفي حين يكمن الخطر في إزعاج ماتشعر به الأقلية من أنه حق من حقوقها، فإن الجمهوريات الديمقراطية الحديثة هي التي تبدو وكأنها تقوم بأفضل الأعمال لحماية حقوق الأفراد؛ وفي الحقيقة يصعب التفكير في بديل أفضل منها. وفي الواقع غالباً ما يعترف المسلمون أنفسهم أنهم يشعرون بحرية لممارسة معتقداتهم في الغرب أكبر مما يشعرون بها في أوطانهم التي جاؤوا منها.

لن أخاطر لدرجة الذهاب بالقول إلى أن الجمهورية الديمقراطية الغربية كافية نموذجاً للدولة الإسلامية، أو أن تحوّلاً كهذا سوف يحصل بشكل طبيعي إذا ما استمر المجتمع الإسلامي بالنمو في الغرب. ففي المقام الأوّل ليس عندي علم بوجود أنموذج عملي قائم، ولاحتى تعريف للدولة الإسلامية التي يقبل بها غالبية المسلمين. فالمواطنون السعوديون يعتقدون أن حكومتهم إسلامية، أو على الأقل شرعية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية، ولكن عملياً، لايوافق أحد من خارج الجزيرة العربية على هذا. وكان الهدف الأول للجمهورية الإسلامية في إيران أن تتفق مع برنامج عمل الإمام الخميني وهي (الحكم عن طريق الفقه)[٨٨]، ولكن المؤيدين يعترفون بأن هذا لم يحصل بعد، وأن النظام الإيراني مايزال في حالة من التحوّل. وكيفما كانت تلك الحكومة في إيران فإن التجربة الإيرانية لن تناسب أغلبية السنة في العالم الإسلامي؛ لأنهم يرون فيه نظاماً شيعياً جوهرياً. إن المرشح التالي الأقل احتمالاً لابد أن تكون الباكستان التي أصبحت دولة مستقلة في آب عام ١٩٤٧. ومهما يكن فإن الباكستان التي تعاقبت على حكم معظم تاريخها عدة دكتاتوريات عسكرية لاتدّعي أنها دولة إسلامية.

---

(٨٨) آية الله الخميني، *ولاية الفقيه* (طهران، ١٩٧٨).

فالدور الذي يجب أن يلعبه الإسلام في العملية السياسية في الباكستان كان موضع نقاش منذ زمن طويل بين القادة والمثقفين الباكستانيين[٨٩] .

فعلى النقيض من ندرة النماذج الحديثة للدولة الإسلامية، نجد أن كتاباً مسلمين قد قاموا بتقديم نظريات متعددة حول هوية الدولة الإسلامية، وتتنوع هذه النظريات من دولة ثيوقراطية Theocracy على أحد طرفي الطيف الإيديولوجي إلى دولة ديمقراطية democracy على الطرف الآخر من هذا الطيف[٩٠] . ويوافق الجميع تقريباً على أن الدولة الإسلامية يجب أن تمتثل لإرادة الله، ولكن فيما وراء ذلك هناك تفسيرات متباينة بشكل كبير واختلافات نظرية رئيسية. فهناك تعارض كبير في ناحيتين وهما الدور الذي يجب أن يعطى لعلماء الدين في الدولة الإسلامية، ووضع المواطنين من غير المسلمين.

وفيما يتعلق بالموضوع الثاني، ففي حين توافق جميع السلطات المسلمة تقريباً على أن لكل مواطن الحق المضمون في العيش، والحرية، والتملك، إلاً أن هناك قيوداً تفرض على الحرية السياسية والاعتقاد والممارسات الدينية. ففي بعض النظريات يسمح لغير المسلمين بالدعوة لدينهم، ولكن فقط بين المواطنين من غير المسلمين. وكل مجتمع له محاكمه الدينية الخاصة به، ولكن غير المسلمين قد يعدون وضيعين أمام القانون العام (مثلاً قد لاتقبل شهادتهم وقد تكون عقوبة غير المسلم الذي يقتل مسلماً أشد من

---

(٨٩) اشتياق أحمد، مفهوم الدولة الإسلامية
Ishtiaq Ahmad, *The Concept of an Islamic State* (London: Frances Printer, 1987).

(٩٠) المرجع السابق، انظر أيضاً: محمد أسد، *مبادىء الدولة والحكومة في الإسلام* ودافيد د. كومينز، *الإصلاح الإسلامي*؛ ظفر خان، *الإسلام: سياسة ودولة*؛ ميتن هيبر ورافاييل إسرائيلي، *الإسلام والسياسة في الشرق الأوسط*؛ طارق ي. إسماعيل وجاكلين س. إسماعيل *الحكومة والسياسة في الإسلام*؛ سيد أبو الأعلى المودودي، *الشريعة والدستور الإسلاميان*.

عقوبة المسلم الذي يقتل غير المسلم) وكذلك قد يحرمون من حق الحضور الواسع والهام في العملية السياسية[٩١].

ونظراً لوجهة النظر واسعة الانتشار بين المسلمين من أن جميع حكومات الدول الإسلامية هي ليس حكومات إسلامية، ونظراً للتباين الكبير في البرامج النظرية للحكم الإسلامي، فإني أشعر بالغرابة عندما أسمع بعض المسلمين يتحدثون عن الدولة الإسلامية كما لو أنها مفهوم راسخ وتمت الموافقة عليه بإجماع. ويبدو أن متوسط استخدام المسلمين لهذا المصطلح يتضمن رفضاً وحلماً معاً: رفضاً للهيمنة الغربية وللحكام الظلمة الذين يحكمون الأراضي الإسلامية، ورؤيا مبهمة لحل مثالي خيالي utopian. إن نموذج الدولة- المدينة التي أسسها النبي حاضرة في ذهن كل مؤمن، ولكن هؤلاء لايعطون الكثير من التفكير للكيفية التي يمكن أن نبني فيها ذلك النموذج بما يتناسب وحاجات مجتمع القرن العشرين. طبعاً لانستطيع أن نتوقع أكثر من هذا من رجل الشارع طالما أنه لن يكون عالم سياسة إلاّ نادراً. وأي خبير يتحدث عن الدولة الإسلامية سوف تطلب منه التفاصيل بإلحاح قبل الحصول على فكرة واضحة بما يحاول أن يعبر عنه. ولقد اعترف لي مؤخراً أحد الأعضاء المرموقين في جمعية شمال أمريكا الإسلامية (ISNA) بأنه إذا كان على الشعب الأميركي أن يقبل بالإسلام غداً، فليس عنده أيّ فكرة عمّا سيفعله هؤلاء المعتنقون الجدد في سبيل حكمهم لأنفسهم كمجتمع إسلامي.

فعلى الرغم من خلافات الرأي السائدة وحالة الغموض فإن جميع المنظّرين المسلمين تقريباً يوافقون على أن الدولة الإسلامية يجب أن يكون لها أساس ديني. والافتراض الظاهري التالي هو أن المعاهد السياسية والقانونية الكبرى لهذه الدولة يجب أن يقودها

---

(٩١) اشتياق أحمد، *مفهوم الدولة الإسلامية*، ص ٨٧-١١٦ وبرنارد لويس، *يهود الإسلام*، ص ٢٧-٤٠.

المسلمون. أشعر أنه يجب أن نتنازل بهذا القدر وإلاّ لماذا نستخدم الصفه دولة إسلامية إذن؟ هناك بعض المنظرين المسلمين ممن لايرون غضاضة بالنموذج الديمقراطي، ولكن كلما اقتربوا ببرنامجهم من الديمقراطيات الغربية فقدت كلمة (الحكومة الإسلامية) الكثير من معناها الحقيقي[٩٢]. وهذا هو السبب الثاني لإحجامي عن تقديم الجمهورية الديمقراطية الحديثة نموذجاً إسلامياً محتملاً بديلاً، وذلك لأنها لاتحصر المكتب السياسي بأي أبوّة دينية معيَّنة.

على هذا يكون المسلم الأميريكي أو الأوربي قد وقع في ورطة إذن؛ هل عليه أن ينتمي لشكل حكومته الحالية التي لها مزاياها وملامحها العديدة الواضحة التي تبدو على أنها تتوافق مع فهمه للإسلام كي يستعيض عنها بنظام ما يزال حتى الآن يفتقر إلى تعريف. إن خيبة كهذه قد تشير للحاجة إلى الاحتراس.

لقد وجد علماء المسلمين نعماً إلهية في مختلف فترات حياة النبي لأنها تساعد المؤمنين الذين يواجهون أنواعاً مختلفة من المحن. من أجل ذلك يصبح الأمر طبيعياً عند البحث عن تجارب موازية لتجاربهم في حياة النبي، وكذلك في تجارب حياة المجتمع الإسلامي الأول. ولكن هذا الأمر قد يُبالغ به لدرجة قد تصل إلى حد إيجاد قياسات بشكل قسري لاتشبه في الواقع شيئاً من حياة النبي أو الصحابة إلا سطحياً.

إن القرآن والحديث يؤكدان الحقيقة القائلة: إن محمداً وأصحابه أظهروا صبراً وبلاءً عظيمين في جهودهم لممارسة الإسلام والدعوة إليه في بيئة مكة العدائية. و لم يتخذ أولئك المسلمون قرارهم الضروري للبحث عن الاستقلال السياسي وعن الانتقام إلاّ بعد أن استهلكوا كافة السبل. ومن العبث أن نتكهن بالاتجاه الذي كان يمكن لهؤلاء أن يسلكوه لوأنهم عاشوا ضمن نظام حكم تكون فيه حريتهم لممارسة الدعوة مصونة

---

(٩٢) اشتياق أحمد، *مفهوم الدولة الإسلامية*، ص ٦٢-١٢١.

بالقانون، ذلك أن أوضاعهم كانت مختلفة بشكل كبير جداً. ولكن يبدو أنه من الأمانة القول، تمشّياً مع قول برنارد لويس: إن محمداً أصبح رجل دولة ليكمل مهمته كنبي وليس العكس[٩٣].

ولقد واجه المسلمون في الغرب وبخاصة النساء بعض التمييز والمضايقات ولكنهم لم يواجهوا الظلم والاضطهاد بالدرجة نفسها التي عاناها المسلمون الأوائل. ومادامو قادرين على المشاركة وبالتساوي، وحسب معتقداتهم الدينية، في التطور السياسي لمجتمعاتهم، فإني لاأرى أنه من المشروع تجريد الأنظمة الديمقراطية القائمة من حكوماتها. ويؤكد الكتّاب المسلمون على قدر كبير من الثقة أن الإسلام كانت تسير دعوته في المناخ السلمي بشكل أفضل مما كانت تسير عليه في المناخ القسري، وهناك دلائل قد تشكلت لتوّها تقول: إن الأراضي الغربية قد تنقلب لتصبح أرضاً خصبة جداً لنمائه. فالمسلم يجب عليه أن يجاهد لكي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (كما في الآية ١١٠ من سورة آل عمران) وأن يطيع الله والرسول (كما في الآية ٣٢ من سورة آل عمران) وأن يكون مع ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ [آل عمران:٣/ ١١٠]. وأما في الوقت الحاضر فإن تلك الفرصة متاحة لهم في البلاد الغربية أكثر من البلاد الإسلامية. وأقولها بصراحة: إنّه إذا ما انقلبت الآية فإن أشد ما يقلقني هو أن المسلمين سوف ينكرون مثل هذه الامتيازات على غيرهم.

الردّة [٩٤]

قالت إحدى الحاضرات للمتحدث:

---

[٩٣] برنارد لويس، يهود الإسلام، ص ١٢.

[٩٤] لقد تمت معالجة هذا الموضوع بشكل مفصّل في عملين حديثين يتحديان الأحكام التقليدية وهما: محمد سليم العوّا، *العقوبة في الشريعة الإسلامية*، ص ٤٩-٦٨؛ ومحمد علي، *دين الإسلام*، ص ٥٩١-٥٩٩.

ـ أتوافق أم لاتوافق على أن سلمان رشدي يستحق عقوبة القرآن للردة؟ لم يكن هناك مجال لتجنّب سؤالها، إذ كان هذا هجومها الثاني. كان نصف الجمهور من غير المسلمين وكانت كاميرات هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) تلتقط كل كلمة. ألم تأخذ بالحسبان تأثير كلماتها؟ كيف يمكنك أن تجيب عن تحد كهذا دون أن تتسبب في إثارة شكوك الآخرين عن الإسلام؟

ـ أجابها قائلاً: لقد قلت لتويّ: إنه مرتد.

قلت في نفسي: من فِضلِك انصرفي! ماذا تحاولين أن تثبتي؟ ألم تري كيف كانت ردود وسائل الإعلام عندما أعلن يوسف إسلام المطرب المشهور سابقاً كات ستيفنز؟ لقد انتشرت أخباره في كل بلد غربي وكانت عناوين الصحف تقول: (استقل قطار الموت) وـ (أغنية الرجل القاتل)، و(من طفل بريء إلى إرهابي). وقامت وسائل الإعلام بإجراء مقابلات مع صديقات سابقات له قلن: إنه كان يفكر دوماً بالإسلام. سألت ثانية بإلحاح: (هل يستحق هو؟ أيستحق عقوبة القرآن التي تقضي عليه بالموت؟)

لقد أجبره غطاء رأسها كي يركز على الغضب المتوقد في عينيها، عينان متعطشتان للانتقام لقرنين من الكرب والمهانة على أيدي أمبرياليين كافرين. لم يكن هناك سبيل لإيقاف هاتين العينين، لذا تنهّد بقلب مثقل وهو يقول: (نعم، إنه يستحق عقوبة القرآن بسبب ردته).

ـ عندها قالت: (السلام عليكم) ثم تركت المايكروفون، وقفلت راجعة عبر الممر إلى مقعدها.

ـ صرخوا مهللين (الله أكبر، الله أكبر).

إن التحوّل إلى الإسلام كان لـه علـى الغـالب نتائجـه السياسـية الخطـيرة. واعتنـاق الإسلام هو أكثر من مجرَّد مقولة فكرية، بل إن ذلك يعـني ارتباطـاً اجتماعيـاً وسياسـياً بالمجتمع الإسلامي وأهدافه. إن إقرار المرء بإيمانه أمام الملأ وبشكل نظري نطق الشـهادة تزوّده بالمفتـاح إلى كافـة مؤسسـات المجتمـع الإسـلامي وتـزوّده أيضـاً بمزايـا الشـراكة المتساوية مع المسلمين. فحياة الشـخص وممتلكاتـه وشـرفه تصبـح مقدسـة حالمـا ينطـق بالبيان المحكم الموجز (أشهد ألاّ إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله).

وليس من العسير أن نتصوّر كيف أنه من السهل التلاعب عن طريق هـذه الصيغـة: كي ينقذ الإنسان حياته في المعركة، أو ليكسب حظوة سياسـية أو ماديـة، أو ليخـترق المجتمـع الإسـلامي بهـدف الخـداع. وتتكـرر حـوادث إسـاءات كهـذه في التـاريخ الإسلامي، ولقد كانت الأداة الرئيسية المتوفرة لدى القضاة الأوائل هو الإجابة عن هذا الخطر بتهديد المرتد بعقوبة الإعدام. وكان يسمح للمواطنين من غير المسلمين أن يبدلوا دينهم كيفما شاؤوا شريطة ألاّ يكونوا قد اعتنقوا الإسلام، وأما مـن أسـلم فيجـب أن يبقى مسلماً دوماً، وإلا فالبديل الوحيد هو الموت. وطبعاً لم يزد هذا من نسبة معتنقـي الإسـلام، ولكـن قلـق القضـاة الرئيسـي لم يكـن مـن أجـل احتكـار عضويـة المجتمـع الإسلامي، بل بالأحرى كي يحول دون الدخول المنافق في الإسلام.

إن أزمة الاعتقاد ليست دوماً أزمة سياسية. فالعديد ممن يمرّون بتجربة عذاب الشك ليست لديهم دوافع دنيوية، وغالباً ما يعترفون بـأنهم يحسـدون أولئـك القـادرين علـى القبول بشكل أعمى. فالشك يمكن أن يقود لنبذ الإيمان، وخاصة إذا كان محرّماً، ولكن الشك يمكن أن يقود أيضاً إلى إيمان أغنى، وخاصة إذا ما أعطي مجالاً كي يتصارع مع نفسه. فبعض علماء الدين من المسـلمين، مـن أمثـال الغـزالي، يقولـون: إنّ الشـك هـو

الخطوة الأولى على الطريق نحو اليقين[٩٥]. وقد ميَّز بعض القضاة الأوائل بين الشك والنفاق. فالمذهب الحنفي مثلاً يقول: إن المرأة لاتقتل بسبب الردة مادامت لم تمارس الحرب وهذا هو السبب الظاهر في وجوب أن يقتل المرتد[٩٦]. ولكن رأي الجمهور كان وما يزال أن جزاء الردة في الإسلام هو القتل مهما كانت الظروف.

وخلافاً لتوكيد المتحدث في الحوار السابق فإن القرآن لايحدد أبداً عقوبة الإعدام أو أي فعل عقابي أعني ضد المرتد، فعدد المرات التي ذكرت فيها الردة في القرآن هي ثلاث عشرة ولكن كل ماتحتويه هذه الآيات هو التأكيد على أن المرتد سوف ينال عقابه في الآخرة[٩٧]:

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢/٢١٧].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران: ٣/٩٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا[٩٨] ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٤/١٣٧].

---

(٩٥) إغناز غولدزيهر، *مقدمة للاهوت والشريعة الإسلامية*، ص ٨٧-٨٨.
Ignaz Goldziher, Introduction Islamic Theology

(٩٦) العوّا، العقوبة في الشريعة الإسلامية، ص٥٣

(٩٧) المرجع السابق، ص ٥٠.

(٩٨) أفضل هنا استخدام ترجمة محمد أسد للفعل (كفر) بمعنى (أنكر الحقيقة) أو (رفض الحقيقة) وليس بالمعنى العام التقليدي (أنكر الإيمان). فالمعنى الأساسي هو (غطّى) أو (أخفى) وفي عصور ماقبل الإسلام كانت تستخدم غالباً بمعنى (أنكر الفضل) أو (أنكر أو رفض هبة أو معروفاً). أشعر وكأن تفسير محمد أسد للمصطلح هو أقرب للمعنى الضمني العام المستخدم في القرآن. وللأسف كما هو الأمر مع كثير من =

﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤/٥].

﴿مَنْ كَفَرَ باللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمانِهِ إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦/١٦].

ويشير القرآن إلى حالتين تاريخيتين من الردة لم يعاقب صاحبهما وذلك خلال الفترة المدينيّة:

إحداهما: تضمنت محاولة من قبل أعداء النبي من اليهود الذين كانوا يحرّضون الآخرين على التخلّي عن إيمانهم ليكونوا أوّل من ارتدّ جهاراً.

وأما الثانية: فتشمل زوجات ستة من المسلمين اخترن بعد صلح الحديبية أن ينضممن إلى مجتمع الكافرين:

﴿وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢/٣].

﴿وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا﴾ [الممتحنة: ١١/٦٠].

والأمر الإلهي ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦/٢] يبدو كأنه يدحض عقوبة الردة، اللهم إن لم تكن عملاً بيّناً من الخيانة السياسية. كما أن ميل غالبية أحاديث النبي المتعلقة بالردة تنحو نحو هذه النتيجة. ففي المقام الأوّل هنالك أحاديث موثّقة لم يتخذ فيها أي إجراء ضد المرتدين. فقد روى البخاري إحدى

-المصطلحات والعبارات في القرآن لا توجد نظائر مباشرة لها في الإنكليزية. توشيهيكو أيزوتسو Toshihiko Izutsu يشرح هذه الكلمة بشكل ممتع في كتابه الله والإنسان في القرآن.

الحوادث التي تتعلق بالرجل الذي بايع النبي على الإسلام ثم جاء في اليوم التالي يطلب من النبي أن يقْتله فأبى النبي ثلاثاً ثم انصرف دون أن يؤذيه أحد[٩٩] . وهناك حالة مشابهة وهي حالة المسيحي الذي أصبح مسلماً ثم أصبح كاتباً للنبي في المدينة لمدة قصيرة ثم ارتد إلى مسيحيته ثانية، وكان يسمع منه دوماً ادعاءه الكافر وهو «أن محمداً لم يكن يعرف شيئاً إلاّ ماكتبه له»، ويروي أنس أن هذا الرجل مات فيما بعد ميتة طبيعية أي لم يقتل[١٠٠] .

ثانياً: هناك مجموعة من الأحاديث التي تربط الردّه بالخيانة العظمى. وهذه تشمل الحالة الوحيدة الموثّقة لمعاقبة المرتدين وهي حزب من قبيلة عُكْل الذين اعتنقوا الإسلام ثم ارتدوا وأخيراً ارتكبوا الجرائم. إن قول النبي: «لايحل دم مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة» قد تم التعقيب عليه في سنن أبي داوود، حيث يشرح النبي أن المفارق لدينه هو ذاك الرجل الذي خرج مفارقاً المجتمع ليقاتل الله ورسوله[١٠١] .

وفي النصوص الشرعية الكلاسيكية فإن الحديث: «من بدّل دينه فاقتلوه» يستخدم لإثبات عقوبة الموت في حالات الردة العامة[١٠٢] . ولكن محمد علي يرى أن هذه المقولة بحاجة إلى تفسير ذلك أننا إذا أخذناها بحرفية فإنها تعني أن جميع المرتدين عن دينهم إلى أيّ ديانة أخرى يجب أن يقتلوا. وهو يرتئي أن الطريقة الوحيدة التي يمكن بها لهذه المقولة أن تتفق مع أدلة أخرى، ومعظمها قد تم تبيانه أعلاه، هو أن نفترض أن

(٩٩) أخرجه البخاري في فضائل المدينة، باب: المدينة تنفي الخبث، رقم (١٧٨٤).

(١٠٠) عثرت على هذا الحديث في كتاب محمد علي: دين الإسلام وبدوره فقد أخذه من صحيح البخاري.

(١٠١) سنن أبي داوود: ٤:٢٢٣ ويذكر العوّا في كتابه أنه أخذ هذا الحديث من صحيح البخاري.

(١٠٢) حديث ابن عباس أخرجه البخاري في الجهاد، باب: لا يعذب بعذاب الله...، رقم (٢٨٥٤).

المقصود به هنا من الردة هو الخيانة العظمى[١٠٣]. ويعترض محمد العوّا قائلاً: إن موقف محمد علي هو اعتذاري ويذهب إلى حد تقديم حجج منطقية يتبيّن فيها أن هذه المقولة يمكن تفسيرها بواحدة من ست عشرة طريقة (و منها التزكية أو الإجازة) ولكن ليس بالضرورة كأمر[١٠٤].

وبغض النظر عن المبادئ التي تأثر بها محمد علي، فإنني شخصياً أجد تعليله سليماً ومناسباً. فإذا ما أعطينا القرآن الأسبقية وأخذنا باعتبارنا أحاديث موثّقة أخرى، فإنه يستنتج أننا يجب ألاّ نسمح لجزء واحد من حديث وهذا الجزء منقوص على نحو واضح أن يسيطر على ما يمليه الضمير من أنه العدل. وما قام به العوّا هو تلطيف ادّعاء محمد علي فيما يختص بعدم كفاية الحديث المومأ إليه. ويجب أن نسلم بأنه قد تبرز هناك حالات لا يمكن أن نلبي بها جميع الأقوال الوثيقة الصلة بالموضوع. وأعتقد أنه في حالات كهذه يجب أن نستسلم للمقدار الذي تم إدراكه من الدليل، وليس بالضرورة تلبية جميع التفاصيل الدقيقة.

ويبدو أن رواة الحديث في المراحل القليلة الأولى لم يكونوا ينقلون ما كانوا يسمعونه دوماً من حديث النبي بشكل حرفي، بل بالأحرى ما كانوا يفهمونه على أنه معنى الحديث. وهذا ما يشرح سبب تنوّع روايات حديث ما في الكتب الرسمية. وهكذا وفي حين أننا يمكن أن نحترم بحق الحديث على أنه مصدر أساسي للمعلومات، فإننا يجب أن نكون مستعدين أن نتناول أي تعارض بالتحليل وبالواقعية، وأن نوازن هذا التعارض مع أي أقوال ذات علاقة بالموضوع، وأن نسلّم باحتمالية عدم الكمال.

---

(١٠٣) محمد علي، *دين الإسلام*، ص ٢٩٦.

(١٠٤) العوا، *العقوبة في الشريعة الإسلامية*، ص ٥٢-٥٣.

وفي حين أن عقوبة الموت بسبب الردة ما تزال لها مضاعفاتها الهامة للمسلمين في بلدان مثل إيران، و السعودية وربما الباكستان فإن عاقبتها ليست ذات وبال مباشر كبير بالنسبة للمسلمين الذين يعيشون في الدول الغربية الآن؛ حيث إنّ فكرة قتل شخص ما بسبب تغييره لأفكاره أو عقائده هي فكرة مقيتة جداً. والدليل الذي يلجأ إليه القضاة المسلمون في النصوص الكلاسيكية لتقرير قتل مرتد ما يفترض بشكل أفضل أن عقوبة كهذه يجب أن تطبق فقط في حالات المرتد الذي قام بمساعدة عدو أو تحريضه ضد الدولة. فالقرآن يعلن وبثقة متناهية ﴿قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ٦/١٠٤]. وبدورهم فإنه ينبغي على المسلمين أن يقتنعوا بأن دينهم سوف ينتشر بشكل أفضل في بيئة حيث ﴿لا إكراه في الدين﴾ حقاً.



أهل الكتاب

الوحي والتاريخ: تفسير: ذكرت في الفصل الثاني أن المرء لدى قراءته للقرآن يعجب من إشارات القرآن المتكررة إلى أنبياء الكتاب المقدس، وفي نقاش شهدته بين جمال بدوي وأنيس شوروش Anise Shouroush لاحظ هذا الأخير أن سبعين بالمئة من آيات القرآن مرتبط بمفاهيم يهودية مسيحية؛ وعلى الرغم من أنّ هذا أمر مبالغ فيه، اللهم إلا إذا كان شوروش قد ضمّنها جميع المفاهيم التي تشترك فيها العقائد التوحيدية، فإن مقولته تنطوي على درجة كبيرة من الحقيقة. ومن المؤكد أن قصص أنبياء الكتاب المقدس والروايات المتعلقة بالتراث اليهودي المسيحي، والنقد الموجّه ضد الفهم والسلوك اليهودي والمسيحي تسود مناقشات القرآن للديانات الأخرى.

ومن الطبيعي أن يكون المستشرقون شكاكين فيما يتعلق بتلك المناقشات، وقد اتهموا محمداً بأنه قد استعار الكثير من مصادر يهودية ومسيحية واضعين بذلك تطابقات للقرآن في الكتاب المقدس؛ والتلمود؛ وتفسيرات التلمود؛ والأبوكريفا المسيحي الغنوصي؛ وفي الرسائل والأشعار اليهودية والمسيحية القديمة[1] . إن العديد من هذه التماثلات ليست سوى تشابهات سطحية من شأنها أن توجد بين أي ديانتين. ولكن حتى في الأماكن التي يوجد فيها تشابهات كبيرة فإن التباين والغموض في المصادر يوحي للمتشككين بأن محمداً لابد وأنه أخذ أكثر من مجرد اهتمام عابر في اليهودية والمسيحية، حيث يزعم هؤلاء أنه امتلك أو

---

(١) أبراهام كاتز، *اليهودية في الإسلام*.

Abraham I. Katz: *Judaism in Islam*, (New York: Sepler Herman Press, 1980).

على الأقل عرضت عليه، كميات هائلة من المعلومات، له دون سواه من الأتباع على ما يبدو- معلومات لا يصل إليها إلا من كان خبيراً.

وطبعاً هناك احتمال آخر وهو أنه كان هناك حضور ثقافي يهودي ومسيحي في الحجاز أهم بكثير مما قد افترضناه، وهذا بدوره قاد إلى سيطرة الثقافة العربية الكبيرة على الثقافتين اليهودية والمسيحية. ويفترض القرآن أن العرب كان لديهم على الأقل حدٌّ أدنى من المعرفة بقصص الكتاب المقدس، ولكن القرآن لا يشير إلى تراث مشترك. وربما كان للمكيين اهتمامات في القصص التي كان يخبرهم بها التجار اليهود والمسيحيون خلال معارض التجارة السنوية، ولكن يبدو أن هذه الاهتمامات لم تكن سوى اهتمامات عابرة، ذلك أن الشعر الجاهلي لا يحتوي بالفعل على أي ذكر لأي شخصيات من الكتاب المقدس. فبعد وفاة النبي ولمدة قرنين من الزمان كان المفسرون المسلمون مضطرين للتطلع فيما وراء الجزيرة العربية لمصادر يهودية مسيحية (أطلق عليها فيما بعد الإسرائيليات) وذلك من أجل شرح نصوص قرآنية موازية. وهذا يبرهن على أن عرب الحجاز لم يكونوا جاهلين بالتراثين اليهودي والمسيحي فحسب بل إن محمداً لم يترك الكثير من التفسير حول الموضوع. وهذه الملاحظة ليس من شأنها إلا أن تضيف إلى اللغز المحيط بكثرة التلميحات الموجودة في القرآن عن الكتاب المقدس، ذلك أن على المشككين أن يقدموا تفسيراً مقنعاً عن مصادر معرفة محمد للتراث اليهودي والمسيحي أو استخدامه بكامل وجوده في القرآن.

ومن المسلم به عالمياً أن هدف النبي الرئيسي كان تخليص الجزيرة العربية من الوثنية، وباستثناء بعض الإشارات إلى اليهود والمسيحيين فإن جميع الآيات المتعلقة بالنزاع الحقيقي موجهة ضد الكافرين. ومع ذلك فإن القرآن نفسه لا يحتوي إلا على القليل من الإشارات الواضحة لممارسات وعقائد الكافرين. مثال ذلك أن آلهة المشركين لم

تذكر بالاسم سوى مرة واحدة في(سورة النجم: ١٩/٥٣) ويبدو أنه من الطبيعي إذا ما انشغل امرؤ ما بصراع موت أو حياة مع عدوّه فإنه سوف يوجّه كل طاقاته ضد هذا الخطر المباشر. ولكن منذ السنين المبكرة في مكة وقبل المواجهة التي استمرت مع يهود المدينة لمدة ست سنوات بوقت طويل جداً، وفي السنوات التي تلت إزالة ذلك الخطر، فإن الهدف الرئيسي لهجوم القرآن على العقائد الأخرى كان التراثين الدينيين اليهودي والمسيحي إلى جانب بعض العقائد الأخرى.

وعلينا أن ندرك أنه كان هناك تأثيرات دينية رئيسية أخرى في المنطقة. فخلال حياة محمد كان لفارس الحضور السياسي الأقوى في الجزيرة العربية، وكان للحجاز علاقات اقتصادية متينة مع الهند؛ وعلى هذا فربما كان حرياً بالقرآن أن يوجّه بعض النقد للزرادشتيه Zaroastrianism والهندوسية Hinduism والبوذية Buddhism. وطبعاً كان من الأسهل بناء عقيدة توحيدية متشددة على السابقة اليهودية، ولكن هذا الأمر لا ينطبق على المسيحية.

ومن المنظور السياسي لم يكن لأحد أن يتنبّأ، خاصة في السنوات الأولى من بعثة محمد، أن روما وليس فارساً هي التي ستكون الخصم اللدود للعالم الإسلامي؟ ولو أن فارس أو الهند أصبحتا العدو الأكثر رعباً لما وجدنا الكثير من النقاش مما له صلة بهذا الموضوع في القرآن؛ ولكن، وكما يوضح التاريخ، لم يشكل أحد تهديداً مستمراً لهيمنة العالم الإسلامي سوى الغرب المسيحي.

إن الغزو الخاطف الذي قام به المسلمون على فارس وشمال إفريقية مباشرة بعد وفاة محمد زوّد الإمبراطورية الإسلامية بثروة فكرية وماديّة وحيوية، وسرعان ما تركّز الغزو شرقاً عبر الهند، وتغلغل داخل حدود الصين. و على الرغم من أن الجيش الإسلامي كاد يهزم أوروبة مرّات عدّة، ولكن في الحقيقة لم يحصل ذلك فعلاً؛ وفي النهاية، نهضت أوروبة من حالة شبه الهزيمة الكاملة إلى حالة تحدي العالم الإسلامي، ويتركز الصراع اليوم

ما بين الحضارتين الغربية والإسلامية على المحور الثقافي. وسواء عزونا ذلك إلى المصادفة أم لعبقرية محمد أم للحكمة الإلهية، فإن الأهمية التي يوليها القرآن لليهودية والمسيحية تتفق جيداً مع ما تكشَّف عنه التاريخ. ولو تمكن المسلمون من غزو أوروبة لكان من الممكن جداً لهم أن يتمكنوا من السيطرة الكاملة على العالم وربما لم يكونوا ليشعروا بالحاجة الماسّة نفسها لإعادة السيطرة على القدرة الأصلية لعقيدتهم من أجل تطهيرها من الإضافات الثقافية كما يفعلون الآن. فعلى سبيل المثال، إن الحاجة لإعادة فحص وضع المرأة ومكانتها الاجتماعية أو قانون الرقيق كان سبباً، إلى حد بعيد، في تلاقي العالم الإسلامي مع الغرب الذي كان قد مرَّ بمثل هذه الإصلاحات مؤخراً. إن هذا لا يعني أن الإصلاح في هاتين الحالتين ما كان ليتم لولا تلاقح الثقافات، ذلك لأن الخبرة الغربية تقول غير ذلك، ولكنها كانت حافزاً للتغيير السريع. ومن ناحية أخرى فإنه من الممتع عندما نعلم أن بعض الإسلاميين الغربيين البارزين أمثال جب Gibb وواط Watt قد رأوا في هذه المواجهة فرصة للعالم الغربي أن يستعيد روحانيَّة مفقودة، وهذه الفرصة كان من المقدر لها أن تختفي لو أن المجتمع الإسلامي اعتنق على نحو تام القيم والثقافة الغربية التي جاءت مع الاستعمار[٢]. إن ما يعتقد به باحثون كهؤلاء ليس تحوّلاً غربياً إلى الإسلام بالجملة، بل فرصة لمرحلة جديدة من الإصلاح والتجديد ضمن مجتمعات عقائدهم الخاصة وذلك عن طريق حوار تبادل العقائد.

ويكاد يُجمع جميع الخبراء ولأسباب عدّة على أن الإنسانية قد وصلت إلى نقطة تقاطع حرجة، وهي المواجهة الحالية القائمة بين المجتمع الإسلامي والغرب. ففي كل جانب هناك الذين يؤمنون بأن خلاص المستقبل أو دمار البشرية قد يكون معلقاً في الميزان. فحتى الآن لم تكن المواجهة بشكل رئيسي دينية في طابعها، ولكن الدين يلعب

---

(٢) جب، *الإسلام إلى أين*، ص ٣٧٦-٣٧٩؛ مونتغمري واط، *الوحي الإسلامي في العالم الحديث*، ص ١٢٦-١٢٩.

بالتأكيد دوراً هاماً وسيضطلع بالقيام بهذا الدور ربما بشكل أعظم في المستقبل. وللعديد من المسلمين فإن هذه المواجهة أمر كان قد تصوّره القرآن لهم، بين المسلمين وأهل الكتاب (أي اليهود والمسيحيين) مع أنبياء الكتاب المقدس، ومن هنا كانت اليهودية هي الأرضية العامة لهذا اللقاء.

أهل الكتاب: قال تعالى: ﴿لَتجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنّا نَصارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ، وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشّاهِدِينَ ، وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصّالِحِينَ ، فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذَلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولَئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ٥/٨٢-٨٦].

وفي القرآن يشار إلى اليهود والمسيحيين بشكل جماعي على أنهم أهل الكتاب (People of the Book) وهذه حقيقة تدل على أن كلا المجتمعين (اليهودي والمسيحي) مبني في الأصل على كتاب مقدس موحى. وهذه التسمية تبرهن على وضعهم الاستثنائي والمميَّز في الإسلام، ذلك أنهم يحتلّون موقعاً مهماً بين المسلمين من جهة وعبدة الأوثان من جهة أخرى. فمثلاً بالمقارنة نجد أن المسلمين قد وضعوا بعض القيود التي تتعلق بالزواج ونظام الحمية مما لا يمكن تطبيقه عند اليهود والمسيحية (انظر الآية٦ من سورة المائدة). وفي بعض الآيات (٦٢ من سورة البقرة، و٦٣-١٥ من سورة آل عمران، و٧٢ من سورة المائدة، و١٧ من سورة الحج) يمنح القرآن درجة من الشرعية لليهودية والمسيحية، ويوصي المسلمين أن يدعوا أهل الكتاب إلى الحوار وأن يظهروا الحد الأقصى من الكياسة أثناء هذا الحوار (كما في الآية ١٢٥ من سورة النحل، و٤٦ من سورة العنكبوت).

ويشتمل القرآن على العديد من الإشارات إلى شخصيات العهدين القديم والجديد، ويمكن أن نجد نظائر للعديد من قصصه في الكتاب المقدس، وكذلك في المصادر اليهودية المسيحية القديمة الأخرى[٣]. إضافة إلى ذلك فإن القرآن إنما أنزل ليؤكد الرسالة الجوهرية التي جاء بها كل من الكتابين المقدسين السابقين كما في الآية(٨٩ من سورة البقرة، والآية ٨١ من سورة آل عمران)، ويدعونا لفحص هذين الكتابين من أجل التحقق من بعض التفاصيل كما في الآية (٩٣ من سورة آل عمران، والآية ٩٤ من سورة يونس)، والقرآن يصحح بعض النقاط الواردة فيهماكما في الآيات ١٦، ١٧، ٢١ من سورة المائدة، ويتوسع في بعضها الأخر كما في الآية (٤٤ من سورة البقرة، والآيات ٣٠-٣٤ من سورة المائدة، والآية ٤٤ من سورة القصص). ويصرّح القرآن أن جميع الأنبياء السابقين، خاصة أولئك الذين ورد ذكرهم في التراث اليهودي المسيحي، قد جاؤوا بالحقائق الجوهرية نفسها. ولذلك فإن القرآن لا يندد باليهودية أو المسيحية، بل يؤكد أن التعاليم النقية لهؤلاء الأنبياء قد تم تشويهها عبر السنين، وذلك عن طريق اتصالهم بالديانات السابقة أو الديانات اللاحقة. وهذا هو السبب الذي أنزل من أجله القرآن، وهو استعادة النقاء الأصلي لهؤلاء الأنبياء.

ومع ذلك فإن موقف القرآن تجاه اليهود والمسيحيين ليس متجانساً دوماً، ودليل ذلك، وكما كان متوقعاً، هو معارضة اليهود والمسيحيين الذين كانوا يعيشون داخل حدود الجزيرة العربية للقرآن على الرغم من أن هذه المعارضة كانت أكثر عند اليهود منها عند المسيحيين. ويمكن أن نتبيَّن من هذا الصراع في العديد من النصوص، فالقرآن يصرّح بأن أهل الكتاب لن يرضوا عن المسلمين حتى يتّبع المسلمون ملّتهم (الآية ١٢٠ من سورة البقرة)، وأن اليهود والمسيحيين سوف يقفون في الغالب إلى جانب الكفار

(٣) فايرستون، رحلات في الأرض المقدسة.

ضد المسلمين (الآية ١٠٥ من سورة البقرة، والآية ٨٣ من سورة المائدة، والآية ٢٦ من سورة الأحزاب)؛ ويحذّر القرآن المؤمنين ألاّ يتخذوا هؤلاء حلفاء (الآية ٥٤ و ٦٠ من سورة المائدة). فالعديد من هؤلاء كافرون(الآيات ١-٦ من سورة البيّنة)؛ رغم أن بعضهم مخلص وجدير بالثقة (الآيات ٧٥و١١٣و١١٤ من سورة البقرة)؛ والعديد منهم هم من أشد الخلق سوءاً (الآية ٦ من سورة البيّنة) ومع ذلك فإن قسماً منهم هم من خير البشر (الآية ٧ من سورة البيّنة). فقبل معركة تبوك أمر ا لله المسلمين أن يقاتلوا أهل الكتاب حتى يدفعوا الجزية وهم صاغرون (الآية ٢٩ من سورة التوبة).

وهناك عامل آخر يجب أن نأخذه بالحسبان وهو أنه على الرغم من أن القرآن يشدّد على علاقة الإسلام بالتراث الديني السابق فإنه يصبح من الضرورة المطلقة في الحال أن ننأى بالمجتمع الإسلامي عن أهل الكتاب؛ لئلا يخطئ أحد بالحكم على الإسلام على أنه فرع أو هرطقة يهودية أو مسيحية. ولهذا نجد أن النبي يؤكد في روايات متعددة على أمر اختلاف مجتمعه عن المجتمعات السابقة في مسائل المظهر والسلوك والممارسة. فالآية القرآنية التي تنكر صلب المسيح (الآية ١٥٧ من سورة النساء) والآية التي توصي بتغيير القِبلة من بيت المقدس إلى مكة (الكعبة) (الآية ١٤٢ من سورة البقرة) علامات فاصلة. ومن الغرابة أن نجد بعض المدافعين المسلمين يدّعون أن هاتين الآيتين لم ترتبطا بالانفصال الرئيسي عن أهل الكتاب، وذلك في محاولة منهم التصدي لادّعاء المستشرقين الذين زعموا أن هاتين الآيتين قد ابتكرهما محمد بعد أن أخفق بإقناع اليهود ومسيحيّي المدينة بصدق نبوءته. ولكن هذا الادعاء يمكن نبذه دون الحاجة لأن ننكر أن كلتا الحادثتين كانتا خطوات ساهمت في تأسيس الإسلام على أنه حركة دينية إصلاحية حاسمة، والقرآن يشهد بهذا (في الآيات ٤٣-٤٥ من سورة البقرة). إن انفصالاً مطلقاً كهذا كان ذا ضرورة قصوى إذا ما أخذنا بالاعتبار الحجم الجهري

للمجتمع الجديد بالمقارنة مع سابقيه من المجتمعات [اليهودية والمسيحية].

والقرآن يعارض أيضاً بعض الملامح العملية والعقائدية لليهودية والمسيحية. فالقرآن يُنحي باللائمة على كلتا الديانتين؛ لأن كل واحدة منهما أعطت الكثير من السلطة لرجال دينها (الآية ٣١ من سورة التوبة)؛ حيث ادّعى أنصار كل ديانة الشمولية لدينه على ما عداه (الآيتان ١١١، و ١٣٥ من سورة البقرة)؛ وبالغ كلٌّ منهم في أمر دينه لدرجة الإفراط (الآية ١٧١ من سورة النساء، والآية ٨٠ من سورة المائدة) مثل الرهبانية في المسيحية (الآية ٢٧ من سورة الحديد) وكذلك وكما يقول محمد «لتحريمهم ما أحل الله لهم وتحليلهم ما حرّم الله عليهم»[٤].

والقرآن ينتقد بشدة بعض العقائد التي كانت سائدة بين المجتمعات الكتابية السابقة ومن أمثلة ذلك استخدام اليهود والمسيحيين لعبارة (ابن الله)، فمثلاً نقرأ:

﴿وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقالَتِ النَّصارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ٩/٣٠].

وينتقد القرآن بشكل خاص المسيحية لأنها اخترعت لنفسها مفهوم الثالوث المقدس، يقول تعالى:

﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّما اللَّهُ إِلَهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ٤/١٧١].

وكذلك ينتقد الممارسات المغلوطة الشائعة بين العديد من الطوائف الرئيسية وهي عبادة المسيح وأمه مريم:

---

(٤) ابن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، ١/١٣٧.

﴿وَإِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: ٥/١١٦].

ويكاد معظم علماء اللاهوت المسيحيين المعاصرين يجمعون على أن عبارة (ابن ا لله) هي عبارة رمزية، وأن مفهوم الثالوث يقول شيئاً ما عن ثلاث وسائل يكشف ا لله بها نفسه للإنسان وعن علاقته في حياتنا الدنيوية. لذلك أصبح بين نقاد الإسلام من المسيحيين تقليد عام، وهو التقليل من شأن الآيات السالفة الذكر، وذلك عن طريق القول بأن محمداً لم يفهم بعمق مفهومي ابن ا لله والثالوث. حيث يزعم هؤلاء أنه لم يكن دارياً بالمفهوم اللاهوتي المعقد لشخصية المسيح الثلاثية التي تجمع بين الطبيعتين الإلهية والبشرية، وأنه لم يكن على علم بالتعقيدات المبنية على العقيدة الصوفية لابن ا لله، وأنه لا بد قد ضمَّن مريم على أنها إحدى شخصيات الثالوث. وقد تكون الحالة فعلاً بأن النبي لم يكن عنده المعرفة الشخصية الكبيرة بهذه المعتقدات المبهمة، ولكن هذه النتائج ليست أكثر من مجرد تصورات تفسيرية من الصعب إثباتها بناءً على القرآن.

ومن الواضح تماماً من النص أن الموضوع في القرآن هو استخدام بيانات عقائدية مضلّة من السهل إساءة فهمها، وليست التعليل الفردي اللاهوتي لشخصية المسيح وعمله. ومادامت مشكلة القرآن الرئيسية هي في صياغة هذه المعتقدات، لذا نجدأن القرآن يشدد في الآيات السابقة على الكلمات ﴿وقالت اليهود﴾، و﴿قالت النصارى﴾ و﴿لا تقولوا﴾، ذلك أن هذه التعابير (تقلّد) عبادة الأوثان أو قد تقود إليها، ولذلك فمن الأفضل تجنّب استخدامها. وعلى الرغم من أن كلاً من اليهودية والمسيحية يستخدم عبارة (ابن ا لله) بمعنىً يختلف عن الآخر فإن القرآن يحذرهما من الخطر الكامن في هذه الكلمات نفسها؛ وحقيقة استخدام القرآن لكلمات ﴿يقولون

بأفواههم﴾ بدلاً من ﴿يؤمنون به﴾ في هذه الآيات، يرشدنا كي نتنبه إلى أن هذه الرموز يمكن أن تكون ذات تفسيرات لاهوتية متنوّعة. ومن هنا فلا عجب أن نجد نصوصاً أخرى في القرآن تضع بعض اليهود والمسيحيين النصارى بين عباد الله المؤمنين بحق.

ولكن القرآن هنا لا يهتم كثيراً بالمسلّمات اللاهوتية قدر ما يهتم بتأثيرات هذه التركيبات على الإنسان العام. ونتيجة لهذه العبارات فإن اليهودي العام قد يصل للاعتقاد أن اليهود وحدهم هم أحباء الله (الآية ١٨ من سورة المائدة)، وبدوره فقد يسيء المسيحي العادي قراءة هذه الآيات العقدية ويفهم، خطأً، بأن المسيح هو الله أو هو (المولود) ابن الله وأنه وأمه يجب أن يكونا مواضيع توسّل وعبادة. وحتى اليوم إذا سألت أي مسيحي إن كان المسيح هو ابن الله حقاً، وفيما إن كان يجب أن يعبد أم لا، فإن الاحتمال الأكبر أن يجيب هذا المسيحي بالقبول، بل يحتمل أن يجيب، إن كان كاثوليكياً، أن أم المسيح، مريم، يجب أن تعبد أيضاً. وهكذا فالآية (١١٩ من سورة المائدة) هي ليست إشارة إلى الثالوث المقدس، بل إلى هذه المخاطرة الحقيقية الكامنة فيما وراء ذلك. ومسألة قلق القرآن على الطبيعة المضلّلة للعبارات العقائدية الواردة أعلاه لها دليل إضافي في القرآن نفسه وذلك بالإشارة إلى اليسوع (المسيح) على أنه (مسيح) messiah، و(روح) spirit و(كلمة) word من الله وهذه، بالنتيجة، عبارات وصفية مسيحية مقبولة في القرآن ولكنها لا تنحصر في المسيح وحده.

إن وظيفة روايات القرآن عن اليهود والمسيحيين ليست لمجرد توبيخهم أو استبدال معلومات أخرى بمعلوماتهم. بل إن القرآن يحتوي على تصوير الميول ومواقف الضعف الإنسانية الكامنة دوماً والتي من شأنها أن تضعف صفاء عبادة أي مجتمع، وأن تكون شرحاً ثانوياً عن السبب الذي انتهت من أجله بعثة الأنبياء. وفيما يختص بالمسألة الأولى، فيكفي أن نذكر بالقول أن العلماء المسلمين قد قاموا مراراً بنقد المؤمنين الذين

ارتكبوا الأخطاء نفسها التي ارتكبها أسلافهم. فابن حزم من برشلونة اشتكى من أن ممارسة التقليد (وهو القبول الأعمى للآراء التي توصل إليها علماء المسلمين خلال القرون الإسلامية الثلاثة الأولى) هو محاكاة صارخة للآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (الآية ٣١ من سورة التوبة). وما يزال هناك الكثير من المسلمين ممن يصلي للأولياء عند قبورهم ويسألونهم الشفاعة، وما يزال هناك العديد من المسلمين ممن يستمر في ترديد الحجة نفسها، وهي أن المسلمين وحدهم هم الذين سوف يختصّهم الله برحمته ومغفرته. وفيما يتعلق بالنقطة الثانية فإن السؤال الذي يُطرح دوماً هو لماذا ختمت النبوّة؟ عند المسلمين الأوائل فإن هذا السؤال امتد عبر الهوّة التي كانت تفصل قيادة محمد عن النظام الفاسد الذي كان مسيطراً، ولكن سرعان ما ارتبط هذا الأمر بموضوع العدالة والرحمة الإلهيتين، إذ لماذا يهيّئ الله للإنسان سبل الهداية بشكل مباشر وعبر التاريخ الطويل، ومن ثمَّ يتركه لنفسه حتى نهاية الخلق؟ لقد كان لهذا السؤال عدة استجابات عبر التاريخ ولكن ما بقي من هذه الاستجابات اليوم هو استجابتا السنة والشيعة، وذلك بسبب قوّة هاتين المجموعتين في المجتمع الإسلامي. وبدلاً من مراجعة هاتين الاستجابتين فإننا نريد أن نقدم وجهة نظر إضافية، ولكنها غير معارضة لتلك الاستجابات السابقة.

إن الإيمان الصحيح، من وجهة نظر الإسلام، مبني على الاعتقاد بوحدة الله (التوحيد). والنتيجة الطبيعية لهذه العقيدة هي وحدة الإنسان الأساسية. وكل عقيدة توحيدية يجب أن تتفق مع كل من نقطتي القمة هاتين اللتين لا بد أن تبقيا متجانستين دوماً في الممارسات الدنيوية. إن قصة بني إسرائيل هي عن قوم كانوا دوماً وعلى نحو مثالي وخلال معظم تاريخهم متلقين لعقيدة التوحيد، ومع ذلك فقد كانوا يعيشون في بيئة تقطنها غالبية من الكافرين. وكانت تأثيرات خارجية غالباً ما تخترق مجتمعهم

فتجنح بهم في بعض الأحيان بعيداً عن تعاليم أنبيائهم. وفي القرآن يظهر هؤلاء أمة تورطت في صراع مستمر مابين عقيدة التوحيد الخالص وضغوط الوثنية وهذا ما يشرح، جزئياً، حاجتهم كي يعزلوا أنفسهم عن محيطهم الاجتماعي ومحاولتهم أن يحفظوا ويحموا صفاءهم العرقي والثقافي، ولكنهم أصبحوا يرون أنفسهم على أنهم أبناء ا لله بمعنى المصطلح الوارد في العهد القديم. وبالنتيجة وبسبب من أصول محمد غير اليهودية فإنهم لم يستطيعوا قط أن يقبلوه آخر رسول لله على الرغم من أنه جاء ليؤكد الرسالة الجوهرية مما هو وارد في التنزيل لديهم. والقرآن بدوره يلومهم بشكل متكرر لرفضهم هذا الأمر. وعلى العموم فإن اليهودية، على الرغم من نجاحها في الحفاظ على أمر الاعتقاد بإله واحد، لم تكن قادرة على قبول أمر وحدة الإنسان تحت ا لله.

وفي حين تعود المسيحية إلى الجذور نفسها من الكتاب المقدس، إلا أنها وعلى خلاف اليهودية، ديانة عالمية. إنها تستمد تماسكها من التوق الروحي المكثف لمعرفة ا لله والحصول على محبته. وهكذا، وفي حين أن يهود الجزيرة العربية وكفّارها كانوا منغلقين بعناد على رسالة تخلت عن تقاليدهم، إلاّ أن القرآن يرينا كيف أن المسيحيين كانوا أسهل تأثُّراً بقوة هذه الرسالة الروحية (الآيات ٨٥-٨٩ من سورة النساء).

والمصاعب التي تواجهها العقائد العالمية هي الاختلاف الكبير بين الشعوب التي تمتصها هذه العقائد ذلك أن هؤلاء الشعوب يجلبون معهم لغاتهم، وأفكارهم، ورموزهم وممارساتهم العقائدية التي من الممكن لها أن تشوه العقيدة الأصلية. وهذا من وجهة النظر الإسلامية ما حلَّ بالمسيحية. وعلى الرغم من أنّ الديانات الإسلامية كانت تخاطب البشرية جمعاء فإن معتقداتها تؤلف عقيدة توحيد صرفة، وتسلم بسهولة بالغة؛ مسألة ربط آخرين مع ا لله. وبهذه الطريقة فإن الخبرة اليهودية المسيحية تمثّل

الورطة التي تواجهها جميع ديانات العالم العظمى، فلقد تشكلّت التوحيدية والعالمية على نحو متباين لكي تحاول إحداهما الحفاظ على الأخرى.

ولقد عانى الإسلام وما يزال يعاني من هذه التوترات الداخلية، وما على التيار العام إلاّ أن يتخذ إجراءات صارمة ليحمي مضامين التوحيد. ومن خلال فترة تبني التقليد، لم يكن هناك أي تشجيع للتصورات الفلسفية والصوفية بل لقد تم تنظيم جميع عناصر الحياة في قانون ديني ومُنِعَ الفكر الاجتهادي. وطبعاً استمرت الضغوطات بالازدياد ولكن نجحت جماعة المسلمين الذين يدعون إلى الصراط المستقيم في وضع المصادر الرئيسية ومبادئ إسلام التيار العام المبكر (على الثلج) كما يقولون، محفوظة في قالب من الإنعاش المعلّق تعليق الاجتهاد، لتنقل في النهاية سليمة إلى الوقت الحاضر. ومهما كانت الكلفة بالنسبة للحضارة الإسلامية من جرّاء الخطوات الصارمة التي اتخذها هؤلاء العلماء المسلمون فإن اثنين من ملامح التوحيد الرئيسية وهما وحدة الله ووحدة الإنسانية اتحدتا في الإسلام بنجاح ثم نقلت لأجيال المستقبل دون أي تغيير. وبالنسبة للمسلمين فهذا مثال كيف أن الله، ومن خلال الإسلام، أتم نعمته على الجنس البشري (الآية ٣ من سورة المائدة).

الحوار الإسلامي المسيحي: يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦/٢٩].

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥/١٦]. ونقرأ في العهد الجديد: "الويل لكم يا معلمي الشريعة والفريسّيين المرائين! تقطعون البحر والبرّ لتكسبوا واحداً إلى ديانتكم فإذا نجحتم جعلتموه يستحق جهنم ضعف ما أنتم تستحقون!" (متى: ١٥:٢٣)[٥].

---

(٥) ماي وميتزجر، الإنجيل مع تعليق، جديد لأكسفورد.

وكان الاحتمال الأكبر هو أن المسلمين سوف ينشغلون في حوار مع اليهود أكثر من المسيحيين، ذلك أن اليهودية والإسلام، على الأقل في مسائل العقيدة، قريبتان جداً. ولكن ويا للدهشة فإن جميع الحوارات حول تبادل العقيدة تقع في الوقت الحاضر بين المسلمين والمسيحيين. وقد يكون من أحد الأسباب النزاع العربي-الإسرائيلي، وكذلك عداوة القرآن ليهود المدينة، وهذا ما يجعل المسلمين يميلون أكثر نحو المسيحيين. ولكن قد تكون حقيقة تنافس كلٍّ من المسيحية والإسلام لكسب معتنقين جدد إلى جانب كلٍّ منهما لها علاقة أكبر بهذا الحوار مادامت كل من هاتين الديانتين تنظر إلى الأخرى، وليس لليهودية، على أنها هي الخطر الديني الرئيسي.

وفي الماضي لعب بعض علماء اليهود دور وساطة هام ما بين المجتمعات المتنافسة. ولقد كان هناك بعض اليهود المميّزين ممن اعتنق الإسلام أمثال محمد أسد ومريم جميلة[٦] . ولكن المناخ السياسي قد حدَّ من حوار المسلمين مع اليهود وخاصة من أجل موضوع فلسطين وحتى هنا في الغرب لم يكن هناك اتصالات مباشرة تذكر. إن عنوان هذا القسم والقسم التالي يعكس هذا الوضع البائس.

إنه لمن السهل تماماً أن تتحول اللقاءات فيما بين أعضاء مختلف العقائد إلى نوع من الصراع الديني، فالدعاية وأساليب الإعلان والدفاع عن شيء ما يخصّنا بشكل شخصي كبير هو أمر لا يمكن تحاشيه، ولكن ذلك غالباً ما يؤدي إلى الخداع وعدم الثقة؛ وفي النهاية إلى سد المجال أمام الحوار الصادق. وبالتالي فإن الهدف من الاقتراب بشكل جماعي نحو الحقيقة غالباً ما يعترض الطموحات الأخرى. وخلال عهود الاستعمار دعمت العديد من الدول الأوروبية الحركة الإنجيلية المسيحية التبشير بالإنجيل على أنها أحد مظاهر برنامج الهيمنة على العالم، وهناك ذخرٌ من قصص القهر والاحتيال التي لا

---

(٦) محمد أسد، *الرسالة*؛ ومريم جميلة، *الحضارة الغربية تلعن نفسها*.

يمكن لأحد أن ينساها. وبالمقارنة فإن المسلمين قد يكونون أفضل، ولكنهم كانوا مذنبين أيضاً كما هو ثابت مما يدعى بإنجيل برنابا Gospel of Barnabas، وهو تزييف صارخ ظهر على السطح في إسبانيا المسلمة في القرن الثاني عشر، ومايزال شائع الانتشار في العالم الإسلامي حتى اليوم. ولكن الأمور تحسنت كثيراً الآن، ذلك أننا نعيش في زمن من التسامح الكبير، ولقد غدا البحث الغربي في الإسلام أكثر استقلالاً عن الكنيسة والدولة. وعليّ أن أعترف أنه حتى رجال الدين المسيحي أمثال مونتغمري واط وكينيث كراج قد أظهروا موضوعية جديرة بالثناء، وعدلاً وتبصرة كبيرتين حيال الإسلام أكبر بكثير مما أظهره الكتّاب المسلمون حيال المسيحية.

فتقويمك الدقيق لبعدك عن ديانة ما ينطوي في الوقت نفسه على مدى قربك الحقيقي من هذه الديانة تخميناً حقيقياً عن حالة ومدى قربك أيضاً. ومن هذه الناحية فإن الجانب المسيحي قد قطع شوطاً أكبر في هذا المجال من الجانب الإسلامي ذلك أن المفهوم المسيحي للفكر الإسلامي هو أوسع بكثير من معرفة المسلمين للديانة المسيحية. وبغض النظر عن الدوافع السابقة فإن امتلاك هذه المعرفة عون كبير عندما يتعلق الأمر بمسألة تكوين تعاليم مشتركة. وعلى هذا فإنه على المسلمين الذين يرغبون أن ينخرطوا في حوار مثمر أن يصبحوا طلاباً للفكر المسيحي أولاً. وما هو مطلوب في هذه الحالة هو أكثر من مجرد قراءة الكتاب المقدس واللجوء إلى فن الجدل والمناظرة القديمين؛ بل إن على المسلمين أن يدرسوا تطور المسيحية من وجهة النظر المسيحية ويجب على كل طرف ألاّ ينسى أن الرؤى الدينية في كل تراث متباينة وهي في حالة تطور مستمر.

ويجب أن تكون هناك الإرادة المتبادلة في التعلّم وفي التعليم أيضاً، ذلك أن كل طرف يستطيع أن يكسب من خبرة الطرف الآخر. لقد اعترك المسيحيون مع العقلانية والعلمانية المعاصرتين قبل المسلمين بكثير وكان عليهم أن يميّزوا ما بين الحقائق العلمية

التاريخية واستخدام الأساطير والتراث في تطور ديانتهم، ولا بد أن تؤثر نتائجهم بالفكر الإسلامي إذ أنه توجد هناك عدة نظائر في المصادر الإسلامية والمسيحية. لذلك يتوجب على المسلمين أن يقوموا بدراسة هذه التطورات بنقد وحذر في آن معاً. وعلى الرغم من اصطدام الإسلام المفاجئ بهذا العصر الدنيوي إلا أن هذا الدين أثبت على أنه قادر على السيطرة على جماهير المسلمين بما في ذلك الغالبية العظمى من قادة الفكر في العالم الإسلامي. وما يزال الإسلام يزوّد المؤمنين بالملاذ الروحي في عالم ميكانيكي مجرّد لا شخصي وما يزال يكتسب العديد من الأتباع والمعتنقين في الدول الصناعية المتقدمة. في هذه المرونة المستمرة للإسلام دروس هامّة للمسيحيين كي يتعلّموها.

ولكي نعطي هذا الموضوع حقّه فإننا نحتاج إلى مجلد آخر وخبرة أوسع بكثير. وعلى أيّ حال أريد أن أقدم هنا بعض الانطباعات الخاصة بعد أن حضرت بعض الحوارات التي جرت مؤخراً. لقد كان عنوان البرنامج الأوّل هو: المسيح إله أم بشر؟، وكان الثاني بعنوان: آلكتاب المقدس أم القرآن كلمة الله؟ ومن خلال العناوين يستطيع أن يستشف المرء أن هذه البرامج تدعمها مؤسسات إسلامية؛ ومن خلال الحكم على الإعلانات في الجرائد والمجلاّت الإسلامية فإن هناك العديد من المواضيع بالنسبة للمسلمين في الولايات المتحدة، ومع ذلك ومنذ البداية فإنهم يحجبون بعض أهم المواضيع. فعلى سبيل المثال يقول اللاهوت المسيحي: إن المسيح ليس بالإله ولا بالبشر، ولكنه حاز على كلتا الطبيعتين. وأيضاً بالنسبة للمسيحيين فإن الوحي النهائي ليس العهدين القديم أو الجديد بل يسوع المسيح نفسه. ولم يعد الكثير من رجال الدين المسيحي يرى في التوراة الوحي الصافي (فالدور يخص المسيح) بل بمزيج من الإلهام، والتفسير، والتعليق والشهادة. والاعتقاد السائد هو أن العهد القديم قد بشّر بقدوم المسيح، وأن العهد الجديد قد جاء ليصدق ما جاء في العهد القديم ويشرحه. ومن

المنظور المسيحي فإن ما هو أفضل من مقابلة الكتاب المقدس بالقرآن هو مناظرة المسيح بالقرآن والعهد الجديد بالحديث. وعنوان مثل: (الوحي في المسيحية والإسلام) قد يناسب وجهة نظر المسيحيين بشكل أفضل.

وقد يناقش المسيحي أنه في حين أن القرآن، على الأقل بالنسبة للمسلمين، هو كلمة الله الخالدة غير المخلوقة التي أوحاها الله في كتاب أو نص مكتوب، فإن المسيح بالنسبة لهم هو الكلمة المقدمة الخالدة غير المخلوقة التي أنزلت بشخص المسيح. ففي نظام عقيدتهم أن المسيح لم يبلغ وحياً وحسب، بل إن أفعاله ذاتها، وعواطفه وكلماته واندفاعه قد أوحت بكلمة الله الخالدة. وبقدر ما كان الوحي إنسانياً على نحوموثّق فإن المسيحيين ينظرون للمسيح على أنه إنسان تماماً وبحق؛ وبالقَدْر الذي تجلَّت فيه كلمة الله بإنسانية المسيح فهو إلهي بحق أيضاً.

وفي بعض الأحيان فإن تفكُّر المسلمين حول سر نبوءة محمد ترينا ميولاً مماثلة. فاستناداً إلى الآية القرآنية التي تقول: إن محمداً ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم: ٥٣/٣] على الرغم من أن هذه الآية تشير إلى تنزيل القرآن فقد برزت فكرة أن كل لفظة يقولها محمد وبالتالي كل فعل، مهما كان دنيوياً، قد ألهمه الله إياها ليهدي بها البشرية. إن هذه الفكرة شائعة على الرغم من أن القرآن يؤكد إنسانية محمد ويحدد دوره بدور الرسول، والمنذر، والمعلم (الآية ٥٦ من سورة الفرقان، والآيات ٩١-٩٣ من سورة النمل)؛ وبالنتيجة، فإن الكثيرين يعتقدون أن الاقتداء بأيّ عادة من عادات محمد الدنيوية له جزاء روحي كبير. إن جماعة السلف تتحاشى دوماً تنظيراً عميقاً عن الصلة ما بين الوحي وتلقيه، ولكن في بعض المظاهر فإن تبجيل ومحاكاة محمد تفوق ذاك الذي يفعله المسيحيون للمسيح.

وسوف يجد كل من المسيحيين والمسلمين أن مسألة هذا التناظر المسيح القرآن،

والعهد الجديد الحديث ناقص تعوزه أشياء من نواحي عديدة، فأحد الأسباب هي أن قصور هذا التناظر لا يمكن أن ينصف تطوّر اللاهوت المسيحي طالما أنه لا يستطيع إظهار المصاعب الفلسفية التي تمت مناقشتها ولا النتائج الخطيرة التي تم إدراكها والتي كانت وراء تشكل العقيدة المسيحية. وكذلك لن ينقل هذا التناظر بشكل ملائم إدراك المسيحيين لدخول الإله الشخصي جداً في صراع الإنسان بنزوله على هيئة المسيح. وقد تكون اعتراضات المسلم أكثر براغماتيّةً. فسوف يدافع هذا المسلم بالقول: إنه في حين أن المسلمين يعترفون بعلاقة وثيقة بين الله وكلمته ونبوّته، إلا أنهم يقدمون مستويات مختلفة من الوجود. وطالما أن المسلم لا يعبد المخلوق، والذي في الحقيقة يدل على وجود الخالق، فإنه لا يعبد القرآن، ولا يصلي لشخص محمد على الرغم من أن الإنسان قد عرف الله من خلال القرآن ومن خلال محمد. بالإضافة إلى ذلك فسوف يقابل ذلك بالقول بأن الإسلام قد أنزل للناس كافة كي يتفحّصوه ويحكموا عليه في حين أنه يتوجب على المرء أن يعتمد في حكمه ودراسته للمسيحية على مصادر ثانوية. إننا لا نستطيع بعد الآن أن نختبر مباشرة شخصية المسيح، ولكننا نستطيع أن نختبر القرآن، فإما أن نقبله أو لا نقبله على الإطلاق. ومن المنظور الإسلامي سوف يكون هذا الأمر بمنزلة أن القرآن مثله مثل المسيح لم يعد موجوداً الآن بيننا، ولكن في الوقت ذاته عليه أن يعتقد بأن القرآن هو وحي إلهي بناء على الأحاديث النبوية والتفسيرات اللاحقة، وبالتالي سوف يكون هناك تناقض.

إن عقائد الثالوث وبنوّة sonship المسيح المقدسة ليست وحياً، ذلك أن العقائد جميعاً ليست أكثر من مجرد آراء صنعت وتمت الموافقة عليها من قبل السلطات الدينية عبر مجرى الزمن. فالمقولة العقائدية هي شيء ما، عندما نصل إليه، يمثل تركيبة يعتنقها أولئك الذين قاموا بتشكيلها يشكلونها وتأخذ بالاعتبار درجات فهم أفرادها. وعلى

الرغم من أن العقيدة تضع حدوداً للمجتمع إلا أنها تكون عرضة لتفسيرات عدّة هذا المجتمع. ومن أجل تقييمها بشكل صحيح فإن على المرء أن يعود للمجال الاجتماعي والفكري الذي نشأت فيه هذه العقيدة. وفي حالة المسيحية فإن هذا يعني العودة إلى فلسطين وروما والإسكندرية وأنطاكية والقرون الأولى التي تلت المسيح. وهذا يعني دراسة الثقافات الهلينية واليهودية التي أثرت بالمسيحية؛ وتعلم أفكار الفلاسفة الإغريق وطرائق تعبيرهم والاطلاع على النقاشات التي جرت في نيقيا Nicea وإفسوس Ephesus وخالقيدونيا Chalcedon.

إن البيئة التي ولدت فيها الكنيسة كانت مختلفة تماماً عن تلك البيئة التي غذّت الإسلام الوليد. فآباء الكنيسة الأولى كانوا ورثة مزيج غني من الثقافات المتطورة. وعلى خلاف المسلمين الأوائل فقد كان همّ هؤلاء الأول ليس حكومة الدولة والتشريع، بل تأسيس الاستقامة الفلسفية للعقيدة البازغة التي تتخللها التيارات الدينية والإيديولوجية المتنافسة. وما كان يعتبر قانوناً شريعة بشكل رئيسي للدراسة الدينية الإسلامية كان يعتبر لدى المسيحيين لاهوتاً.

وفي حين أن الفلسفة والبحث الميتافيزيقي لم تخمد تماماً، إلاّ أن جماعة السلف لم تشجعها يوماً؛ وذلك بسبب خطورتها على عقيدة التوحيد؛ وخاصة على مستوى عوام المؤمنين الذين كانوا يعدون غير مؤهلين ليخوضوا في قضايا المنطق والرمزية. ولقد كان الإسلام مستعداً، إلى درجة كبيرة، لكي يضحّي بالافتراضات من أجل أن يحفظ العبادة والممارسة الصحيحة للعقيدة. ومن ناحية أخرى فإن تاريخ المسيحية قد سيطرت عليه مجالس الكنيسة التي كانت تنافس وتفسر على نحو مطوّل الأسرار اللاهوتية الأكثر عمقاً. وفي حين بقي علماء المسلمين قريبين من الإنسان العام، يفسّرون نظاماً شاملاً من السلوك للمؤمنين، فإن علماء اللاهوت المسيحيين كانوا يحلّقون إلى قمم فلسفية كان من

العسير على الإنسان العادي إدراكها. وحتى هذا اليوم فإن الدراسات التوحيدية/ الدينية التي قام بها علماء المسلمين والإنسان العام متشابهة جداً، في حين أن علماء اللاهوت المسيحيين يبدون، من حيث الظاهر، بعيدين كثيراً عن الإنسان العادي.

لقد ناقشت مدارس الفكر الإسلامي مواضيع إلهية، ليس تحت إشراف سلطة إكليركية وليس في مجامع كنسيّة synods، ولكن على نطاق واسع لدرجة كافية بحيث كانت قادرة على إصدار أحكام قضائية وأحكام إعدام. و لم يكن هناك مفر من ظهور بعض العقائد واستمرارها كالعقيدة القائلة بعدم خلق القرآن، وعقيدة خلق العالم، وعقيدة القدر، ونظرية نسخ بعض آيات القرآن، والعقيدة الأشعرية (العقيدة المضادة للعقائد وهي عقيدة بلا كيفية)[٧] . ولكن الهم الأعظم للعلماء المسلمين الذين كانوا ينشغلون بهذه المجادلات كان الحفاظ على عقيدة التوحيد مهما كان الثمن.

وعلى النقيض من ذلك فإن علماء اللاهوت المسيحيين كانوا مصممين ليس فقط على الحفاظ على عقيدة التوحيد بل وعلى الاعتقاد بأن الله دخل التاريخ متمثلاً بالمسيح من أجل أن ينقذ البشرية. لقد قام هؤلاء بتطوير لاهوتٍ دقيقٍ ومعقد، ولكن ليس سخيفاً أو هزلياً بأي شكل من الأشكال. إن رأياً كهذا يستخف بتقدير العبقرية التي خضعت لتهذيب فلسفي على نحو شبه مستمر ولعدة قرون، وليس المهم هل تم التوصل أو سوف يتم التوصل إلى نظام نظري تام التناسق عند مرحلة ما، ذلك أن نظاماً متناسقاً بشكل منطقي قد لا يمت إلى الواقع بصلة، إنما المهم هو درجة قرب هذا

(٧) إن عبارة بلا كيف لها المعنى الحرفي وهو (دون السؤال لماذا.) وتقول هذه العقيدة إن الإشارات المجسّمة (خلع الصفات البشرية على الله) تكشف حقائق ولكن لا يجب بالضرورة أن تؤخذ بشكل حرفي. وهكذا فهي توضح أن المسلم يجب أن يقبل حقائق مقولات كهذه دون أن يصرّ على المعرفة الدقيقة لصحة هذه المقولات. وربما يقول واط إن مقولات كهذه ترسم بياناً لبعض الحقائق. انظر كتاب واط، *الوحي الإسلامي في العالم المعاصر*، ص ٨٠-٩٠.

النظام من الرسالة التي تم التبشير بها أصلاً وما مدى تأثيرها في قيادة المؤمنين للتسلم لله. ويجب أن نسأل السؤال نفسه عن كل منظومة عقائدية لأيّ ديانة بما في ذلك الإسلام.

وغالباً ما نصل إلى نقطة تصبح فيها العقيدة منفصلة تماماً عن البداية التي خرجت منها لدرجة تفقد اتصالها بهذه البداية أو، والأسوأ من ذلك، تصبح مضلّة. وخلال محاولتنا التشبث بها تصبح عندها شخصاً يدلي بمقولة خاطئة ومن ثم، وبدلاً من اعترافه بخطئه، يصرّ على المقولة الأصلية وهكذا يفسّرها بطريقة تخالف معنى الكلام العام المقبول. وعندما نصل إلى مثل هذه الحالة، أليس من الأفضل أن ننبذ هذه العقيدة برمتها، أو على الأقل أن نستبدل بها منظومة جديدة؟

وضمن المجتمع الإسلامي فإن هذا الموضوع ومواضيع أخرى متصلة حول سلامة وسلطة بعض المصادر النصية تثار أحياناً ولكن ليس بالتكرار نفسه والإلحاح كما هو حال المسيحية اليوم التي تبدو على أنها تقترب من حالة تأزم الآن. ومن خلال الحوادث التي رأيتها حتى الآن فإن كل جانب يميل نحو تمويه وجود أي إشارة أو إنكارها تدل على التناقض الضمني في عقيدته. ولكن لابد لهذا من التغيير عندما يصبح المجتمعان أكثر اطلاعاً.

المشكلة الإسرائيلية الفلسطينية: إن التمييز أو الحقد العنصري هو أحد الأشياء القائمة التي تغرسها الطفولة في الذهن. والمكان الذي ترعرعت فيه وهو بريدج بورت كونكتكيت Bridgeport Connecticut مؤلف من مزيج من الثقافات غير المتماثلة، لقد كان بوتقة لم تبدأ بالغليان بعد. لقد كان التعصب الأعمى ظاهراً هناك أكثر مما هو عليه حيث أعيش الآن، وهو ميدويست Midwest وهناك في كونكتكيت لابد لك وأن تكون على اتصال مباشر يومياً مع عناصر تحيّزك، فمن بين كلمات القدح التي كنا نتقاذفها بعضنا ضد بعض كانت كلمة (يهودي) مميزة من حيث إنها لم تكن لتعني التخلّي عن كلمة تعرّف سلالة أو إفساداً لهذه الكلمة من ناحية ولأنها أيضاً كانت

مصطلحاً معجمياً. ولقد كانت هذه الكلمة مميزة أيضاً؛ لأنها لم تكن تستخدم للسخرية من اليهود وحسب، بل كانت تستخدم أحياناً، سواء بمفردها أو مع بعض المفردات الأخرى، لهجاء أي شخص من أي عرق. وبالنسبة للأشخاص من غير اليهود فقد كانت تعني هذه الصفة ظلالاً مختلفة من المعاني بما في ذلك التعاسة والجبن والقذارة.

أذكر كيف كان بعض الأولاد الصغار من حيّنا يكمنون لبعض الأطفال الصغار من اليهود في طريق عودتهم إلى البيت من الكنيس، حيث كانوا يصرخون وهم يطاردونهم في الشارع (أمسكوا باليهودي!) أو(اقتلوا اليهودي!). وعلى خلاف الآخرين، كان أهالي هؤلاء الأطفال نادراً ما يشتكون لأهالينا. وكنت أتساءل: هل كان ذلك جزءاً من تربيتهم؟ هل جاء هؤلاء حقاً عبر خط طويل من السخرية المهينة علناً؟ ياله من حظ عاثر أن يؤدَّب المرء بعبارة هي في الحقيقة وصف لنسبه! وفي السنوات التالية كم وكم كنت أصغي لبعض أصدقائي الراشدين الذين كانوا، بعد معرفتهم بي لبعض الوقت، يعترفون سرّاً بيهوديتهم كما لو أنهم كانوا يسرّون لي بأنهم كانوا متهمين سابقين. وكان بعضهم يذهب إلى التنصّل من يهوديته برمتها قائلين: إنها مجرّد ديانة لم أعد أؤمن بها قط.

ومن خلال زواجي الأوّل حصلت على بعض المعرفة بالنظام الداخلي للأسرة اليهودية، والذي لم يتبدَّ لي غير مألوف كما كنت أفترض. ولكن الشيء الوحيد الذي أدهشني وجعلني أخصه بالذكر هو مدى شكّهم بوجودهم، ومدى قناعتهم وقناعة أقاربهم وأصدقائهم أن ما حدث في الماضي يمكن أن يحدث ثانية، وأنه حتى في الولايات المتحدة يمكن للمناخ السياسي أن يتبدّل بسرعة. وعلى الرغم من أن بعض المنظمات اليهودية تجعل مسؤليتها تذكير الناس دوماً بالاضطهاد النازي لليهود، لا أستطيع أن أذكر إن كان أحد من أفراد أسرة زوجتي يذكر تلك الحوداث بشكل واضح، ولكنهم كانوا يشيرون إلى ذلك

مراراً. ولا شك أن هـذه المأساة التي لا يمكن أن تقال قد استغلتها الصهيونية لأسباب دعائية، ولكن ذلك لا يخفي حقيقة أن معسكرات الموت النازية قد بلغت أعماق نفوس اليهود، وأضيفت إلى عهود من الاضطهاد التي تحييها الشعائر الدينية على نحو دوري حيث يحاولون اللجوء لأي وسيلة من وسائل الدعاية كي ينسوا مآسي تاريخهم.

أذكر محادثة جرت بيني وبين زوجتي السابقة بعد أكثر من ثلاث سنوات من طلاقنا حيث قالت لي: إنّها عادت لاستخدام اسم كنيتها القديم (اسمها ما قبل الزواج) مؤخراً. وعندما سألتها لِمَ لَمْ تفعل ذلك منذ أن حصلت على الطلاق خاصة وأن الطلاق كان فكرتها أصلاً وأنه لم يؤثر سلباً على حياة أي منّا؟ أجابت قائلة: إنها كانت تلقى معاملة أفضل عندما كان يعلم الناس أن اسمها الثاني لانغ Lang (أي كنية زوجها) إذ كانوا يفترضون أنه اسم ألماني. لم يكن هناك ندم أو أسى إذ قالت ذلك وهي شبه مازحة، ومع ذلك فإن هذه الحادثة التي كانت يجب أن تمر بشكل عابر قد فتحت عينيّ على إعادة ترتيب بعض الأشياء في ذهني. وحتى ذلك الوقت كنت أعتقد أن اليهود الأميركيين كانوا قلقين جداً بشأن مستقبلهم وهو أن الرعب الذي عانوا منه في الماضي قد يعود ثانية يوماً ما. ولكن مقولتها جعلتني أشعر بقلق أكثر انتشاراً، وجعلتني أدرك أن هناك أوقاتاً يشعر فيها بعض اليهود أنه ربما من الخير لهم أن يخفوا هويتهم أملاً منهم بألا يكتشف بعض الغرباء سرّهم. وكنت أتساءل كيف يمكن للمرء في ظروف كهذه أن يتحاشى الشعور بالذنب وتأنيب النفس؟ وقد تكون هذه مبالغة من جانبي، ولكن إذا كانت مشاعر قلق كهذه تنتاب بعض اليهود الأميركيين فإن سلسلة الفظائع التاريخية التي عانى منها اليهود في أوروبا وروسيا تبرر موقفهم.

وقد يحتجّ بعض القراء المسلمين أن أوضاع اليهود في البلاد الإسلامية كانت أفضل مما كان عليه الأمر في البلدان المسيحية، وهذه الفكرة تجد صداها عند برنارد لويس في

دراسته التي ظهرت مؤخراً [٨] حيث يشير قائلاً: إنه قبل عصر التنوير في أوروبا كانت أفضل فرصة لليهود كي يجدوا ملجأ آمناً يمكن لهم أن يرقوا فيه كان البلدان الإسلامية. ولكن المؤلف يبين أيضاً أن اليهود في العالم الإسلامي لم يكونوا يتمتعون بمساواة تامة في الحقوق والفرص. ففي القانون الإسلامي مثلاً لم تكن تقبل شهادة الرعايا اليهود والمسيحيين (الذين تم تصنيفهم على أنهم أهل الذمة) أمام المحاكم الإسلامية. وعلاوة على ذلك فقد كانت حياتهم أقل قيمة من حياة المسلمين عندما يصل الأمر إلى حد القصاص أو دفع الديات في حال وقوع ضرر ما[٩] . وكذلك كانت تصر بعض التشريعات الإسلامية على أن اليهود والمسيحيين يجب أن يخضعوا لعدد من المهانات الصغيرة: مثلاً يجب على الذمّي ألاّ يركب حصاناً بل حماراً، ويجب أن لا يمتطي دابة، بل يركبها على جنب كما تفعل المرأة؛ ويجب عليه ألا يحمل سلاحاً؛ وألا يلبس كما يلبس المسلم إضافة إلى ذكر بعض القيود على طريقة سكناه[١٠] .

ولكن على الرغم من التعابير المختلفة من الدونية (للذميين) إلا أن الشريعة الإسلامية قد ضمنت لليهود والمسيحيين قدراً كبيراً من الاستقلال، و«في معظم المجالات فإن وضع غير المسلمين الذين كانوا يعيشون تحت سيطرة الحكم الإسلامي التقليدي كان أسهل بكثير من وضع المواطنين من غير المسيحيين أو المسيحيين المهرطقين في أوروبة خلال القرون الوسطى، فضلاً عن ذكر بعض الحوادث في أوروبة الحديثة»[١١] . ويصف لويس وضع هؤلاء القانوني على أنهم كانوا مواطنين من الدرجة الثانية، ولكنه يحذّر من أن هذه العبارة تحتاج إلى فحص أدق قائلاً:

---

(٨) برنارد لويس، *يهود الإسلام*.

(٩) المرجع السابق، ص ٢٧.

(١٠) المرجع السابق، ص ٣٥.

(١١) المرجع السابق، ص ٦٢.

والمواطنة من الدرجة الثانية، على الرغم من أنها درجة ثانية، إلا أنها في النهاية مواطنة. فهي تتضمن بعض الحقوق، وعلى الرغم من أنه ليس كامل الحقوق إلا أنه خير من ألاّ يكون للمواطن حقوق على الإطلاق. إنها لا شك أفضل من الأوضاع السائدة في العديد من الدول في الزمن الحاضر، حيث أن الأقليات بما في ذلك الأقليات الكبيرة، لا تتمتع بأي حقوق مدنية أو إنسانية على الرغم من إعلان المبادئ البرّاقة المحفوظة في الدساتير، وكأنها شيء مقدس، ولكن هذه الدساتير غير ذات نفع على الإطلاق. فوضع معترف به، حتى ولو كان أقل شأناً من وضع الغالبية المسيطرة في بلد، وقد أقرّه القانون واعترفت به التقاليد وثبته رضاء السكان العام هو وضع يجب ألاّ يحتقر أبداً[١١].

ويجب علينا أن نلاحظ أن المواطنين اليهود والمسيحيين كانوا يلقون تقريباً المعاملة نفسها في ظل الشريعة الإسلامية، وأن أي اضطهاد يمس إحدى الأقليتين كان أمراً لا تغفره السلطة.

وعلى الرغم من أن اليهود الذين كانوا يعيشون في ظل الحكم الإسلامي كانوا بشكل عام أحسن حالاً من أولئك الذين كانوا يعيشون في ظل الحكومات المسيحية، إلاّ أن وجودهم، من وجهة نظر القرن العشرين، لم يكن آمناً في كلتا الحالتين. إن بقاء اليهود ورفاهيتهم كانا يعتمدان على الإرادة الطيبة للغالبية ورحمتها مادامو لم يكن لديهم أيّ سلطة سياسية خارجية لتمثلهم أو تمارس أي ضغوط بالنيابة عنهم. أعتقد أن هذا التصور أدى إلى تشكل الصهيونية السياسية، وكان له دوره في الدعم العملي وغير المشروط الذي يقدمه العديد من اليهود الأميريكيين إلى دولة إسرائيل. إني لا أعتقد أن ذلك الدعم من جماهير اليهود مبني بشكل أساسي على الطمع أو التكبر العنصري أو التعصب القومي؛ بل بالأحرى أعتقد أنه ينبع من الخوف والمحن الكامنة في أعماقهم.

ومن المفارقة أن تأسيس دولة إسرائيل قد يقود في النهاية إلى الكارثة نفسها التي كان يتحاشاها هؤلاء من جرّاء دعمهم لقيام تلك الدولة.

إن هناك حاجة لتقرير كامل عن تاريخ كل من فلسطين والصهيونية ودولة إسرائيل الحالية لفهم المشاعر التي يتضمنها الصراع الإسرائيلي الفلسطيني الحالي. وسأقدم هنا فقط جزءاً بسيطاً ولكني أحيل القارئ للاطلاع على بعض المراجع الواردة في الحاشية[١٢].

يتفق المؤرخون على أن أجداد الغالبية العظمى من العرب الفلسطينيين لم يقدموا إلى فلسطين مع الفتح الإسلامي، بل إن هؤلاء هم بشكل رئيسي أبناء الساميين الذين تعود ملكيتهم لفلسطين لثلاثة آلاف عام على الأقل قبل الميلاد وقد تكون هذه "هي أبسط فترة ملكية في العالم وأطولها"[١٣]. وأما العبرانيون القدماء فقد جاؤوا إلى فلسطين بعد ذلك بكثير، وذلك بحوالي ألف وأربع مئة عام قبل الميلاد. وقد قام العبرانيون في البدء بتأسيس بعض المستوطنات الصغيرة على الهضاب وعاشوا بسلام مع جيرانهم. وبعد مدة لاحقة بدؤوا القتال مع السكان الأصليين، ويسرد العهد القديم جزءاً كبيراً من الحروب التي تلت ذلك، والتي قام بها هؤلاء اليهود ضد جيرانهم. إن الدولة أو الدول التي أسسها الإسرائيليون في فلسطين قد دمّرها الآشوريون في سنة ٧٠٠ قبل الميلاد والبابليون في سنة ٥٥٠ قبل الميلاد.

و لم تدم فترة ملكية الأقاليم اليهودية القديمة في فلسطين طويلاً. فقبل زمن داوود

---

(12) William W. Baker, *Theft of a Nation* (Las Vegas: Defenders Publ. 1982); Beatrice Erskine, *Palestine of the Arabs* (Westport, CT: Hiyperion press,1976); J. M. N. Jefferies, *Plastine: the Reality* (Westport, CT: Hiyperion press,1976); Edward Said, *The Quesion of Palestine* (New York: Times Book,1979); Frank C. Sakran, *Palestine Still a Dilemma* (Pennsy lvania: Whitmore Publ. ,1976); Clifford A. Wright, *Facts and Fables*: The Arab-Israeli Conflict (London: Kesan Paul, 1989).

(١٣) جيفريز، فلسطين: الواقع، ص ٦.

J. M. N. Jeffries, Plastine: The Reality (Westport, CT: Hiyperion press,1976), P. 6.

David لم يكن استقرار أسباط يوشع Joshua سوى أمر مجرَّد اسمي[١٤] ؛ و لم يكن ليوجد شيء اسمه ملكية يهودية لما نسميه فلسطين إلا في عهد داوود وسليمان. وبعد ثماني مئة عام أعاد المكابيون Maccabees السيطرة اليهودية التي ضعفت بعد موت سليمان ولكن يبدو أن هذه السيطرة لم تبلغ أبعاد سيطرة داوود وسليمان إلا لفترة وجيزة جداً. ويقول بيكر Baker إن فلسطين هي البلد الذي أسس فيه اليهود دولة لمرّة واحدة من الزمان فقط (منذ أكثر من ٢٠٠٠ عام خلت) ولفترة تاريخية قصيرة نسبياً؛ ولقد انقسمت الدولة نفسها إلى دويلات أصغر[١٥] . ولذلك فإن حجة الادعاء التاريخي اليهودي ملكية فلسطين هي حجة لا يمكن الدفاع عنها. إن ملكية بعض الأجزاء المبعثرة من الأقاليم لعدة قرون ولمدة تزيد عن ألفي عام مضت لا تخوّل يهود اليوم حق تملك تلك الأرض إلاّ إن كان ذلك يخوّل عرب اليوم ملكية إسبانيا التي امتلكها العرب لعدة قرون. وبالإضافة إلى ذلك يشير بيكر قائلاً:

إن يهود اليوم الذين يحتلون فلسطين ليسوا سوى شتات، ولا يمكن ردّ جذورهم إلى العبريين Hebrews أو العبرانيين Habiru الذين غزوا مرّة أرض كنعان. . . وأما أولئك العرب الفلسطينيون الذين ما يزالون يعيشون في فلسطين اليوم فهم المتحدرون الحقيقيون من السكان الساميين الأصليين. إن جذورهم الحقيقة لا تكمن في سورية أو لبنان أو الأردن أومصر بل بالأحرى إن الأرض الوحيدة التي لم يعرفوا سواها هي أرض فلسطين[١٦] .

و يضيف بيكر قائلاً:

إن أولئك اليهود الذين أرادوا في عام ١٨٩٧ أن يمتلكوا فلسطين ثانية على أنها

---

(١٤) جيفريز، فلسطين: الواقع، ص ٨.

(١٥) وليم بيكر، سرقة أمة، ص ٧.

William W. Baker, *Theft of a Nation* (Las Vegas: Defenders Publ. 1982) P. 7.

(١٦) المرجع السابق، ص ٦.

موطنهم الأصلي لم يكن لهم أي علاقة على الإطلاق باليهود الساميين الذين يعودون بأصولهم لحوالي ألفي عام خلت. وهذا مرّده إلى امتزاج الدم من خلال الزواج؛ وكذلك يمكن رد ذلك إلى العدد الكبير من الناس اللاساميين الذين اعتنقوا اليهودية. والمثال التقليدي لوقوع مثل هذه الحالة هو قبيلة الخزر التي تعيش فيما يعرف حالياً بروسيا وهذه القبيلة كانت قد اعتنقت اليهودية بشكل جماعي في القرن الثامن الميلادي؛ والعديد من يهود اليوم يعودون بأصولهم لتلك القبيلة[١٧] .

ومهما يكن فقد اتخذ الصهاينة من مسألة (الصلة التاريخية) ذريعة لهم في الجزء الأوّل من القرن العشرين للتشديد على ادعائهم وطناً يهودياً قومياً في أرض فلسطين، تمهيداً للاستيلاء على فلسطين برمتها.

لقد كانت الصهيونية التي بدأت في القرن التاسع عشر حركة يهودية هدفها إعادة تأسيس الأمة اليهودية. وبالنسبة للبعض، فإن ذلك كان يعني تجديدا روحياً وعودة إلى الدين، وكلتا الحالتين لم تكن لتعني الرغبة في الحصول على إقليم في حين كان آخرون يرون في ذلك تحويل الجزء الفلسطيني من سورية إلى أمة يهودية. ولقد ميز هؤلاء بين كلا المنهجين مشيرين إلى الأول على أنه الصهيونية الروحية، والثاني الصهيونية السياسية (من الآن فصاعدا عندما نتكلم عن الصهيونية فإنما نشير بذلك إلى الصهيونية السياسية).

في عام (١٩١٥) أخذت الحكومة البريطانية على عاتقها، وبناءً على بنود معاهدة الحسين -مكماهون، بأن تساعد العرب على تحقيق استقلالهم (عن العثمانيين)، وأن تعترف بأقاليمهم المشمولة في التخوم والحدود التي اقترحها شريف مكة وهذه الحدود، التي وافق عليها الشريف حسين (شريف مكة) بصفته ممثلاً للشعوب العربية، كانت تشمل فلسطين. وفي المقابل فقد تعهد العرب، تحت قيادة الشريف حسين، بالانضمام

---

(١٧) المرجع السابق، ص ٩.

إلى قوات الحلفاء في الحرب العالمية الأولى في حربهم ضد تركيا؛ ولقد وفى العرب بتعهداتهم وقاتلوا ببسالة[١٨] . وفي عام ١٩١٩ أكدت الحكومتان البريطانية والفرنسية في إعلان إنكليزي-فرنسي مشترك بنود الاتفاق السابق مع الشريف حسين، ومن حيث الظاهر، ضمنت إقامة حكومة عربية في فلسطين وفي أراض عربية أخرى[١٩] .

ولكن فيما بين هذين التاريخين (١٩١٥-١٩١٩) قام البريطانيون سراً بإبرام اتفاقتين إضافيتين لم تكونا لتنسجما مع الوعود التي قطعوها على أنفسهم مع العرب، ففي عام ١٩١٦ قام البريطانيون والفرنسيون بالتفاوض لوضع اتفاقية هي سايكس - بيكوSykes-Picot Treaty والتي قسمت الإمبراطورية العثمانية (التي لم تكن قد هزمت بعد) بما في ذلك الأراضي العربية، إلى (مناطق نفوذ) بريطانية وفرنسية. وفي عام (١٩١٧) صدر تصريح بلفور الشهيرThe Balfour Declaration الذي ألزمت الحكومة البريطانية نفسها بموجبه "على تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين".

وينص تصريح بلفور على مايلي:

إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل كل مافي وسعها لتسهيل تحقيق هذا الهدف، على أن يفهم بوضوح أنه لن يقع شيء من شأنه أن يضر بالحقوق المدنية والدينية للتجمعات غير اليهودية في فلسطين أو الحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر[٢٠]

إن هذا التصريح، الذي كان بمثابة التأسيس المعلن لسياسة الحكومة البريطانية على مدى السنوات الإحدى والثلاثين القادمة، يخفي عدداً من النقاط الهامة. وقصره يدل على أنه تم تسويده بسرعة، وهذا افتراض بعيد عن الواقع.

(١٨) جيفريز، فلسطين: الواقع، ص ٦٤-٨٧.

(١٩) المرجع السابق، ص ٢٣٨-٢٤٠

(٢٠) المرجع السابق، ص١٧٠-١٧١.

ففي كتابه تاريخ الصهيونيـة History of Zionism يكتـب نـاحوم سـاكالوف M. Nahom Sakalov قـائلاً عـن التصريـح: إن كـل فكـرة كـانت تولـد في لنـدن، كـانت تفحصها المؤسسات الصهيونية في أمريكا، وكـل اقـتراح كـان يطـرح في أميركـا كـان يلقى أشد الاهتمام في لندن؛ ويقول ليونارد شتاين Leonard Stein في الصهيونية بما أن هذا التصريح مقولة سياسية معتـبرة فلابـد أنـه قـد أصـدر بعـد تفكـير وتـروٍ مطوّلـين. ويكتب ستيفن وايز Stephen Wise، وهو زعيم صهيوني أمريكـي، قـائلاً: إن تصريـح بلفور قد استغرقت عملية صنعه مدة عامين تقريباً[٢١] .

وهناك سمة أخرى بارزة في هذا التصريح وهي الغموض على الرغم مما هومثير للاهتمـام في ضوء التعليقات االتي ذكرتها لتوي. ومن المؤكد أن وثيقة تم تسويدها بدقـة متناهيـة لمـدة تزيد على العامين لابد أنها توضح بشكل دقيق ماهو المقصود بـ(الحقـوق المدنيـة والسياسـية للتجمعات غير اليهودية) وإلى أي مدى ستؤدي عبارة: (مـن شـأنه أن يضـر). إن مفوضيـة شو The Shaw Commission، وهي واحدة من سلسلة طويلة من المفوضيات التي أرسـلتها الحكومـة البريطانيـة إلى فلسـطين عـام ١٩٣٠ للتحقيـق في الاضطرابـات العرقيـة المـتزايدة، اشتكت من أن تصريح بلفور كان عرضة لـ (مجموعة واسـعة مـن التفسـيرات)؛ ونصحـت الحكومة أنه ينبغي أن تحدد سياستها بوضوح حيال فلسطين[٢٢] .

وعلى الصعيـد نفسـه فـإن الإشـارة إلى التجمعـات غـير اليهوديـة في فلسـطين تثـير اهتمامنا، لأنها تعطينا انطباعاً بأن اليهود كانوا هـم الأغلبية في فلسطين عندما تم إعـلان التصريح. ولكن حقيقة المسألة هي أنه في ذلك الوقت كانت نسبة السكان العرب ٩١

(٢١) المرجع السابق، ص ١٧٢

(٢٢) المرجع السـابق، ص٦١٣

بالمئة، في حين لم يكن اليهود ليشكلوا أكثر من نسبة ٩بالمئة[٢٣] . وتلاحظ أيضاً كيف أن مسألة عدم تحديد نسبة العرب (في فلسطين) هي أمر متعمّد، ذلك أن رفض الاعتراف بوجود الفلسطينيين كان سياسة صهيونية مبكرة وهي ماتزال مستمرة حتى هذا اليوم[٢٤] .

وحسب ماجاء في أقوال الزعماء الصهاينة الذين ورد ذكرهم، فإن الغموض في الوثيقة لم يكن تم تسويده على عجل أو بشكل عرضي، بل إن ذلك كله تم عن سابق تصميم وقصد. وكما يوثق جيفريز Jeffries فإن تصريح بلفور قد قصد منه أن يخفي الخطة الصهيونية القصوى، وهي تحويل فلسطين بأكملها إلى دولة يهودية، وكذلك قصد منه دعم الحكومة البريطانية لهذا البرنامج حتى يبلغ النهاية المنطقية. وفي الوقت نفسه كان ينظر إلى تصريح بلفور على أنه مجرد مرحلة ممهّدة لتحقيق الهدف الصهيوني الأسمى[٢٥] .

وعند قرب انتهاء الحرب العالمية الأولى توقع العرب الفلسطينيون استقلالهم السياسي كما جاء في بنود معاهدة ماكماهون-الحسين. و لم يمض وقت بعيد حتى اكتشف هؤلاء الفلسطينون أن بريطانيا لم تنكث بعهدها فحسب بل فرضت عليهم، تحت سلطة الانتداب البريطاني، أعداداً هائلة من المهاجرين الأوروبين اليهود. ففي عام (١٩١٤) كان عدد السكان اليهود في فلسطين لايزيد على ٩ بالمئة في حين كان الغالبية هم العرب. ومع حلول عام(١٩٢٢) ارتفع عدد السكان اليهود ليبلغ ١١بالمئة؛ وفي عام ١٩٣١ ازداد ليصبح ١٧بالمئة؛ ومع حلول عام (١٩٤٧) بلغت نسبة السكان اليهود في فلسطين ٣١بالمئة من مجموع السكان[٢٦] .

---

(٢٣) جيفريز، فلسطين: الواقع، ص ١٧٧

(٢٤) رايت، حقائق وخرافات: الصراع العربي -الإسرائيلي، ٢-٥: إدوارد سعيد، نظرة جانبية عن الشعب الفلسطيني، ص ٣-٤.

(٢٥) جيفريز، فلسطين: الواقع، ص٨٥-١٤٢

(٢٦) رايت، *حقائق وخرافات: الصراع العربي -الإسرائيلي*، ص٤

ولقد احتكر الانتداب البريطاني مصادر الأرض الطبيعية ليمنحها للشركات الصهيونية، وقد تم تشجيع الشركات الصهيونية لليهود على شراء أراض صالحة للزراعة دون معرفة السكان، وذلك عن طريق ملاكي أراض غائبين أو من"بائعين عرب ممن لم يكن لديهم خيار سوى البيع وذلك من شدة فقرهم من جهة، ومن جهة أخرى كي يدفعوا الضرائب التي ترتبت عليهم من ديون الحرب"(٢٧) . لقد كان الأثر الاقتصادي على العرب مروّعاً، فلقد ارتفعت نسبة البطالة إلى الأوج، ونجمت عن ذلك طبقة كبيرة من الناس الفقراء الذين لا يملكون أيّ أراض. وطبيعي أن يزداد الغضب الفلسطيني كما كان سيحصل للمواطنين الأميركيين فيما لو سمحت حكومتنا للغرباء بشراء مقادير ضخمة من أغنى الأراضي الأميركية واستعمارها بهدف تأسيس دولة مستقلة عليها في النهاية.

وخلال العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن استمر الشعب واستمر سيل الوفود العربية المسافرة إلى لندن لتعرض قضيتها ولكن عبثاً. وفي المقابل كان يفد إلى فلسطين من المفوضين مايوازي ذلك العدد من الوفود المسافرة إلى لندن، وكان يتبع ذلك أوراق بيض صادرة عن الحكومة البريطانية هدفها التملص من النتائج التي توصل إليها هؤلاء المفوضون.

ولقد توصلت بعثة كرين -كينغ (١٩١٩)Crane-King Commission؛ وهايكرافت (١٩٢١) Haycraft؛ وشو(١٩٣٠)Shaw؛ وهوب-سمبسون Hope-Simpson؛ والمفوضيات الفرنسية لعامي (١٩٣١-١٩٣٢) جميعها إلى قرار مفاده أنه قد ارتكبت إجحافات كبيرة بحق العرب الفلسطينين، وأن الهجرة إلى فلسطين يجب أن تقلص أو توقف إلى أجل غير مسمى؛ وأنه يجب تأسيس حكومة تمثل الشعب الفلسطيني(٢٨) . إن

---

(٢٧) جيفريز، *فلسطين: الواقع*، ص٧٠٤-٧٠٥ و ٤٢٩-٤٥٥

(٢٨) المرجع السابق، ص ٢٧٢-٢٩٥ و ٤٢٠-٤٢٥ و ٦٠٤-٦٢٩ و ٦٣٧.

سجل الانتداب البريطاني في فلسطين كان عبارة عن واحد وثلاثين عاماً من الحنث بالوعود والخرق للقوانين الدولية، والخيانة الصريحة، والغش والخداع، ولقد كان على الحكومة البريطانية القيام بمثل هذا، ولكن على نطاق أوسع في سبيل خلق دولة إسرائيل.

إن ماقد بيّناه حتى الآن يسمح لنا أن نبدد بعض الاعتقادات الخاطئة السائدة عند الأمريكين فيما يختص بهذا الموضوع. فالأمريكي العام يفهم أنه بعد الحرب العالمية الثانية بدأت ضحايا الاضطهاد النازي من اليهود بالهجرة الى أرض فلسطين شبه الخالية بهدف العيش بسلام مع الأقلية من السكان العرب، وأنه بعد ذلك بفترة وجيزة قامت الأمم المتحدة، واستجابة لنشوب نزاعات عرقية، بتقسيم فلسطين إلى قطاعين أحدهما عربي والآخر يهودي، ولكن سرعان ماتحول هذا التقسيم ليصبح دولة إسرائيل. وهكذا يعتقد الأمريكيون (والغربيون) أن أسباب وجود دولة إسرائيل هو الاضطهاد النازي والكره العربي الفسلطيني لليهود.

ولكن وكما سبق ورأينا فقد كانت الخطة الصهيونية في تحويل كامل فلسطين إلى أمة يهودية قد بدأت قبل أن تبدأ الحرب العالمية الثانية بوقت كبير. ففي عام (١٩١٤) لم تكن فلسطين غير مأهولة وكذلك لم تكن، كما قال رئيس وزراء إسرائيل السابق شمعون بيريز Shimon Peres مرة، : "صحراء قاحلة"؛ بل على العكس كانت الوطن الآهل بالسكان المعروف بخِصب وجماله وكان مجتمعاً عصرياً[٢٩] . وإن غضب الشعب الفلسطيني لم يكن نزوة ولكن نتيجة لانخداعهم بالوعود التي قطعت لهم لمنحهم الاستقلال وبالتالي تشريدهم من أرضهم.

ولم تكن خطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين عام (١٩٤٧) كاستجابة للحرب الأهلية التي كانت تحصل في فلسطين للمرة الأولى في تاريخها، ذلك أن هذه الخطة كانت قد

---

(٢٩) إدوار سعيد، نظرة جانبية للشعب الفلسطيني، ص٢-٤

اقترحتها مفوضيَّة بيل Peel Commission عام (١٩٣٧). وفي حين تتفق السلطات على أن العلاقات بين العرب واليهود في فلسطين كانت على العموم ودية قبل تدفق المستوطنين الصهاينة من أوربة، فإن الصدامات العنيفة بين العرب واليهود بدأت بالوقوع بعد الغزو الصهيوني بقليل، وقد بدأ ذلك أولاً في شغب القدس عام(١٩٢٠)[٣٠].

وفي عشية التقسيم كان اليهود يشكلون ٣٢,٥ بالمئة من مجموع سكان فلسطين وكانوا قد قاموا باستملاك ٥,٧٧ بالمئة من مجموع مناطق الأراضي وهذا الحجم يمثل ضعف ماكان يملكه اليهود في تلك الفترة بعشر مرات[٣١]. خمسة وأربعون بالمئة من سكان القطاع اليهودي من المناطق المجزأة كانوا عرباً وقد أرغم عدد كبير منهم على النزوح في غضون الأشهر التالية تحت الإرهاب ووحشية الصهاينة، وفي عام (١٩٤٠) أعلن المدير المسؤول عن الاستعمار الصهيوني جوزيف ويتز Joseph Weitz عن هدف الاستعمار النهائي بوضوح قائلاً:

يجب أن يكون الأمر واضحاً فيما بيننا وهو أنه لامكان لكلا الشعبين معاً في هذا البلد. . . والحل الوحيد هو أن تكون فلسطين من دون عرب. ولاطريقة أخرى هنا سوى أن يرحل العرب من هنا إلى البلدان المجاورة، أن يرحلوا جميعاً دون أن تبقى ولا حتى قرية واحدة أو قبيلة واحدة منهم[٣٢].

وقد حصلت مجازر وقتل المئات من الرجال والنساء والأطفال العزّل في دير ياسين وعين الزيتون واللد والصفصافة والصالحة والدويمة[٣٣]، ولقد روى أحد الجنود

---

(٣٠) جيفريز، *فلسطين: الواقع*، ص٣٢٩-٣٣٥ و ٦٦١-٦٦٩

(٣١) بيكر، *سرقة أمة*، ١٥-١٦

(٣٢) رايت، *حقائق وخرافات*، ١٦-١٧

(٣٣) المرجع السابق، ٢٠-٢١

الإسرائيلين القصة التالية عن مذبحة الدويمة: "لقد قتلوا حوالي ثمانين إلى مئة عربي بين نساء وأطفال، ولقد تم قتل الأطفال عن طريق تحطيم جماجمهم بالهراوات"[٣٤]، وكان من الأساليب المروّعة التي لجأ إليها الصهاينة بث رسائل عن طريق الراديو باللغة العربية تحث الفلسطينين أن يفرّوا بأرواحهم من أوطانهم[٣٥]. ولقد لاقت جهود التهجير نجاحاً كبيراً. ففيما بين ١(نيسان١٩٤٨ و٥ أيار ١٩٤٨) فرّ أربع مئة ألف فلسطيني مسلم ومسيحي من بيوتهم في المناطق اليهودية ليصبحوا لاجئين للمرة الأولى في تاريخ حياتهم. ويمثل هذا التاريخ الأخير (١٥ أيار ١٩٤٨) تاريخ ولادة مايسمى "دولة إسرائيل" الذي يحتفل به اليهود. وبعد ذلك التاريخ أصبح الأسلوب الصهيوني أشد قساوة وأكثر وضوحاً. ولقد كتب المؤرخ العسكري البريطاني إدغار أو بالانس Edgar O` Ballance قائلاً:

لم يعد هناك أي حاجة للامتناع العقلاني، وأقول بشكل صارخ: إن السكان العرب قد طردوا، وأرغموا على اللجوء إلى الإقليم العربي الفسطيني مثل رام الله واللد وأماكن أخرى. وإذ كانت تتقدم القوات الإسرائيلية ضمن المناطق العربية (في فلسطين)، كما يتقدم البلدوزر، كان السكان العرب يرغمون على الفرار تحت الرعب والإرهاب[٣٦].

وفي الصراع الذي تلا ذلك والذي دعي بحرب (١٩٤٨) برزت مشكلة أربع مئة ألف لاجئ فلسطينيّ إضافي، وبقي في الدولة اليهودية مئة وستون ألف عربي، ومع بداية كانون الثاني كان اليهود يمتلكون ٧٨ بالمئة من مجموع مناطق ذلك البلد (فلسطين). وبحلول الخامس من حزيران عام (١٩٦٧) ونتيجة لحرب الأيام الستة يصبح عدد الذين

(٣٤) المرجع السابق، ص٢١

(٣٥) المرجع السابق، ص١٨-١٩

(٣٦) أدغار أو بالانس، الحرب الإسرائيلية العربية، ص١٧١-١٧٢

شرّدوا من ديارهم قد زاد عن المليون ونصف المليون فلسطيني. وبمنع هؤلاء من العودة إلى أراضيهم أو ممتلكاتهم تكون حكومة إسرائيل قد خرقت البند ١١ من قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤.

ولقد خاضت إسرائيل منذ ولادتها خمس حروب رئيسية مع العرب، وقد ورطت نفسها في صراعات وإشعال نار حروب أخرى كما فعلت في غزوها للبنان عام (١٩٧٨). وقد حصلت الحروب على التوالي في الاعوام، (١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣، ١٩٨٢)؛ وتقول الدعاية الإسرائيلية: إن العرب هم الذين بدؤوا هذه الحروب جميعاً، ولكن هناك تصريحات مسجلة لبعض قادة إسرائيل السياسين والعسكريين تظهر أنه باستثناء حرب (١٩٧٣) لم تكن إسرائيل تشعر بأي خطر يتهدد أمنها وأنها كانت هي المعتدية في هذه الحروب جميعاً[٣٧].

ولقد قامت إسرائيل منذ حرب عام (١٩٦٧) باحتلال فلسطين برمتها. فالضفة الغربية وقطاع غزة يشار إليهما على أنهما الأراضي المحتلة، وماتزالان تحت حكم عسكري غاشم. وفي عام (١٩٨٢) كان هناك حوالي مليوني فلسطيني يعيشون داخل فلسطين، نصفهم داخل إسرائيل والنصف الاخر داخل المناطق المحتلة. وفي العام نفسه كان هناك مايربو على المليونين ونصف المليون فلسطيني يعيشون خارج فلسطين[٣٨]. وتستمر السياسة الإسرائيلية في إمداد المناطق المحتلة بالمواطنين اليهود دون كلل على الرغم من أن ذلك خرق للقانون الدولي وعلى الرغم من احتجاجات الحكومة الأميريكية الروتينية. ولقد قامت بعض الوكالات الدولية كمنظمة اليونسكو ومنظمة العفو الدولية والصليب الأحمر منذ سنتين بنشر معلومات عن خرق لحقوق الإنسان من

(٣٧) رايت، *حقائق وخرافات: الصراع العربي الإسرائيلي*، ص١٢١-١٣٨

(٣٨) سعيد، *نظرة جانبية على الشعب الفلسطيني*، ص١٤

تدمير لمنازل الفلسطينين، ومصادرة أراضٍ عربية، وإساءة معاملة العمال الفلسطينين، وتعذيب واحتجاز السجناء العرب بطريقة غير مشروعة[٣٩] .

وقبل انتقالي للحديث عن استجابة المسلمين للمأساة الفلسطينية أريد أن أعالج الفكرة الواسعة الانتشار وهي هل لليهود حق أخلاقي -ديني في فلسطين؟ لاشك أن اليهود كانوا ضحية اضطهادات مروعة في الماضي، وخاصة خلال الحرب العالمية الثانية، ومع ذلك لم يكن اليهود هم الشعب الوحيد الذي عانى من سوء معاملة الآخرين، كما أن معاناتهم في الماضي لاتخولهم حق احتلال أراضٍ وممتلكات أمة أخرى. إن سرقة فلسطين بالكامل واستمرار انتهاك حقوق الشعب الفلسطيني الأساسية لن تخفف من آلام ضحايا الاضطهاد النازي. وفي الواقع إن مايحصل يقلل من شأن التضحيات العظيمة التي تم تقديمها ويشكك بكل الدروس والعبر التي يمكن الاستفادة منها. وغالباً مانسمع الصهاينة اليوم يقولون: إن اضطهاد الشعب الفلسطيني لا يقارن مع اضطهاد النازيين لليهود. وفيما يختص بالمعاناة الإنسانية الحقيقية، فقد تكون أمراً مضموناً، ولكن مايجعل الجور الذي يرتكب بحق الفلسطينين أكثر لا أخلاقية هو أن هذا الجور يرتكبه أناس يتوجب عليهم أن يتعاطفوا ولو ظاهرياً مع أحزانهم. وأما فيما يتعلق بالتبرير الديني أو تبرير الكتاب المقدس، الذي يشتمل على نبوءات من خلال تفسيرات تخدم المصلحة الشخصية، فإن هذه جديرة بالازدراء الأكبر لأنها تتضمن أن الله يحث على العنصرية وعلى الظلم في سبيل تحقيق مشيئته. إن هذه الحجة لا تدنس العدالة والأخلاق فحسب بل والدين أيضاً[٤٠] .

(٣٩) سعيد، *مسألة فلسطين*، ص ٣٧-٤٨

(٤٠) بيكر، سرقة أمة، ص٥٨-١٠٥، رايت حقائق وخرافات، ١٦٤-١٦٩

ولا شك أن لكل فعل أو حدث استجابته الحتمية، وإن الاستجابة الإسلامية العالمية للمأساة قد ترسخت في اعتقاد واحد محدد وهو أن إسرائيل ومن يدعمها هم خصوم ألداء للإسلام وللمسلمين، وليس هناك من موضوع يثير غضب المسلمين أكثر من مشكلة فلسطين. وإن هذا الاستياء لم ينشأ من تعاطفهم مع إخوانهم الفلسطينين المسلمين وحسب- فقد أظهرت أزمة الخليج الأخيرة كم هي واهية أواصر الأخوة تلك- بل إن هذا الاستياء هو شخصي ومباشر لدرجة كبيرة. وبالنسبة للمسلمين فإن دولة إسرائيل تمثل لهم آخر أثر حي يعبر عن تحقيرهم وتجريدهم من إنسانيتهم على يد مستعمرين متغطرسين، وتمثل أيضاً الشاهد الحي على استغلال الغرب الإمبريالي لهم وتلاعبه بمصيرهم، إذ تم زرعها في أرض مقدسة لهم لتحرمهم من مكان كانوا يحجون إليه. ولذلك فإن إسرائيل تعّد مثالاً صارخاً على الازدراء الأوروبي المسيحي واليهودي للإسلام. وبالنسبة لمسلمين آخرين، فإن ذلك يمثل أرض معركة القيامة التي تنذر بقرب نهاية الزمن.

وهذه هي المواضيع التي تحفل بها خطب الجمعة عبر آلاف المساجد الأمريكية، وإن الغليان الإسلامي ينمو ويقوى مع مرور كل يوم؛ ومع استمرار الظلم الفلسطيني فإن هذا الغضب يأخذ معنى بشعاً على نحو مطرد. فبالنسبة لهم، إن اليهود هم من لعنهم الله، وأول من ارتكب المعاصي من البشر، وهم العدو الرئيسي اللدود بالنسبة للمسلمين[٤١]. وغالباً مايستشهد هؤلاء الخطباء ويأخذون بكتابات قامت بها قديماً رعاية شرق أوروبة المعادية والمناوئة لليهود مثل تلفيق كتاب بروتوكولات حكماء صهيون The Protocols of the Elders of Zion. ومنذ فترة ليست بالبعيدة حضرت محاضرة عامة كان يحاول أحد المتكلمين المسلمين فيها أن يقنع بعض الأمريكين بمؤامرة

---

(٤١) لويس، *يهود الإسلام*، ص١٨٥-١٨٩

عالمية شاملة وذلك بمناقشته أن اليهود يتحكمون بأجهزة الإعلام مستشهدين بـ ستيفن شبيلبرغ Steven Spielberg ووودي آلان Woody Allen، وميل بروكس Mel Broooks، وتيد كوبيلTed Koppel كبراهين على حجتهم. إن نهجاً من هذا النوع يبطل السبب نفسه الذي يحاول أن يمثله.

إن أول شيء يجب أن نشدد عليه هو أنه ليس جميع اليهود صهاينة، وليس جميع الصهاينة يهوداً، فبعض أهم الأشخاص الفاعلين والمتكلمين ضد الصهيونية كانوا من اليهود، ويذكر جفريز الكثير من هؤلاء في كتابه[٤٢] . وهناك أيضا الوجه الآخر من العملة وهم مايدعون بالصهاينة المسيحيين. وخير مثال على هؤلاء أناس مثل جيري فولويل Jerry Fallwell وبات روبرتسون Pat Robertson.

وإن مقولات، مثل "اليهود يسيطرون على أجهزة الإعلام"، هي أقوال مبالغ فيها وتعبرٌ عن التعصب وتعطي انطباعاً مفاده أن جميع اليهود الأميريكيين يشتركون في احتكار الصحافة بطريقة غير شرعية. ومن المؤكد أن هناك العديد من المنظمات واللوبيات ذات النفوذ الكبير في الولايات المتحدة ممن يساند إسرائيل ويمارس ضغطاً كبيراً على صناعة المحادثات كما يثبت أعضاء مجلس الشيوخ السابقين بيتر ماكلوسكي Peter MCloskey وبول فندلي Paul Findley؛ ولكنهما يشيران إلى أن هذه المجموعات غالباً ماتتصرف بما ينسجم مع القانون الأمريكي الحالي[٤٣] . إن رسائل الإعلام الإخبارية، وسياسةأمريكا الخارجية، تظهران تحيُّزاً واضحاً حيال إسرائيل؛ ومفتاح السر في ذلك يعود إلى نهج أكثر براغماتية، وذلك عن طريق[٤٤] نشر واقع مزيف في الغرب

---

(٤٢) جيفري، فلسطين: *الواقع*، ص ١١٢-١١٣

(٤٣) بول فندلي، *جرأة الحديث علناً*.

(٤٤) إدوار سعيد، *مسألة فلسطين*.

بالاستمرار على إبقاء غالبية الناس في الغرب مضللين (عن الحقائق). وعندما يعرف كل هذا فإن المهمة التي تواجه المسلمين تصبح واضحة. يجب على المسلمين في أمريكا أن ينظموا أنفسهم سياسياً ويبدؤوا في الحال، ولوعلى صعيد محلي، بأن يعرّفوا إخوانهم من الأمريكين بحقيقة الوضع في فلسطين؛ ويجب عليهم ألاَّ يلجؤوا للتعبير عن حقوقهم بمبالغات جنونية من شأنها أن تدعو للشك أو الارتياب، بل عليهم وببساطة قول الحقيقة التي تصرخ ليرنَّ صداها ناشداً تحقيق عدالة من شأنها أن تدوم طويلاً.

ففي أعقاب أزمة الخليج تلاشى الأمل عند الذين يدعمون الشعب الفلسطيني، فغالباً ماكنا نسمع في تلك الأثناء بمقولات متشائمة، كما يدعي العديد من الصهاينة، ربما من طرف إسرائيل، إنه في المستقبل القريب ومن خلال الاستعمار والقهر المستمرين على أرض فلسطين بأن العرب سوف يطردون من المناطق المحتلة وأن المجموعة الدولية سوف تعترف بأن أرض فلسطين برمتها هي دولة إسرائيل. بل إن كان هناك أي أمل لتحقيق العدالة في فلسطين فإن أولئك الذين يدعمون هذه العدالة يجب ألا يسلّموا أنفسهم لليأس. فمن بين كل الأهداف العزيزة على المسلمين الأميريكين تأتي مسألة تحقيق العدالة في فلسطين في مقدمة الأهداف التي يستطيعون القيام في سبيلها بأثر فعال.

إني لا أوافق على الفكرة القائلة إن الوقت هو لمصلحة الصهيونيين، فمن المعتقد هو أنه مع حلول العام الجديد ٢٠٠٠ فإن غالبية السكان الأميريكيين لن يكونوا من القوفقازيين (العرق الأبيض)؛ وبالنتيجة فإنه لن يكون من المستغرب أن يقف هؤلاء عن طيب نفس مع العرب الفلسطينين على أن يقفوا مع ظلامهم. وعلاوة على ذلك فإن الإسلام هو العقيدة الأكثر انتشاراً في الغرب، ومن المتوقع أن تصبح أكبر جالية دينية في الولايات المتحدة مع نهاية هذا القرن. ولابد لصوت كهذا من أن يسمع. ثالثاً أعتقد أن الرأي العام الأميريكي قد بدأ لتوّه بالتحول بعيداً عن دعم إسرائيل، وكلما أدرك الأميريكيون بأن دولارات

ضرائبهم أساسية لنجاح ارتكاب جرائم بشعة ضد الإنسانية، ازداد تحول الرأي العام عن دعم هؤلاء بسرعة أكبر[٤٥]. وأخيراً، فإن القوة الأميريكية سواء أكانت الاقتصادية أم العسكرية ليست خالدة أو غير قابلة للتحول، فهناك إشارات تدل على أن تلك القوة قد بدأت بالانحدار، في حين أن الأمم الإسلامية تزداد قوة يوماً بعد يوم. وفي النهاية لاشك أن الحكومات الإسلامية سوف تستسلم للديمقراطية؛ وبالنتيجة فإنها سوف تولي اهتماماً أكبر بإرادة الجماهير الذين هم أكثر التزاماً بمشكلة فلسطين من حكامهم الحاليين.

إن الفلسطينين اليوم يدافعون عما يعرف بحل الدولتين، وهذا الحل يدعو لإقامة دولة فلسطينية مستقلة تتشكل من المناطق المحتلة. ولكن هذا يبدو كأنه أقل من إنصاف من نواح عدة، ذلك أنه إنما يعطيهم قطعة صغيرة فقط مما قد تم الاتفاق عليه، ومما كان حقاً شرعياً لهم، ولكنه يمثل رغبة الشعب الفلسطيني ويجب علينا أن نوليه دعمنا الكامل. وإننا نأمل أن إسرائيل سوف تدرس هذا الاقتراح بعناية قبل أن يدور العقرب السياسي في الاتجاه المعاكس، وقبل أن تتلاشى فرصة تحقيق تسوية سلمية بأكملها.

أواصر القربى: لم أكن أعلم أين كان إمام المسجد يقودنا في شاحنة، ولكن بقي عالقاً في ذهني بعض مادار في محادثتنا منذ ذلك الوقت. فقد كنت أتكلم مع صديقي حامد، الذي كان يرافقنا، عن والديَّ، وكان قد سألني إن كانا قد اعتنقا الإسلام أم ليس بعد. وعندما أبلغته أنهما مايزالان مسيحيين ملتزمين، ذكَّرني حامد بأن الأمر بيد الله، إليه يرجع الحكم، وإن رحمته وسعت كل شيء. ولقد قدرت له اهتمامه

(٤٥) لقد حصلت جرائم مروعة من خلال تمويل الحكومة الأميريكية. فأحد هذه المظاهر المروعة حدث في لبنان في أيلول١٩٨٣. وبعد انسحاب منظمة التحرير من مخيمات اللاجئين في صبرا وشاتيلا في بيروت قامت القوات الإسرائيلية بمحاصرة المخيمات وأدخلت قوات من الحزب الفاشي المسيحي اللبناني المعروف بالفلانجPhalange الذين قاموا بذبح ألف فلسطيني من الرجال والنساء والأطفال. واستمر القتل لمدة ست وثلاثين ساعة بينما كان الإسرائيليون يراقبون ذلك.

وانفتاحه. ثم إنه سأل الإمام: ماحكم العلماء حول مصير اليهود والنصارى في الآخرة ياشيخنا؟ " فأجاب الإمام ببرود وهو يركز نظره على الطريق: "كل من مات على غير دين محمد بعد البعثة فهو في النار.

لقد انزعجت كثيراً لدرجة أنني لم أتكلم طيلة الطريق في تلك الرحلة- لا لأني كنت مؤمناً بمقولته، بل لأنها قيلت بصلف وفظاظة بالغتين. لقد كان ذلك بالضبط هو نوع التفكير الذي دفعني أن أغير ديني منذ ماينيف على عشرين سنة خلت.

فخلال شبابي كنت أينما توجهت أجد صليباً قريباً مني، صليباً في كل غرفة من منزلنا؛ صليباً مدلى من مرآة سيارة جارنا الذي كان يصحبنا للمدرسة في سيارته؛ صليباً فوق السبورات في صفوفنا؛ صليباً يتدلى من رقاب الناس وفوق المحراب في الكنيسة، والذي يمثّل صورة رجل بائس كلي الوجود كان قد تلاشى لتوه بعد أن كان قد طلب المغفرة لمضطهديه قبل ذلك بثوان، وفي موته وجدنا توكيداً من المغفرة والحب. وبالنسبة لنا فقد كان ذلك لغزاً لا يمكن حلّه كان يمسك بسر وجودنا، وآلامنا ومعصيتنا. ففي المدارس الكاثوليكية لم يكن هناك أي نقاش عملي حول عقائد الكنيسة، وبالنسبة للأولاد، لم يكن يقدم أي شرح على الإطلاق. كنا نرى في الصورة المرسومة على الصليب مجيء الله والإنسانية معاً ومعهما كل العواطف والآلام والبركات التي تستتبع رمزاً كهذا. وبالنسبة لنا، فإن هذا الموت المأساوي كان بمنزلة الرمز الأبدي لخلاصنا.

وعندما أصبحت ملحداً قذفت بالصليب جانباً. ولكن كان هناك شعور بالضياع الشخصي ذلك أن رموزنا لها من التأثير علينا بحيث إذا مافقدناها نشعر باضطراب في أنفسنا قد لايكون له بديل جاهز. وبعد عشر سنوات من الإلحاد، فقد وضعت

الصليب ورائي بعيداً عني؛ وعندما وجدت الجواب في الإسلام لم يكن هناك شيء في القرآن يجعلني أومن بالصليب ثانية بل في الحقيقة كان الأمر على العكس.

وقد يسبب مثل هذا الأمر مصاعب جمة بالنسبة لأولئك الذين تحولوا عن المسيحية للإسلام مباشرة. وفي الحقيقة أن التفسيرات الدوسيتية Docetic (إشاعة أن المسيح هو إنسان في الجسد فقط) القائلة بإنكار القرآن للصلب والتي وجدت طريقها نحو الإسلام عبر قنوات مسيحية متلاحقة ربما تنبع من هذه الصعوبة التي كان يواجهها بعض أوائل معتنقي الإسلام من المسيحيين. وعلى الرغم من أنه لم يعد بيني وبين رمز الصليب أي رابطة إلا أنني أستاء كثيراً من اختراقات بعض الجهات، كائناً ما كانت، لأنها تلقي بالخبرة المسيحية جانباً، على نحو غير واع في الغالب، أو بنبذ أي خبرة دينية. من هنا فإن معظم الناس لا يتمسكون بعقائدهم (أو بكفرهم) لمجرد المصادفة أو بسبب غبائهم، ذلك أنه أمر ليس سهلاً في الحقيقة، بل بالأحرى بسبب الفراغ واليأس. وأعتقد أنه ما لم نكن مستعدين للاقتراب بعضنا من بعض حول مسائل العقيدة بتعاطف وتواضع عميقين فمن الأفضل أن نترك هذا الأمر للآخرين.

ومن المدهش أن نرى كيف يقبل بعض المعتنقين للإسلام بفكرة علماء المسلمين حول المصير النهائي لأعضاء عائلاتهم ممن لم يسلموا. ذلك أنه في حين أن القرآن ينتقد أهل الكتاب ويصحح عقائدهم في مواضع عدة، إلا أن مصيرهم، كما هو واضح، هو بيد الله. وكما بينت سابقاً فإن القرآن، على خلاف الكثير من المسلمين، يقرّ بأن هناك موحِّدين خالصين بينهم (بين أهل الكتاب)؛ ولكن في الوقت نفسه يحذرنا القرآن بأن بعض عقائدهم مضللة ومؤذية.

ومن المؤكد أن بعض اليهود والمسيحين حسب ماجاء في القرآن هم كافرون وأن بعض عقائدهم خاطئة؛ ولكن يجب علينا أن نؤكد أن القرآن يستخدم باستمرار

كلمات (من أهل الكتاب) في هذه التأنيبات. ولئن كنت ترفض بعناد أو تتحاشى مواجهة الحقيقة فإن هذا أمر مقبول، ولكن أن تكون عاجزاً عن رواية الحقيقة لضيق أفقك فكرياً وثقافياً فذاك أمر آخر، وخاصة إن كانت هناك محاولة جوهرية للقيام بذلك. يجب علي أن أعترف شخصياً أنه على الرغم من التزامي بالإسلام فإن الطريقة التي يمثل بها الكثير من المسلمين عقائدهم لا تعني عندي شيئاً ذلك أن إطار منهجي يختلف عن إطار منهجهم.

وإضافة إلى ذلك فإن علينا أن نعترف وبكل تواضع أنه إذا ماقورنت معرفتنا بمعرفة الله فإن معرفتنا لاتبدو ذات أهمية، وإننا سوف نسأل عن الطريقة التي كنا نستجيب بها الأشياء، وكذلك عما فعلنا بما نعلم وبكل قيودنا. ولقد احتج أحد الإخوة المسلمين ذات مرة قائلاً: إنه إذا ماقبل بوجهة نظري فإنه قد يصبح مسيحياً بحيث لا يحتاج للقيام بالصلاة والصوم. فقلت له: "إنك لم تفهم قصدي ذلك لأنك حين تؤمن بالإسلام فإن عليك أن تستسلم له وإلا فبتخليك عن دينك تكون قد أدرت ظهرك لما تفهمه على أنه هو الحق".

وعلى أيّ حال، فإن القرآن يوضح ذلك في ثلاث آيات تكاد تكون متطابقة في اللفظ (الآية ٦٢ من سورة البقرة، والآية ٦٩ من سورة المائدة، والآية ١٧ من سورة الحج) أنزلت في ثلاثة أوقات متباينة وهو أن الناس من غير المسلمين لن يقذفوا في النار بشكل آلي؛ ولقد شعر المفسّرون من المسلمين الأوائل بإمكان وجود خلاف هنا فخرجوا برأي مفاده أن اليهود والمسيحيين المشار إليهم في هذه المواضع هم الذين عاشوا قبل بعثة محمد. ومهما يكن فإنه لاالقرآن ولا أحاديث الرسوْل تسوغان هذا التفسير.

صحيح أن القرآن يصر على أن الله لن يقبل أي دين آخر سوى الإسلام (الآيتان ١٩ و٨٥ من سورة آل عمران) ولكن علينا أن نتذكر ان كلمة (إسلام) زمن التنزيل

لم تكن لتدل على نظام متطور متكامل من القوانين والمبادئ العقائدية. فالعرب كانت كلمة (إسلام) عندهم تعنى الاستسلام أو الخضوع الكامل وفي المواضع التي ترد فيها من القرآن فإنها تشير إلى الاستسلام عن طواعية وإخلاص إلى الله، وهذا هو جوهر كل عبادة خالصة لله. ولسنا في وضع لنحدد مقدار اعتماد كل عقيدة على هذه النية، ففي هذه المسائل يجب علينا أن ندع الأمر لله في حكمته ورحمته اللامحدوتين وذلك في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢/٦٢]

أفكار الافتراق

كان غرانتGrant يعيش في ضواحي منطقة ميشن Mission District، وهي إحدى الأحياء الفقيرة في سان فرانسيسكو حيث استأجر الطابق الأرضي لبيت قديم جداً مؤلف من طابقين. ولقد عاش في هذا البيت منذ مايزيد على العقد من الزمن وبفضل (قانون) ضبط الآجار فقد كان البيت رخيصاً على الرغم من أن الحي كان في حالة تدهور بشكل مضطرد.

وعلى بعد بناية من شقته ومن الشارع الرئيسي يقع مركز سان فرانسيسكو الإسلامي، والذي لم يكن في أفضل أيامه السابقة سوى مستودع. واذا لم يصادف أن تلاحظ اللوحة الصغيرة فوق المدخل الجانبي فربما تخطئ المركز معتقداً أنه مستودع حقاً.

وكان غرانت يمر بجانب المركز كل يوم في طريقه إلى موقف الباص، لذا فقد كان يعرف بوجوده؛ وسبب قدوم العديد من رجال الهند والباكستان والشرق الأوسط وهم يرتدون الزي التقليدي إلى هذا المكان. وإن افتتانه بالديانات قاده مرة لزيارة المركز، وبالتالي فقد اعتنق الإسلام إذ لم يكن ليرضيه إلا أن يجرب الدين بحق. ومع ذلك وكما هو الحال دائماً، فقد سلك ذلك بحذر، وقد قام بعدة زيارات للمسجد قبل

أن ينطق بالشهادة، فقد كانوا يحذرونه قائلين "من الأفضل لك أن تفكر على مهل قبل أن تقرر بشكل نهائي، لأن جزاء الارتداد عن الإسلام الموت".

ولقد قابلت غرانت بعد أسبوع من اعتناقه للإسلام وكان ذلك بعد ثلاثة أسابيع من اعتناقي للإسلام، وفي ذلك الوقت كان غرانت ثاني شخص أمريكي مسلم أبيض رأيته. وبعد ستة أشهر تخلى عن إسلامه، ثم عاد إليه بعد عام ليرتد ثانية وينضم إلى ديانة السيخ Sikhs لأمد محدد، ثم أصبح بوذياً Buddhist.

وقبل اعتناقه للإسلام كان قد جرب عدة ديانات أخرى كالكاثوليكية والأرثوذوكسية الروسية وكذلك اليهودية. وهاهو ذا في موقع حرج ثانية، فقد كان يقول دوماً «: إني أغير من الديانات أكثر مما أغير جواربي»، ولكن بالنسبة لـ(غرانت) لم يكن ذلك نكتة على الإطلاق، بل بالأحرى قبولاً بإخفاق تلو الآخر ليشبع حبه لله وليجد الجالية التي يستطيع أن يدرك من خلالها ذلك الحب ويعيش فيه. وقد كان من دأبه أن يقول: "إن الإسلام يمتلك أفضل ديانة، ولكن أسوأ معتنقين" مقتبساً بذلك أحد الكتاب المسلمين المشهورين. لم أكن لأوافقه تماماً، ولكنني لم يكن عندي أمل كبير في الإنسانية على أي حال. ومع ذلك فإن المجتمع الديني بالنسبة لـ (غرانت) كان مهماً بدرجة أهمية إيديولوجيا الديانة (نفسها).

وخلال فترة اعتناقه للعديد من الديانات كنا أصدقاء، فقد كنا نتناول الغداء معاً سواء قبل زواجي وبعده، وكانت تتركز محادثتنا بشكل كلي تقريباً حول الدين. فصداقتنا القوية مع مسألتي. ارتداده عن الإسلام وعدم قدرته على الثبات على ديانة محددة كل ذلك جعلني أشك وأمتحن التزامي باستمرار وعلى نحو دقيق. وأما لي فقد أصبح غرانت قائداً روحياً، يطرح علي أسئلة لم أكن أفكر بها، ولكنني كنت أحتاجها، لتجبرني ومن غير قصد لكي أغوص لأستكشف في أعماق نفسي. لقد كان

مرشدي الروحي وكان دليلي العفوي ذا العينين الزرقاوين والذهن الحاد والفطن الذي كان يدفعني في تناقضات عدة. فكرت في نفسي كيف سيكون الأمر في غيابه بينما كنت أعبر بسيارتي نحو المخرج الذي يؤدي بنا إلى بيته، فقد كان يقول: من العسير جداً أن تخدم الله من العسير أن تخدمه بحق.

لقد كان اندفاعي الأول أن أوافقه الرأي، ذلك أن الخط الفاصل بين خدمة الله وأنفسنا متناه بالدقة لدرجة كبيرة، وكنت أقول له: «ربما نحن أكثر مطالباً منه، ربما يريدنا الله أن نستمر في المحاولة».

إن الليل يبعدك، عن التشتت؛ ويجعلك أكثر حساسية. فقد كان الوقت بعد منتصف الليل وكنت مضطجعاً في فراشي على شقي الأيمن، وكانت يدي اليمنى مدسوسة تحت الوسادة التي كنت نائماً عليها، ولم أستطع النوم بسبب سؤال يخطر لي دوماً حول العدالة الإلهية. وفجأة انتابني إحساس مخيف أن هناك شيئاً ما مختلفاً، رقدت واجماً بلا حراك متنبهاً للشعور بأدنى حركة.

لقد تلاشت همسات الليل ليحل محلها السكون التام. بدأ إحساس غريب يتملكني، في البدء كان خفيفاً ثم على شكل شعاع قوي، ولكن دون أي تحول واضح شعرت وكأني أتبخر إلى عدد لا متناه من الذرات الصغيرة التي تماسك بعضها مع بعضها الآخر بفضل قدرة طاقة كبيرة. انتظرتها كي تزول، ولكنها ازدادت تركيزاً بعد تركيز لدرجة فكرت من خلالها أن هذه لابد نهايتي. لقد استهلكني الخوف والرعب والحنين لقد تجمد جسدي ليصبح سجين التوقعات.

لقد بدا الحضور كبيراً خلفي وفوق كتفي. مددت يدي اليسرى ببطء في الظلام دون أن أجرؤ على إبعاد رأسي عن الوسادة لأنظر للخلف. ومع تصاعد القدرة شعرت بغمرة من الحب تذيبني موجات من العاطفة. شعرت بالحرية فتبددت مقاومتي،

فهمست في نفسي لأسرتي «من فضلكم اهتموا بناتي وبزوجتي!». ثم عدت إلى حالة من الهدوء، وأخذت أسمع طنين جداجد الليل خارج غرفة نومي وصوتاً هادئاً لسيارة كانت تمر نزولاً بشارعنا. حاولت أن أفسر ماقد حصل لي لتوه. فشعرت بالأمان والرعاية وبإحساس من الشوق العميق والخيبة في نفسي. وحتى هذا اليوم لم أقدر على تذكر الموضوع الذي كنت أفكر به.

(قال غرانت): «أحب الله بحق ياجيفري».

(فقلت له): «أعلم أنك تحبه ياغرانت؛ لم أعرف أحداً كان يبحث بمثل عاطفتك».

مررنا بالشارع وكان المركز الإسلامي عن شمالنا، ثم انعطفنا يميناً باتجاه شارع أوغدن Ogden Street.أوقفت السيارة أمام شقة غرانت موجهاً عجلات السيارة نحو حجر الرصيف.

هناك من الناس من يستطيعون أن يعبّروا عن أنفسهم دون أدنى جهد. إذ بمقدورهم أن يأسروا وينظموا ويحللوا ويفسروا ويربطوا مايشعرون به في وقت واحد فقط. لم أفكر بايّ كلمات فراق بيننا، فلو أنني فعلت ذلك لكنت أخبرت غرانت كم كنت سعيداً بمعرفتي به؛ وكم أنني استفدت من صداقتنا معاً؛ وأنني كنت أتطلع قدماً للقائه في كانساس Kansas– فالمكان الجديد فيه فرص جديدة– وإنني سوف أتذكره دوماً.

فالحلم الذي رويته في الفصل الأول كان يؤازرني خلال الاضطرابات الطويلة والشكوك التي صاحبت تحولي إلى الإسلام. فقد تعودت أن أسرد قصة هذا الحلم لنفسي وللآخرين؛ ثم إني دوّنته كيلاأنساه أبداً، وبحيث كنت أعود اليه دوماً كسند لي. ومع الزمن ساعدني ذلك على قراءة القرآن بشكل يومي ولقد حل القرآن محل ذلك الحلم بدعوته السماوية الآسرة.

وكلاهما مازالا مهمين بالنسبة لي، ولكن تجربة محبة الله في الصلاة والتأمل تفوق

ذلك كله؛ ومع ذلك فإني مدرك دوماً أن لي نقاط ضعفي وتقصيري: إنـي أعلـم الآن أني إذا مافقدت ا لله ثانية فإنني بالتأكيد سوف أفقد كل شيء، وإني أدعو مع رابعة العدويـة: «إلهي هل صحيح أنك سوف تُحرق قلباً يحبك كثيراً؟» وإني أجد عزاءً في جوابها.

قدت غرانت إلى درج شقته وقلت له مودعاً إيّاه «احرص على نفسـك وابق على صلة معي». لقد كان شيئ مافي داخلي يقول لي-ويقول لـ غرانت أيضاً-: إننا لـن نـرى أو نسـمع بعضنا من بعض ثانية. ومع السنين حاولت الاتصال به والكتابة إليه، بل وطلبت من أصدقاء لي كانوا يسكنون الحي نفسه أن يجدوه ولكن عبثاً. قال لي وهو يبتسم مودعاً: السلام عليكم ياجيف. فأجبته قائلاً: وعليكم السلام ورحمة ا لله عليك سلام ا لله ورحمته دوماً.